

خالص جلبي

في علم الأنثروبولوجيا

السير على خطى الإنسان

تاريخ الإنسان غير المكتوب

مدارك

سلسلة في العلم والسلم

(في علم الأنثروبولوجيا)

السير على خطى الإنسان

(تاريخ الإنسان غير المكتوب)

خالص جلبي

الكتاب:**السير على خطى الإنسان**

(تاريخ الإنسان غير المكتوب)

المؤلف: **خالص جلبي**

التصنيف: **أدب**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: 0000

الطبعة السابعة: فبراير (شباط) 2012



دبي: مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي – الإمارات العربية المتحدة

P.O. Box: 333577 Dubai - UAE

Tel: 00971 4 361 5177 – Fax: 00971 4 361 5178

بيروت: فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت – لبنان

P.O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon

Tel: 00961 1 282075 Fax: 00961 1 282074

الأنثروبولوجيا التاريخ غير المكتوب للإنسان

في شهر مايو من عام 1978 صدرت مقالة علمية في مجلة «العلم» (SCIENCE) الأمريكية، وهي أهم مطبوعة علمية في الولايات المتحدة، أحدثت هزة في التفكير الإنساني في فهم تاريخ الإنسان على الأرض، فقد قدم عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي «دونالد جوهانسون» –بعد عمل شاق استغرق خمسة أعوام– الدليل من الحفريات التي جمعها من مثلث «عفار» شرق الحبشة في منطقة «هدار» ومن الموقع «333» عن أقدم كائن بشري يمشي منتصباً، ويعود إلى فترة تصل إلى ثلاثة ملايين و750 ألف سنة مع إمكان الخطأ بمائة ألف سنة([1]).

قصة لوسي (LUCI)

عندما نقرأ كتب التاريخ فإننا نقرأ في الواقع ما «كُتب»، فالكتابة هي التي حفظت الأحداث التاريخية في جوفها (كما عُثر على مكتبة آشور بانيبال التي تحوي 25 ألف لوح بالخط المسماري) ([2]). والكتابة كيان حديث العهد، فالإنسان نطق قبل الكتابة، وبنى الحضارة قبل الكتابة، وعندما دخل مرحلة الثورة الزراعية لم يكن هناك لوح واحد مكتوب، والسؤال الذي كان يقض مضجع المؤرخين والمفكرين عموماً هو: كم أصبح للإنسان على وجه الأرض؟ منذ متى بدأ يدب عليها؟ منذ متى بدأت الحياة على وجه الأرض؟ كم عمر الأرض؟ منذ متى يعمل النظام الشمسي؟ بل ما سرّ هذا الوجود كله؟ وهل له بداية؟ وإذا كانت له بداية فكيف ومتى بدأ وكم عمر الكون عموماً؟؟

ما هي الطريقة المستعملة لمعرفة عمر طبقات الأرض والحفريات؟

عندما نفتح كتب التاريخ نشعر بالنقص في معرفة البدايات، والسر في هذا هو قصور الأدوات المعرفية التي استخدموها قديماً، إلى درجة أن شرَّاح العهد القديم وضعوا عام 4004 قبل الميلاد أنه البداية الفعلية للكون وبداية التاريخ الإنساني، إلا أن الكشف الأنثروبولوجي([3]) أظهر أن حياة الإنسان تتوغل في القدم في مرحلة ما قبل التاريخ (المكتوب) إلى زمن سحيق. ويبقى السؤال: كيف يمكن معرفة عمر طبقة من البازلت أو الفحم أو عمر شجرة، فضلاً عن مستحاثة لهيكل عظمي كالذي تم كشفه في هيكل لوسي؟

لقد طور العلماء وسيلة غير مباشرة عن طريق دراسة المواد الإشعاعية في طبقة ما والتي تحوي العظام، فكلاهما عاش نفس المرحلة الجيولوجية، مثل مادة «البوتاسيوم 40» التي تتحلل

وبفترة معروفة إلى مادة الآرغون، فإذا استطاع العلماء حساب الكمية المتولدة من التحلل الإشعاعي، ونسبة التحلل وسرعته، أمكن تحديد عمر الطبقة الأرضية التي وجد فيها البوتاسيوم، وهكذا وعن طريق نظام التحلل الإشعاعي أمكن معرفة عمر طبقات الأرض، وبالتالي عمر العظام المحفوظة فيها (الحفريات – FOSSILE).

في 3 نوفمبر (تشرين ثاني) من عام 1974 عثر الأنثروبولوجي الأمريكي «دونالد جوهانسون» مع مساعده «توم غراي» على ضفة نهر «أواش» في منطقة «هدار» على بعد 240 كم شمال شرق العاصمة الإثيوبية أديس أبابا، وفي جو يغلي بحرارة 43 مئوية، على بقايا لهيكل إنساني لأنثى كانت تمشي منتصبة، وخلال ثلاثة أسابيع من العمل المتواصل أمكن جمع حوالي 40% من هيكل كائن واحد، وبفحص عمر العظام في مركز «كليفلاند» للأبحاث الجيولوجية؛ أدركوا أنهم أمام أقدم كائن بشري عرف حتى ذلك الوقت.

وإذ عمتهم الفرحة لهذا الاكتشاف التاريخي بقوا طول الليل يكررون أغنية البيتلز «لوسي في السماء ومعها ألماس» لهذه الأنثى التي غيبتها طبقات الأرض قبل حوالي أربعة ملايين من السنين؛ فأعطوها اسم «لوسي» وأصبحت علماً على هذا الاكتشاف المثير.

الانتصاب حرر اليدين فبنى الإنسان الحضارة

ولكن هل فكرنا قليلاً بميزة امتشاق الجسد والانتصاب على قدمين عند الإنسان؟ تلك التي أشار إليها القرآن: {وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ}([4]).

إن الوقوف أعطى الحرية لليدين، وبتحرر اليدين بدأ الإنسان في صنع الأدوات والدخول في بناء الحضارة. فالحضارة هي مزيج الفكر واليد كما انتبه إلى ذلك ابن خلدون، حين أشار في مقدمته الشهيرة إلى عاملَي «الغذاء والدفاع عن النفس» كضرورات بيولوجية لوجود الإنسان في المجتمع، فلا يوجد إنسان بدون مجتمع «ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضو يختص بمدافعته، وجعل للإنسان عوضاً عن ذلك كله الفكر واليد، فاليد مهيأة في الصنائع بخدمة الفكر»([5]). بل إننا نجد في البيولوجيا الشيء العجيب؛ فخارطة «قشر المخ» فيها منطقة كبيرة للفم ومناطق الكلام أكثر من حركة الفخذ مثلاً، كما أن مناطق التحريك العصبي للإبهام أكبر من حقل بقية الأصابع بسبب أهميته، ونحن نتميز بقشرة المخ بالدرجة الأولى؛ أكثر من بقية مناطق الدماغ التي نشترك فيها مع الحيوانات، والغوريلا أثقل منا بثلاث مرات ولكن دماغنا أثقل من دماغه بثلاث مرات، فدماغه يصل حوالي 500 غرام ووزنه يصل إلى ما يزيد عن مائتي كغ،

في حين يزن دماغنا حوالي 1.5 كغم (ثلاثة أرطال أو بالمتوسط 1500غرام) وجسمنا في المتوسط 70 كغ، وهكذا فبتفاعل قشر المخ مع اليدين أمكن للإنسان شق الطريق للحياة الإنسانية المتطورة في حين كُبِّلت بقية الكائنات باستخدام يدها فيزيولوجياً.

بين الكوسمولوجيا والبيولوجيا والانثروبولوجيا([6])

وإذا كان عمر الكتابة خمسة آلاف سنة، وبدايات تاريخ الإنسان غير المكتوبة بدأت منذ حوالي 3.5 مليون سنة، فكم يا ترى عمر الحياة وكيف بدأت؟ يعكف علماء الحياة اليوم على تقصي التاريخ الطبيعي.

إذا كان للإنسان تاريخ (إنساني) فإن للطبيعة تاريخها الخاص، والمعلومات الأولى التي شق العلم الطريق إليها أن بدايات الحياة تمتد إلى حوالي 3.8 مليار سنة، ولعلها بدأت بالخلايا الوحيدة التي لا تحتاج الأكسجين، ثم قفزت الحياة إلى مرحلة الخلايا الوحيدة التي تستخدم الأكسجين، قبل أن تظهر عديدات الخلايا التي تنتهي عندنا، حيث يمثل الإنسان قمة الخليقة، ويمثل الدماغ البشري قمة القمة لتجلي الخلق العجيب، وأما عمر أمنا الأرض فيصل إلى حوالي 4.6 مليار سنة، وإذا قارنا بين بدء الحياة قبل 3.8 مليار سنة وعمر الإنسان وهو يدب على الأرض ب 3.5 مليون سنة، وإذا عرفنا أن المليار هو ألف مليون، كان معنى هذا أن كتاب تاريخ الخلق يتشكل من مجلد ضخم يبلغ ألف صفحة، تنفرد فيه الصفحة الأخيرة برواية الخلق الإنساني، كما أن الملايين الثلاثة والنصف من السنوات هي تلك الفترة غير المذكورة من الحياة الإنسانية غير المكتوبة، لأنه لا ذكر بدون كتابة، والكتابة لم تتشكل إلا منذ فترة قصيرة هي خمسة آلاف سنة فقط، أو على حد تعبير القرآن: {لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً}([7]). ويبقى عمر النظام الشمسي في حدود ثمانية مليارات من السنين، وأما عمر الكون كله فالأرقام حسب نظرية الانفجار العظيم تصل إلى 13.7 مليار سنة حسب أحدث نقولات التلسكوب «هابل» الكوني.

الإنسان قبل عشرة آلاف سنة

بقي الإنسان في معظم تاريخه «شيئاً غير مذكور»، فحتى قبل عشرة آلاف سنة كان يطارد الوحوش والوحوش تفترسه، وكانت أعداد البشر قليلة، وباكتشاف النار حصل انعطاف حاسم في تاريخ الإنسان لأنه خرج من المنطقة الدافئة في أفريقيا لينتشر في الأرض، فامتد جنسه إلى كل المعمورة. وبقي في هذه الفترة يعيش على الصيد وجمع الثمار، وكان يمكن أن يبقى هكذا حتى يومنا الحالي. ولكن الذي أحدث أعظم انعطاف في تاريخ الجنس البشري هو المرأة؛ ففي الوقت الذي كان الرجل يطارد الفرائس، كانت المرأة تجلس لرعاية الصغار، فاكتشفت آلية عمل النبات،

فهذه الآلية الخفية والبطيئة والمتدفقة في كل لحظة تحتاج إلى الهدوء والنعومة والتأمل والاستقرار والحب، وكلها من صفات الأنثى، وبذلك شقت الطريق إلى أمر في غاية الخطورة وهي الثورة الزراعية، فلماذا كانت الثورة الزراعية بهذه الخطورة وماذا تولَّد منها؟

انعطاف التاريخ الإنساني في الثورة الزراعية

عندما انتبهت المرأة إلى أهمية الزراعة قفز الإنسان من مرحلة أن يعيش ليومه، مهدَّداً بالمجاعة في كل لحظة، إلى مرحلة التحكم بالغذاء، فالزراعة أحدثت فائضاً بالغذاء، وهذا قاد بدوره إلى خلق مجتمع المدينة وتجمع البشر وزيادة السكان، وتقسيم العمل وتشكل الاختصاصات، وولادة الدولة والنظام السياسي، ومع ولادة مجتمع المدينة تشكلت المجتمعات البدائية الأولى التي كانت نقاط التخمر الأولى لولادة الحضارات. فالثورة الزراعية دُشنت قبل حوالي تسعة آلاف سنة، في حين لم تبدأ مسيرة الحضارات إلا قبل ستة آلاف سنة، على النحو الذي كشفت عنه الحفريات التي تمت في مدى المائة سنة المنصرمة. ولقد أحصى المؤرخ البريطاني «توينبي» ما يزيد عن ثلاثين حضارة انبثقت من أصل حوالي ستمائة مجتمع بدائي. أما لماذا انبثقت الحضارة من مجتمعات بعينها، في الحين الذي عقمت مجتمعات أخرى عن إنجاب حضارة فهذا لا يزال تحت تفسيرات متنوعة. ولكن الشيء الأكيد أن ولادة الحضارة الإنسانية تمت ومعها أمراض «كروموزومية» تماماً مثل أخطاء التشكل الولادية، ومنها بناء المجتمع على النمط الذكوري.

العنف والنمط الذكوري

مع ولادة الحضارة ولدت ظاهرة الحرب، والحرب شيء مريع حقاً، وهي ظاهرة إنسانية، فالحيوانات لا تشن الحروب المنظمة في العادة. وإن الإنسان ليدهش عندما يرى قتل الإنسان لأخيه الإنسان، والحرب أفرزت بدورها مرضاً لا يقل شقاءً وهو «الرق»؛ فالحرب والرق كانا منذ بزوغ الحضارات مرضان لعينان، استطاع الجنس البشري التخلص من الأول وهو في طريقه للتخلص من الثاني. وإذا كان مرض الرق ولد ك «اختلاط ومضاعفة» من مرض الحرب، فإن السؤال يطرح نفسه: ولماذا ولد مرض الحرب بالأصل؟؟ وهل يجب أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان؟؟ فالحرب تقوم على الإفناء المتبادل وسفك الدماء، وكانت هذه التهمة هي التي وجهت للإنسان من قِبَل الملائكة {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}([8])، حتى لم تتهم الملائكةُ الإنسان بالكفر بقدر اشمئزازها من القتل الذي سيمارسه!! فأين يكمن جذر العدوانية والعنف في الجنس البشري؟؟ لقد درس علم الأنثروبولوجيا عبثاً هذه الظاهرة من خلال دراسة الفروق البيولوجية بين الذكر والأنثى، واستطاع أن يضع بعض الفروق الجوهرية؛ فالبنات يملكن قدرة كلامية أفضل، ولذا فالتليفون هو

جهاز أنثوي، والمرأة عندها قدرة أفضل في إثارة مواضع البحث والنقاش ويميل الرجال للصمت أكثر، ويتفوق الأولاد الذكور في القدرات الفراغية والرياضية والحسابية، ولكن الشيء الذي يرجحه علماء الأنثروبولوجيا هو عدوانية الذكور أكثر، ويقرنونه بهرمون الأندروجين الذي يفرزه جسم الذكور (كذا!!). وأمام السيطرة الذكورية في المجتمع يطرح صاحب كتاب «بنو الإنسان» بيتر فارب هذا السؤال: «ما هو السر في كون الأدوار الوظيفية العليا والمراكز المرموقة في المجتمع من نصيب الذكور دوماً؟؟»([9]).

من المهم أن نعرف أن هذا الوضع هو عالمي قبل كل شيء، فالحضارة دُشنت منذ أن بدأت رحلتها الأولى بموجب «قالب ذكوري»، حيث تحولت المرأة إلى الشريحة المستضعَفة، ومن الغريب أن المرأة هي التي تحمل الذكر في بطنها وهي التي تدفع به إلى الحياة، وهي التي تغذيه وتربيه، وبإمكانها أن تقلب هذا النظام من خلال التربية وفي مدى جيل إلى جيلين إلى صالحها ولكنها وللغرابة لم تفعل ذلك، فلماذا؟؟

يقوم الأنثروبولوجي «بيتر فارب» بتحليل لطيف، خلاصته أن المرأة هي التي أوجدت هذا النظام لتحمي نفسها ومجتمعها من الإبادة من المجتمعات العدوانية الأخرى، ولكن –وهي آلية ذاتية– طالما وجد هذا النظام فإنه يكرر إنتاج نفسه دوماً.

يقول فارب: «ولعل أكثر التفسيرات انسجاماً مع المنطق والتحليل هو الذي يرجع أصول سيادة الذكر إلى العراك الجسدي والمصارعة، فالإناث باعتبارهن المتحكمات في تربية الصغار بوسعهن تحويل الجيل القادم.. ولكن هذا يعني أن ذلك المجتمع سيجد نفسه عرضة للإبادة من مجتمعات مجاورة تعتمد على الذكور في القتال. ويبدو أن هذه الحقيقة كانت واضحة في أذهان الإناث منذ أن خلق الله الإنسان.. ومن المؤكد أن الإناث قد وصلن إلى هذا الوضع دون أن يعِينَ ذلك.. وبمجرد أن أعطي الذكور المركز المرموق كمحاربين أصبح ذلك النظام بالضرورة يكرر نفسه تلقائياً، وصار لزاماً على المجتمع أن يشجع العدوان في الأطفال الذكور، كما كان عليه أن يكافئ المحاربين الناجحين، ولعل أبسط طرق المكافأة هي إضفاء هيبة كبيرة عليهم وإعطائهم ميزات متعددة منها ميزات جنسية. وحتى يكون ذلك ممكناً لا بد أن تربى الإناث على الخضوع والسلبية»([10]).

إذاً فالنتيجة التي وصلنا إليها أن عنصر «الثقافة» هو الذي يشكل العدوانية، فلا زيادة هرمون الأندروجين يكرس العنف، ولا انتشار هرمون الإستروجين الأنثوي ينشر نعومة «تاتشر»!! وهذا ما وصلت إليه باحثة انثروبولوجية هي «مارجريت ميد»([11]) عندما درست ثلاثة مجتمعات

متقاربة في غينيا الجديدة، في مدى مائة ميل من الأرض، ومن الغرابة أن المجتمع الأول مسالم بذكوره وإناثه، والثاني من أكلة لحوم البشر هو النقيض للنقيض من المجتمع الأول، في حين أن المجتمع الثالث من صيادي الرؤوس يقوم ذكوره طول النهار بممارسة الغزل والزينة والتعطر واختيار الملابس والعزف على المزمار، على عكس الإناث اللواتي يحملن معظم أعباء المجتمع. فالثقافة ونظام الفكر السائد هو الذي غير مجتمع عن آخر يسكن نفس الأرض. فالمرأة هي التي تحمل المسؤولية التاريخية الآن في تغيير نظام الفكر عند الطفل، حتى نتحرر من ثقافة الحرب والبطولة وتكديس السلاح. ومن خلال تدشين ثقافة العنف واختلال المجتمع في اتجاه «قوة العضلات»، فإن المجتمع تلون بكامله بهذا اللون الذكوري، والمؤسسة العسكرية في العالم هي النموذج المثالي للروح الذكورية «التي تعتبر نموذجاً لجميع المؤسسات الأخرى، وتقوم على الطاعة غير المشروطة، وتنتزع من الإنسان بعده الإنساني الخاص، أي ذلك البعد المتسم بالاستقلال الواعي والمبادرة والمسؤولية، والذي بدونه لا يكون التجمع الإنساني الخاص... إن هذا الاختراع الذكوري المحض يقوض، بمقتضى المبدأ نفسه الذي يقوم عليه، كل إمكانية حقيقية للدفاع، أي الدفاع عن استقلال الشخص ضد أي اقتحام خارجي وأي اضطهاد داخلي... ومركزية العنف العسكرية هي نموذج لجميع أشكال المركزية الأخرى الأبوية والبيروقراطية والإدارية والبوليسية، وحتى التربوية والثقافية»([12]). فلا غرابة من النتائج المأساوية لسيطرة الروح العدوانية اندلاع الحروب الذي لا يتوقف، والذي قد ينهي الجنس البشري في حماقة كبرى. يبدو إذاً من خلال هذا الطرح أن العالم قد رُكِّب على تشوّه جنيني حضاري مريع، ساهمت المرأة من غير وعي منها في تكريسه، لأن مفتاح تغييره ما زال بيدها، فهي ما زالت –لحسن الحظ– تحمله في رحمها، فهي خزان الرحمة واللطف، والمشرفة على تربيته وتكوينه النفسي والأخلاقي، وما زال إنجاب المرأة للأنثى مصدر عيب وضعف في كل العالم، لذا فإن العالم ما زال ينتظر تعديل هذا الميزان الكوني مرة أخرى لتخرج المرأة من أشياء الرجل وملكيته، لتصبح النفس الإنسانية التي بشر بها القرآن:

{خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، ودخول المرأة هذا الميدان باستقلال، ليس في تقليد الرجل، ولا كوسيلة بيده، أو كإفراز من خلال مؤسساته، ، بل النصف الثاني الشريك الكامل، والنوعي المستقل، عند ذاك ستسود ثقافة الرحمة وستزول ثقافة البطولة، ستقف طبول الحرب عن القرع، وسيكف الإنسان عن سفك الدماء فيحقق عن جدارة «علم الله فيه».

الكشف عن أقدم إنسان

(عثر في كينيا على بقايا عظمية متحجرة لأقدم إنسان عرف حتى الآن، ويعود إلى ستة ملايين من السنين،

أخذ لقب إنسان الألفية «Man Millennium»)

قالت «بريجيت سينوت» (Senut Brigitte) عضو فريق البحث في المؤتمر الصحفي الذي عقد في العاصمة الكينية في ديسمبر (كانون الأول) من عام 2000، وهي تعمل في المتحف الطبيعي في باريس قسم الباليونتولوجيا: «إن ما عثرنا عليه لا يعتبر فقط الأقدم الذي كشف عنه حتى الآن، بل يلقي الضوء على المرحلة التطورية المتقدمة التي قطعتها فصيلة الإنسانيات (Homonid)». هذا الكشف الذي أعلنت عنه مجلة در شبيجل الألمانية، في عددها 50 العام 2000، أخذ مؤقتاً اسم «إنسان الألفية» (Man Millenium) لأنه جاء مع الدخول في الألف الثالث بعد الميلاد، كما أنه يحقق قفزة زمنية مذهلة عن أقدم إنسان تم الكشف عنه حتى الآن بزيادة مليون ونصف سنة عما حققه الأنثروبولوجي الأمريكي «تيم وايت» (White Tim) حينما كشف عام 1994 في حوض «أواش» الأوسط في أثيوبيا عن إنسان يافع عاش قبل 4.4 مليون سنة أعطاه اسم «الإنسان القادم من الأرض» (Ramidus Ardipithicus). وكان هذا الرقم هو أعلى رقم وصله سباق الأنثروبولوجيين. كان تيم وايت يومها بارعاً في تعبيره حينما قال: «لقد اقتربنا في الوصول إلى جذور الإنسان الأولى التي هي على الأرجح بين خمسة وسبعة ملايين سنة». جاء في التقرير العلمي أن هذا الإنسان كان يعيش في تلال «توجن» (Hills Tugen) يطل بنظره على البحيرة التي تواجهه، ويتغذى من خشاش الأرض ومما أفاء الله عليه من ثمار الغابة. كان يذرع الأرض ذهاباً وإياباً بقامة منتصبة، ومسلحاً بأذرع جبارة تسهل عليه تسلق الشجر والقفز فوق أفنانها، ولكن حركاته كانت في غاية الحذر والخوف أمام أعداء من جيران الغابة لا يرقبون فيه إلاً ولاذمة. كانت المنطقة غاصة بأصناف شتى من الحيوانات المفترسة بين وحيد قرن غاضب ونمر شارد ولبوة تتربص به ريب المنون. كان هذا المخلوق يمشي قبل ستة ملايين من السنين بجلد مغطى بشعر كثيف في منطقة «بارينجو» (Baringo) من كينيا الحالية، ومع نبش عظامه الراقدة بهدوء كل هذه الأحقاب الطويلة تمت مفاجأة العالم بقرينة مادية جديدة عن إنسان مجهول من أسلافنا الأوائل حفظته الأرض لينطق بدون لسان. كانت البقايا العظمية المتحجرة التي تم انتشالها من طبقات

الأرض العميقة من وادي «ريفت» (Valley Rift) مكونة من قطعتين لفك سفلي وثلاثة عظام فخذية قوية بحال سليمة. وأظهر العديد من أسنان القواطع والطواحن تشابهاً مثيراً مع أسنان البشر الحاليين. قالت السيدة «سينوت» مع زميلها «مارتن بيكفورد» (Pickford Martin) من فريق البحث العلمي الفرنسي الكيني الذي عرض النتائج: «يبدو أننا أمام فصيلة إنسانية جديدة». ولو ثبت هذا الاستنتاج فسوف يكون «إنسان الألفية» الحدث الأكثر إثارة في تاريخ «الباليو – أنثروبولوجيا» (Paleoanthropology) حتى الآن. وللتأكد من عمر العظام فقد تم إرسال عينات الفحص إلى مختبرين مستقلين لتعيين عمر «الأحفور» (Fossile) وكانت النتيجة صاعقة: ستة ملايين من السنين. وهذا يعني حسب علماء «الكود الوراثي» أن إنسان الألفية كان يمشي على قدمين في أفريقيا في الوقت الذي تصل فيه تحليلات الجينات بين الشمبانزي والإنسان والتي لاتزيد عن 1% أن كلا الكائنين انشقا في هذا الوقت الضارب في غياهب الزمن من كائن سابق لهما. ومن الضروري أن نعلم أن أبحاث الأنثروبولوجيا والباليونتولوجيا تقرر اليوم أن الكائنات مرت في رحلة تطورية، ومع كل مرحلة كان يخرج كائن أشد تميزاً. وفي النهاية انشقت فصيلة الكائنات الإنسانية (الهومونيد) والتي شقت طريقها لوحدها، ولم تأتِ من القرود كما يظن البعض، بل إن هذه الكائنات والقرود خرجت من كائن بدائي سابق لهما لعله «مفترس الحشرات». وإذا نظرنا إلى خريطة الخلق الإلهي لوجدنا برمجة في غاية الجمال، حيث يخرج من كل غصن كائن جديد. وأما القرود فقد خرجت بدورها على دفعات وبأغصان شتى من شجرة الخليقة، منها قرد الأوتان أورانج والغوريلا، أو في دفعتها الأخيرة الشمبانزي الذي يعود إلى حوالى سبعة ملايين من السنين. إن هذه المعلومات أحدثت ما يشبه الزلزال حينما عرضت للمرة الأولى في أوروبا عام 1859 حينما صدر كتاب «أصل الأنواع» لداروين، وكان بدائياً جداً، وكان داروين سيصاب بحسرة شديدة لو بعث فرأى إلى أين وصلت العلوم. ولم تكن حزمة العلوم الإنسانية المساعدة قد تطورت بعد مثل «الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا والباليونتولوجيا وعلم الألسنيات» أو مثل «تقدير عمر الأحافير» بتقينة الكربون 14، أو تحول البوتاسيوم إلى آرغون، بحيث يمكن تقدير عمر أي أحفور «فوسايل» (Fossile) يتم العثور عليه ويمكن القضاء على أية محاولة أيديولوجية كاذبة. كما عرف في مطلع القرن عن فضيحة إنسان «بيلت داون» (Down Pilt) الذي قام فيه الهاوي الأركيولوجي البريطاني «تشارلز داوسن» (Dawson Charles) بزعم الكشف عن الحلقة المفقودة (Link Missing) بين القردة والبشر في ولاية «ساسيكس» (Sussex) البريطانية، ولم تكن أكثر من جمجمة عادية أضيف إليها فك قرد من نوع «أوتان أورانج»، وبقيت هذه الكذبة العلمية منطلية على ذقون الناس لمدة 41 عاماً (1912 حتى 1953). وإذا كانت فصيلة الإنسانيات «الهومونيد» قد انشقت في غصن خاص بها أثناء الرحلة التطورية فلم تأتِ من القردة، كذلك فإن هذه الفصيلة لم يكتمل شكلها دفعة واحدة تحت نفس القانون

التطوري. وهكذا نعرف اليوم أن ما لا يقل عن عشرة أنواع من الإنسان ظهرت على وجه الأرض واختفت تماماً قبل أن يظهر الشكل النهائي المسمّى عاقل العاقل (الهومو سابينس سابينس)، ويسود البسيطة، وهو شكلنا الحالي. وكان آخر الأشكال الإنسانية التي عمرت البسيطة قبل 150 ألف سنة ثم اختفت قبل 35 ألف سنة هي إنسان «نياندرتال» (Neanderthal) الذي اكتشف للمرة الأولى بجانب مدينة دوسلدورف الألمانية على يد «يوهان فولروت» (Fuhlrott Johann). والرحلة ماضية والحياة الإنسانية قصيرة نسبة لرحلة الحياة إذا عرفنا أن الحياة أصبح لها 3.8 مليار سنة أمام وجود الإنسان منذ خمسة أو ستة ملايين من السنين. واحتمال أن يتغير شكلنا أو يتطور دماغنا على شكل اكتمالي أفضل وارد كما حصل مع نمو القشرة الدماغية المتواصل. ويشهد عليه تطور دماغ الطفل بعد خروجه من الرحم، فبعد أن كان 750 سم مكعباً، أي نصف كتلة الدماغ مع الولادة، فإنه يتطور يومياً 1 سم مكعب بعد خروجه من الرحم حتى يصل إلى حجمه الوسطي المعتاد حوالى 1350 سم مكعباً بعد 12 شهر آخر. وهذا هو السبب في لين الجمجمة وعدم التحام دروزها قبل مرور سنة حتى يتمكن الدماغ من اكتمال حجمه، أي إن اكتمال نضج الدماغ لو تقرر مكانه في الرحم لوجب أن يبقى الطفل في ظلمات ثلاث قريباً من سنتين، ولما تمكن خروجه من الرحم بهذا الحجم العرطل. الحياة إذاً مبنية على البرمجة والتطور خلقاً من بعد خلق. وهذا الموضوع لا علاقة له بكفر وإيمان كما فعلت الكنيسة ضد داروين، أو ما فعلته لجنة التدريس في ولاية أمريكية العام الفائت من تحريم تدريس مادة التطور البيولوجي والانفجار العظيم في موادها. كل مافي الأمر أن الإرادة الإلهية بنت الوجود في ستة أيام وكذلك الحياة بنتها أطواراً. وقانون الحياة يقوم على الزيادة: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ}([13])، وبناء الكون ماضٍ ولم ينتهِ بعد: {وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ} ([14]). ويمكن لأشكالنا الحالية أن تتغير في رحلة تطورية جديدة إذا علمنا أن ما تبقى في عمر الشمس خمسة مليارات من السنين. ويمكن أن يحصل تطور جديد على كياننا فيما نستقبل من ملايين السنين القادمة. ولقد تعرض ابن مسكويه كما نقل عنه ذلك الفيلسوف محمد إقبال في كتابه «تجديد التفكير الديني»، وكذلك ابن خلدون في مقدمته إلى شيء من هذا القبيل، عندما اعتبر أن الكون متدرج بحيث يتصل أفق كل وجود بعتبة المستوى الذي بعده كما، في نهاية الشجر من النخيل باقترابها من أول عالم الحيوان الحلزون، ثم ينتهي إلى تقرير أن هناك استعداداً خفياً بحيث يتحول أفق كل مستوى إلى العتبة التي بعده. إن قصة الكشف عن تاريخ الإنسان مثيرة بدأت منذ 150 سنة تقريباً. وكانت هناك حيرة حول عمر الأرض والإنسان والحياة، بل والوجود، هل هو أزلي أم له نقطة بداية؟ واليوم نعرف أن عمر الوجود 15 مليار سنة، وعمر الأرض 4.6 مليار سنة، وبدأت الحياة قبل 3.8 مليار سنة، أما عمر الإنسان فلم يحدد تماماً، وإن كانت الخطوات تمشي حثيثاً حول اكتشاف جذور الرحلة الإنسانية في حدود سبعة ملايين من السنين. ولعل أكثر

الكشوفات إثارةً تلك التي وصل إليها دونالد جوهانسون عام 1974، وأعلن عنها عام 1978 حيث عثر على 40% من هيكل أنثى تمشي منتصبة عاشت قبل 3.2 مليون سنة بطول 120 سم وبحجم 450 سم مكعب للجمجمة. لقد طغى الفرح ليلتها على فريق الكشف فشربوا الأنخاب وسمعوا إلى موسيقى البتلز طوال الليل التي تقول «لوسي في السماء ومعها الماس»، فأخذ الكشف اسم هذه الأغنية وما زال باسم إنسان «لوسي» (Lucy). ولقد رأيت أنا شخصياً نسخة عنه في المتحف الطبيعي في باريس. واليوم مع الكشف عن «إنسان الألفية» وبين الإنسان المعاصر مرت أشكال شتى من فصيلة الإنسانيات، ولم يكن شكلنا الأخير المستقر إلا مخاضاً عسيراً لحوالي 11 نوعاً مرت على الأرض وانقرضت، واحتفظت طبقات الأرض بذكر أهم الهياكل العظمية وهي رميم. ونعرف اليوم أنواعاً مثل «الأريكتوس المنتصب» و «الهابيليس» و «إنسان جاوة» و «هايدلبرغ» و«استرالوبيثيكوس أفريكانوس» و«الروبوست استرالوبيثيسين» بالإضافة إلى ما ذكرنا. ويبدو أن منطقة شرق أفريقيا بطبيعتها الجافة هي التي حفظت العظام أكثر من غيرها، ولذلك تعتبر من أغنى مناطق العالم بالبحث الأنثروبولوجي، وحجز فيها «تيم وايت» بتمويل من ثرية أمريكية قطعة أرض لمساحة 600 كم مربع ومنها دشن كشفه قبل سنوات. واليوم تتضافر حزمة من العلوم في الوصول إلى آدم وحواء أبوينا ومن أين خرجا كما يفعل «روبرت بالارد» في محاولته الوصول إلى الكشف عن سفينة نوح في حواف البحر الأسود. ويلعب علم «النظائر المشعة» (Isotop) دوراً هاماً في تحديد عمر الطبقة الصخرية التي يتم كشف العظم فيها، فمن عمرها يأخذ العظم تاريخه. وبواسطة تقنية الكربون 14 يمكن تحديد عمر الأشياء حتى 57 ألف سنة باعتبار أن نصف عمر تحول «نظير الكربون 14C»، الذي تحوي نواته ستة بروتونات وثمانية نترونات إلى «نتروجين» بنواة فيها سبعة بروتونات وسبعة نترونات بعد تحلل نترون واحد إلى بروتون وإلكترون، يحتاج إلى 3750 سنة. أما تحول نظير البوتاسيوم إلى آرغون فنصف حياة التحول في ذراته تبلغ مليار وربع سنة. أي أنه يمكن معرفة عمر أي شيء إلى مدة تزيد عن 12 مليار سنة. وهي عملياً منذ خلق العالم بالانفجار العظيم في هذا الوقت. فهذه التقنية من الكربون 14 واليورانيوم والبوتاسيوم تعتبر ساعة كونية أدق من أي ساعة تم تركيبها حتى الآن. وبواسطة هذه الساعات التي تعمل عبر الأحقاب تم تحديد عمر إنسان الألفية أو بدايات عديدات الخلايا أو حتى عمر الأرض. في مؤتمر كينيا تم عرض عظمة فخذ إنسان «الألفية» حيث أظهرت نهاية حياته في دراما مروعة بآثار من عض ونهش حيوان مفترس عليها، يبدو أنه سحبه إلى جذع شجرة وتعشى به في وليمة فاخرة. وكان نهاية الجثة أن حفظتها طبقة الرسوبيات سلفاً ومثلاً للآخرين. هكذا كان مصير الإنسان قبل ستة ملايين من السنين يطارد الوحوش والوحوش تطارده وتفترسه سباع الأرض. ولكن ماذا ينتظره بعد ستة ملايين أخرى في المستقبل؟

الانفجار البيولوجي العظيم

رحلة بداية تشكل الحياة خطوة خطوة

(مفاجأة جديدة من علم الباليونتولوجيا)([15])

عندما كان الفريق العلمي السويدي الصيني يبحث في منطقة «شينج يانغ» (CHENGJIANG) من جنوب الصين يقلب صفحات كتاب «طبقات الأرض»، يقرأ عبر لغة «الباليونتولوجيا» حروفاً جديدة تلقي الضوء على مزيد من أسرار تاريخ الأرض، وتفك تلك الطلاسم المخفية من رحلة الحياة البيولوجية للكائنات؛ اصطدم فجأة بكائن صغير في عمق كيلومتر من الأرض، لا يزيد طوله عن أربعة سنتمترات، قد ترك آثاره المتحجرة في طبقات الأرض، وعندما أرسل إلى مخبر تقييم الزمن كان الرقم صاعقاً، هذه المرة ليس مثل هيكل «أرديبيثيكوس راميدوس» (RAMIDUS – ARDIPETHICUS)

في قصة الإنسان، والذي بلغ 4.4 مليون سنة([16])، بل حوالى نصف مليار سنة (وبالضبط 530 مليون سنة)([17]).

الحيوان الصيني عاش قبل ما يزيد عن نصف مليار سنة

هذا الحيوان الذي أعطي اسم «يونانوزون – ليفيدوم» (YUNNANOZOON – LIVIDUM) الذي عاش قبل ما يزيد عن نصف مليار سنة، يستحم في المحيط المائي البدائي للكرة الأرضية، والذي بدى أقرب إلى أوراق المراعي المسطحة بحجم إبهام إنسان، وبفم خرطومي يرشف ماء المحيط المالح الممزوج بالطين. ذو بنية قاسية وبعمود فقري مرن، أوحي إلى علماء «الباليونتولوجيا» بأن يكون هذا الحيوان مقدمة بقية الفقريات والكائنات التي عمرت الوجود لاحقاً، فمسيرة الحياة لم تمشِ خطوة خطوة كما كان التصور حتى الآن؛ بل انطلقت عارمة بكل عنفوان، في حقبة لم تتجاوز عشرة ملايين من السنين، لتنتج معظم النماذج التي تنتسب لها الكائنات التي تعمر العالم اليوم.

ولكن يبقى السؤال: أين يقف هذا الكائن في مسيرة ظهور الكائنات البيولوجية عموماً؟؟

إن المعلومات الموجودة بين أيدينا حتى الآن في علم تاريخ الأرض «الباليونتولوجيا» (PALEONTOLOGY) تعطينا مسلسلاً رهيباً في عمر الزمن والأحداث، تم التوصل إليه من خلال تطوير علوم جديدة في معرفة عمر بقايا الكائنات والحضارات، من خلال ساعات كونية وبيولوجية مغروسة في الطبيعة، كما في ساعة الكربون 14 وعلاقة تحول البوتاسيوم – الآرغون، فعن طريق تحول الكربون 14 يمكن ضبط الزمن حتى سبع وخمسين ألف سنة، وعن طريق ساعة تحول مادة البوتاسيوم إلى آرغون، يمكن معرفة التاريخ الممتد إلى مليارات السنوات، باعتبار أن نصف عمر تحول الذرات يتطلب 1.25 مليار سنة، أي عملياً حتى ساعة بداية الكون، وبهذه الطريقة أمكن تحديد يوم ولادة الكرة الأرضية التي نعيش عليها، وأمكن معرفة أن بداية تشكل الكرة الأرضية التي نعيش عليها تعود إلى 4.6 مليار سنة.

بداية الأرض وبداية الحياة

ولكن إذا كان عمر الأرض من الناحية الباليونتولوجية قد بدأ في رحلته قبل ما يزيد عن أربعة مليارات ونصف من السنوات، فيبقى السؤال: وهل كانت الحياة موجودة على ظهر الأرض مع بدايتها أم تلتها بعد فترة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمتى بدأت الحياة على وجه التحديد على وجه البسيطة؟ وهل وجدت دفعة واحدة أم ظهرت كما يظهر ممثلو المسرح، والمسرح هنا كوني كما نرى. ومتى ظهر الملك الإنسان أهم شخصيات المسرح الكوني على وجه البسيطة؟

بانوراما (أربع وعشرين) ساعة قصة الحياة على الأرض

عرضت مجلة ألمانية علمية منظراً كونياً أخاذاً مضغوطاً في فترة أربع وعشرين ساعة([18]). فلو تصورنا الفيلم الكوني الذي بدأ يظهر على شاشة الوجود منذ 4.6 مليار سنة ولكن مختصراً في يوم وليلة؛ فسوف نرى المسلسل على الشكل التالي، ويمكن اختصاره بعشرة نقاط أو مراحل:

1- بعد ظهور الكرة الأرضية لم تكن هناك حياة على الإطلاق، ليس هناك إلا الصحراء عبر الأفق. لا يوجد أي أثر لأي نبتة صغيرة أو عشب أخضر أو قطرة ماء. ما يسيطر على ظهر الأرض هو الجفاف والحر الذي لا يناسب أي لون من الحياة النباتية أو الحيوانية. عواصف مزمجرة من غازات الهيدروجين والهليوم تعبث بالمناخ. والرعد يفرغ شحنته الكهربية في صورة برق وهاج ساطع. الأرض تهتز وتترنح وتبصق الحمم البركانية محولة ظهر الأرض إلى جحيم يتلظى. ثم جمدت القشرة الأرضية أخيراً قبل 4.5 مليار سنة وتشكلت الصخور، ولم تبدأ الحياة بعد.

2– بقيت الحالة هكذا لمدة 800 مليون سنة بدون نفس وأثر للحياة. لم يوجد الأكسجين بعد. وعند الساعة 2.45 صباحاً، أي قبل حوالى أربعة مليارات سنة، بدأ تشكل الماء، وامتلأت البحار بالماء الدافئ، وبدأ تشكل الجزيئات العضوية الكبيرة مثل السكر والأحماض الأمينية.

3– في الساعة الخامسة والثلث صباحاً بدأ ظهور الخلايا الأولية على سواحل أستراليا، وبدأ تشكل الجينات الأولية (الكروموسومات التي تحوي الأحماض النووية). كان هذا قبل 3.5 مليار سنة.

4– بدأت رحلة الخلية بدون نواة، واستمرت فترة طويلة حتى استقر وضع الحمض النووي وأخذ هذا التوجه حوالى مليارين من السنوات. قبل أن تتشكل الخلية ذات النواة، التي هي وحدة الحياة الأساسية. عند الساعة الثامنة ليلاً وعشر دقائق من هذا التقويم بدأ تشكل الخلايا الوحيدة.

5– عند الساعة التاسعة ليلاً (الساعة 21.00) أي بعد مرور قرابة 3.6 مليار سنة من الرحلة تبدأ الرخويات واللافقريات في الظهور في الماء. أي قبل حوالى 720 مليون سنة.

6 عند الساعة التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة مساءً (الساعة 21.35) أي بعد مرور حوالى أربع مليارات سنة من تشكل الأرض، تبدأ الحياة بالانفجار في تنوع محيّر، وهو ما كشفت عنه البحوث الباليونتولوجية حديثاً.

7 عند الساعة التاسعة وسبع وخمسين دقيقة مساءً (الساعة21.57) بعد مرور 4.1 مليار سنة على بدء تشكل الأرض؛ ظهرت النباتات والأشجار إلى الوجود، وما زال الوقت طويلاً بعد أمام ظهور الإنسان.

8 وقبل أن تختم الساعة الحادية عشر ليلاً (الساعة 22.48) ظهرت الديناصورات العملاقة، تدب على الأرض بأطنانها الثقيلة وأدمغتها القاصرة، كان ذلك قبل 225 مليون سنة من الآن، ولكنها اختفت من وجه الأرض تماماً وبالكامل بلغز لم يتم التأكد منه حتى الآن قبل 65 مليون سنة، وتشير بعض النظريات إلى اصطدام الأرض بمذنب كبير غيّر الظروف الحياتية على الأرض، فقضى على الديناصورات. ومن هنا نفهم سخافة الأفلام وخطأها العلمي عندما تظهر الإنسان مع الديناصورات في وقت زمني واحد؛ فالإنسان لم يعاصر الديناصورات نهائياً، وعندما ظهر الإنسان على ظهر البسيطة لم يكن هناك أثر لتلك الأوابد.

ظهور الإنسان في الثانية الأخيرة من هذا التقويم:

9 ويبدأ العصر الحجري وبدايات الإنسان الثقافية قبل أن يختم الوقت بدقيقة واحدة فقط، وأما اللبونات الكبرى فقد ظهرت بدورها خلال ما تبقى من هذه الدقيقة من هذا التقويم، ويظهر الإنسان العاقل في الثانية الأخيرة من هذا المسلسل المثير.

10 إن القصة لم تنتهِ بعد، فأمام الإنسان رحلة 5.5 مليار سنة أخرى، يعمر فيها الأرض ويبدأ فيها التاريخ الفعلي، فالنماذج الإنسانية التي مرت على ظهر الأرض كانت كثيرة، من أمثال «الهومو إيريكتوس» (Homoerectus) و«الهومو هابيليس» (Homohabilis)، وختمت بنموذجنا المتقدم (الإنسان العاقل العاقل) (Sapienes Sapienes Homo)، وتشير المعلومات الباليونتولوجية الأخيرة إلى أن جنسنا اجتمع مع جنس «النايندرتال» (Neanderthal) الذي أُعلن عنه علمياً للمرة الأولى في القرن الماضي، وعثر على الهيكل قريباً من مدينة دوسلدورف الألمانية (Duesseldorf)، ثم عثر عليه في كل أرجاء المعمورة، ويمثل نموذجاً عجز عن التكيف، أو حاق به شيء لم يكشف اللثام عنه، فغيبته طبقات الأرض، وعاش قبل حوالى ثلاثين ألف سنة، واجتمع أسلافنا الأوائل معهم، ولكنهم انمحموا من خارطة الوجود بالتمام والكمال خلف سر آخر مغيب!! فالتاريخ لم يبدأ بعد، وليس كما زعم الكاتب الأمريكي «فرانسيس فوكوياما» أن التاريخ انتهى مع احتلال أمريكا للعالم بثقافتها المبنية على الليبرالية الاقتصادية والديموقراطية السياسية. والعالم اليوم هو بين صنفين، إما من انضم إلى هذا الشاطئ الأمريكي فكتبت له النجاة (كذا!!) أو انحسر عنه فابتلعته لجات الأوقيانوس! أو من يحاول اللحاق بهذا النموذج كي يكتب لنفسه الوجود وعدم الانقراض كما حصل مع إنسان النايندرتال([19]).

إن التاريخ الفعلي لم يبدأ بعد إذا أخذنا بعين الاعتبار الامتداد الزمني الرهيب لتاريخ الأرض، ثم الرحلة الرهيبة البيولوجية التي امتدت مئات الملايين من السنوات، في حين أن الثورة الزراعية لم تدشن إلا منذ تسعة آلاف سنة، والحضارة لم تبدأ إلا منذ ستة آلاف سنة، واخترعت الكتابة قبل خمسة آلاف سنة فقط، واستخدمت المطبعة قبل خمسة قرون فقط، ولم تقفز بشكل نوعي في الاستخدام إلا منذ عشرات السنوات، ولم يُستخدم البخار إلا منذ 200 سنة، والكهرباء دخلت الصناعة منذ 120 سنة، ولم تستخدم الذرة سلمياً إلا منذ ثلاثين سنة، وكل الإنجازات الإلكترونية والطبية وتقنية الاتصالات وثورة المعلومات ليس لها أكثر من عقد إلى عقدين فقط من الزمان!!

فما الذي ينتظر الإنسان إذاً؟ وهل أن التاريخ خُتم كما زعم فرانسيس فوكوياما أم أننا امام بداية التاريخ؟ وبماذا يختلف فوكوياما عن العجائز في بلادنا الذين كانوا يقولون تؤلف ولا تؤلفان؛ أي إن العالم سينهدم مع دخول الألف سنة القادمة، وأن التاريخ الهجري لن

[20]

يستمر في الألف الثانية، أو كما كان يقول لي جماعات «شهود يهوه»([20])، الذين اجتمعت بهم في ألمانيا، أن المسيح سينزل إلى العالم بعد خمس سنوات فقط وأن العالم سينتهي في سلسلة من عمليات الخرافة وغسل المخ واغتيال العقل لا نهاية لها.

ثلاثة انفجارات رسمت قدر الإنسان: الكوسمولوجي، والبيولوجي، والثقافي، والأخير هو أهمّها:

إن ثلاثة علوم تعطينا نبأ عما حدث على ظهر الأرض، فأما علم الكوسمولوجيا (علم الكون) فإنه يخبرنا أن الوجود انفجر من نقطة رياضية، أصغر حجماً من بروتون واحد، في صورة كرة نارية مروعة في لمح البصر أو هو أقرب، لتتشكل كل المجرات وعالم السدم التي نراها اليوم([21]) حدث هذا قبل حوالى 15 مليار سنة، وهي المعروفة بنظرية الانفجار العظيم الكوسمولوجي (Theory Bang Big) أما علم «الباليونتولوجيا» (علم تاريخ الأرض) فيضيف إلى معلوماتنا مع هذه المقالة نبأً طازجاً مفاده أن رحلة البيولوجيا استهلكت معظم طاقتها في إتقان تركيب «الجينات والكروموسومات» وأن رحلة ثلاثة مليارات سنة كانت مع الخلية الوحيدة فقط، وأن عديدات الخلايا انبثقت في فترة قصيرة وبزخم مروع في فترة تعتبر كأنها ومضة عين في عمر الكون والأرض، مما جعل العلماء يطلقون اليوم على هذه

الظاهرة اسم «الانفجار البيولوجي»، ويعتبر «سجل الصخور» الوثيقة التي تنير الطريق لمعرفة مثل هذه التطورات المفيدة، وهي رحلة شاقة للغاية، كما وصفها المؤرخ البريطاني «ويلز»: «إن صخور العالم ليست طبقات مرتبة إحداها فوق الأخرى ترتيباً ييسر على الإنسان جهد قراءتها، فهي لا تشبه الكتب ولا الصفحات في أية مكتبة، بل هي ممزقة مهلهلة، مقذوفة، مقطوعة أو مدفونة هنا وهناك، قد زالت معالمها، فهي أقرب شيء إلى مكتب عمل سيء النظام، بعد أن أصابته بالتوالي قذائف المدافع، وعبثت به يد احتلال عسكري معادٍ، ونالت منه يد السالبين، وصدعه زلزال وأصابه شرر فتنة عنيفة، واشتعلت به النيران، ولبث الناس يطأون سجل الصخور ذاك وهم لا يشعرون به مدى أجيال لا تحصى»([22]). أما علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) فإنه يتحفنا بخبر مثير عن رحلة الإنسان التي بدأت ربما قبل سبعة ملايين من السنين، ومرت بثلاث انعطافات هامة: الأولى مشى فيها الإنسان منتصباً، فبواسطتها تحررت اليدان، وهي ميزة إنسانية انفرد بها عن كل الكائنات، وانتبه ابن خلدون لها فاعتبرها هي والفكر وسائل بناء الحضارة([23]) كان هذا قبل حوالى خمسة ملايين سنة، كما تم الكشف عن هيكلين؛ كشف الأول منهما الأنثروبولوجي الأمريكي «تيم وايت» في الحبشة، وعرف بهيكل «أرديبيثيكوس – راميدوس» يعود

إلى 4.4 مليون سنة، والثاني كشفته العالمة الأنثروبولوجية البريطانية «ميف ليكي» (Meave Leakey) في كينيا، وعرف بهيكل «أسترالوبيثيكوس – أنامينسيس» (Australopethicus – Anamensis) ويعودإلى حوالى أربعة ملايين من السنين، ويعتبر هذان الهيكلان أهم الاكتشافات وأحدثها وأكثرها إيغالاً في الزمن، تم الكشف عنهما خلال العشرين سنة المنصرمة. والمرحلة الثانية اعتمدت نمو الدماغ ليصل في النهاية إلى حوالى 1300 سنتمتر مكعب في المتوسط، وهذا كانت له آثاره في الارتباط الاجتماعي واعتماد الإنسان على والديه، بسبب مجيئه إلى العالم وهو غير مكتمل، فدماغه مع الولادة في نصف حجمه، خلافاً للحيوانات التي تولد مكتملة الدماغ، فتنفصل عن والديها، فلا تنمو اجتماعياً، وهكذا تحول الإنسان إلى كائن اجتماعي. والمرحلة الثالثة هي الثورة الثقافية، وتمّت قبل حوالى مائة ألف سنة، حينما بدأ يترك آثاره في الكهوف، كما عثر على الكثير من مظاهر نمو الشعور بالمقدس وفكرة اليوم الآخر وتشكيل الأساطير، وفكرة بناء الكون على الجمال والغائية والبرمجة.

ولكن الإنسان لم يتخلص من مرحلة الأدوات الحجرية ليقفز إلى الحضارة في سومر ومصر إلا منذ ستة آلاف سنة فقط، ومعظم الفضل يعود في هذا إلى المرأة التي أدخلت الإنسان إلى مقدمات الحضارة ببناء مجتمع المدينة من خلال تدشين الثورة الزراعية.

إن هذه الرحلة الجميلة تدخل تحت الفكرة القرآنية بالحث على السير في الأرض، وانتبه لها العلامة ابن خلدون قديماً، ولكن ما فتح الطريق إليه ابن خلدون لم يتابعه سوى العلماء الغربيين، الذين لا نرحب كثيراً بأبحاثهم والنتائج التي يصلون إليها، مع أننا يجب أن نسبقهم فيها على طريقة ابن خلدون الرائدة.

{قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}([24]).

إن هذه الآية من سورة العنكبوت عملاقة في المحور الذي تخطه للفكر، فالأمر هنا هو السير في الأرض حيث تتحول الأرض والواقع إلى شواهد وكتاب ينطق بحقائق لا يُعثر عليها إلا فيه، فالأمر هنا هو في السير في الأرض وليس السير في الكتاب، أي قراءة الواقع وليس قراءة النصوص، وظن الاستغناء بالكتاب عن الواقع هو الذي قاد العالم الإسلامي إلى كارثة ثقافية مروعة، والنظر هنا لكيفية بدء الخلق، أي لفت النظر لمعرفة أصول الأشياء، لأن الأشياء إذا لم تعرف ببداياتها لم يعرف تطورها على وجه الدقة، فالأحداث تقوم على جدلية داخلية عجيبة من تشابك الماضي والحاضر والمستقبل، وتعانق السبب والمسبب، فكل حدث هو نتيجة لما قبله، ولكنه بنفس الوقت سبباً لما سيأتي بعده. فنحن أمام تدشين فكر فلسفي جدلي نقدي صارم. كما أن الآية

تشير إلى كلمة الخلق التي هي كلمة ضخمة للغاية، لأن تحتها يقع كل ما عدا الخالق، فالكون تتمثل فيه حقيقتان، حقيقة الخالق والمخلوق، فالآية تفتح بانوراما لانهائية لإدراك هذا القانون عبر المخلوقات التي لا تنتهي، بدءاً من كيان الذرّة إلى ملكوت المجرّة، ومن أبسط العضويات إلى أعظم الكيانات البيولوجية تعقيداً، ومن أدق الأفكار وأكثرها رشاقة إلى أعظم الحضارات وأكثرها شموخاً، فهذه الكلمة تمسح طيفاً عجيباً من الإمكانيات، فكل ما هو مخلوق يخضع لهذه القاعدة من إعادة النظر ورؤية بداياته الأولية، من كيفية نشأة الأحداث وولادة الأشياء وقيام الدول ونهضة المؤسسات وولادة الأحزاب وانبثاق الحضارات، طالما كانت كلها كيانات ولدت وتخضع لقانون الخلق ومطوقة في النهاية بمصير الزوال والموت والانقراض والاندثار.

أفكار بيولوجية مدهشة عند ابن خلدون

ابن خلدون لم يكن من علماء تاريخ الأرض ولكنه كان عالِم اجتماع بالدرجة الأولى، إلا أنه انتبه في كتابه إلى حقائق ضخمة في الوجود، ومنها إشارته إلى علاقات الكائنات بعضها ببعض؛ فهو يرى أن المخلوقات كلها سواء المعدنية أو الحيوانية متصلة مترابطة ببعضها البعض، كما أنها –على حسب تعبيره– عندها أو فيها من الاستعداد أن يتحول بعضها إلى بعض (واستحالة بعض الموجودات إلى بعض) لنتأمل ما يقول العلامة ابن خلدون في هذا القانون الوجودي «الأنطولوجي» (Anthology): «اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته، وابدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني، وأولاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار، متصلاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعدّ إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً». إن هذه القفزة النوعية في الفهم يخشع لها الإنسان كونها فتحت الطريق أمام الوصول إلى الجدول الدوري لتصنيف العناصر، والذي اكتشفه الروسي مندلييف لاحقاً بعد ستة قرون، عندما أدرك النقطتين معاً في تدرج العناصر، فكل عنصر في هذا الوجود يفترق عن الذي قبله وبعده بزيادة أو نقص بروتون واحد، وإمكانية تحوّل عنصر لآخر، والذي اكتشفه لاحقاً العالم الألماني «أوتو هان» (Hahn Otto) بحيث تم تحطيم المسلَّمة اليونانية القديمة؛ أن الذرّة غير قابلة للتحول والتجزؤ باعتبارها أصغر شيء موجود ثابت في هذا الكون، وعن طريق شطر ذرّة اليورانيوم (التي تحمل نواتها 92 بروتون) وتحويلها إلى ذرتين من الباريوم والكريبتون «تحمل ذرة الباريوم 56 بروتون ونواة الكريبتون 36 فيكون المجموع 92 بروتون وتخسر الذرة نيترونات تطير من البناء الذري الأصلي فتصدم نواة أخرى لتنشطر نوى جديدة، وهكذا، وهو سر التفاعل النووي الذي قاد

لتطوير السلاح النووي لاحقاً، ولم يكن هذا ليتم لولا التخلص من مرض الآبائية، أي المسلّمات العقلية والأفكار المنقولة التي تعيق حركة العقل»([25])، لينتقل ابن خلدون بعد ذلك في فقرة مثيرة للغاية عن فهمه للظاهرة البيولوجية فيقول: «ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينتهِ إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده، وهذا غاية شهودنا». عندما ينتهي الإنسان من قراءة هذه الفقرات لمفكر مسلم تقي كتبها قبل ستة قرون يصاب بالدوار، لأنه يرى أن الحضارة تكتب اليوم من الشمال إلى اليمين، وكانت تكتب من اليمين إلى الشمال، وقارئ يضطر دوماً عند القراءة إلى معرفة مصادر المعرفة التي تتدفق من الشمال إلى اليمين لا يمكن أن يرصدها بدون أن يصاب بالحوَل والدوار.

رحلة الإنسان على الأرض

عندما كتب المؤرخون عن تاريخ الإنسان على الأرض كانت الرؤية التقليدية أنه هبط من جنة عدن إلى أرض الشقاء. وكلمة «اهبطوا» أوحت إلى البعض أنه «أنزل» من كوكب آخر، وأنه عجن دفعة واحدة، وأن لا علاقة له ببقية الكائنات، أو أن طوله كان ثلاثين متراً مثل عمالقة اليمن، ثم انضغط إلى القصر كما كان يظن تلاميذ أرسطو في العصور الوسطى أن فخذ الإنسان مقوسة، فلما شرَّح «فيساليوس» الجسم وأثبت العكس قالوا استقامت بفعل لبس البنطلونات الضيقة. وتقليب كل تربة الأرض على يد الأنثروبولوجيين أثبت أن طول الإنسان كان أقل من متر ونصف وزاد. وأن جمجمته لم تتجاوز حجم الليمون الهندي، كما كشف «برونيت» الفرنسي من جامعة «بواتييه» من فرنسا في صيف 2002 عن أحدث إنسان عمره يصل إلى سبعة ملايين من السنين عثر عليه في صحراء «جراب» شمال تشاد. والذي ظهر الآن أن عمالقة اليمن أساطير. وأن كلمة «اهبطوا» أو «انزل» لا تفيد القدوم من المريخ، بل الانتقال من مكان لآخر. كما في الآية القرآنية: {اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ}([26])، وإنزال الحديد ليس من كوكب الزهرة كما يخيل لأبطال الإعجاز العلمي في القرآن، بل هو حلقة في سلسلة تفاعل نووي توجد فيها العناصر طبقاً عن طبق بدءاً من الهيدروجين وانتهاءً باليورانيوم. والقرآن قال عن وجود الأنعام أنها أنزلت: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}([27]) فلم تنزل من كوكب الزهرة بل توالدت على الأرض. وما يقوله العلم إن آدم عاش في أفريقيا وإنه لم يكن شكلاً واحداً بل زاد عن عشرة أشكال، وإنه كان من طين لازب من الأرض، وإنه وبقية الكائنات يتصلون بشجرة الخليقة، فلم يهبط آدم من السماء بل نبت من الأرض: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً}([28]). وعندما حاول الطبري قراءة التاريخ ضغط الزمن في سبعة آلاف سنة مضى منها 6500 سنة وبقي على نهاية العالم 500 سنة فقط. ولو بُعث من قبره لأصابته دهشة كبيرة لبقاء العالم بدون دمار، مما يثبت أن أفكارنا عن الحقيقة لا تعني الحقيقة، وأن توظيف النصوص لا يخدم النصوص. والآن صدر كتاب جديد محشوّ بالأدلة العقلية والنقلية عن نهاية العالم منقولة عن «السيوطي» في كتابه «الكشف عن مجاوزة الأمة الألف» وأن القيامة ستقوم بعد 77 سنة. ولعل أفضل من قرأ الزمن هم الهنود حيث تطوع العاملون في معبد براهما فيما وراء «زانادو» بنقل 48 حجراً بين إله الحياة براهما وفيشنو الحافظ وإله العدم شيفا، بحيث يستقر كل حجر فوق الذي أكبر منه. وهو يوصل الرقم إلى عشرة بلايين من السنين. وهو الرقم الذي يراه

الكوسمولوجيون لنهاية الشمس من الانفجار العظيم حتى تحولها إلى عملاق أحمر. وبين هذه الأرقام الفلكية يبدو وجود الإنسان

رقما تافهاً. فإذا كان سفر الأرض ألف صفحة ابتدأت قبل 4.6 مليار سنة جاءت قصة الإنسان في الصفحة الأخيرة في: {حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً}([29]) ببضعة ملايين من السنين. ويشار إلى الحضارة التي بدأت قبل ستة آلاف سنة في السطر الأخير، أما القرن الواحد والعشرون فهو النقطة الأخيرة من السفر.

الرؤية السابقة لرحلة الإنسان ووجوده ثبت خطأها علمياً، ولا توحي بها ألفاظ القرآن، وأنها لا تزيد عن مفاهيم تنبثق من مشكلة أساسية «لغوية» و «تاريخية» في فهم النصوص. وهو الذي ولد علم «الألسنيات» وكذلك «علم التاريخ» وما يشتق منه من علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) باعتبار أن الإدراك الإنساني مشوش، ومشوش عبر فلاتر لا تنتهي من «الحواس» و «اللغة» و «الثقافة». فالحواس مضللة بثلاث: بشق الإدراك بالعتبة والطيف والفروق. ومن قبض على أنبوب بارد أحس به. ومن أمسك بأنبوب حار شعر به. ولكن الإمساك بأنبوبين حار وبارد يجعلنا نحترق من وهم حرارة قاتلة فنتركه كمن لسعه ثعبان. والطفل الذي تعرض أمامه ثلاثة أنابيب مختلفة الأحجام مملوءة بالماء لم يدرك العلاقة بين الحجم والكمية واعتبر أن الماء واحد في الجميع، وهي مسألة انتبه لها عالم النفس السويسري «جان بياجيه» أثناء تأسيسه ما عُرف بعلم النفس الارتقائي. أما عيوب اللغة فهي بدورها ثلاثة من: التعميم والحذف والتشويه. كما تقول بذلك مدرسة «البرمجة العصبية اللغوية» (NLP). وأما الثقافة فهي متورطة في أربع مصائب أشار لها الفيلسوف «فرانسيس بيكون»، من

أوهام القبيلة والكهف والمسرح والسوق. وكان ابن خلدون وابن مسكويه من أوائل من أشار إلى اتصال كل أفق من المخلوقات بالأفق الذي بعده، كما بين الحلزون والنخيل، وأن هناك نوعاً من التحول «العجيب» من آخر أفق من الكائنات إلى أول الأفق الذي بعده. ومع أن «تشارلز داروين» طرح منذ عام 1859 كتابه عن «أصل المخلوقات» فنحن ما زلنا في الشرق لا نتحدث في هذا الموضوع خوفاً من العوام، كما حصل عام 1854 في زمن الشريف «عبد المطلب» في مكة حينما جاءه أمر من الوالي العثماني بأن السلطان تحت ضغط بريطانيا يريد إنهاء بيع الرقيق في الأسواق. «فلما استدعى الوالي دلالي الأرقاء وأبلغهم بالخبر هاج الناس وتنادوا بالجهاد.. وأنه مخالف للشرع، واشتبكوا مع الحامية التركية ووقع العديد من القتلى» على ما ذكره الوردي في موسوعته عن تاريخ العرق الحديث. وقريب من هذا التصور التقليدي طوفان نوح أنه اجتاح كل

الأرض، وأنه حمل كل أنواع الحيوانات والطيور والحشرات، وأن الله غضب على البشر فأراد مسحهم من وجه الأرض. والذي ظهر إلى السطح الآن أن الطوفان كان في الأغلب حذاء عتبة البوسفور قبل 7500 سنة حيث انساحت مياه المحيطات بعد ذوبان ثلوج العصر الجليدي فارتفع منسوب المياه 120 متراً، فكسر العتبة وتدفق ماء منهمر فاجأ شعوب أولية نجحت في الثورة الزراعية كانت تتحلق حول بحيرة غناء انقلبت إلى البحر الأسود المالح الحالي. وبغمر المياه لمنطقة هائلة نزحت شعوب المنطقة هرباً فكان الطوفان الشرارة التي عمّمت الثورة الزراعية في العالم. وبتأمل الزمن الممتد نراه يقفز فوق عتبة التاريخ ليدخل ظلمات ما قبل التاريخ حيث لم يُكتب شيء. واختراع الكتابة مرتبط بولادة الحضارة، وهو ما عناه القرآن عن «صحف إبراهيم وموسى»، أي أنهما جاءا في وقت مورست فيه الكتابة ووجد الورق (رق منشور) وهو أمر حديث جداً لا يتجاوز خمسة آلاف سنة.

والآن كيف يمكن تحديد عمر قطعة من العظم أنه مليون سنة وليس سنة؟ والجواب أن هذا لم يكن ممكناً لولا تطور علم «الأحافير» (Fossile). كما في الكشف الحديث الذي تقدم «برونيت» والذي عثر على جمجمة وثلاثة أسنان وقطعتين من الفك السفلي. وتحديد العمر يحدد من طبقة الأرض التي وجدت فيها. فيأخذ العلماء بلّورات نقية تعرف بال «ساندين Sandine» وتضم بلورات من عناصر مشعة، وهي نوعان الكربون 14 الذي يتحول إلى نتروجين أو البوتاسيوم الذي يتحول إلى آرغون، وهي ساعة جيولوجية عجيبة «تتك» بدون توقف. ويوجد في كل مليار من الذرات ذرة واحدة مشعة تتفكك. والقانون الإشعاعي كشفه «بيكريل» للمرة الأولى عام 1896، وهو نشاط من ثلاثة أنواع من الأشعة: ألفا، وبيتا، وجاما. فأما فهي قذف نويات الهليوم من بروتونين وبروتونين، أو قذف إلكترون في أشعة بيتا، أو أشعة كهرطيسية في جاما، وهي تدمر المادة الوراثية فهي مؤذية. وهذا التحول في العنصر المشع إلى مادة أخرى مستقرة يحتاج إلى وقت يعرف بنصف الزمن. بمعنى أن ألف ذرة في نظير الكربون 14 مثلاً يحتاج كي تتحول 500 من ذراته إلى نتروجين إلى 5730 سنة. وهو يعني أن تحلل كل المادة يحتاج إلى خمسين ألف سنة في المتوسط. وهو رقم زهيد أمام تحول نظير البوتاسيوم إلى آرغون حيث يتطلب التحول إلى مليار وربع سنة. وبواسطة الكربون أمكن تحديد عمر الحضارات والمومياء، وبواسطة تقنية الآرغون تمت دراسة ما تجاوز خمسين ألف سنة، وهو الذي مكن العلماء من تحديد عمر الأرض بأقل من خمسة مليارات من السنين، وأن عديدات الخلايا بدأت قبل 530 مليون سنة، وأن أقدم إنسان حتى الآن يصل إلى سبعة ملايين من السنين، وهو رقم قياسي عن كل الأرقام التي سبقته. ويترتب عليه قلب سفر الإنسان من جديد في عدة نقاط. أولاً أنه سبق الكشف الأخير عن إنسان الألفية (Orrorin tugenensis) فزاد عليه بمليون سنة. كما ضرب في الزمن أكثر من ثلاثة ملايين من السنين عن

أنثى لوسي (afarensis Ausralopithecus) بأكثر من ثلاثة مليون سنة، وعن أول كشف في جنوب أفريقيا عام 1924 بخمسة ملايين من السنين (child – Taung). وبينهما يأتي كشف «تيم وايت» عن «أرديبيثيكوس راميدوس» الذي كشفه في الحبشة بعمر يرجع إلى 4.6 مليون سنة.

وبكشف برونيت حول نشأة الإنسان قلب التصور في مكان النشأة أيضاً، حيث كانت الأبحاث مركزة في الحبشة وكينيا، في المكان الذي اصطدمت فيها الصفائح القارية فأوجدت صدعاً يمتد من البحر الأحمر حتى الشرق الجنوبي من القارة أمام الغابات الاستوائية في الغرب بينهما برزخ من المرتفعات. وحيث الشرق وجدت السافانا ومعها مشى الإنسان فأوجد الحضارة عندما تحررت يده ونطق. وحيث الغابات بقيت القرود تتسلق الأشجار بمتعة. والذي أتى به برونيت أن شرق أفريقيا لم يكن مهد الإنسانية بل شمال تشاد حيث تعصف رياح رملية بحرارة 58 درجة، وحيث بقايا الإنسان يقتلون بعضهم في حرب أهلية طاحنة بما يتبرأ منه الشمبانزي. ولكنها كانت أيام «توماي» (Toumai) والذي يعني في لغة تشاد الأمل في الحياة، الاسم الجديد «لساحلانتروبوس تشادينسيس» (Tchadensis Sahelanthropus) الذي نشر في مجلة «الطبيعة» (Nature) العلمية يتجول فيها الإنسان بين برك عذبة والحيوانات بأمان من كل صنف زوجان. والآن الخلاف على أشده هل كان توماي نوعاً إنسانياً مستقلاً أم أصل الإنسان؟ هل كان ابن عم لنا أو جدنا الأول؟

قصة الإنسان

ربما كان مريضاً فانهار صحياً، أو ضالاً فتعثر فسقط في الحفرة!! قد يكون قد تضعضع من تسمّم دموي من عقابيل جرح ملوث. الشيء الأكيد أن الضباع والوحوش المفترسة لم تعثر عليه، بعد أن انحشر في حفرة ضمّت جسمه البالي فمات فيها. لو عثرت عليه لتركت بدون ريب بصمات أسنانها على عظامه!! بقايا الهيكل العظمي لهذه الجثة عُثِر عليها في حوض «آواش» الأوسط في الحبشة بشكل غير كامل، من خلال الحفر في طبقات الأرض الجافة. وعندما وضعت للدراسة الأنثروبولوجية كانت النتيجة صاعقة تماماً!! الهيكل العظمي يعود إلى «4.4 = حوالى أربعة ونصف مليون سنة»!! هذه الضربة المحكمة الأنثروبولوجية قام بها العالم الأنثروبولوجيي الأمريكي «تيم وايت» (White Tim) فقفز رقم وجود الإنسان إلى رقم قياسي جديد (Record) فالأرقام السابقة لم تتعدَّ «3.8» مليون سنة، كما أن إنسان «لوسي» لم يتجاوز 3.2 مليون سنة. وهذا الكشف يصب في خانة السؤال الجوهري والمحوري: كم أصبح للإنسان يدبّ على وجه الأرض، ومنذ متى بدأت قصته على وجه التقريب؟؟

هيكل «أردیبیثیکوس – رامیدوس» (Ramidus Ardipethicus)

عندما يسبح الإنسان بفكره مع الزمن فيتصور بناة الأهرام وهم يكدحون في رفع هرم خوفو، أوحملة كزركسيس على ضفة البوسفور وبداية الماراتون، أو فيلة هانيبال وهي تعبر جبال الألب؛ أو ابن خلدون وهو متدلٍ في سلة من سور دمشق يسعى لمقابلة السفاح تيمورلنك، فإن الشعور الذي يستولي عليه طول الزمن وعمقه، ولكن كل ما ذكرنا لا يقف إلا كلمح البصر أو هو أقرب، مع بداية قصة الإنسان ودبيبه على ظهر البسيطة.

هرم خوفو بني في العام 2570 قبل الميلاد، فهو يبتعد عنا في الزمن أقل من خمسة آلاف سنة، فإذا وضعنا رقم عمر هيكل «أردیبیثیکوس – رامیدوس»([30]) الذي انتشله تيم وايت من طبقات الأرض في شرق الحبشة وقارناه مع زمن نهوض الحضارة المصرية وحملة بناء الأهرامات؛ فإن الرقم يقترب من واحد إلى ألف، أي أن رحلة الحضارة الإنسانية تمثل الصفحة الأخيرة من كتاب «قصة الإنسان» الذي بلغت سماكته ألف صفحة، وهذا يفصح عن حقيقة مزلزلة عن الزمان الطويل الذي قضاه الإنسان قبل دخول حياة الحضارة والمدينة، وتُضاء الآية القرآنية إضاءة جديدة في ظل هذا الكشف المثير: {هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً}([31])

وكيف سيكون شيئاً مذكوراً وهو لم يدخل التاريخ بعد، الذي سيكتب عن رحلته، فالإنسان حتى قبل عشرة آلاف سنة كان يأكل الوحوش والوحوش بدورها تأكله، وكان أقرب إلى العري، كل همّه أن لا يموت جوعاً، وبقي الوضع هكذا حتى دخل مرحلة الثورة الزراعية؛ فتخلص من ضغط الخوف من الموت جوعاً لأول مرة في تاريخه الطويل، منذ عهد إنسان «تيم وايت» الذي أيقظوا عظامه من مضجعها للدراسة والبحث!!

إنسان العالم الأنثروبولوجي الأمريكي «تيم وايت» والذي أعطاه اسم «جذر الإنسان القادم من الأرض» (أردي بيثيكوس راميدوس) عندما مات كان شاباً يافعاً، تشهد على ذلك أضراسه الطاحنة المكتملة، ولكن طوله لم يتجاوز «120» سنتيمتراً!! يمشي منتصباً على قدمين، طويلاً بما فيه الكفاية، ولكنه أقرب أن يكون أنثى التي هي في العادة أقصر من الرجل. ومن عظامه المتناثرة التي بلغت حوالى 106 قطع أمكن تحديد معظم أماكنها من الجمجمة والكتف والحوض والذراع والأطراف السفلية، وأهم ما تم الوصول إليه وأكثره مدعاة للإثارة رؤية اليد والقدم كاملتين، لأنه من القدم يُعرف طرف من المشي المنتصب، ومن اليد قصة تحررها وانطلاقها للإنتاج، بدلاً من الاعتماد عليها في المشي، كما هو الحال عند الغوريلا والشمبانزيا وقرد البابون، فمع تحرر اليد انطلق الإنسان نحو ثورة تصنيع الأشياء، فقفز من مستوى السكين الحجرية إلى التكنولوجيا النووية، وهو فارق هائل بين مخلوقين، ومفرق طريق بينه وبين القردة وبقية الحيوانات، بين مصير مهدد بالزوال والانقراض، ومصير كائن يسيطر على الأرض ويستعد لإعمار بقية الكواكب، أو حتى إفناء نفسه.

مناجم عجيبة أغلى من الذهب والماسقوامها عظام الأموات!

هذه القطع العظمية الثمينة تعتبر أهم من مناجم الذهب وينابيع البترول ومستودعات الذخيرة، فهي أهم ثروة تمتلكها أفريقيا، لأنه من دراسة هذه الحفريات يمكن تحديد بزوغ الفجر الإنساني، وفي أرضها كان مهد الجنس البشري، وأهمّ مكان للبحث الأنثروبولوجي هو شرق أفريقيا، فمنها أشرق مجيء الإنسان للعالم، ولعل مصدر آدم وحواء منها، فلا غرابة أن اعتبرت حكومات أفريقيا أن الغربيين البيض يأتون هذه المرة في قبعات استعمارية جديدة لينهبوا كنوز الحفريات بعد أن نهبوا اليورانيوم والذهب والعاج، وهو كل ما تبقى لأفريقيا مع بقايا الحيوانات التي تتعرض هي والغابات للانقراض، فتغضب الغابة للاعتداء عليها فتنتقم بتطوير أسلحة دفاعية جديدة بأطلاق الفيروسات المختبئة كما حصل مع فيروس «الإيبولا» القاتل، والذي رواه الفيلم الأمريكي الرهيب «الانفجار» (Outbreak).

لماذا انحصرت بقايا العظام الإنسانية في شرق أفريقيا؟

ويبقى السؤال، ولكن لماذا أرض شرق أفريقيا بالذات في الحبشة الجافة وتانزانيا وكينيا حيث ينسلق الدماغ تحت حر مرعب؟؟ الجواب على هذا هو في المناخ وطبيعة التربة، فمع تغير المناخ منذ حوالى ثمانية ملايين سنة بالاندفاعات البركانية قامت كتلة جبلية هائلة في الحافة الغربية من أفريقيا تصطاد الغيوم القادمة من الأتلانتيك (المحيط الاطلسي) فتحول غرب أفريقيا إلى طبيعة ذات أمطار غزيرة وتربة حامضة، فلا تبقي على شيء من بقايا العظام، وتحول شرق أفريقيا تحت تأثير الرياح الموسمية إلى طبيعة متقلبة بين جفاف وأمطار موسمية، فجفت الأرض وارتفعت الحرارة وحفظت الحفريات وبقايا العظام الإنسانية «لحسن الحظ» ، تماماً كما فعلت الطبيعة مع المصريين عندما حفظت مومياء الفراعنة، وإذا كانت التربة المصرية الجافة قد حفظت جثث الفراعنة الذين طمحوا إلى إيقاف الزمن والقبض على الأبدية، فإن التربة في الحبشة حافظت بتحنيطها الطبيعي على الهياكل عبر ملايين السنين، وكان أعظم نموذج تم الحصول عليه وهزت أخباره العالم، عندما تقدم العالم الأنثروبولوجي الأمريكي وقتها «دونالد جوهانسون» (Johanson Donald) بالكشف عن هيكل عظمي يعود إلى «2.3» مليون سنة وأخذ لقب «لوسي» (Lucy).

الكشف عن هيكل لوسي

في 3 نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 1974 عثر الأنثروبولوجي الأمريكي دونالد جوهانسون مع مساعده توم غراي على ضفة نهر «أواش» في منطقة «هدار» على بعد 240 كم شمال شرق العاصمة الإثيوبية أديس أبابا، وفي جو يغلي بحرارة 43 مئوية على بقايا لهيكل إنساني لأنثى كانت تمشي منتصبة، وخلال ثلاثة أسابيع من العمل المتواصل أمكن جمع حوالى 40% من هيكل كائن واحد، وبفحص عمر العظام في مركز «كليفلاند» للأبحاث الجيولوجية؛ أدركوا أنهم أمام أقدم كائن بشري عرف حتى ذلك الوقت، وإذ عمتهم الفرحة لهذا الاكتشاف التاريخي بقوا طول الليل يكررون أغنية البيتلز «لوسي في السماء ومعها ألماس» لهذه الأنثى التي غيبتها طبقات الأرض قبل حوالي ما يزيد عن ثلاثة ملايين من السنين (3.2)؛ فأعطوها اسم «لوسي» وأصبحت علماً على هذا الاكتشاف المثير ([32]).

تحديد العمر والمصدر

ولكن تواجهنا مشكلتان كبيرتان عند العثور على قطعة عظم، وهما تحديد العمر والمصدر!! فلماذا لا تكون قطعة العظم لحيوان أو قرد، وما هي الميزات التشريحية لهيكل الإنسان، بل التفريق بين حوض الأنثى والذكر!! ولماذا نقول عن قطعة عظم إن عمرها مليون سنة وليس ستة أشهر؟!

كيفية معرفة المشي المنتصب وأهميته

بل كيف تدخل القدم في الميزان بين توازن القسم العلوي والسفلي من الجسم فيقوم الإنسان باعتدال، ويمشي سوياً على صراط مستقيم، خلافاً للقرد والغوريلا الذي يتأرجح في مشيته، مكباً على وجهه خاسئاً وهو ذميم، وهي ميزة امتاز بها الإنسان دون سائر المخلوقات، وبالمشي المنتصب تحررت اليدان، ومع نمو الدماغ خارج الرحم ارتاح الرحم من حضانةٍ طويلة، فأخرج الإنسان بسرعة نسبية إلى الحياة في تسعة أشهر بدلاً من «21» شهراً، فنمو كل سنتمتر مكعب من المادة الدماغية تتطلب نصف نهار من الإنتاج البيولوجي، وعند الولادة يكون حجم الدماغ 750 سنتيمتراً مكعباً، فحتى يستكمل النصف الباقي –إذا أخذنا في الحساب أن الدماغ يقيس في المتوسط 1500 سنتمتر مكعب– فإنه يحتاج لاستكمال بنيانه إلى رقدة 375 يوماً أخرى في الرحم، وهذا معناه سنة أخرى كاملة! وكان لهذا التطور أهميته القصوى وانعكاسه على بناء العلاقة الاجتماعية؛ فحاجة الطفل لنمو دماغه الطويل يجعله مختلفاً عن العجل الذي يستطيع أن يمشي فور نزوله من رحم أمه، فحتى يبدأ الإنسان في الوقوف أو المشي يكون العجل خلال هذه السنة قد أصبح يافعاً قوياً، أما الطفل الإنساني فاحتاج إلى طفولة طويلة بسبب البناء الثقافي، وهذه الثورة الثقافية في تاريخ الإنسان تم تدشينها قبل مائة ألف سنة فقط، وهي فترة قصيرة في عمر الزمان، ولكنها مثل لمعة برق مقارنة مع ملايين السنوات التي دبّ فيها الإنسان على الأرض، يحاول فيها أن يحافظ على وجوده البيولوجي لا أكثر، وعاش بأعداد قليلة ضعيفة الحول، لا تعرف دورات المياه والحمام والنظافة أو الصابون، ولا التلذذ بأطايب الطعام، أو وسائل المواصلات العجيبة، فضلاً العناية الطبية التي تشبه السحر.

لعل أهم حدث في تاريخ الإنسان هو انتصابه ومشيه على قدمين، وهي قضية تعب علماء الأنثروبولوجيا في تفسيرها، ولكن أهم شيء فيها أنها واقع مدشن، ومن الناحية التشريحية يمكن فهم هذا التحول في القسم السفلي في بدن الإنسان، من خلال التحولات التالية: 1– ضاق الحوض والعمود الفقري والمفاصل الحرقفية، واقترب هذا المركّب من بعضه، فجاء مركز الثقل فوق القدمين، وتوازن قسم الجسم العلوي مع السفلي، في حين يميل القرد إلى التمايل للأمام والخلف من أجل المحافظة على توازنه. 2– في القرد يقف عظم الفخذ عمودياً وفي النموذج الإنساني يميل عظم الفخذ للداخل مما يقارب الركبتين من بعضهما بعضاً فيتحول مركز ثقل البدن مثل عمود السقالة تماماً من الرأس والصدر والحوض فوق القدمين، كما يعطي جمالاً خاصاً لحوض المرأة وركبتيها، فيمشي الإنسان بشكل عمودي متزن في حين يميل القرد إلى التأرجح، وهذا يخلع جمالاً ورشاقةً على مشية الإنسان.

كيف نقول عن قطعة عظم إن عمرها يصل إلى أربعة ملايين من السنين؟!

وهناك سؤال مثير عن عمر العظام التي يجري الكشف عليها، فالزعم الذي يقول به «تيم وايت» عن العظام التي انتشلها من أرض وادي «الرفت» في شرق الحبشة، بعمرٍ يزيد عن أربعة ملايين من السنين، يعتبر مزلزلاً حسب تصوراتنا اليومية، أو أسنانٍ متفرقة عثرت عليها الباحثة الأنثروبولوجية «ميف ليكي» (Leakey Meave) في كينيا من منطقة بحيرة توركانا، بعمرٍ قارب خمسة ملايين من السنين، وتزعم نسبتها لكائن يمشي منتصباً على قدمين. فكيف نقول عن عظم نعثر به في الفلاة أن عمره مليون سنة وليس أشهراً معدودة؟؟ إن الذكاء الإنساني توصل إلى هذا بطرق مباشرة وغير مباشرة، إما عن طريق الطبقة الأرضية التي رقد فيها العظم، أو الفحم الذي خالط العظم، وهما الطريقتان المعروفتان باكتشاف الآرغون الذي جاء من مادة البوتاسيوم المتحولة، أو الكربون 14، ولتبسيط الموضوع يمكن القول إن قبضة من تراب الأرض، بل حتى ذرة رمل ناعمة، التي يعثر فيها على قطعة عظم أو جثة أو أي بناء، يمكن تحريها في معهد الكربون 14 العالمي الموجود في جنيف (LAB – 14C) ويعتبر المعمل السحري القائد لأسئلة التاريخ الأركيولوجي والأنثروبولوجيا على مستوى العالم، بما فيها خزعات الجثث والمومياء لتحديد عمر كل قطعة. فعند تفقد الجدول الدوري للعناصر المعدنية في الوجود التي تصل إلى ما يزيد عن مائة عنصر، والتي تشكل حروف لغة التشكل الكوني والبيولوجي، فإننا نرى مادة الكربون ذات وزن ذري 12 ونظيرها 14، والنظير هو نفس العنصر مع ثقل في بنائه الذري بإضافة نيوترونات إلى قلبه الذري، فذرة الكربون تأخذ ثقلها من مجموع البروتونات والنيترونات المزدحمة في نواة الذرة، ولكن العناصر تمشي في الوجود مثل السلم الموسيقي، دوماً بزيادة بروتون واحد، وهكذا فالهيدروجين تحوي نواته بروتون واحد، وتتحول شخصية الهيدروجين بما يشبه السحر إلى شخصية مختلفة تماماً –إذا جاز استخدام لفظ شخصية– بإضافة بروتون جديد ليصبح غاز الهليوم، ولكن زيادة نيترون على بناء ذرة الهيدروجين يبقيه في لباس الهيدروجين، ولكن يصبح مثل الشخص الذي كان نحيفاً فأصيب بالبدانة المفرطة، فيبقى حاملاً لنفس مظاهر الشخصية مع تغير واضح في الشكل، وهكذا تتدرج العناصر، فمادة الليثيوم فيها ثلاثة بروتونات، والبريليوم أربعة، والبور خمسة، والكربون ستة من البروتونات، والنتروجين سبعة، والأوكسجين ثمانية... وهكذا حتى نصل إلى مادة الأرغون الغازية التي تحمل نواتها 18 بروتوناً، والبوتاسيوم التي تحوي نواتها 19 بروتوناً. ومن هذين العنصرين الأخيرين سنكتشف ساعة كونية لا تصدق في كشف مرور الزمن في حدود مليار وربع من السنين بدون خطأ يذكر، وهي طريقة تحول البوتاسيوم إلى آرغون.

ساعة كونية أدق من ساعة بيج بن لضبط مليارات السنوات

والآن حتى نفهم كيف تعمل هذه الساعة الكونية لا بد من فهم الآلية الخفية التي تعمل بموجبها، فآلية عمل الساعة هنا ليست «زنبرك – نابض» كما أنها ليست بطارية، أو عمل عن طريق الخلايا الضوئية، بل بطريقة كونية فريدة تجعلنا نفتح أفواهنا من الدهشة لكيفية عملها. لنستمع إلى الباحث في هذا المجال السيد «ميشيل كرامل» (Kraml Michael)([33]) الذي يعمل في جامعة هانوفر، ويعتبر أحد مركزين في ألمانيا متخصصين في الكشف عن عمر الحفريات، سواء الأنثروبولوجية التي تمتد لملايين السنين، أو المشاكل الأركيولوجية، التي تسحب في الزمن حتى خمسين ألف سنة، بالاعتماد على ساعتين: 1– ساعة الكربون 14 التي تنفع في تعيين عمر جثة أو أهرام أو نصب تذكاري، يرجع عمره عشرات الآلاف من السنوات، و2– ساعة «البوتاسيوم – الآرغون» التي تنفع في الأبحاث الكونية ومنها الأنثروبولوجية، التي يرجع عمرها ملايين السنوات، بل حتى معرفة بداية الحياة على الأرض وعمر الأرض، لأن نصف عمر تحول ذرات البوتاسيوم يتطلب مليار وربع من السنوات، في حين يتطلب تحول ذرة الكربون إلى نشادر إلى «5730» سنة.

كيف تعمل هذه الساعة الكونية المدهشة؟

يقول «كرامل» إن العثور على الحفريات (Fossilien) عمل شاق، والأصعب منه الفوز بأسرارها، كم عمرها يا ترى؟ ولمن تعود؟ والأسوأ من كل هذا أن العظام التي يتم الحصول عليها هي في الغالب أجزاء محطمة ونثارات متفرقة، والتحدي هنا في إعادة تركيبها وتصنيعها لتعطي معنى. وحقل التقنية التي نستخدمها هو في هذا الحقل الصعب والمثير. انحنى «ميشيل كرامل» فوق المكروسكوب الذي يعمل بطريقة «الستيريو» بتركيز بالغ، فكلا العدستين كانتا مباشرة فوق شريحة زجاجية، والمحتوى مجموعة غير مرئية من الفتات والتراب التائه؛ معظمها لا تتجاوز حبة رمل، ومصدرها بقايا بركانية، وعليها عكف هذا الباحث ذو 33 سنة بهمة لا تعرف الكلل، فعن ماذا يجري البحث؟ إن ما يبحث عنه هذا العالم هو أشدّ دقة من عمل الصائغ وخبير الألماس وتاجر اللؤلؤ، فهو يريد استنطاق ذرة الرمل هذه عن عمرها. إن زبائن هذا العالِم هم معظم المهتمين بفترة ما قبل التاريخ، أركيولوجيون وبالنتيولوجيون وباحثون في قشرة الكرة الأرضية ودارسون للمناخ. الكل نهم لمعرفة عمر الصخور، والكل يعس لمعرفة الأحداث الهامة التي وقعت في فترة ما قبل التاريخ، فالتاريخ لم يكتب إلا مع تدشين الكتابة التي اخترعها الإنسان قبل خمسة آلاف سنة فقط، الكل يعاني من نفس المشكلة، فحتى يأخذ أي عظم أو حجر تم العثور عليه واختُلف عى أهميته العلمية، لا بد من تقدير عمره الكوني قبل كل شيء، وإلا فباب الكذب والادعاء لا نهاية له.

حبيبات الكريستال التي عكف على دراستها العالم الألماني «كرامل» تعود لاندفاعات بركانية قديمة، خبأت في طياتها ساعة لا تخيّب الظن!! فبعد أن بردت الحمم البركانية «اللافا» (LAVA) بدأت ساعة في العمل فوراً كما يفعل مراقبو المباريات الرياضية، حيث ترجع الساعة في النهاية إلى الصفر. ولكن ما طبيعة الزمن الذي يُقاس بموجبه عمل هذه الساعة؟؟ لقد عرف أن بداخل هذه المادة ذرات تتهاوى فتنقلب طبيعتها بعد حين، والحين هنا في ذرات الفحم آلاف السنوات، فنصف عمر تحول ذرات نظير الكربون إلى مادة الآزوت تبلغ 5730 سنة بالمتوسط، بمعنى أنه لو كان داخل المادة ألف ذرة من مادة نظير الكربون فإننا سنجد بعد مرور 5730 سنة خمسمائة ذرة من نظير الكربون وخمسمائة ذرة ذات شخصية مختلفة هي ذرة الآزوت. إن ثقل المادة أو الوزن الذري بين ذرة نظير الكربون 14 وغاز الآزوت لا يتغير فهو نفسه 14. ذرة نظير الكربون كانت تحوي في نواتها ستة بروتونات وثمانية نيترونات، وذرة الآزوت تحمل في نواتها سبعة من البروتونات وسبعة من النيترونات. الذي حصل حسب قانون «قوى النواة الضعيفة»([34]) أن أحد النيترونات تحلَّل فأطلق إلكتروناً وتحول بذلك إلى بروتون، فارتفع بذلك عدد بروتونات المادة إلى سبعة، فانقلبت المادة إلى خلق جديد وشخصية مختلفة للغاية، فبعد أن كانت مادة الفحم السوداء، تحوّلت إلى غاز النشادر الخانق مثير الضحك روح السماد النباتي، والمشترك مع الأكسجين في الغلاف الجوي بكمية الثلثين. هذا التحول يتم وفق ساعة لا تخطئ، فإذا مرت 5730 سنة أخرى كان عدد ذرات نظير الكربون 250 وهكذا، وبعد 22590 سنة (5730 مضروبة في ثلاث) يتبقى من ذرات نظير الكربون 14 (الألف) 125 ذرة فقط، فعمل الساعة هنا هو بالضبط عملية استهلاك هذه الذرات من خلال تحول طبيعتها من مادة إلى أخرى. ونظراً لعملها في مجال الآلاف من السنوات فهي تنفع في المجال الأركيولوجي أكثر من المجال الكوني والأنثروبولوجي.

معهد الكربون 14 في جنيف يدقق في عمر الهرم

مدير معهد الكربون 14 في جنيف السيد «جيورج بوناني» (Bonani Georg) يقوم حالياً بمهمة مثيرة عن عمر هرم خوفو، فهو يزعم أن بناءه اكتمل قبل 400 سنة من كل الوقت الذي اتفق عليه الأركيولوجيون حتى الآن، الذين اعتمدوا في حساباتهم على أوتاد الوقت من علماء الهيروغليفية وكرونولوجيا القائمة الفرعونية. يريد المعهد استنطاق الفحم الموجود في ملاط الهرم، فهو اللغة الصادقة التي لا تعرف التزوير والتحريف والخطأ، ولا تحابي أحداً، وليس لها مصلحة في إرضاء طرف على حساب آخر، كما يحصل في العادة للنصوص المكتوبة في التاريخ، فيخالطها الهوى والضعف والنقص البشري بكل إشكالياته.

وأما الذي يعمل عبر الكشف عن مستحاثات يعود عمرها إلى ملايين السنين، فإنه يعتمد الساعة الأخرى (تحول البوتاسيوم إلى آرغون) والتي يبلغ متوسط عمر تحول الذرات فيها حوالى مليار وربع من السنوات، فإذا كان عندنا ألف ذرة من نظير البوتاسيوم فإنه بعد 1.25 مليار سنة سيكون عندنا 500 ذرة من نظير البوتاسيوم و500 من الآرغون الجديد، وبعد 2.5 مليار سنة سيكون عندنا 250 ذرة نظير بوتاسيوم و750 ذرة آرغون، وبعد 3.75 مليار سنة سيكون عندنا 125 ذرة نظير بوتاسيوم و875 ذرة آرغون.. وهكذا فكلما كان في المادة الأكثر من الآرغون والأقل من نظير البوتاسيوم أشار ذلك إلى زمن سحيق، وكلما طفت كمية نظير البوتاسيوم إلى السطح أكثر كان عمر العظم أحدث وأقرب إلينا!! مع هذا فإن العلماء لا يعتمدون طريقة واحدة ينامون عليها، بل يُبقون على الشك في المعلومات وإعادة تقييمها المرة بعد الأخرى، واعتماد طرق جديدة وتطوير معدات باهظة الثمن، فعمدوا إلى استخدام المفاعلات النووية للتأكد من عمر العظام!! وهنا في هذا المجال فإن الفرق بين عظم يُلقى وآخر يوضع في متحف لا تمسه الأيادي وتهز أخباره العالم والمحافل العلمية، فكله متوقف على عشرة مخابر في العالم، تعطي الخبر اليقين عن عمر أي شيء يُستحضر من الأرض، سواء كانت شجرة أو مومياء، تراباً أو هرماً، مستحاثة أو عظماً، فكله له عمر ويمكن معرفة ذلك على وجه الدقة. يقف الأنثروبولوجيون اليوم متوترين حول التحليل النهائي الذي سيتقدم به «وايت» بعد سنتين من الآن عندما ينهي تحرياته حول الهيكل العظمي الجديد المكتشف، والمفاجأة ليست في العمر فقط، بل هناك من المعلومات ما يهز كل المسلَّمات التي يحاول العلماء الوقوف عندها، فالدماغ انتفخ مع الوقت، والأذرع قصرت، والجبهة تراجعت، وبرز الأنف، ودق الفم، وازداد طول الإنسان، وضاق حوضه وعرض، وتحدد الذقن، وتساقط الشعر، وتعلم الإنسان التعرّق، خلافاً للكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث بسبب عدم وجود الغدد العرقية في جلده فهو يعوض عنها باللهاث والبخر، وضمرت الأنياب، وبدأت العظام تصبح أرهف وأكثر رشاقة وأخف وزناً، وتحول القفص الصدري من الشكل القمعي إلى شكل البرميل المجوف، وتحسنت محاجر العينين، وجلس الوجه كله تحت الجبين، فازداد الإنسان إشراقاً وجمالاً، وضمرت المعدة والأمعاء، وتراجعت الحنجرة للأسفل وتكلم الإنسان فأصبح الكائن الذي يتصل بصورة راقية، فبنى المجتمع، وتطورت عنده الأحاسيس وأهمها الرحمة والإحساس بالخجل والشجاعة والإيثار والتضحية، فلم نسمع عن عشب أنه انتحر أو عن قط أنه صام، ولكن الإنسان بإرادته يفعل ما يعاكس غرائزه التي تشكلت عبر الأحقاب.

معنى المجتمع للفرد

تفكيك اجتماعي لقصة حي بن يقظان

يخيل للبعض أن المجتمع يعني كومة من الأفراد؛ وشطح خيال الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل قديماً في قصته المشهورة «حي بن يقظان»، فتصور أن عزلة الإنسان المطبقة ترجعه إلى فطرته الأساسية فيكتشف الحق والخلق وقوانين الوجود، وظن الفرعون «بسماتيك» في الألف الثاني قبل الميلاد أن «عدم» تعليم الطفل أي لغة سيجعله ينطق اللغة الأساسية للبشر.

المجتمع ليس كومة أفراد

لا يعني المجتمع كومة من الأفراد، فإذا اجتمعت طائفة من الناس في صالة انتظار في مطار لم يشكلوا مجتمعاً! ولن تقود عزلة الإنسان في الطفولة على غرار حي بن يقظان سوى إدخاله حظيرة الحيوان، وحرمان الطفل من الاتصال بالعالم الخارجي (الإنساني) يحرق عنده كل إمكانيات تطوير أي لغة على الإطلاق.

قاد تدشين هذه الحقائق الثلاث علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والسيكولوجيا (علم النفس) في مثلث مهم نحو تدشين معادلة جديدة للإنسان، تنقله من مستوى «الفرد» (Individual) إلى مستوى «الشخص» (Person)، كما أشار إلى ذلك المفكر الجزائري ابن نبي في كتابه عن ميلاد المجتمعات، وتشكيل شبكة العلاقات الاجتماعية.

ثبت من هذه المتحارجة الثلاثية قصور الفكر الفلسفي عن فهم الإنسان، وهشاشة النظرة السطحية في الحكم على أمور معقدة من حجم «اللغة» و «المجتمع» و «الثقافة» ورعب التجارب الإنسانية وقسوتها من نموذج الفرعون «بسماتيك» وملك صقلية «فردريك» الذي كرر تجربة بسماتيك بصورة أعنف، ومعنى التاريخ في تشكيل الإنسان.

المجتمع ليس وعاءً يضم كومة من البشر؛ بل «شبكة علاقات»

و «تنظيم داخلي» بين الأفراد، يخضع «توتُّر» هذه الشبكة أو «ارتخاؤها» أو «تمزق خيوطها» بفعل المرض الاجتماعي إلى «العقد» التي تشكل نقاط الضغط والجذب أو النفور، أو ما يعرف «بنقط الاتصال» الممثلة بالأفراد المشكلين للمجتمع في الشبكة، أما قوة الشبكة فمرهونة في المجتمع بالأفراد ومتانة خيوط أو قنوات الاتصال.

قصة حي بن يقظان ضرب من الخيال المجمح

تعتبر قصة «روبنسون كروزو» أو «حي بن يقظان» ضرب من الخيال الجميل، قد تقترب من شاطئ الحقيقة في القصة الأولى، وليس كل الحقيقة والواقع الثقيل؛ فعزلة الإنسان في الطفولة تضرب عليه حصاراً من عدم التطور يجعله حيواناً بالفعل، ولم يذكر القرآن عبثاً نقطة البداية أننا نخرج إلى الحياة لا نعلم شيئاً، وإن كنا نمتلك أجهزة التطور: {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}([35]).

لا يعني جهاز الكمبيوتر العملاق أي شيء بدون البرامج المدخلة عليه، والمشكلة في كمبيوتر عقل الإنسان أنه ذو حدين: فمن جهة تشكل شبكة الخيوط العصبية في الدماغ إمكانيات لانهائية في شبكات الخبرة والتعلم تقفز إلى ما فوق «الجوجول» (عشرة مرفوعة إلى قوة مائة) كما أن البرامج بالمقابل يجب إدخالها إلى الحاسوب العقلي بشكل مبكر وإلا احترق الجهاز بدون أمل في العودة، فالطفل الذي تفوته مرحلة الإمساك باللغة، بين سنوات الثلاث والسبع لن يتعلم أي لغة على الإطلاق، كما لو تدمر نظام «الدوس» (DOS) في الكمبيوتر؛ فهناك فرصة محدودة للقفزة الإنسانية النوعية هي على وجه التحديد ما قبل دخول الطفل المدرسة، وهي الفترة التي يظن الكثير أن الإنسان لا يتعلم فيها، وهي في الواقع التي يتعلم فيها كل شيء؛ فشخصية الإنسان تكون قد اكتملت كما درسها عالم النفس «ايريكسون» (Ericson) وكما أشار إلى ذلك عالم النفس «عبد الستار إبراهيم» في دراسته القيمة عن الإنسان وعلم النفس، التي أصدرتها سلسلة عالم المعرفة.

الاكتمال في صور شتى سواء الفيزيولوجي واستواء حجم الدماغ، أو التمكن من النطق والتعبير، أو تشكل الآليات النفسية العميقة من الثقة بالعالم والمبادأة واليقين؛ فقبل دخول الطفل المدرسة يكون قد قطع مرحلة دخول «الإنسان»، وكل ما بعد ذلك يبنى على هذه القاعدة

الأساسية من التشكيل الهرمي الإنساني، كما ذهب إلى ذلك عالم النفس «إبراهام ماسلو» (Maslow Ibraham) من مدرسة علم النفس الإنساني.

وظيفة الأسرة الرباعية

الأسرة إحدى المؤسسات المركزية الثلاث في تشكيل المجتمع بعد «الملكية والدين» وبدونها لا يقوم المجتمع، كما أشار إلى ذلك عالما الاجتماع «ماكلفر وشارلز بيج» (Introductory An Page Charles & Maclever by Analysis) في دراستهما الممتعة بثلاثة أجزاء عن المجتمع وديناميته الخفية. وتتمتع الأسرة بأربع وظائف أساسية، كما حدد ذلك «بيتر فارب» (Farb Peter) في دراسته

الشيقة عن «بنو الإنسان» (Kind Human) ممارسة المتعة الجنسية، الاستقلال المالي، إنجاب الإنسان والاعتراف به وأخذ اسمه ومكانته، من خلال مؤسسة يعترف بها المجتمع، وتحويل الإنسان من «الفرد البيولوجي» إلى «الشخص الاجتماعي» من خلال نقل كل التجربة الإنسانية المحصلة عبر سبعة ملايين من السنين، في جبل من تراكم المعرفة والخبرة، يمتصها الطفل خلال سنوات قليلة.

عندما يدرس طالب الطب التشريح والفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وعلم النسج، يدرس في الحقيقة التحصيل المعرفي المتراكم للجهد الإنساني خلال «كل» الفترة الإنسانية السابقة، منذ أن تعلم الإنسان النطق والكتابة.

النطق شكّل المفتاح الأول للاتصال المعرفي؛ فاللغة ذات نظام «نحوي» مفتوح تخلق قاعدة بدون حدود للاتصال، والكتابة شكلت الذاكرة الجديدة للجنس البشري، ولم يكن البشر لينموا بدون إضافات المعرفة المتراكمة عبر القرون من خلال اختراع نظام الكتابة، ومهد اكتشاف الحرف لشحنه بالمعنى، مع كل مخاطر التزييف والخطأ والقصور، ولم يكن عبثاً أن أشارت بعض مطالع السور القرآنية إلى الحرف «الم.. كهيعص.. طسم..».

لغز الحرف

هذه الحروف كانت أحد تجليات القرآن الفريدة، كنت أحار فيها عندما عكفت على حفظ القرآن في مشروع أخذ من شبابي حوالى ثماني سنوات، مع مراجعة كتب التفسير في ذلك؛ فلم تروِ نهمي حول لغز هذه الأحرف.

لم يشر القرآن بذاته إلى فك أحجيتها؛ بل تركها كما هي في غموض يتحدى العقل بدون توقف.

لغز الحرف يبقى مفتاحاً إلى فضاءات معرفية جديدة وتفسيرات انقلابية.

من الحرف تشكلت الكلمة، والكلمة نحن الذين شحناها بالمعنى فأشعت، وبنطق الكلمة حصل الاتصال وتفاهمت المجموعة الإنسانية، ومن التفاهم تكوّن الوسط الإنساني الثقافي المشترك، يتفق على سلوكيات محددة في الحياة، وباختراع رسومات معينة للّفظ تم حبس النطق في رسم محدد، وبحبس المعنى في زخرفات الكتابة أمكن تدشين المعرفة التراكمية من المعلومات، وبضخامة وعاء المعلومات على شكل كتل عملاقة انبثقت الثقافات، وبواسطة الكتابة تم نقل «الخبرات» مع كل مخاطر الكتابة، في جدلية صعبة ومتحارجة خطيرة.

جدلية الكتابة والنطق

الكتابة والنطق ينقلان المفاهيم بالصوت والصورة «بموجات ضوئية وسمعية» وبدونهما لا يحصل اتصال وتبادل للمعلومات، ولكنهما مع هذا أقنية وعرة المنحدرات، شديدة الخطورة، هشة التعامل، تخضع للدخول في متاهات لانهائية، ويصححها دوماً «الواقع» والتعامل معه؛ باعتبار أن النطق والكتابة انطلقا من الواقع؛ فهذه الجدلية في النطق والكتابة والواقع، هي آليات تفهيم وتطوير وتصحيح ديناميات التفكير عند الإنسان.

المجتمع شبكة علاقات، والأسرة تمنح الفرد اللغة والثقافة بما فيها الدين، والمجتمع يحول الإنسان من معادلة «الفرد البيولوجية» إلى معادلة «الشخص الاجتماعية»، فليس المجتمع كومة من بشر أو رزمة من «خردة» قطع غيار، ولا تصمد قصة «حي بن يقظان» للاختبار العلمي، وأخطأ الفرعون «بسماتيك» وملك صقلية المتنور «فردريك» في فهم مفتاح تعلم اللغة.

إكراهات المجتمع

المجتمع هو الذي يعلمنا اللغة، كما تمنحنا البيولوجيا «الكود» الجيني، والمجتمع يغرس فينا الدين كزخم ثقافي؛ فمن يولد في الصين سيكون بوذياً في الغالب، ومن يولد في بافاريا في جنوب ألمانيا سيكون واحداً من ثلاثة: بروتستانتي أو كاثوليكي أو ملحد، في إكراهات لا يفهمها ويتملص منها إلا من تحرر بالوعي والانتباه إلى أثر المجتمع في تشكيل الفرد، فيتعلم التسامح والاعتراف بالآخر، فيفتح أذنيه للجديد، ويدرب عقله على المختلف، وخرائطه الذهنية على المتناقضات والمتباينات.

السياسة وعلاقات القوة

اعتبر «أرسطو» الإنسان حيواناً اجتماعياً، واعتبره «أفلاطون» حيواناً سياسياً؛ فالحياة كلها سياسة، طالما كانت تشير إلى علاقات القوة، كما انتبه إلى ذلك عالم الاجتماع «ميشيل تومبسون» (Thompson Micheal) في كتابه «نظرية الثقافة» (Theory Cultural): «وإذا كانت صفة السياسي تشير إلى علاقات القوة فلا يوجد إذاً ما لا يعد سياسياً، بدءاً من تربية الطفل إلى الزواج وحتى الذهاب إلى المدرسة». ورأى «ابن خلدون» أن وجود الإنسان في المجتمع ليس «نافلة»، بل يشكل «ضرورة مطلقة»؛ فمن وجهة نظر ابن خلدون تنطلق ضرورة «وجود الإنسان» ضمن مجتمع من ضغط وإكراه حاجتين أساسيتين «الحماية» و «الغذاء». والقرآن يعتمد هاتين الحاجيتين كمشعر لنعمة الله على التميز الإنساني: {أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} (قريش: 4)؛ فيرى ابن خلدون أنه لا يمكن بحال تأمين رغيف الخبز دون اجتماع الناس وتعاونهم لحل مشكلة الطعام،

وكل مرحلة إنتاجية تحتاج إلى مجموعة من الحرف تتصاعد بدون توقف؛ فالحراثة تحتاج ما لا يقل عن تعاون ثلاث مهن «النجارة» و«الحدادة» و«الخياطة»، باعتبار سكة المحراث وخشبة الحمل وحبل الرسن للحيوان؛ لتمتد إلى الهندسة والزراعة والتعدين وهكذا. فمرحلة الثورة الزراعية أدخلت الإنسان في ورطة لم يدرك عمقها حتى هذه اللحظة؛ أنها ربطت الإنسان بأخيه الإنسان في سلسلة وحلقات حاجيات لانهائية.

الدولة واحتكار العنف وتوفير الأمن

إذا تم تأمين حاجيات «الجنة الفيزيولوجية الخمس: الطعام والشراب والمأوى والملبس والجنس» تقفز إلى السطح مباشرة الحاجة إلى الأمن الاجتماعي، ومن هذه النقطة ولدت الدولة، حيث ومن خلال احتكار العنف من طرف الدولة أمكن ضمان «أمن» الأفراد، ولكن الذي حصل تاريخياً وترتبت عليه معضلة المعضلات حتى اليوم «مشكلة السلطة» أن استغل الأفراد هذه الوظيفة الخطيرة؛ بين متحارجة امتلاك القوة الفظيعة بأيديهم وتسخير القطيع الإنساني تحت جبروتها الساحق، ومشكلة توفير «الأمن الاجتماعي».

الذي حصل هو تمتع الأفراد بهذه الميزة من قوة الدولة التي تقربهم من معنى «الإلوهية» كما صرح الملك لإبراهيم عليه السلام: «أنا أحيي وأميت».

وبتكثيف جرعة الأمن من خلال «امتلاك القوة» تفعل الدولة ما تشاء؛ فتملك ما تشاء وتعتقل وتصادر وتقتل كيفما اتفق، مما يجعلنا نفهم دعوة الأنبياء في التاريخ بتحطيم كل إلوهية للبشر، ومشكلة الأصنام أنها ليست تمراً يؤكل أو حجراً يقدّس، بل هي مشكلة اجتماعية سياسية بالدرجة الأولى.

كلمة السواء وحق الفيتو

كان هدف الأنبياء أرضياً بإرساء قاعدة مجتمع بدون طبقات، من خلال كلمة السواء: {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ}([36]) وهي الدعوة التي وجهها الرسول (ص) إلى هرقل وملوك الأرض، والتي تصلح اليوم لنقض الشرك الأعظم في العالم، وإلغاء «نظام حق الفيتو» الذي يحاول الغرب إصلاحه، بإدخال إلهين جديدين إلى قدر العالم، هما ألمانيا واليابان بعد الآلهة الخمسة؛ ليصبح مقعد مجلس الأمن فيه سبعة آلهة، يتحكمون فيه بقدر الجنس البشري في صورة مطابقة لخرافات الأساطير اليونانية عن مجلس الآلهة في الأولمب!

في وقت سابق استولى عليّ شعور ربما خطر في بال كثيرين وهم يتأملون الوجه المظلم في الحياة، والنصف الفارغ من كأس الماء، ويبقى سجين الانفرادي أكثر الناس عذاباً بفرض الوحدة عليه وسلخه عن تيار المجتمع، ولذا فالسجناء يروون قصصاً عجيبة ومشاعر غامرة، وما رواه لي أحد السجناء شعوره على النحو التالي: أمام ضغط المظالم في الأرض لم أستطع تفسيرها، ولكن الشيء الأكيد الذي قفز خيالي تجاهه شعور غريب أن أهرب من المجتمع نهائياً وأعيش في غابة!

علم الاجتماع يقدم تفسيراً انقلابيا

إن الهرب إلى غابة يقلب الإنسان حيواناً، وهو في أحسن حالاته لا يغير الواقع الاجتماعي، والمجتمعات الإنسانية تخضع للتغيير كما رأى ذلك عالم الاجتماع الفرنسي «أوجست كومت» في تحليله للمجتمع بين الجمود والحركة، فالوجود في حالة صيرورة لا تعرف التوقف.

إن علم الاجتماع في هذه النقطة يقدم تفسيراً انقلابياً ذا ثلاث عرى:

– لا يصبح الإنسان إنساناً بالمعنى الذي نعرفه بدون مجتمع، فالمجتمع هو الذي يحول كتلة اللحم من نطفة أمشاج إلى كائن سميع بصير ناطق مسؤول.

– لا يحقق الإنسان القفزة النوعية في تعلم اللغة وهضم الثقافة وتمثلها بدون مؤسسة الأسرة ضمن مجتمع.

– لا يتم أي تطور إنساني بدون جدلية الفرد والمجتمع؛ فكما أحدث المجتمع النقلة النوعية في تحويل الإنسان «الفرد» إلى «الإنسان الشخص الاجتماعي» كذلك فإن أي مجتمع لا يُفهم مفصولاً عن الزمن.

المجتمع الساكن والمتحرك

المجتمع الساكن لا يعتبر مجتمعاً، والمجتمع المتحرك لا يتقدم بدون آلية عبقرية الأفراد في دفع حركته؛ فكل تقدم الإنسان يدين إلى بضع مئات من الأدمغة المتوهجة، التي تمردت وفكرت على نسق جديد فدشّنت ثورات معرفية، من خلال عمليات قيصرية تاريخية مشحونة بالمعاناة والآلام، فقانون المعاناة يبدو أنه يمسك بقانون التطور والتغير.

بقدر ما كان هامش حرية الفرد داخل المجتمع محدوداً، بقدر توقف تقدم المجتمع التاريخي على هذا الهامش البسيط المحيد.

طفلتان في جحر ذئب؟!

في عام 1920 في الهند تم العثور على طفلتين في جحر ذئب، قُدّر عمراهما بسنتين وثماني سنوات، وفي عام 1828 تم العثور في مدينة نورمبرغ الألمانية على يافع في عمر 17 سنة بقي طول الفترة السابقة معزولاً عن الناس، وفي عام 1938 عُثر على طفلة أمريكية وُضعت في غرفة معزولة لمدة خمس سنوات، وفي عام 1899 بجانب غابة أفيرون في فرنسا تم إلقاء القبض على فتى صغير في عمر 13 سنة صمد للحياة كل الفترة السابقة يعيش في الغابة على غرار قصة «ماوكلي» للأطفال في أفلام الكرتون.

في كل القصص السابقة تكررت نفس المشاهد المروعة لطفل فقد اتصاله الإنساني مع المجتمع فتحول إلى حيوان حقيقي، ولم تكن عليه بهجة قصة حي بن يقظان، فلا يعرف النطق ولا يجيد المشي على قدمين، لا يعرف كيف يأكل أو ينظف نفسه، لا يعرف معنى اللباس والعورة والحرام، عليه مظاهر التوحش والقسوة، وينظر شذراً، ويحاول أن يعض من يقترب منه، في بانوراما حيوانية متكاملة، تُسقط كل مظاهر العقل والمدنية والرقي العقلية التي رواها لنا الفيلسوف الأندلسي، وأفظع ما في القصة أن كل التجارب التي بُذلت لتعليم هذا الكائن النطق اقتربت من الفشل المطلق، باستثناء ألفاظ محدودة مبهمة.

كان الانهيار كاملاً في عملية الانسلاخ عن المجتمع، فالمجتمع هو الذي يصنع الإنسان بشراً سوياً يمشي سوياً على صراط مستقيم.

رحلة الإنسان التطورية وظهور الإنسان الثقافي

في 3 نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 1974 عثر الأنثروبولوجي الأمريكي «دونالد جوهانسون» مع مساعده «توم غراي» عند ضفة نهر «أواش» في منطقة «هدار» على بعد 240 كم شمال شرق العاصمة الإثيوبية أديس أبابا على بقايا هيكل إنساني يعود لأنثى كانت تمشي منتصبة. وخلال ثلاثة أسابيع من العمل المتواصل أمكن جمع حوالى 40% من الهيكل العظمي، وبفحص عمر العظام في مركز «كليفلاند» للأبحاث الجيولوجية أدركوا أنهم أمام أقدم كائن بشري عرف حتى ذلك الوقت، وإذ عمتهم الفرحة لهذا الاكتشاف التاريخي بقوا طول الليل يكررون أغنية البيتلز «لوسي في السماء ومعها الماس» لهذه الأنثى التي غيبتها طبقات الأرض قبل ما يزيد عن ثلاثة ملايين من السنين (3.2 مليون سنة) فأعطوها اسم «لوسي» (Lucy) وأصبحت علماً على هذا الاكتشاف المثير.

ولم تكن لوسي الأقدم، بل وصل الرقم حالياً إلى سبعة ملايين من السنين. وهذا الرقم ليس بداية الإنسان بل قد يصل الرقم إلى عشرة ملايين كنقطة بداية لظهور الإنسان المنتصب. وقصة لوسي هذه تعلمنا أن الإنسان أقدم بكثير من كل تصور. والمفكرون قديماً ومن كل الثقافات لم يجمح بهم الخيال أكثر من بضعة آلاف من السنين. فالطبري قدر عمر الوجود من البداية إلى النهاية في سبعة آلاف سنة. وشرَّاح العهد القديم جزموا ببدء الكون بسنة 4004 قبل الميلاد. وربما ذهب الفرس إلى حدود سبعين ألف سنة. ولكن صاحب كتاب «نهاية الكون» «فرانك كلوز» كان حكيماً حينما نقل عن الهنود في أحجية نقل الحجارة أن الكون يعود إلى عشرة بلايين من السنين([37]). أما الفلاسفة مثل ابن رشد فقد تورطوا في فكرة أزلية الكون.

كذلك يختلط الأمر عند نقطة هل وجد الإنسان دفعة واحدة أم أنه نشأ أطواراً؟ وفي القرآن إشارات لطيفة إلى أن الخلق تم في ستة أيام، فلم يحدث دفعة واحدة. وإذا كان هذا صحيحاً فقد تكون نفس خطة المراحل قد طبقت على خلق الإنسان فخلق أطواراً: {مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً}([38]). والقرآن يفيد أن الخلق في حالة زيادة «يزيد في الخلق ما يشاء»، وهذا يعني أن خلق الكون لم ينتهِ بل هو في رحلة تراكمية متتابعة، مثل اللوحة التي لم يكتمل رسمها بعد. وأن هناك من الخلق ما سوف يظهر ولا نعلمه «ويخلق ما لا تعلمون». فهذه ثلاث حلقات في فهم الخلق الإلهي؛ بأن الخلق يتم «أطواراً». وأن الخلق لم ينتهِ بل يزداد بدون توقف، وأن هناك من

الخلق ما لا نعلمه سوف نعلمه، وأن هناك النشأة الآخرة: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ}([39]).

وهذا يقول بكلمة ثانية إن الشكل أو الموديل الحالي للجنس البشري ليس نهاية الرحلة. فكما كنا نحن «الهومو سابينز» العتبة التي قفز إليها «الهومو إيركتوس»، كذلك قد يقفز «الهومو سابينز» إلى عتبة جديدة، فيخرج نوع لا يقتل ولا يسفك الدماء، وهو جواب الله على الملائكة وهي تسأل عن مغزى خلق الإنسان «القاتل» قالوا «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: «إني أعلم ما لا تعلمون». فنحن ما زلنا على ظن الملائكة ولم نحقق بعد «علم الله» فينا. وما زال الجنس البشري بكل أديانه وثقافاته يؤمن بالقتل سبيلاً لحل المشكلات تحت أسماء شتى من الانتحار والاستشهاد، وهي لا تزيد عن صور جديدة لتقديم القرابين البشرية العادة القديمة التي نهانا إبراهيم عليه السلام أن نقدمها فقال خصومه: حرقوه، فقال الله: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. كما أن هناك مخلوقات أخرى قد تتوفر الفرص للاجتماع بها: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}([40]). وأنواع الإنسان المنتصب التي ظهرت على وجه الأرض كثيرة زادت عن عشرة، انقرضت كلها وبقي الإنسان العاقل المعروف ب «الهومو سابينز». وآخر نوع انقرض منها قبل 27 ألف سنة هو إنسان «نياندرتال» الذي اكتُشف عام 1856 للمرة الأولى عند مدينة «دسلدورف» الألمانية. وكانت التقديرات الأولية لظهور الإنسان العاقل (الهومو سابينز) تعود إلى حوالى أربعين ألف سنة، وهو الكائن الثقافي الناطق والذي استخدم الأدوات والحلي واعتنى بطقوس الميت ورسم الحيوانات على جدران الكهوف. ولكن الكشوفات الحديثة في ألمانيا التي أعلن عنها «ديتريش مانيا» دفعت الرقم إلى عشرة أضعافه، فقد كشف عن 28 جمجمة وفك سفلي وتسعة أسنان تعود إلى 370 ألف سنة. وكلها تفيد عن وجود إنسان استخدم الأدوات وطارد الوحوش وواجه السباع وقتل الماموث وتغذى بلحم الضواري.

وقصة عمر الكون وتاريخ الأرض أو وجود الإنسان على الأرض أثارت خيال الناس؛ فمنذ متى وجدت الأرض؟ ومتى خلق الكون؟ ومنذ متى مشى الإنسان على الأرض؟ والأهم هل الإنسان القديم هو نفس الإنسان العاقل الثقافي الذي ننتسب إليه؟ ويُعتبر كتاب «داروين» حول أصل الأنواع والإنسان هو حجر الزناد في قدح الأفكار حول منشأ الحياة والإنسان والرحلة التطورية ونشوء علوم جديدة مثل علم الإنسان «الأنثروبولوجيا» أو علم طبقات الأرض من الآركيولوجيا والباليونتولوجيا. وعندما طرح «تشارلز داروين» آراءه في عامي 1859 و1871 قامت ضجة كبيرة بدون مبرر، وكان ذلك بعد رحلة سفينة «البيجل» التي أوحت إليه بأفكاره حول وجود الكائنات وآلية تطورها من خلال الانتخاب. لأن العلم يعدل نفسه بنفسه. ولو كانت الأفكار حول طفرة الجينات التي كشفتها

«باربارا مك كلينتوك» من نيويورك وكذلك قوانين «مندل» في الوراثة معروفة لتم استقبال الأفكار بهدوءِ علمي أكثر. فليس أعظم من العلم ولا أروع من السلم. وداروين لم يتكلم عن الخالق بل عن الخلق، وطبق الآية القرآنية فسار في الأرض فنظر كيف بدأ الله الخلق. والأفكار الفلسفية حول هذا الموضوع قديمة وجريئة مثل الذي جاء في مقدمة ابن خلدون عن تحول الأنواع، وأن آخر مستوى في النوع عنده استعداد أن يتحول إلى أفق المستوى الذي بعده، وطبق فكرته هذه على الجماد ثم الحياة من نبات وحيوان ووصولاً إلى الإنسان. ولكن هذه الأفكار ماتت في ثقافتنا وتم إحياؤها في ثقافات أخرى.

مع هذا فالفكر الفلسفي ليس مفتاح الوصول إلى حقائق الأشياء، بل اعتماد أساليب جديدة لكشف الحقيقة، أي فهم لغة جديدة حروفها ليست نطقاً هجائياً، بل حديث من نوع آخر. كما عبر عن ذلك غاليلو أن الطبيعة مطبوعة بلغة رياضية خاصة، فإذا فهمناها استطعنا قراءة لغة الكون وفهمها بسهولة، أو هكذا خيل له.

والقرآن يقول عن الأعضاء إنها تتحدث يوم القيامة: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}([41]) كما يقول القرآن عن الأرض يوم الزلزلة إنها ستتحدث بحديث مختلف: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}([42]).

وحينما يتحدث القرآن عن الوحي يقول إنه موجود في عدة مستويات بما فيها حديث النحل و«أوحى» ربك إلى النحل، و«أوحينا» إلى أم موسى أن أرضعيه، أي إن الوحي ظاهرة كونية ولكنها متعددة الصور والتجليات كما يقول الفيلسوف محمد إقبال. وحتى الحديث يشير إلى الوحي النبوي أنه كان بأشكال «وأشده ما كان من نوع الجرس» وفي القرآن: {إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ}([43]).

وكذلك الحال في لغة الأرض التي تم استنطاقها حالياً فدلّت على رحلة الإنسان التطورية عبر ملايين السنين. وعبر عن هذه الفكرة بشكل آخر المؤرخ البريطاني «هـ. ج. ويلز» في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» حينما اعتبر أن الجواب عن هذه الأسئلة لا يأتي من الكتب بل من الأرض. ويعتبر «سجل الصخور» هو الوثيقة التي تنير الطريق لمعرفة مثل هذه التطورات المفيدة. وهي رحلة شاقة للغاية فقال: «إن صخور العالم ليست طبقات مرتبة إحداها فوق الأخرى ترتيباً ييسر على الإنسان جهد قراءتها، فهي لا تشبه الكتب ولا الصفحات في أية مكتبة، بل هي ممزقة مهلهلة مقذوفة مقطوعة أو مدفونة هنا وهناك، قد زالت معالمها، فهي أقرب شيء بمكتب عمل

سيء النظام، بعد أن أصابته بالتوالي قذائف المدافع، وعبثت به يد احتلال عسكري معادٍ، ونالت منه يد السالبين، وصدعه زلزال وأصابه شرر فتنة عنيفة، واشتعلت به النيران، ولبث الناس يطئون سجل الصخور ذاك وهم لا يشعرون به مدى أجيال لا تحصى».

إن التاريخ الفعلي للإنسان لم يبدأ بعد إذا أخذنا بعين الاعتبار الامتداد الزمني الرهيب لتاريخ الأرض والذي حدد حالياً ب 4.6 مليار سنة. ثم الرحلة البيولوجية التي بدأت بعديدات الخلايا قبل نصف مليار سنة واعتمدت الإنجاب الجنسي، مقارنة بالثورة الزراعية التي لم تدشن إلا منذ تسعة آلاف سنة، والحضارة التي بدأت قبل ستة آلاف سنة، والكتابة التي اختُرعت قبل خمسة آلاف سنة فقط، والمطبعة التي حفظت الكتابة قبل خمسة قرون، ولم تقفز بشكل نوعي في الاستخدام إلا منذ عشرات السنوات. ولم يستخدم البخار إلا منذ 200 سنة. ودخلت الكهرباء الصناعة منذ 120 سنة. ولم تستخدم الذرة سلمياً إلا منذ ثلاثين سنة. وكل الإنجازات الإلكترونية والطبية وتقنية الاتصالات وثورة المعلومات ليس لها أكثر من عقدين فقط من الزمان.

فما الذي ينتظر الإنسان إذاً؟ وهل التاريخ ختم عليه وانتهى كما زعم «فرانسيس فوكوياما» أم أننا أمام بداية التاريخ؟ وبماذا يختلف فوكوياما عن العجائز في بلادنا الذين كانوا يقولون: تؤلف ولا تؤلفان؛ أي إن العالم سينهدم مع دخول الألف سنة القادمة، وإن التاريخ الهجري لن يستمر في الألف الثانية، أو كما كان يقول لي جماعات «شهود يهوه» الذين اجتمعت بهم في ألمانيا إن المسيح سينزل إلى العالم بعد خمس سنوات فقط وإن الكون سينتهي. وكان هذا عام 1978 ولم ينزل بعد.

ولفهم مسيرة الإنسان على وجه الأرض يجب أن نفهم مسيرة الكون والحياة قبل رحلة الإنسان، فهناك ثلاثة انفجارات رسمت قدر الإنسان: الانفجار «الكوسمولوجي» ثم «البيولوجي» وأخيراً «الثقافي» والأخير هو أهمها. فأما علم الكوسمولوجيا (علم الكون) فإنه يخبرنا أن الوجود انفجر من نقطة رياضية أصغر حجماً من بروتون واحد، في صورة كرة نارية مروعة في لمح البصر لتتشكل كل المجرات وعالم السدم التي نراها اليوم، وهو حدث تم قبل حوالى 13,7 مليار سنة، ويُعرف تحت نظرية الانفجار العظيم الكوسمولوجي (Theory Bang Big). أما علم «الباليونتولوجيا» وعلم تاريخ الأرض فيضيف إلى معلوماتنا نبأً مفاده أن رحلة البيولوجيا استهلكت معظم طاقتها في إتقان تركيب «الجينات والكروموسومات» في رحلة دامت ثلاث مليارات من السنين. وبدأت مع الخلية الوحيدة بدون نواة ثم بنواة. وبخلية بدون أكسجين (لاهوائية) لتتحول بعد انتشار الأكسجين في الغلاف الجوي إلى خلية «هوائية» في معظمها، أي تعيش على الأكسجين، ومنها جسمنا الذي لا يصمد لفقدانه أكثر من خمس دقائق، وهو السبب في حالات موت الدماغ

بانقطاع الأكسجين عن التنفس واحتراق المخ. وبالنسبة لعديدات الخلايا فقد عمرت البسيطة قبل 530 مليون سنة بانفجار «بيولوجي» وفي زمن قصير وبزخم مروع في فترة تعتبر كأنها ومضة عين في عمر الكون استغرقت حوالى خمسة ملايين من السنين، ومنها تدفقت كل الكائنات المعروفة حالياً، مما جعل العلماء يطلقون اليوم على هذه الظاهرة اسم «الانفجار البيولوجي». أما علم «الأنثروبولوجيا – علم الإنسان» فإنه يتحفنا بخبر مثير عن رحلة الإنسان التي بدأت قبل أكثر من سبع ملايين من السنين، ومرت بثلاثة انعطافات هامة: «الأولى» مشى فيها الإنسان منتصباً، وبها تحررت اليدان، ومن الدماغ واليدين ولدت الحضارة. وهي ميزة إنسانية انفرد بها عن كل الكائنات، وانتبه لها «ابن خلدون» فاعتبرها في مقدمته أن اليد والفكر كانا وسائل بناء المدنية. و«المرحلة الثانية» اعتمدت نمو الدماغ ليصل في النهاية إلى حوالى 1350 سنتمتراً مكعباً في المتوسط، وهذا كانت له آثاره في الارتباط الاجتماعي واعتماد الإنسان على والديه، بسبب مجيئه إلى العالم وهو غير مكتمل، فدماغه مع الولادة يصل إلى حوالى 750 سنتمتراً مكعباً، أي نصف حجمه المعروف، خلافاً للحيوانات التي تولد مكتملة الدماغ، فتنفصل عن والديها، فلا تنمو اجتماعياً، وهكذا تحول الإنسان إلى كائن اجتماعي. و«المرحلة الثالثة» هي دخول الإنسان العتبة الثقافية وهي مرحلة ما زالت موضع الجدل.

وحسب السجل الأنثروبولوجي فقد مر التطور الإنساني في مراحل من الذي كشفه العالم الفرنسي «برونيت» في تشاد أو الأمريكي «تيم وايت» في الحبشة، وأخذ اسم «أرديبيثيكوس راميدوس» ويعود إلى 4.4 مليون سنة. ومروراً بهيكل «لوسي» الذي ذكرناه وأخذ اسم «أسترالوبيثيكوس أفارينيسس» وعمره يتراوح بين 3.2 إلى 3.4 مليون سنة. أما «هومو إريكتوس» الإنسان المنتصب فقد بدأ رحلته قبل 2 مليون سنة. وكان مصنفاً حتى الآن أنه مرحلة عابرة بين القردة العليا والإنسان العاقل الذي أخذ اسم «هومو سابينز». وكان السؤال حتى اليوم عن التحول الذي طرأ على إنسان «الهومو إريكتوس» فقفز به إلى عتبة الإنسان الناطق. وتدور التخمينات حالياً حول دور الغذاء. ويبدو أن تناوله للحم هو الذي دفع الدماغ للزيادة في الوزن حتى دخل العتبة الحرجة من نمو النورونات، وهي فوق الألف غرام ومنها انبثق الوعي. وهكذا فالجدل المحتدم حالياً الذي ظهر في اجتماع علماء الأنثروبولوجيا في مدينة هاللي الألمانية في نهاية عام 2003 أن ما دفع الإنسان للرقي ليس الانتخاب الجيني بل التطور الثقافي. وهو الأمر الذي كشفت عنه آثار الإنسان التي تقدم بها «ديتريش مانيا» من جامعة «يينا» في أن الإنسان الثقافي ظهر أبعد بكثير مما نتصور، فلم يبدأ رحلته قبل أربعين ألف سنة، بل قبل 370 ألف سنة. حيث تم جمع 28 جمجمة وفك سفلي وتسعة أسنان في منطقة «بيلتسينجسليبن» (Bilzingsleben) قريباً من مدينة إيرفورت. بالإضافة إلى أدوات ورماح وحلي وبقايا من أكواخ كلها تدل على بدء رحلة الإنسان

الثقافي أبكر بكثير مما نعرف. وأهمية الكشف الجديد أن «الهومو سابينز» جاء كطبقة علوية فوق إنجازات «الهومو إيركتوس» (الإنسان المنتصب). وحينما نتأمل الرحلة البشرية التي بدأت قبل سبع سنوات ثم ننظر أن معظم إنجازات الجنس البشري تمت في القرن العشرين، وأن أعداد البشر لم تتزايد كانت أيام «الهومو إيركتوس» لا تزيد في القارات الثلاث عن 600 ألف إنسان وعددنا حالياً يزيد عن ست مليارات، وأننا جميعاً لآدم وآدم من تراب. نعرف أن الرحلة البشرية لم تبدأ بعد، وأن الحضارة الأرضية ستقلع حينما نتخلص من عوائق اللغة والثقافة والجغرافيا ويعلن ولادة الإنسان عالمي الثقافة، وهو أمر سوف يحدث قطعاً في مدى القرون القادمة. وهو ليس بشيء في عمر الأرض أو تاريخ الإنسان: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً}([44]).

جدلية الفرد والمجتمع

بعد اندلاع الثورة الفرنسية بعشر سنوات، وقبل أن يغلق القرن الثامن عشر بعام واحد، ضجت فرنسا والأوساط العلمية من حدث صدم له المجتمع الفرنسي وترك الناس حيارى في التفسير والتعليق، وسببه العثور على إنسان عارٍ من غابة «أفيرون» أشبه بالذئاب منه بالإنسان. ففي شتاء ذلك العام (1799) ظهر للناس طلباً للدفء والغذاء صدفة، فأمسكوا به بعد عناء([45]) كما هي في قصة ماوكلي الطفل الذئب الذي عرض في مسلسل للأطفال.

كان الطفل في حدود الثالثة عشرة من العمر، قذراً تفوح منه الروائح المقرفة، عارياً تماماً من أي لباس، لا يعرف معنى العورة، شرساً يعض ويخمش يد كل من يقترب منه، لا يمشي بشكل منتصب، بل منحنٍ وأقرب للحيوان، ويهز جسمه طول الوقت، يروح ويغدو وكأنه في قفص الحيوانات، وبين الحين والآخر تعتري جسمه تقلصات مخيفة، كما كانت تعبيرات وجهه تخلو من أي مشاعر رحمة أو تودد.

وقف الناس ينظرون إليه متأملين، فهو يمثل من زاوية «التكيف الممتاز» مع الطبيعة، أي يمثل الصنف المتوحش النبيل، كما كان يدعو إليه المفكر الفرنسي «جان جاك روسو» بالعودة إلى الطبيعة لأن الحضارة هي المرض! فالطفل كان ذا بنية مدهشة، قوية ومقاومة للمرض، فقد استطاع أن يقاوم الموت كل السنوات الطويلة وهو عارٍ، ونحن نسقط للرشح أو التهاب الصدر مع لفحة هواء وبرد بسيط. ورأى فيه فريق آخر الهوة المرعبة التي يمكن أن يهوي إليها الإنسان في عريه المطلق وقذارته البهيمية، عندما يعيش لوحده محروماً من المجتمع، في حين حمد اللهَ الفريقُ الثالث على نعمة العيش في مجتمع إنساني مظلل بالأمن والرفاهية.

الشيء المهم في هذه الحادثة أنها كانت محرضاً للدكتور «جين مارك إيتار» في دراسة هذا المخلوق، حيث اختلف فيه فريقان: هل هو أبله رماه ذووه في الغابة؟ أم هو إنسان قد عاش في الغابة منذ أيامه الأولى؟؟ وأصرّ الدكتور إيتار على أن هذا الكائن ليس بإنسان «أبله» في حال من الأحوال، فهو لا يتصرف كإنسان أبله، بل هو شيء مختلف تماماً، إنه إنسان لم يتصل «بالمجتمع الإنساني» منذ أن بدأت حياته على هذا الكوكب.

صمم الدكتور إيتار على تجربة مثيرة للغاية، هي إعادة هذا المخلوق إلى حظيرة المجتمع، وأعطاه اسم «فيكتور» ومرّت التجربة لعدة سنوات.

حصيلة تجربة الدكتور إيتار مع فيكتور!!

لم تكن التجربة سهلة، فهو لا يعرف الانتصاب ولا لبس الثياب، ولا تناول الطعام أو قضاء الحاجة، ولا أصول التعامل أو آداب اللياقة الاجتماعية، وقبل كل هذا لم يكن ينطق بكلمة فرنسية واحدة.

ومن خلال تربية طويلة ولعدة سنوات تقدّم الصبي قليلاً فأصبح يعرف كيف يزرّر ملابسه، أو يتبوّل، ينتصب نوعاً ما، ويتصرف بشكل معقول، ولكن الشيء الذي استعصى هو اختراق «حاجز اللغة»!! كانت اللغة هي العائق الرهيب الذي تحدّى الدكتور «إيتار» على الرغم من كل المحاولات المضنية خلال عدة سنوات. نعم، استطاع الطفل أن يفهم بالسماع بعض الكلمات الفرنسية، ولكن شفتاه انحبست عن نطق أي كلمة، كما انعقل لسانه عن التعبير بأي جملة واضحة سليمة التعبير، وكانت النتيجة التي خرج بها الدكتور إيتار أن المصيبة التي حلّت فوق رأس هذا الصبي ليست بلهاً أو قصوراً عقلياً، بل العزلة الاجتماعية التي طوّقت مصيره بظلمات غير قابلة للانفكاك!! فكتب يقول: «يأتي الإنسان إلى هذه الكرة الأرضية بدون قوة جسدية وبدون أفكار تولد معه، وغير قادر بذاته على متابعة قوانين طبيعته الأساسية التي ترفعه إلى قمة المملكة الحيوانية، ولا يستطيع الوصول إلى المركز المرموق الذي اختصته به الطبيعة إلا إذا كان في وسط مجتمع، وبدون حضارة يكون الإنسان واحداً من أضعف الحيوانات وأقلها ذكاءً»([46]).

قصة الصبي المتوحش في فرنسا ليست الأولى في تأكيد الأثر الاجتماعي في «تشكيل» الإنسان، فهناك قصة مثيرة عن الملك «فريدريك» حاكم صقلية من القرن الثالث عشر للميلاد.

تجربة الملك فريدريك القاسية

في القرن الثالث عشر للميلاد حكم صقلية ملك موهوب فنان، هو فريدريك الثاني، الذي كان يجيد التكلم باللغة العربية، وذا ملكات متعددة من نظم الشعر والعناية بالمفكرين والفلاسفة. وفي أحد الأيام استولت عليه فكرة عجيبة عن أصل اللغة([47])، وكيف تكلم بها الإنسان منذ القدم؟ ومن أين تعلمها؟ وكيف تعلمها؟ وهل تولد معه بالفطرة؟؟ وللوصول إلى أي الأفكار هي الأصح قام بتجربة بشرية قاسية؛ فأحضر مجموعة من الأطفال حديثي الولادة ودفع بهم إلى نساء حاضنات يقمن بإطعام وتنظيف الأطفال ولكن «على الساكت» بدون نطق أي كلمة؛ فنشأ الأطفال في عالم

أخرس لا مكان للكلمة فيه، وجلس الملك فريدريك متوتراً ينتظر النتيجة ليرى ماذا ينطق الأطفال عندما يكبرون وبأي لغة سيتحدثون ويتفاهمون؟؟ هل هي العبرية أصل التوراة؟؟ أم اليونانية لغة الإنجيل التي بها كتب؟؟ أم العربية التي نزل بها القرآن؟؟ أم هي اللغة العامية التي يتحدث بها أهل صقلية؟؟ والذي حصل أن الأطفال الذين خضعوا للتجربة لم يتكلموا لغة قط، بل طواهم جناح الموت الرهيب!! فيبدو أن اللغة والكلام ومناغاة الطفل تشكل غذاءً ثانياً به يعيش، وبدونه يلاقي حتفه!!

وفي ضوء القصتين السابقتين كيف يمكن أن نفهم مثلاً قصة «حي بن يقظان» التي كتبها الفيلسوف الأندلسي «ابن طفيل» الذي عاصر الفيلسوف ابن رشد، ووصل فيها من خلال مَن عاش وحيداً في الجزيرة يرضع من لبن الغزال، إلى تعلم اللغة وإدراك الحقائق العقلية الكبرى بدون مجتمع بشري؟!! يا ترى ما مدى رصيد هذه القصة من الحقيقة؟؟

الخرافة في قصة حي بن يقظان وروبنسون كروزو!!

تلعب الأسطورة دوراً كبيراً في إثارة الخيال عند الإنسان، ومنها قصة حي بن يقظان وكذلك قصة روبنسون كروزو بشكل أخف، وإن كانت تمشي على نفس الوتيرة، وكذلك قصة «ماوكلي» طفل الغابة الذي يعيش مع الذئاب «لالا» و «سورا» والفهد «باجيرا» الذي يعلمه حكمة الحياة، والدب «بالو»، وتدخل تحتها أيضاً أسطورة «روميولوس وريموس» اللذين رضعا من لبن الذئبة على نهر التيبر، وهما اللذان بنيا روما بعدها، ففي كل هذه القصص نكتشف أن الإنسان الذي ينشأ محروماً من المجتمع –في ضوء ما قدمناه– من المفترض أن ينشأ «لاشيء» ويصبح «لا إنسان» فالمجتمع في الواقع يشكل الإنسان ويعطيه البعد الجديد، فلا يكفي أن يولد الإنسان من أبوين منتسبين لمجتمع إنساني كي يصبح الإنسان عالماً ناطقاً متحضراً، ف «الثقافة» هنا لا تنتقل عبر الجينات (المورثات) بل هو أمر كسبي بحت، وهي كذلك حتى اليوم، فلا بد للإنسان من نشأته ضمن مجتمع حتى ينتقل من «معادلته البيولوجية» إلى «معادلته الاجتماعية». وفي الآية القرآنية إشارة إلى هذا المعنى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا}([48])، فالإنسان عندما يغادر رحم أمه إلى الأرض الجديدة يحمل الاستعدادات لا أكثر، أو هي على حد تعبير القرآن: {وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ}([49])، أو في مكان آخر {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}([50])، فالنفس الإنسانية لها تشكيلة أو تسوية خاصة بها، فأمامها رحلة تطورية خاصة بها يمكن أن ترتفع خلالها أو تهبط، فهذه القدرة «الكمونية»(Potential) هي وضع الفطرة التي أشار إليها الحديث بأن المولود يولد على الفطرة([51])، والذي يتدخل في هذا الاستعداد فيشكل الصورة الجديدة هو المجتمع؛

فالمجتمع هو الذي يمنحنا وجودنا الجديد الذي لا نشعر به بوعي واضح بكل أسف، فنحن ولدنا ولا نعرف كيف تعلمنا الكلام والتصرف والسلوك اليومي، ونظن أننا غريزياً ننظف أنفسنا كما تفعل القطة وهي تلحس شعرها، فالذي يريد أن يغير المجتمع عليه أن يفهم أموراً حيوية من مثل: ما هو المجتمع على وجه الدقة وعلى وجه التحديد؟ وكيف يعمل؟ وما هي القوانين التي تتحكم في حركته؟ وهل يخضع لقوانين عموماً؟ وهل يمشي في حركة رتيبة أم حركة ديناميكية متغيرة؟؟

لقد كشفت الأبحاث «الأنثروبولوجية» أن الفرد لن يستطيع النطق واستعمال اللغة بدون الانخراط في مجتمع، وبحرمانه من تعلم اللغة الأولى لن يقدر على تعلم أي لغة أخرى، وبالعكس فإن تأسيس اللغة الأولى سيمنحه تعلم لغات جديدة بدون حدود، بل إن تعلم كل لغة جديدة يسهل عليه تعلم لغات أخرى خلافاً لما يظن البعض أن الدماغ سيحتشد باللغات، بل ويتمكن الدماغ من الانتقال بسهولة من لغة إلى أخرى، تماماً كما في ال «دوس» (DOS) في الكمبيوتر. فالكمبيوتر يمكن أن يتقبل أي لغة على الإطلاق، وبذلك أمكن إنطاقه باللغة الإنكليزية والإسبانية والعربية وسواها، وهذا ينطبق أيضاً على العقل الإنساني. ويبقى السؤال لماذا يعجز الإنسان عن تعلم اللغة إذا فاته ذلك في السنوات الأولى من عمره كما حصل مع صبي أفيرون الوحشي الذي تجاوز الثانية عشرة من العمر ؟؟!!

يرى العلماء أن سنوات العمر الأولى حتى السابعة قبل دخول المدرسة وبواسطة السمع تلعب الدور الحاسم في تثبيت ملكة اللغة عند الطفل، ولا يُعرف على وجه الدقة من الناحية الأنثروبولوجية متى بدأ الإنسان في التصويت واستخدام الصوت في الترميز. ولعل حركات أيدينا ووجهنا أثناء الكلام توحي بوجود بقايا من تلك اللغة القديمة وهي اللغة التي يستعملها حتى اليوم «البكم»، كما أن حنجرة الطفل في السنة الأولى من العمر تشبه حنجرة الشمبانزي، إلا أن التطور البيولوجي بعد السنة الأولى هو الذي يمنح حنجرة الطفل الشكل المتطور الذي يستطيع به التصويت البشري المعهود. والمدرسة تضيف إلى هذا البعد الأساسي تطويراً جديداً هو تعلم الكتابة الذي هو اختراع بشري حديث العهد، فالكتابه قام بتطويرها الإنسان منذ حوالى خمسة آلاف سنة، في حين أن التصويت والترميز يرجع ربما إلى مئات الآلاف من السنوات، فاللغة هي أربع وظائف: اثنان أساسيتان هما السمع والنطق، وهما اللتان تعتمدهما المدارس الحديثة في إتقان اللغة على وجه سليم، أم الوظيفتان اللاحقتان، أي الكتابة والقراءة «بصوت أو بدون صوت»، والوظيفتان الأولَيان مرتبطتان بجهاز السمع، والأخريان بجهاز البصر، والأولَيان أهم بلا شك بدليل نمو الإنسان الأعمى خلاف الأصم. فالمجتمع حين يمنح الطفل اللغة فهو ينقل إليه في الواقع كل محتويات الثقافة، فاللغة هي مجموعة التصورات والمفاهيم، وهي الوعاء الاجتماعي المقدس بكل تراثه

وأساطيره وقصصه ومغامراته التاريخية الكبرى، فهي الذاكرة الاجتماعية، فينشأ الطفل متقناً اللغة ومعها كل المقدسات والمحرمات والقيم العليا الموجهة للنشاط الإنساني.

تجربة الإمام الغزالي القديمة في اكتشاف قانون الفطرة

في الرحلة العقلية التي خاضها الأمام أبو حامد الغزالي في نهاية القرن الخامس الهجري قصة طريفة جديرة بالتأمل بين الحين والآخر، فالرجل في تعطشه لإدراك الحقائق التي كان مولعاً بها منذ نعومة أظفاره استطاع أن يكسر حاجز التقليد والعقائد الموروثة كما يذكر ذلك بشكل مفصل في كتابه «المنقذ من الضلال»، وتجربته في الواقع جديرة بوضعها تحت مجهر التحليل، فوقف أمام ظاهرة «الفطرة» فقال:«إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله (ص) حيث قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه». فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليدات الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات، فقلت في نفسي إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟»([52]).

فهنا نرى أثر المجتمع في تشكيل عقلية الإنسان وإعطائه المفاهيم الأولية والقيم الأساسية التي ينبي عليها لاحقاً، وهذه شكلت عند الإمام الغزالي مشكلة عقلية كبرى، فطالما لعب التلقين الدور

الأساسي في هذه الأفكار كان لا بد من نفض هذه الأفكار وغربلتها من جديد للتأكد من صحة هذه الأفكار قبل كل شيء لأن التلقين يحمل إمكانية نقل الأخطاء، وهذه مشكلة ضخمة في تقدم المجتمع أو تحجره وموته.

ما الذي يفعله المجتمع؟ ما الذي يشكله؟ ما الذي يمنحه؟

وصل العلامة ابن خلدون قديماً إلى هذه الحقيقة فأمسك بها وسطرها في مقدمته الشهيرة، واعتبر أن «الاجتماع الإنساني ضروري ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع»([53]). وعندما أراد تأسيس هذه الفكرة اعتمد قاعدتين هما ضرورة اجتماع البشر ل «تأمين الغذاء» وتحصيل «الدفاع عن النفس»، فلا يمكن تحصيل هذين الأمرين بدون اجتماع الإنسان، فكتب يقول: «إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية

له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. وهب أنه يأكله من غير علاج فهو يحتاج في تحصيله أيضاً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس، الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف»([54]). ولمس ابن خلدون مفتاح الثورة الزراعية والانبثاق الحضاري في كلمته الأخيرة لأن تحرر الإنسان من الخوف من الموت جوعاً بفائض الغذاء كان بعد الثورة الزراعية، التي ولدت مجتمع المدينة تلقائياً، التي أفرزت التخصصات، ومنها قيام النظام السياسي ممثلاً في الدولة، التي هي استيلاء شريحة من المجتمع على دفة القيادة والتي ولدت إشكالية تاريخية لا يزال الجنس البشري يعاني منها حتى اليوم، لأن تبادل السلطة السلمي وجو الديموقراطية وتعاون كل شرائح المجتمع في العملية الاجتماعية هي أم المشاكل التي يقوم بتنظيرها الفلاسفة والمفكرون والمصلحون الاجتماعيون، فضلاً عن السياسيين، في محاولة لإدراك الآلية السوية لعملها.

دخول الإنسان مرحلة الخلق الآخر

وإذا كان لا بد من وجود الإنسان في الجماعة للتأمين «البيولوجي» على الشكل الذي شرحه ابن خلدون قديماً، فإن هذا الانضمام يقود إلى التشكيل الثقافي الإنساني، وهو الذي عكفت عليه الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة، فبواسطة اللغة ونظام الرموز دخل الإنسان مرحلة «الخلق الآخر» الذي أشارت إليه الآية، وهذا يقود إلى مفاهيم خطيرة ومزلزلة، لأنه ومن خلال اللغة يتشكل الإنسان ثقافياً، فيأخذ القيم والعادات والدين، وهذا يعني أن حظوظ الإنسان في الولادة في مجتمع ما تعطيه –على الأغلب– تشكيله الكامل بغير وعي منه، بل ويتعلق به ويدافع عنه حتى الموت، ولا يقبل أو يريد تغييره أو

تعديله، وعندما ألمس هذا الموضوع مع بعض الإخوة أشعر أن الأرض تميد من تحت أقدامهم، فلو ولد أحدنا من رحم امرأة ألمانية أو دانمركية فيا ترى كيف سيتشكل ثقافياً وما هو الدين الذي سيعتنقه؟؟

إن فهماً من هذا النوع انقلابي تماماً، ويعطي نظرة جديدة إلى الحياة، ويبني روح المسؤولية وجرأة السؤال وحرية الفكر وعدم الخوف من البحث، وإطلاقة الضمير والتسامح مع التعددية، وهذه

الفكرة هي التي زلزلت الإمام الغزالي قديماً حتى كاد أن يموت ويئس الأطباء من علاجه عندما دخل دوامة الشك، فأصيب بالدوار عندما طرح السؤال: أين الفطرة؟؟ أين العلم الحقيقي؟؟ «إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج، وقالوا: هذا أمر قد نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم»([55]).

ضغط المجتمع وعبقرية الأفراد (هامش الخلاص التاريخي)

وإذا كان المجتمع وهو يعصر الأفراد ضمن قالب المجموع (نظام الجيش) ويشكلهم على الشكل الذي يريد، فإنه يستخدم ضغطاً ساحقاً لإزالة أي بوادر انشقاق اجتماعية، فهو يتصرف كما يفعل الجسم أثناء نقل الدم أو زرع الكلية، فالمريض الذي ينزف وتصرخ كل خلية بحاجتها إلى الدم قد يصاب بصدمة مزلزلة تقتله إن لم ينقل وفق شروطه البيولوجية الخاصة، وكذلك يرفض الجسم الكلية وهو غارق في الأوساخ والقذارات الذاتية التي تحتاج إلى من ينقيها ويغسل الدم من كل هذه المخلفات اللعينة، يرفض الجسم الكلية إن لم تكن وفق الشروط البيولوجية المناسبة للبدن.

إن الحياة الثقافية هي من نفس النوعية، فالمجتمع يحافظ على مجموعة من القيم والأفكار ويدافع عنها باستماتة أمام أي خطر ثقافي محدق به، بل إن النقل الثقافي بدون شروطه الثقافية قد يؤدي إلى صدمة ثقافية رهيبة، فكما يرتج البدن وترتعش العضلات وترتفع الحرارة وتبدأ الاختلاجات من وراء اختلاف زمر الدم، كذلك تحصل التوترات الاجتماعية والثورات الثقافية والزلازل الاجتماعية، حين دخول أفكار جديدة لا يتحملها البدن الاجتماعي وليست ضمن إطار شروط الإدخال الثقافي.

إن فكر المجتمع يتشكل من عطاء الأفراد ونشاطهم وعبقريتهم الخاصة بهم؛ فهو يستقبل هذه الأفكار ويتبنّاها، ثم وبضغطه الماحق يقوم بتطبيقها على الأفراد، فليس أمامهم إلا الالتزام بهذه القيم والمحرمات، مع هذا فإن المجتمع لا يتقدم بدون «الطفرات» (Mutation) الفردية في المجتمع. يقول بيرسي كوهين في كتابه «النظرية الاجتماعية الحديثة»: «وطبقاً لهذه النظرية يوجد النظام العام في المجتمع بصورة واسعة نتيجة لممارسة القوة، حيث يستلزم إذعان وخضوع بعض الأفراد للبعض الآخر، والأفراد ينفذون ما يتوقع منهم من أعمال لأنهم أجبروا على فعل ذلك من جانب بعض الأفراد المحتكِرين لوسائل القهر والإلزام»([56])، وفي الوقت الذي يشذ فيه الفرد عن محرمات المجتمع يقع تحت قانون «الدجاجة المجروحة».

قانون الدجاجة المجروحة في قن الدجاج وطفرة الأفراد

تروي لنا والدة الدكتور الصناديقي في مدينة المنلوي المصرية أن الدجاجة التي تلد البيض فتصاب بأي نزف أو جرح بحيث تبصر بقية الدجاجات هذا الدم، فإنها تأتي إلى المكان المجروح فتستمر في نقره حتى تموت الدجاجة المسكينة بيد صديقاتها من نفس مجتمع الدجاج!! لذا تعزل الدجاجة المجروحة فوراً إنقاذاً لحياتها. والأفراد الذين يشذون عن القانون الاجتماعي قد يتعرضون للموت في مخالفة قوانينه، والفرد يستطيع –بل يجب عليه– أن يتعرى في الحمام، ولكنه لا يستطيع أن يخطو شبراً واحداً خارج بيته عارياً!! كل هذا بسبب الأصول التي تعارف عليها المجتمع، وهو الذي جعل الشريعة الإسلامية تعتمد العرف أيضاً أحياناً كمصدر من عشرة مصادر للتشريع، ولكن المجتمع يسبح في اللحظة الواحدة بين ثبات القيم والأفكار وتطوير الأفكار، وفي ركود الأفكار يتحنط المجتمع ويتحول إلى شكل «مستحاث جيولوجي»!! فيمكن فهم المجتمع إذاً بين الوضع «التشريحي» (Anatomical) الراكد (الاستاتيك) وبين الوضع «الفيزيولوجي» المتحرك (الديناميك)، فالمجتمع يبقى على حاله فلا يتغير إلى قرون إن لم يقم بعض الأفراد في عمل ريادي لتطوير أفكار المجتمع والتحرر من الأفكار السلبية الضارة، وهو الموقف الإبراهيمي في النقاش الذي دار مع قومه حين ركبوا رؤوسهم مع كل وضوح الحجة تحت ضغط الفكرة «الآبائية». فالأفراد هنا يلعبون دور «الطفرة البيولوجية» ولكن في المجتمع، فالطفرة هي ذلك التغير الطفيف نحو الأحسن في التكيف البيولوجي، وهذا هو قانون أنطولوجي وجودي، فالكائنات تتقدم والحياة تتطور، والدول تكبر ويشتد عودها، والجماعات تتسع وتنضج، والحضارات تزدهر وتشمخ، والجنس البشري في مجموعه العام يمشي نحو الأفضل. وكذلك المجتمع فهو من خلال امتصاص وتبني هذه الطفرات الفردية «المجنونة» يكتب له التقدم، فسورة «نون والقلم» بدأت بكلمة الجنون: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}([57])، وختمت بكلمة الجنون: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}([58]).

ما هو الجنون؟ ما هو السحر؟ ما هو الشعر؟ ما هي الكهانة؟

ما معنى الجنون؟؟ ما معنى السحر؟؟ ما معنى الشعر؟؟ ما معنى الكهانة؟؟ إلى ماذا ترمز هذه الكلمات؟ لقد كانت كلها تهمٌ سُلِّطت على نبينا محمد (ص)!! ونال كل الأنبياء والمصلحين الاجتماعيين ورواد الفكر والفلاسفة والعلماء وأصحاب الأفكار الانقلابية نصيباً من هذه التهمة تزيد وتنقص!! لماذا يا ترى؟ وماذا يكمن تحت هذه الكلمات؟؟!!

الجنون هو الانفكاك عن الواقع!! السحر هو التأثير المدهش بدون حدود على العقول!! والشعر هو ذلك القول المفرز من الروح في غاية الدقة والجمال والتوازن والرشاقة، وكأنه أغنية كونية تنساب من تضاعيف الوجود، والكهانة هو القول غير المفهوم وهي حالة الأفكار الجديدة التي تهجم على العقل فيصاب بصدمة فلا يفقهها من أول نطق.

كان الفيزيائي المشهور «نيلز بور» يناقش زميله الألماني «فولفجانج باولي» عندما شرح له فكرته: لا.. لا.. إن الفكرة غير صحيحة، إنها لا تحتوي قدراً كافياً من الجنون!! ويجيب باولي: أقسم لك ياسيدي إنها تحمل من الجنون الكفاية!! ولو لم يعرج بالرسول (ص) لينفك عن الواقع ويراه بصورة ثانية لما تهيّأ لاستقبال الوحي.

التاريخ كمفتاح لفهم الطبيعة البشرية

سافر صديق لي قبل فترة وترك قطته عندنا في البيت. وكنت أعلم أن هذا القط أُخذ من أمه ولم يكن عمره قد زاد عن أيام، وعاش منذ ذلك الوقت مع البشر، لكنه كان قطاً مثل باقي القطط، يأكل مثلهم، ينظف نفسه مثلهم، ويطارد الحشرات، ويحاول ملاحقة الطيور، ولو وجد فأراً لانقض عليه مثل أي قط آخر. فالقطط المولودة في ألمانيا أو ماليزيا لن تتفاوت طبيعتها، والقط لا يخسر طبيعته عندما يعيش لوحده بمعزل عن قطط أخرى، في حين أن الإنسان المولود في ألمانيا والآخر المولود في ماليزيا لن يتشابها في التصرفات أو النظرة إلى الأمور. والطفل البشري لا يتعلم الإنسانية إلا بمعاشرته لأناس آخرين. لماذا أتحدث عن الفرق بين الإنسان والقطط أو الإنسان والحيوان عموماً؟ الكل يتفق على أن هناك فرقاً بين الإنسان والكائنات الأخرى، لكن النقطة التي تبقى موضع الجدل هي كيفية أو آلية الفهم بين الحيوان والإنسان. ولندخل في الموضوع مباشرة، فلكي نفهم الحيوان نحتاج لمعرفة بيولوجيا الحيوان، ولكن لفهم الإنسان لا تكفي الخريطة البيولوجية. ربما تساعدنا البيولوجيا لفهم وظائف الأعضاء كي نتمكن من معالجة الأمراض، ولكن البيولوجيا تساهم بشكل جزئي وبسيط في فهم الإنسان في جانبه الثقافي والاجتماعي.

فحتى نفهم الإنسان نحتاج إلى معرفة التاريخ، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي عنده تاريخ. فالقطط والنمل والنحل لا تتمتع بميزة امتلاكها التاريخ، فهذه المخلوقات لها غرائز تمشي عليها منذ ملايين السنين على وتيرة واحدة ونظم منسق، لا تعرف التحويل والتبديل، وربما كانت مجتمعات النمل والنحل متجانسة وذات إنتاجية أفضل بكثير من المجتمع الإنساني، إلا أنه مجتمع راكد ساكن بدون تطوّر عبر التاريخ، في حين أن الإنسان عاش في الكهف قبل عشرة آلاف سنة يطارد الوحوش والوحوش تطارده، ونفس المخلوق وصل إلى القمر قبل عدة سنوات. فالحيوانات تعيش بغرائزها وكأنها قطار على سكة الحديد لا يحيد، في حين أن الإنسان يخرج عن هذه السكة فيقفز منها ويطير عنها. فالمخلوق الذي يمشي على خط مرسوم له ليس كالمخلوق الذي يشارك في صنع خطة، وهذه المشاركة هي أمانة الإنسان الكبرى التي أشار إليها القرآن. فالنمل والنحل والجبال والرياح اختارت أن لا تحمل هذا الثقل، فكل المخلوقات عدا الإنسان شاءت أن تسير وفق الخطة التي رسمت لها في الطبيعة، في حين أن الإنسان اختار أن يحمل أمانة ومسؤولية المشاركة في صنع خطته: {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ}([59]). التاريخ هو انعكاس لمحاولة الإنسان، وهو يحمل الأمانة الثقيلة، فيقع تارة

وينهض أخرى، ينتعش أحياناً ويعاني أخرى، ففهم الإنسان يحتاج إلى معرفة مسيرة تاريخه المعقدة والمتشعبة وإن كانت حديثة العهد نسبياً.

لماذا اعتبر هذا الموضوع جديراً بالبحث والاهتمام به؟ لأنه إن لم نعرف بعض الركائز التي يجب الوقوف عليها فلن نستطيع أن نفهم الإنسان، بل ولن نقترب في كيفية فهمه، وبالتالي فلن نستطيع المساهمة في حل مشاكلنا كمجتمعات وأفراد، وهذا بالتالي معناه أننا ما زلنا ظالمين لأنفسنا في اختيارنا لحمل هذه الأمانة الثقيلة.

الفرق بين البيولوجيا والتاريخ... بين البشر والإنسان

ناقش المفكر الإسلامي علي شريعتي الفرق بين مصطلحَي بشر وإنسان. فالبشر «كينونة» أما الإنسان فهو «صيرورة». فقال إن جميع الناس متساوون في بشريتهم، أي في كونهم من جنس البشر، ولكنهم ليسوا متساوين في الإنسانية لأن الإنسانية هي حالة من «الوعي» ولا تدل على جنس المخلوقات، فالكل يولد بشراً ولكن: {أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً}([60])، أي لا تعلمون الإنسانية، فالبشرية بيولوجية وتولد معنا، ولكن يجب أن نتعلم الإنسانية، وهي مرتبطة بالحياة في مجتمع، فالطفل الذي لا يرى أناساً آخرين ولا يعيش معهم لا يدخل الإنسانية. ولتوضيح هذه النقطة سأروي لكم عن قصة «أفيرون الوحشي». هذا الطفل المسكين الذي كان بشراً ولكن لم يعرف الإنسانية. ففي بدايات القرن العشرين وجد بعض الناس طفلاً في إحدى غابات فرنسا في حوالى الثانية عشرة من عمره، ويبدو أن هذا الطفل ألقي أو ضاع في الغابة وعاش مع الحيوانات، ووجد فيه العلماء ثروة علمية لا تقدر، فأرادوا دراسته ومراقبة قدرته على تعلم الأشياء. كان الطفل يمشي على أربع، ولم يكن يعرف الكلام، وبعد جهود مكثفة انتصب قليلاً، ولكنه لم يستطيع تعلم اللغة، بل تعلم بعض الأصوات، ولم يلبث أن توفي بعد أسابيع قليلة. فيبدو أن صدمة خروجه من محيطه قضت عليه. فهو لم يعد في محيطه الذي عاش فيه، ولم يعد يستطيع الدخول في المحيط الجديد. هذا الطفل كان أشبه ما يكون بالحيوانات. فنحن نقول هذا لأننا لا نرى فيه صفات إنسانية، ولو نطقت الحيوانات لقالت هذا أسوأ من الحيوانات، فهو لا يعرف كيف يأكل أو ينظف نفسه أو يدافع عن كيانه، أما الحيوانات والحشرات فهي تعرف كيف تتصرف أينما عاشت أو ولدت. وربما يتساءل البعض إذاً: ما هي الطبيعة البشرية؟

ظل هذا السؤال في أذهان الفلاسفة لفترة طويلة، خاصة في عصر النهضة، فعلماء النهضة أرادوا أن يعرفوا هل طبيعة الإنسان اجتماعية أم متوحشة؟

لكن السؤال مات وخرج من دائرة البحث، خاصة في فترة ما يمكن أن نسميه «ما بعد الحداثة». فربما السؤال الذي بدأ يدخل على الساحة الآن هو: ما هو تاريخ الإنسان؟ وما هي قدرة الإنسان على الخروج من تاريخ أو ثقافة معينة؟ فطالما درسنا التاريخ والثقافات المختلفة نجد أن الإنسان يصنع بشكل كبير من خلال تاريخه وثقافته، فنحن نظل حبيسي ثقافتنا وتاريخنا المحدود إن لم نتعلم الكثير والكثير حتى نغير القليل. كان الأنثروبولوجي الأمريكي الذي كان يدرس قبل موته في جامعة «مك جيل» في مونتريال يعتبر أن الإنسان ربما قد صُمم بيولوجياً كي يتشكل ثقافياً. فالإنسان يولد كشريط كاسيت فارغ يمكن تعبئته بأية ثقافة أو لغة. فلو وضعنا أي طفل عربي ومن أجداد عرب لم يغادروا المنطقة العربية مع عائلة بريطانية وعزلناه عن الاتصال بأي بيئة عربية فإنه سيتحدث اللغة الإنكليزية وبلكنة بريطانية، ولو نطق حرفاً عربياً. وهذا يذكرني بتلك النكتة التي تروي أن طالباً عربياً ذهب إلى بريطانيا لتعلم الإنكليزية، وتعب عليها حتى نطق بها، وعندما عاد سألوه: ما هو أعجب شيء رأيته في بريطانيا؟ فقال: أعجب شيء هو الأطفال هناك يجيدون الإنكليزية! ربما هذه نكتة، ولكن إذا نظرنا بعمق إلى الموضوع تجده فعلاً عجيباً، هذه القدرة على امتصاص الثقافة والقيم واللغة، وحتى ما يضحكنا ويبكينا حقاً إنها لعجيبة، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وإذا أردنا أن نعرف ما هي الفطرة فيجب أن نعود إلى القرآن ونقرأ مرة أخرى: {أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً}([61]). كثير من الناس يظن أن الفطرة هي شيء كامن في الإنسان مثل غريزة الحيوان، ولكن الفطرة هي إمكانية حدوث وتكوين اتجاهات مختلفة. فالفطرة هي التسوية البشرية، وبعدها يأتي التكوين، ولذا يقول الله تعالى {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}([62]). إن الفطرة أو تسوية النفس التي تولد مع الإنسانية هي قابليته لأن يفجر أو يتقي، فنحن الذين نفلح من تزكية هذه الطبيعة الفارغة، ونعبئها بالتقوى أو ندنّسها ونعبئها بالفجور، والرسول (ص) ذكر هذه الآيات على سبيل المثال وليس للحصر، فالإسلام أيضاً يلقن للطفل بعد أن يخرج من بطن أمه. إن معرفة هذه النقطة محورية للقيام بأي تغيير اجتماعي لأن الذي يظن أن هناك طبيعة بشرية محددة وعنده فهم خاطئ لمفهوم الفطرة فهذا لن يحمل الأمانة، بل سيظل يلوم الطبيعة البشرية، وفي هذا تحدٍّ لله الذي عرض علينا الأمانة وقبلناها، بل وفيه تحدٍّ للمنهج التاريخي الذي يعطيه الله لنا في كتابه لفهم الإنسان ولفهم الحق. إن الآيات المتكررة والكثيرة والتي تشير مباشرة إلى التاريخ تظل تحثنا على السير في الأرض والنظر في عاقبة من كان قبلنا وعاقبة المكذبين، والنظر في كيفية بدء الخلق، نمر عليها ونحن معرضون، نصم آذاننا ونعمي أعيننا ونغلق على أفئدتنا، نجلس وننتظر القدرة الإلهية، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «لن يملّ الله حتى تملّوا». وإن لم نفهم هذه المعاني فلن نفهم معنى: {إِنَّ اللَّهَ لا

يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}([63]). إن الله لم يقل لن يغير الله ما في النحل حتى يغيروا ما بأنفسهم. إن النحل والقطط لهم طبيعتهم النحلية والقططية، وهم سائرون عليها واختاروا أن يأتوا إلى الله طائعين فأوحى لهم بغرائزهم، أما نحن فيجب أن نعرف أننا نحمل أمانة، وأن التغيير يبدأ من عند أنفسنا. الله أوحى إلى الإنسانية وبعث لهم بالأنبياء ليعالجوا أمراض الأفئدة وليعالجوا الصمم والعمى الفكري. جاء الأنبياء يبنون ثقافات جديدة، ولو أن هناك طبيعة بشرية لما كان هناك تاريخ للإنسان، ولما تنوعت الثقافات والقيم. يجب أن نعرف الفرق بين معنى «وأوحينا إلى النحل» و «ليس للإنسان إلا ما سعى». هناك أنواع كثيرة من الوحي في القرآن، والتي من بينها وحي الأنبياء. والله ختم النبوة برسالة محمد، وبشرنا بطريق جديد لزيادة المعرفة البشرية، ولذا يشير القرآن إلى العبرة التاريخية والطبيعية: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} ([64]).

أوحى الله للأنبياء وللنحل، وكان التاريخ أيضاً هو وحي الله في الكون، ولهذا يحثنا الله على السير في الأرض لنعلم ماذا عمل الله بهم، لنعرف قوانين الله في التاريخ كما أصبحنا نعرف قوانين الطبيعة، كما أصبحنا نعرف بيولوجيا النحل والغرائز التي تمشيها، يجب أن نعرف تاريخ الإنسان ومسيرته حتى نستطيع أن نحمل الأمانة بشكل أفضل، ولن نعرف هذا إلا بمعرفتنا لسنن الله في من قبلنا.

الإنسانية هي بقدر معرفتنا للإنسانية

إذاً الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً. وربما الآن نستطيع أن نقول يخرج بشراً ويبدأ بتعلم الإنسانية، أو يمكن القول إن الإنسان الخام هو البشر، والإنسان المكون هو الإنسان، فأنت تخرج من بطن أمك لا تعلم شيئاً، وتصبح عربياً بقد ما تعرف العربية وبقدر ما تعرف عن العرب، وتكون مسلماً بقدر ما تعرف عن الإسلام، ولكنك لا تكون إنساناً إلا بقدر معرفتك عن الإنسانية، حتى تزيد إنسانيتنا وحتى ندخل في الذاكرة الجمعية للإنسانية. إن معرفتك لتاريخ عائلتك يعطيك الشعور بالانتماء إليهم، تعرف قصصهم وفواجعهم ونكاتهم ودقائق أمورهم، وعندما تدخل في عائلة غريبة لأول مرة تشعر بأنك لا تعرفهم ولا يعرفونك، وربما تشعر ببعض الحرج، وعندما تدخل في ثقافة أخرى يصبح عندك ما يسمى بالصدمة الثقافية، أو ما يسميه الكثيرون الغربة والوحشة، وهذا يحدث لأننا لا نعرف ليس فقط ثقافة من ندخل بينهم، بل في كثير من الأحيان تزيد وطأة الصدمة لعدم معرفتنا باللغة، فهل تريد أن تكون عندك وحشة وغربة تجاه الإنسانية؟ أظن أن إجابتك ستكون بالنفي، تريد أن تدخل في ذاكرة الإنسانية، وهذا يحدث بمعرفة التاريخ وبالقيام بالشهادة على من

قبلنا وعلى من حولنا، والقرآن يعطينا موقعاً مثيراً عندما يقول: {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}([65]). هل نعلم معنى الشهادة إلى الآن؟ إني أشعر بالحزن عندما أرى المواقع التي تختارها المجتمعات والأمم الآن، فهم إما ينعزلون ويتكبرون أو يذوبون، ولكن الشهادة موقع مختلف. إنه الموقع الذي لا نشعر فيه بأننا فوق البشر ولا نشعر أننا تحتهم، هو الموقع الذي لا نشعر فيه أننا أمام الآخرين وأننا لسنا خلفهم، لأن الذي يشهد ويعرف بما حدث وما يحدث حوله فهذا لا يكون خلفهم ولا يقبل أن يكون أمامهم، لأنه يرى أن التنافس ليس في التكبر في الأرض وإنما هو في التقوى، هو في فعل الأفضل وهو في خدمة الإنسانية حتى تعم الذاكرة للجميع، حتى تعم المعرفة للجميع، وهذا ما جاء به الأنبياء، جاءوا لنشر المساواة بين البشر، وجاءوا لنشر المعرفة، فإذا أردنا أن نخرج من وحدتنا ووحشتنا التاريخية والإنسانية فيجب أن نعرف سير الإنسانية وتاريخها، ويجب أن نختار موقفنا بدقة أيضاً، فالذين يقودون العالم الآن لا يريدون موقع الشهادة والمساواة، بل يريدون أن يعرفوا العالم حتى يتحكموا به، وليس ليوسعوا ذاكرته عن نفسه. إنهم يسحرون العالم بعلمهم لأن السحر هو معرفة طرف وجهل الطرف الآخر، فالعلم يتحول إلى سحر عندما نريد المحافظة على جهل الآخرين. تنبهت إلى هذا قبل فترة عندما كانت ابنتي بشرى تريني لعبة سحر، وأردت أن أعرف كيف تقوم بهذه اللعبة السحرية، فضحكت وقالت: «لن يكون سحراً إذا عرفت ما أقوم به». فعلاً إن سحر الآخرين لنا هو جهلنا نحن بما يعرفونه، ويبطل السحر حينما تعمّ المعرفة جميع الأطراف. والله يشير إلى هذا الكتمان عندما يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ}([66]). فلا يكفي أن نعرف، بل يجب أن نحرص على نشر المعرفة. والذي لا يريد نشر المعرفة يكون كذلك لأنه يريد الاستكبار في الأرض، والذي يقبل أن لا يأخذ المعرفة يكون قد قبل بالاستكبار أن يكون فوقه، ولذا نحن نعيش في عالم قبل بعضه أن يكون فوق العالم، وقبل آخر أن يكونوا تحته، ولهذا فإن المستكبر يريد أيضاً أن يكون ليس فقط فوق العالم بتحكمه، بل يريد أن يكون أمامه زمانياً، ولهذا يصفوننا بالمتخلفين، ونحن نبلغ هذا بكل سهولة ونقبله، والقضية ليست في أننا نحن خلف العالم، بل القضية هي أننا نحن الذين نقبل ألا ندخل التاريخ، ألا ندخل الذاكرة الإنسانية، فيدّعي الآخر أنه يسبقنا: {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ}([67])، لأننا كلنا نعيش في القرن العشرين ونتشارك الزمان، ولكن بعضنا يقبل ألا يسير في الأرض، يعيش في القرن العشرين ولكن يدفن رأسه كالنعامة وقت الشدة، فما أحوجنا الآن لأن نفتح عيوننا وآذاننا وأفئدتنا التي صببنا عليها وقراً ووضعنا عليها الأقفال. نحن لسنا متخلفين أو وراء الآخرين، نحن متعاصرون مع الذين يستكبرون علينا ويدعون أنهم تقدموا عنا، ولكن إن لم نقبل أن نسير في الأرض

ونكون شهداء على الناس فهذا يعني أننا نقبل بأن نكون مستضعفين لأننا قبلنا بفقدان الذاكرة، أي تقاعسنا عن حمل الأمانة، وبالتالي فقدنا الإيمان.

نحو خطاب أكثر إنسانية

حدثنا صديقي رضوان الذي يعمل بروفيسور طبيباً في جامعة كولومبيا في نيويورك أنه كان في اللجنة التي تشرف على اختيار المقالات الطبية والتي تنشر في المجلة العلمية المعينة، فقرر الأطباء الذين كانوا يشرفون على اللجنة تقويم المقالة قبل الإطلاع على أية معلومة تتعلق بالباحث أو الباحثة، فأصبحت المقالة تُقرأ على أساس علمي دون أن تتدخل عوامل الانتماء والجنس والشهرة والمستوى العلمي إضافة إلى الانتماء الجامعي. وبعد هذا التغيير لاحظوا ارتفاع النسبة التي تُنشر للنساء، وكذلك لأشخاص غير مشهورين أو باحثين من جامعات لا تتمتع بالشهرة والصيت. وهذه القصة تدلنا على الدرجة التي تتحكم فيها عوامل المركزية وما نصنفه مهماً حتى في مجال التقدير العلمي لموضوع معين. وإضافة لمثل هذه المحاولة توجد محاولات أخرى وفي مجالات أخرى لجعل التقويم للأمور أكثر إنسانية وأكثر حيادية. ومن إحدى هذه المحاولات في شمال أمريكا قضية تهذيب اللغة. وفي هذا تحضرني حادثة حصلت قبل فترة في جامعة «Gill Mc» في مونتريال حيث قدم محاضر إسلامي معروف نصاً بالإنكليزية وكان على مستوى كبير من العمق والتحليل، ولكنه لم يوافق في الناحية الفنية متطلبات الخطاب الجامعي في زاوية لغوية، فهذه المحاضرة رغم جودتها كانت بلغة ذكورية حسب مقاييس اللغة الإنكليزية الجامعية الجديدة، أي إن ضمائر الخطاب والأوصاف كانت كلها بضمير المذكر، وهذه أصبحت الآن نقطة حساسة في اللغة الإنكليزية، بل وحدثت تغييرات محددة وأدخلت في اللغة الجامعية، وأصبح الأساتذة والأكاديميون والطلبة ملزمين بها. ما هي بالتحديد هذه اللغة الجديدة؟ يسمّونها بالإنكليزية «Ianguage Genderneutral» ويمكن أن تترجم بالعربية إلى «اللغة المحايدة في الجنس»، أي إن اللغة التي كانت تتمحور حول ضمائر المذكر ومفاهيم الرجولة نقحت لتصبح حيادية أكثر إلى حد ما. كثير من المثقفين لم ينتبه إلى هذا التغيير، وبعض الذين انتبهوا مرّوا عنها معرضين، ويوجد القليل الذي أدرك أهمية هذا الموضوع وبدأ بالفعل باستعمالها.

عندما توجه النقد إلى هذا الموضوع في السبعينات كانت القضية لا تزال هامشية، وبدأ الناس باستعمالها حسب قناعاتهم الشخصية في الثمانينات، فكان يطبقها الأشخاص الذين اهتموا بالموضوع وزادت حساسيتهم تجاه اللغة، ومع نهاية الثمانينات كان الموضوع مطروحاً بشكل جدي في الأوساط الجامعية. أجريت مناظرات ومناقشات حول الموضوع في كثير من الحرم الجامعية، وألزم بعد ذلك كبديل في المحاضرات وكتابة النصوص الأكاديمية. ولتوضيح الموضوع يمكن إيراد

الأمثلة، ولو أن هناك فوارق بين اللغة العربية والإنكليزية بالنسبة لجنس الأشياء. فمثلاً في اللغة الإنكليزية كلمة رجل «man» لا تدل فقط على الرجل وإنما تعني الإنسان بشكل عام، فمع أن هناك كلمة «humanbeing» إلى أن هذه الكلمة تدل على البشر كنوع ولا تشير للإنسان بالمعنى التاريخي والثقافي، ولهذا كان يطلق على الإنسانية «mankind» أي الجنس الرجولي، ومع محاولات تحييد اللغة استبدلت «mankind» بكلمة «humankind»، أو حتى «humanity»، أي الجنس البشري أو البشرية. وطبعاً الإنكليزية غنية بالكلمات التي تنتهي بكلمة رجل «man»، فكلنا يعرف كلمة الشرطي «policeman» أي رجل الشرطة، وكذلك ساعي البريد يطلق عليه اسم «postman» رجل البريد، ومع التغييرات تستبدل كلمة «man» ب «person» أي شخص، أو يوضع رجل أو امرأة حسب الشخص الذي يقوم بالمهمة.

عندما بدأت هذه التغيرات تدخل في البرامج الإعلامية والجامعية كان هنالك بعض المعارضة من الذين لم يتكيفوا معها، ولكن مع مرور الوقت تعوّد الناس، وقلما تسمع تعليقات أو تهكمات بالنسبة لهذا. بل إن الموضوع انقلب إلى حد كبير، فإذا وقف شخص محاضر ليلقي كلمة ولم يستعمل اللغة المحايدة شعر كثير من الحاضرين، وخاصة الجيل الأصغر، أنه يلحن في القول، أو أن هناك نشازاً. والمحاضر الذي تحدثت عنه في الأطر السابقة تخرّج في جامعات بريطانيا في السبعينات وعاد إلى بلاده، ورغم فصاحته وبلاغته بالإنكليزية إلا أنه لغيابه عن هذه الإضافة لم يستعمل هذه اللغة المحايدة عندما زار الجامعة الكندية. هناك كثير من الناس الذين يعيشون في الغرب ويرفضون أن ينصاعوا لمثل هذه الإضافات لشعورهم بأنها سخيفة في بعض الأحيان، أو ربما لشعورهم بأن العالم يتغير بسرعة وأن عالمهم الذي يعرفونه يتهدم، وهذا لا يحصل للمغتربين فقط، بل كما ذكرت، فإن كثيراً من ناطقي الإنكليزية أنفسهم عارضوا وشعروا أن شيئاً ما يهدم، وبالفعل ما هو هذا الشيء الذي يُهدم؟

نحو لغة أقل عنفاً

عندما تتغير اللغة فإن نظرتنا إلى العالم بالتالي تتغير، وعندما يتغير نظرتنا على العالم تتغير لغتنا، فالعمليتان تتفاعلان دائماً وبشكل ديناميكي. فعندما تنهدم مقاييس قديمة وتُبنى مكانها مقاييس جديدة فإن النظرة التي كانت مع تلك اللغة هُدمت أيضاً، فيمكن القول إن الكلمات هي العيون التي نرى من خلالها العالم. فعندما نتحدث بلغة تحقر إنساناً آخر باستعمالها كلمات تدل على انتماء أو جنس هذا المتحدث عنه فإن هذا يعكس ثقافتنا، وبالتالي يؤصل هذه الثقافة ويكرسها، فالطفل الذي يولد ويمتص اللغة في السنوات الأولى من عمره يكون قد أمتص المعاني والقيم الثقافية التي تكون مشربة في الكلمات التي بدأ ينطق بها.

الكلمات تحكينا

في مقطع إحدى روايات بيكيت الكاتب الفرنسي نجد أن إحدى شخصيات القصة تقول: «إن عناءً غريباً – خطأً غريباً يجب الاستمرار، ربما يكون ذلك قد حصل من قبل، ربما تكون قد حملتني إلى عتبة تاريخي أمام الباب الذي ينفتح على تاريخي والذي سيثير استغرابي إذا ما انفتح».

بالفعل كيف تحكينا الكلمات؟ وكيف تعكس الكثير من المخلفات الثقافية والتاريخية؟ ربما نستطيع القول إن الموضوع لا يزال في بدايته، وإنه سيمرّ بمراحل تنقيحية أكثر، أي إننا سنقوم بتصفية الكثير من الآصار والأغلال التي نحملها للغة والتي تحمّلنا إياها اللغة. إنه من المهم فهم آلية عمل اللغة في إيصال الثقافة أو حتى في تغييرها. والموضوع يمكن أن ينظر إليه من عدة زوايا، فرغم أن البدايات في الغرب توجه على موضوع الذكورة والأنوثة إلا أنه يمكننا أن نرى أيضاً أنواع التهميشات الأخرى التي تحملها اللغة، ففي جميع أنحاء العالم توجد المصطلحات لرفع بعض الناس والحط من قيمة بعضهم الآخر سواء بنعتهم بصفات المدنية أو القروية أو حتى الطبقية. كذلك تحمل اللغة في طياتها الكثير من العنف، فكثير من أمثالنا وتشبيهاتنا مشحونة بتوتراتنا العصبية وردات فعلنا، فكأن الكلمات تصبح المحلول الذي تعيش وتترعرع فيه عواطفنا وقيمنا، فإذا أخذنا زاوية الانتماء الجنسي مثلاً فنجد أن للأنوثة والذكورة في اللغة العربية مدلولات مختلفة. وقد قام باحثون عرب بمناقشة هذا، وخاصة من ناحية النحو والصرف، فالذكورة في اللغة العربية تعطي دلالات العقل والقوة والحكمة والشجاعة، بينما الأنوثة تعكس معاني الاتكالية والضعف والتردد. ولتوضيح هذا يمكن أن ننظر إلى كيفية استعمال التشبيهات، فعندما يراد وصف امرأة بصفات حميدة يقال عنها إنها «أخت رجال»، أو إن كلمتها «كلمتها رجل»، وفي المقابل نجد أنه إذا أريد التقليل من قيمة الرجل قيل عنه إنه أصبح امرأة أو بكى «مثل النساء»، وهكذا دواليك. وإذا نظرنا من الزاوية الإثنية أو زاوية الثقافة واللون، نجد أن الكلمات تعكس بنفس الدرجة عنصرية الثقافة المعنية، فاستعمالنا للأبيض والأسود تتجاوز عن أن تكون مجرد دلالات لألوان محددة، بل تصبح هذه الكلمات دالّة على إثنية محددة، فنقول الجنس الأبيض أو الجنس الأسود. ولا يقف الموضوع عند هذا وحسب، بل إن دلالات الأبيض والأسود تأخذ أبعاداً أخرى، فأن رأى بعضكم فيلم «مالكوم X» فأتمنى أن تتذكروا المقطع الذي نظر فيه «مالكوم X» إلى معنى كلمة الأسود في القاموس، فوجد أن «الأسود» لا تدل فقط على اللون الأسود أو الإنسان الأسود، بل تدل أيضاً على البلاء والمصيبة في مثل «مستقبل أسود»، أو الشر في مثل «نية سوداء»، وتدل على الظلام والجهل والضعف والحيلة والقذارة. وعندما يفتح «مالكوم X» على صفحة أخرى ليرى معاني الأبيض يجد أنها لا تدل على اللون الأبيض والإنسان الأبيض، ولكنها أيضاً تعني بياض الثلج الناصع، وتعني

البراءة والصدق وحسن النية في مثل «قلبه أبيض»، والمستقبل المشرق في مثل «يومه أبيض»، وتدل على معاني الطهارة والعفة والشرف. فطبعاً يندهش «مالكوم X» بهذه التعريفات ويبدأ بقراءة المعجم بنهم ليعرف كيف حددت لغة الإنسان الأبيض مكان وموقع الإنسان الأسود، بل وكيف حددت اللغة المعاني، وكيف قسمت وصنفت البشر. ونحن للأسف الشديد لا يزال الكثير منا يستعمل لفظة «عبيد» للدلالة على الإنسان الأسود أو الأفريقي. إن السود في شمال أمريكا عانوا الكثير حتى خرجوا من مصطلح «nigger» أو حتى «nigro». وكان «مالكوم X» من الأوائل الذين استعملوا مصطلح «American–African» أي «الأفريقي الأمريكي». ربما الموضوع يبدو بسيطاً للوهلة الأولى، ولكنه معقد في نفس الوقت، لأننا لا نستطيع التفكير خارج أطر لغتنا. وهذا ما انتبه إليه الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، والذي اعتبر أن اللغة من أهمّ الأسس التي يبني عليها المجتمع نفسه، بل يحافظ على تصنيفاته وقيمه من خلال كلماته.

نتقبل عنهم أحسن ما علموا ونتجاوز عن سيئاتهم

عندما ننظر إلى تاريخنا الإسلامي نجد أن اللغة القرآنية كانت من أهم وسائل التغيير، فقد خلقت مصطلحات جديدة بينما أغفلت عن أخرى قديمة. إن القرآن قدم منظاراً جديداً لرؤية العالم، قدم التصنيف لما هو خير ولما هو ضارّ، لما هو (أو هي) مؤمن أو كافر، لما هو حلال ولما هو حرام. فإذا كانت الأنثى تُقتل وتُدفن نجد أن اللغة القرآنية سمّتها الموؤدة، واعتبرت وأدها ذنباً. ليس هذا فقط، بل إننا نشعر بالعظمة ونحن نسمع قصص الأنبياء لأن القرآن يركز على التفاصيل الإنسانية وعلى روعة مواقفهم، بينما نجد في كثير من آيات اليهود والنصارى قصصاً تسخف الأنبياء وترسمهم بشكل كاريكاتوري، أي إن نقلة نوعية حدثت مع نزول الخطاب القرآني وفي لغته عرض الأمور.

إن آية: {نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ}([68]) تعكس هذا الاتجاه الجديد في عرض التاريخ وسير من قبلنا. وليس هذا فقط، بل وتضعه كقاعدة لنا في خطابنا عن الآخرين، وطبعاً يقفز السؤال إلى السطح: من هم الآخرون؟ وماذا نقصد عندما نصف أحداً بالآخر؟ هذا أيضاً من قدرات اللغة على التصنيف. وعادةً «الآخر» هو الإنسان الذي نختلف معه في الرأي، وأيضاً في العادة ننعت هذا الإنسان «الآخر» بأسوأ الصفات ونهمّشه بأشنع المصطلحات.

هل هناك من طريقة في عرض الاختلاف ورؤيته بدون فرزه من خلال لغة مشحونة بالعنف والبغضاء؟

ربما هذا هو التحدي الأكبر الذي يشير إليه القرآن عندما يقول: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاّ الّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}([69]). إن معاركنا الجسدية ما هي إلا انعكاسات دقيقة لمعاركنا الفكرية، وإنه لمن المثير جداً عندما يستعمل القرآن الجسد في إظهار إشكالية اللغة في آية:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}([70]).

لماذا يشبّه القرآن الغيبة بأكل لحم الميت؟ فكأن القرآن يربط بين القدرة على النهش في أفكار الآخرين وطعن آرائهم بالنهش في لحومهم. إن هذا تشبيه دقيق يجب أن نقف عنده ونتأمله، فكثيراً ما نظن أن المعارك هي معارك الأجساد فقط، ولكن إذا ما نظرنا إلى لغتنا لوجدنا أنها مليئة بالعنف والشحناء، ولا تخلو لغة من هذا أو من السباب والشتائم، وتصنيف الآخرين وأبعادهم ليس برصاصات، وإنما بكلمات تشبه الرصاصات تمزق القلب وتجلس في الذاكرة. وكلما ارتقى الإنسان صارت لغته مهذبة يرحم الخلق وينصر الحق، وتبدأ لغته بعكس هذه الطريقة من التفكير. والله تعالى يرينا قوة الكلمات في آيات: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}([71]). إن قوة الكلمات في إنماء شجرة ثقافة جديدة إلى المحافظة على ثقافة خبيثة لقوة عميقة في التاريخ. إن التنبيه في القرآن في الغيبة والحث على الدفع بالتي هي أحسن وتجاوز السيئات الكثيرة في مقابل تقبل حسنة ولو كانت واحدة لهي خطوات حضارية لترقية الإنسان وتفكيره، من خلال تصفية لغته من التنابز بالألقاب والسخرية من الآخرين. وعندما يدشن القرآن الإنسان الذي: {إِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً}([72]) فإنه بذلك يدشن لإنسان جديد، لإنسان نقيت ألفاظه ولغته، ولذلك عندما يردّ بالسلام فإنه سيسلك التصرف السلمي والإنساني. إنه الإنسان الذي سيخرج من شريعة الغاب وتوحش سلوكها وعنف لغتها إلى عالم لم يرفض فيه الإنسان الدخول لمثل هذه اللغة الجاهلية. إن الخطاب الجاهلي هو الخطاب المعاكس للسلام، ولهذا يقول: «فإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»، أي ردوا بلغة مختلفة ولو كان هذا من طرف واحد، لأنه عندما نريد التخلص من اللغة الجاهلية من لغة الشحناء والبغضاء فيجب أن نسحب في اللغة المتوحشة من طرفنا، ونلزم أنفسنا بكلمة السلام، وهذا ما تشير إليه آية {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}([73]). فنحن عندما نكون وعينا لآليات اللغة وأبعادها صار حقاً علينا أن نلزم أنفسنا بكلمة التقوى وبخطاب السلام.

إننا لو وعينا لهذا ولم نشعر أننا أهل لهذا التغيير نكون مخادعين لثقافتنا ولغتنا. والواقع أنه لا توجد ثقافة أو لغة في العالم غير قادرة على أن تكون أكثر إنسانية. إن التغيير يعتمد على الناس الذين يعيشون هذه الثقافة ويتكلمون لغتها. إنها مسؤوليتهم في دفع لغتهم نحو إنسانية أكثر. وكلما ارتقى الإنسان وصارت لغته مهذبة يرحم الخلق وينصر الحق ويبدأ لغته الإنسانية، بعكس هذه الطريقة المختلفة من التفكير.

كانت بدأت مقالتي بالتغيير الذي أُدخل على اللغة الإنكليزية، وهذا كخطوة لها أبعادها العميقة، فربما نستطيع القول إنها بذرة صغيرة نحو إنماء لغة أكثر إنسانية، ونحو بذور أخرى تبدأ بالنمو في اللغة الأخرى، وهذا لا أعنيه فقط على المستوى اللغوي، بل كما حاولت شرح أبعاده الأخلاقية. سوف يكون بذرة في خلق نظرة جديدة في علاقاتنا بين بعضنا البعض كبشر وكشعوب. إن اللغة لا تعكس فقط علاقات أو مواقع أفراد الناطقين بها، بل إن مجازات التعبير عن الذات وعن الآخر تعكس النظرة إلى النفس ومركزيتها.

وعندما يتحدث الغربي عن حضارته ويشير إلى كل الحضارات المتنوعة بالثقافات العديدة بكل بساطة بجملة «نحن وبقية العالم»، فإننا نرى مباشرة هذه المركزية.

انتبه المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي إلى هذه الظاهرة في التراث الغربي وكيف يجعل من نفسه مركز العالم ومركز التاريخ، فندد توينبي بهذه المركزية والتي أطلق عليها «أوهام مركزية الذات» التي تعمي عن الرؤية المتوسعة لتاريخ الإنسانية.

وفي هذا يتحدث كيف أن علماء الاجتماع الغربيين من أنثروبولوجيين ومستكشفين كانوا يلقبون الشعوب الأخرى ب «السكان الأصليين» أو بالإنكليزية «Natives». فتوينبي يذكر أن هذا المصطلح كان يضع الإنسان «الآخر» في مصاف الأشياء مع الطبيعة والحيوانات والجبال التي يراها ويصادفها الرحالة الغربي، ومن بينها أحياناً «السكان الأصليين»، والذين يتحولون في مخياله إلى مجرد لوحة مثيرة خلابة قابلة للدراسة والتأمل، وكأن هؤلاء السكان الأصليون هم أقل إنسانية من هذا الذي يقوم بدراستهم. كما يذكر توينبي أننا جميعاً كبشر نقع في مثل هذه الأوهام المركزية ولغاتنا تعكس هذه الخيالات المترسبة في أعماق ذاكرتنا الجمعية. وكما ذكرت في مقالة سابقة، فإن مصطلحات الزمان هي أيضاً إحدى ألاعيب اللغة في إبعاد أو تقريب الآخرين. فمصطلحات المتقدم والمتخلف والرجعي والمتطور كلها ألقاب زمانية يراد منها معانٍ سلبية أو إيجابية، أي إنها مصطلحات لتصنيف الذات عن الآخرين، عن الذين لا نراهم في مستوانا في مرتبتنا العظيمة التي وصلنا إليها، والتي نريد أن نحميها بحواجز لغوية غير مرئية، تماماً كالأسلاك الشائكة التي تبقي الآخرين بعيدين عن حقولنا. فعندما نصف الآخرين، أي الذين نختلف عنهم بالرأي، بالتخلف

والجهل وسوء النية فإننا نرسم الخريطة بكلمات واضحة حتى لا يدخل حدودنا هؤلاء الذين لا نستطيع أن نرى فيهم بشريتنا، والتي نتشارك فيها جميعاً بنفس الدرجة. إن الكلمات أقوى من الرصاص لأنها تخلق وتحمي هذه الخرائط غير المرسومة. إنها تُبقي على الحدود المحرمة والتي لا نريد أن يشاركنا فيها الآخرون، ولكن المشكلة هي أنه عندما نبعد بكلماتنا الآخرين ونهمّشهم بكلماتنا فإننا بدون أن نعي نكون قد أصبحنا سجناء هذه الكلمات نفسها، فإن كنت أرى نفسي المركز والآخر هو الهامش، وارتسمت الحدود بشدة، فإن الآخر لا يستطيع أن يرى إنسانيته أيضاً، وأصبح أنا المتوحش في مصطلحاته بينما يصبح هو السيد المتحضر في لغته، والخروج من هذا السجن اللغوي ومن طرف واحد هو من أهم الخطوات لفتح ثقافتنا وأفكارنا على بعضها، حتى يبقى النافع منها ويذهب الزبد جفاء. هذا الزبد الذي نحميه بكلماتنا ربما تنسفه كلمات ثقافة أخرى حتى تنمو لغتنا ونرى إنسانية بعضنا البعض. ولقد دشن القرآن نقلة كبيرة حين قالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه والآخرون ليسوا على شيء، بينما خلق القرآن لغة إنسانية مهذبة حينما خاطب الناس بقوله: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً}([74]). وبهذا أراد القرآن مراجعة ثقافتنا وحتى موقعنا من الله ومن الحقيقة.

المرض البيولوجي والمرض الاجتماعي

الطبيب في العادة يشهد بعض المناظر الدرامية التي تحفر في الذاكرة آثاراً لا تُمحى. ومن إحدى الصور التي لا تفارق مخيلتي؛ المريض الذي سقط في أرض العيادة وبدأ «يتلوى» من الألم ويتدحرج، وكأنَّ العضوية تقوم بهذه الآلية الذكية كي تسكت ألماً بألم آخر، وكنت أسمع في اللغة العربية لفظة «يتلوى من الألم» فعاصرتها مع تلك اللقطة الفريدة، وعيون الطبيب ترى كل يوم الجديد والعجيب من تيار الحياة المتدفق وتظاهراته المرضية، وعرفت من خلالها أن ألم «القولنج» (COLIC) سواء المراري أو الكلوي، هو من النوع الرهيب حقاً الذي لا يتمناه المرء لأحد..

وقد يتساءل المرء: هل تتصرف العضوية بشيء من الغباء؟؟

ذلك أن «القولنج» هو عصر الأنبوب (سواء المراري أو البولي) على مكان الحصاة، بغية عصرها وطرحها للخارج، وهذا التشنج الفظيع من العضلات هو على الألياف العصبية في المنطقة التي تطلق صفارات الإنذار أنَّ هناك اختناقاً في المسالك، يجب أن يسوّى وضعه، ويعاود التصريف لما كان عليه سابقاً.

ولكن الواقع أن العضوية بهذا المسلك لا تتصرف بغباء؛ وإنما بحكمة، لأنها تريد إنقاذ الجسم من الخطر المُحْدِق، ففلسفة الألم في الجسم عميقة الحكمة، فهي تحرك منعكسات عصبية لا تهدأ، كي يركض الإنسان باتجاه الطبيب والعلاج، لأن «حصاة» الأقنية المرارية المثيرة للقولنج سَتُخْتَم بتليّف الكبد، و«حَجَر» المسالك البولية سينتهي بدمار الكلية وتعفن البدن بمخلفات «زبالة» البدن التي لا تُنظف باستمرار.

وفي الواقع إذا مضينا في تحليل «المرض العضوي» البيولوجي فإننا يمكن أن نبصر في النهاية أن المرض هو تعبيرٌ عن خللٍ في «وظيفة» العضو، فالاختناق في مجرى الأقنية المرارية أو المسالك البولية أو المجرى الهوائي أو قناة الدمع أو الوعاء الدموي، كله ذا نتائج كارثية في تشمع الكبد، أو استسقاء الكلية، او انقطاع التنفس، أو خرير العين الدائم، أو تموت «غانغرين» الطرف.

والعضوية تعمل في حالة الصحة بشكل دورة، في غاية الأناقة والجمال والحكمة بين «الإفراز» و «الإفراغ»، وهكذا تبقى العين مبلّلةً، والطعامُ مهضوماً، والدمُ نظيفاً، والهواء سالكاً، والأطراف نشيطة.

والمرض حينما يحل بكلكله هو في إحدى صورتين؛ فهو إما زيادة إنتاج أو نقصه، بين حافتي الإفراز والافراغ، وهكذا فالغدة الدرقية المستقرة في العنق المسؤولة عن النشاط العام في البدن، هي في حالة إحكام وحلقة توازن مدهشة بين إفراز الهورمون واستهلاكه، وأي خلل في الزيادة أو النقص يقود إما إلى فرط النشاط وجحوظ العينين وارتعاش اليدين وفرط التعرق ورجفان القلب، أو على العكس نقصه بالكسل والخمول والعجز وتساقط الشعر وبطء الحركات، وكذلك الحال في التعامل مع الجراثيم المحيطة بنا مثل الذئاب من كل جانب، فالفضل يعود لاستقرار أخلاطنا الداخلية، وقيامنا بنشاطنا المعتاد؛ هو ذلك التوازن الصلب المحكم بين وجود الجراثيم وفعالية الجهاز المناعي. والمرض هو انكسار هذا التوازن لمصلحة الجراثيم، والأدوية والصادات الحيوية هي دخول «فرق عسكرية» جديدة لمساندة الجهاز المناعي وضرب الجراثيم كي ينقلب الميزان لصالح الجهاز المناعي في النهاية. فهذه هي استراتيجية الحرب ضد الجراثيم، وهذه هي فلسفة الألم في المرض.

هذا المستوى واضح للغاية في المستوى البيولوجي ولا يخلو من تعقيداته الخاصة وفلسفته العميقة وحكمته الملفتة للنظر، ولكن الشيء الذي لا ننتبه له ولا يلفت نظرنا هو طبيعة أمراض من نوع آخر في البعد النفسي الاجتماعي، أو حتى الحضاري.

فإذا ذهبنا إلى تعريف المرض كما ذكرنا سابقاً أنه اختلال وظيفة العضو، فإن هذا يمكن حمله وتطبيقه في مستويات أخرى وشرائح متباينة، فالمرض هو قدر الوجود، فالنبات يمرض، والحشرة تعجز، والحيوان يهزل، والإنسان يذوي، والمجتمع يتراجع، والدول تكبو، والحضارات تنهار.

وهذا قانون وجودي انتبهت له الفيزياء، وأعطته اسم «القانون الثاني في التيرمو دينامك الحراري»، ومكتشفه عالم فرنسي هو «سادي كارنو» عام 1829، وذكره الروسي «ليونارد راستريغين» في كتابه «مملكة الفوضى» ص 24، دار الطليعة، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، على النحو التالي:

«إن كل نظام مغلق؛ أي معزول كلياً عن أي نظام آخر، يميل إلى أن يصبح في حالته الأكثر احتمالاً، وهي الفوضى الكاملة». والإنتروبيا هي درجة عدم الانتظام هذه.

ويمضي راستريغين في تطبيق كلامه هذا على الشكل التالي (بتصرف):

«وهكذا وطبقاً للقانون الثاني تصبح كل الأنظمة المغلقة غير منتظمة تدريجياً، فتتحلل وتموت، فهي في العمل الهندسي التآكل، وفي البيولوجيا الشيخوخة، وفي الكيمياء التفكك والتحلل،

وفي المجتمع الفساد والذوبان، وفي التاريخ الانحطاط وتفسخ الحضارات، وهي في الدول التفاني، وهي في الجسم الموت الذي نفر منه».

وليست الكائنات الحية ومنها الأمراض استثناء على القانون، فأي كائن هو محرك عالي التعقيد، وهذه الحقائق تجعل من القانون الثاني قانوناً أكاديمياً وتبدد التوتر العاطفي المتعلق بالموت الحراري للكون، ونحن منه.

وإذا كان المرض البيولوجي سهل الكشف فإن المرض النفسي ليس بهذه السهولة، فالمصاب بقولنج كلوي يهرع إلى الطبيب ويسلم ذراعه لحقنة المُسَكِّن، ولكن هل ينتبه الإنسان إلى أنه مصاب بنزلة «حسد»؟ أو احتقان «كراهية»؟ أو قولنج «كذب»؟ أو التهاب «حقد» حاد؟ أو سرطان غرور؟!

الذي يحصل في العادة هو العكس، فأكل لحم الآخرين يُستلَذ به، وهي مفارقة عجيبة في الجدل الإنساني، وإمكانية صوم الإنسان عن ذلك الغذاء الفاسد لمدة 24 ساعة تتطلب ضبط نفس ليس بالعادي؟!

ويقول فيلسوف: لو ظهر للسطح ما يقول الناس في بعضهم بعضاً ما بقي أربعة أصدقاء على وجه الأرض.

مفارقة «تناقض» المرض السيكولوجي!!

المريض بالتهاب الزائدة الدودية الحاد يضع يده على بطنه ويطير إلى المستشفى، والمصاب بنوبة اختناق حادة من الربو يركض إلى الإسعاف لينشق برذاذ البوتالين وجرعة الأمينوفيلين والكورتيزون، ولكن المصاب بنوبة حسد أو حقد، هل يحس ويدرك، أن وضعه ليس على ما يرام ويحتاج لعلاج؟!

هل يمكن للمصاب بجمود عقلي وتحنط في فهم العالم وإضافات المعرفة الإنسانية أن ينتبه إلى أنه أصبح خارج التاريخ والجغرافيا؟ وأن أجهزته العقلية بحاجة إلى «نفض» من الغبار، وإعادة تزييت وتشحيم مفاصل الفهم، كما يزيت ويشحم باب علاه الصدأ وقفل ركبه التآكل والبلى؟ بل واستبدال بعض قطع «الغيار» العقلية؟!

الجميل في المرض النفسي، أنه لا يحتاج عادة لقاعات جراحية مزودة بالمشارط والملاقط، كل ما يحتاجه كنبة مريحة وتحليل نفسي طويل هادئ.

كما لا يحتاج إلى قسم إسعاف مزود بأجهزة الضغط، وقياس الحرارة، وإبر الحقن المتنوعة، كذلك لا يتطلب أجهزة رهيبة للتشخيص، من التصوير الطبقي المحوري أو الرنين المغناطيسي، أو انبعاث أشعة البوزيترون.

لحسن الحظ أن طبيعة النفس تحتاج إلى مداخلات من نوع مختلف، وهي نفسية داخلية بالدرجة الأولى، أهمّها إحياء الجدل الداخلي، وابتعاث آلية النقد الذاتي، التي تفتح الطريق على وعي الذات، الذي هو أرفع أنواع الوعي؛ فالوصول لاحقاً إلى الاعتراف بالخطأ؛ فالتوبة؛ فتصحيح المسار.

والتوبة وتصحيح المسار هي الولادة الجديدة، لأن كثيراً من الناس يظنون أنهم أحياء وهم أموات، وهذا الذي أشار إليه القرآن بالولادة الجديدة: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ}([75]) وكل الناس إلا أندر النادر يمشون باتجاه متحارجة عجيبة؛ هي انتفاخ الجيب، وضمور العقل، ولنتصور جسدنا مثل الغوريلا الذي نما جسمه إلى 200 كغم وهبط دماغه إلى ثلث حجم دماغنا!

الوحدة الإمراضية البيولوجية والنفسية

والآن كيف يمكن أن نفهم «الوحدة» (Unit) المسببة للمرض النفسي – الاجتماعي؟ لقد تعلمنا من الآليات الإمراضية في انتشار الأمراض، أن هناك «وحدات» لنقل الأمراض، ومع تطور المجهر العادي والتكبير إلى حدود آلاف المرات، انفتح أمام أعيننا العالم «السفلي» بالكامل، فرأينا نصلة البعوضة، وكأنها الرمح اليوناني ساريسا من معركة الإسكندر في جواجاميلا، وأبصرنا رأس الذبابة وكأنها البناية الكبيرة، وارتمت أمامنا الجرثومة «الباكتريا» وكأنها البرميل الكبير، والكرية الحمراء وكأنها الرغيف الناضج المقعر.

وبتطوير المجهر الإلكتروني قفز التكبير إلى عشرات الآلاف من المرات، فانفتح أمام أعيننا العالم ما دون السفلي أيضاً، فرأينا الفيروسات (الحمات الراشحة)، وبعد الفيروسات نحو الأسفل لم يعد هناك كائنات حية، فالفيروسات هي الكائنات الحية الأولى التي تمثل عالم البرزخ بين الجماد والحياة، فتارة تغطس إلى عالم المادة لتتبلور مثل الملح، وطوراً تطفو إلى سطح الحياة لتتكاثر مثل كل الكائنات الحية. وبتطوير ميكروسكوبات المادة الجديدة، مثل السيكلوترون، أو الجيل الثاني من مسرِّعات المادة (البيفاترون والكزموترون)([76])، أمكن تسريع حزمة بروتونية إلى سرعات خيالية، مما أمكن تقصير الموجة الضوئية لها، وبالتالي إمكانية اختراق البناء الداخلي للذرة لرؤيتها.

«الوحدة الإمراضية» والمسببة للمرض العضوي هي الفيروس أو الباكتريا، فبواسطتها يتم نقل المرض، أما في العالم النفسي فحتى يحدث الالتهاب النفسي لا بد من تسلط «فكرة» معينة، فداء «الزَّور» (Paranoia) هو في استيلاء فكرة أن «الآخرين» يتآمرون عليّ، وهكذا فالمصاب بهذا المرض يشعر أن كل من يتحدث مع آخر دونه، هو كلام موجه ضده وتآمر يبتغي أذاه، فإذا استفحل المرض بدأ المريض في إعداد العدة للقتل أو للدفاع عن النفس بكل جدية([77])!!

ولكن هناك نوع من مرض «الزوَّر» ولكن الاجتماعي، حينما تستولي على جماعة من الناس فكرة أن مصائبنا لسنا نحن الذين نساهم في صنعها، بل عدونا هو المسؤول الرئيسي عن إنتاجها!! وبذلك تنبع فكرة «كبش الفداء» لتبرير الواقع السيء، كما يتوهم البعض من ضلوع قوى لانهائية في إيصال وضع العالم الإسلامي إلى ما هو عليه اليوم؛ من قوى الاستعمار والموساد والصهيونية والماسونيين والنورانيين وقوى الاستخبارات العالمية والصليبية العالمية إلى آخر المسلسل، وهكذا فكارثة أفغانستان والصومال وتحت ضغط مرض «الزوَّر الاجتماعي» ذات أسباب خارجية صرفة، وهذا يقود إلى سحب كل إمكانيات كشف الآليات العقلية الخفية والفعلية، التي تقبع خلف إعادة إنتاج المنظومة الفكرية التي تقود لإفراز المشكلة في كل وقت، وبالتالي تعطيل جهد المراجعة الذاتية وإمكانية الإصلاح، بكلمة ثانية إقفال إمكانية التوبة وسلوك طريق اللاعودة.

كيف يتحول المرض الانفرادي إلى وباء؟

وحسب الآلية التي ذكرت فيمكن للوحدة الإمراضية، أي الناقل المرضي مثل جرثومة السالمونيلا في حمى التيفوئيد والفيروس المسؤول عن شلل الأطفال، أن يحدث المرض العضوي في الجهاز الهضمي في الأول، والعصبي في الثاني، في حين أن «الفكرة» هي الوحدة الإمراضية في الجهاز النفسي – العقلي، مثل فكرة الغدر أو العنف. وبنفس الآلية من تحول المرض من حوادث انفرادية بعينها إلى مرض مستوطن في منطقة ما، مثل البلهارسيا في مصر، كذلك يحدث في مجموعة من الأمراض الفكرية التي قد تصيب حضارة ما بالعطب، حينما تسقط في فخ التقليد والتعصب وعبادة الآباء، وتفقد ملكة الابتكار والتجديد والتحليل العقلي، كما حدث في انهيار حضارة الأزتيك في المكسيك فيما مضى في أمريكا الوسطى، وكذلك فإن انفجار أمراض بعينها كما حدث قديماً في الطاعون والجدري، أو من قريب في شلل الأطفال، أو حديثاً مع مرض الإيدز، فيحدث الموت الجماعي في الأول، أو تشويه الوجه بالحُفر، والعيون بالعمى في الثاني، أو الكساح والشلل في الثالث، وانهيار الجهاز المناعي والتعرض للإصابة بكل مرض في الرابع، كذلك يحدث في تفشي أمراض فكرية بعينها، فالطاعون الذي كان يفتك بالبشر قديماً توقف لتحل محله أمراض اجتماعية من نفس قوة الإفناء، وإلا كيف نُعَلِّل قتل مليون في راوندا ونصف مليون في البلقان؟

فأمراض العنف هذه هي طواعين العصر الجديد، وهي تنفجر بدون أي قانون تفهم من خلاله، وتعمل مثل الطاعون قديماً، فلا يعرف أحد كيف حدثت ولا كيف انطفأت، وتتكرر المآسي! كيفية تحول المرض السيكولوجي «النفسي» إلى سوسيولوجي «اجتماعي»؟

إذاً هناك طبيعتان من أمراض الأفكار، مثل الجراثيم تماماً، ما يصيب الأفراد وما ينتشر بشكل وباء. فالكذب والمبالغة مرض فردي بالدرجة الأولى، كما في قصة جحا وبناء المسجد، عندما ادعى أنه بنى مسجداً بطول عشرين كيلومتراً!! فلما اعترض الناس عليه قال لهم: لا تقلقوا لأنني جعلت عرضه متراً واحداً فقط!! ولكن المرض قد يقفز وتحت شروط معينة ليتحول إلى خُلُق عام وعملة متداولة، مثل نموذج الثقة بالإنسان ومعاملته على أساس أنه بريء حتى تثبت إدانته، وروح المبادرة الفردية، وعدم انتظار الأوامر فقط، والإيمان بالتعددية واحترام الرأي الآخر والتسامح مع من يختلف عنّا، أو بالعكس، إجازة الغدر وتأليه القوة واحتقار العلم وتبرئة الذات واتهام الآخرين، أو مثل مرض الآبائية والجمود على التقليد وعدم الاستفادة من مصادر الواقع والتاريخ.

عدوى الأفكار في المجتمع إمكانية نقل الصحة والمرض معاً

وكما أن المرض ينتقل عن طريق الاحتكاك المباشر والمكثف بمن يحمل «العامل الإمراضي» فيصاب الإنسان بالرشح والزكام إلى التهاب الكبد الإنتاني بل والإيبولا والإيدز (مجموعة الأمراض الفيروسية الجديدة القاتلة) كذلك تحدث العدوى الفكرية بالاتجاه السلبي، فدماغ الإنسان يمكن أن يحقن بفكرة العنف وإلقاء اللوم على الآخرين وتبرئة الذات والإيمان باللاسننية، والاستخفاف بالواقع كمصدر للمعرفة ورفض الديموقراطية، وتصور الحياة واقفة لا تتغير. العدوى في المرض البيولوجي قائمة ولكن الصحة لا تنتقل بالعدوى، وهكذا فالسليم يمرض ويسقط، ولكن السليم لا يفعل العكس مع المريض، والرمانة تخترقها حشرة خضراء صغيرة فتنشر العفن في حبات الرمان الحمراء تدريجياً، والبرتقالة الفاسدة تدمر الصندوق بكامله، وهكذا فالتراكم سلبي في عالم البيولوجيا، ولكن الملفت للنظر أن العدوى في عالم الأفكار ذات اتجاهين، بمعنى أن الأفكار السلبية يمكن أن تصيب بالعدوى الآخرين، كما في العنف فيتشربونه ويقتلون الآخرين كما في الحروب الأهلية المروعة، والعكس صحيح، فقد يتشرب الناس الاتجاه المعاكس فيلقون أسلحتهم، ويعلنون عدم استعدادهم لقتل الآخرين المختلفين عنهم. فالصحة الفكرية هنا تنقل العدوى.

كيف نفهم المرض الاجتماعي في ضوء المرض البيولوجي؟

المرض البيولوجي يمتاز بتفجيره من خلال «وحدات إمراضية» محدودة مثل الفيروس والباكتيريا وينتقي في العادة عضواً وجهازاً معيناً، ففيروس شلل الأطفال له عشق خاص بالقرون

الأمامية من النخاع العصبي الشوكي، والبلهارسيا تخرب الكبد، وجراثيم السل تفضّل الرئتين، ولكن المرض يتظاهر بمظاهر عامة أيضاً، من قلة الشهية وضعف القوة وفقد النشاط والصداع وتراجع الوزن، بالإضافة إلى أعراض إصابة الأجهزة من نفث الدم بالسل واسوداد البراز بنزف المعدة وهكذا. فهل يا ترى يمكن أن تنقل مثل هذه المفاهيم والتصورات وإسقاطها على العالم «الاجتماعي»؟! لنرى، فأما الوحدة الإمراضية فهي الفكرة، ولكن بالامتياز السابق، أي بالاتجاهين، وأما نوعية الإصابة فهي معمّمة في الغالب، وهكذا فانتشار أفكار العنف في مجتمع ما تهيئه للانفجار في وقت لاحق ليُمَزِّق كل ممزق، فآثار الأفكار أخطر من آثار الجراثيم، فهي تقريباً لا تعف عن بيت إلا ودخلته، ولا عقل إلا وآذته، والأفكار في العادة تنمو، سواء كانت سليمة أم خبيثة، وتصل كل منهما إلى مستوى الشجرة الكبيرة، ولكن الفكرة الطيبة تحافظ على استمرارها وتعطي الثمار دوماً، في الحين الذي تموت فيه شجرة الباطل. فهذا قانون وجودي قانون الزبد: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ}([78]). فالباطل يفعل مثل السرطان، فهو يقضي على نفسه والجسم الذي نمى عليه.

حلقات الأمراض النفسية الخمس([79])

ليس منا من لم يصب في يوم ما بمرض عارض، ليمرّ فيه الجسم فيضعف، لينهض قوياً بعدها وقد استفاد مناعة جديدة فيتابع الحياة. فهذا هو نظم الحياة والأمراض البيولوجية، مع هذا قد ينحدر البدن مع المرض البيولوجي إلى عتبة الأزمان، أو ينقلب إلى الشكل الخبيث الذي يسلم الجسد في النهاية إلى القبر. وأما المرض السيكولوجي فهو يدخل في العادة في خمس حلقات متلاحقة ويتحرك ضمنها، فالنفس الإنسانية مزودة بآليات غريزية لحفظ الذات مثل الغضب، فهو طاقة مثل البترول. فالبترول لا يؤكل بل يسخّر كطاقة عمل ضمن جهاز مسيطَر عليه، فالغضب حينما يكون تحت «السيطرة» ينفع، ولذا اعتبر القرآن الصعود النفسي هو باتجاه «لجم وضبط» الغضب وليس محوه أو إلغاءه {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ}([80]) ولكن الغضب قد يستفحل ويتمكن من النفس، عندها تبدأ النفس في الانحدار في اتجاه «المرض النفسي» وأول درجاته للأسفل هي العصاب (Neurosis) حينما تبقى النفس تتأرج بين الحقل السوي والمرضي، فالإنسان يخاف من حين لآخر أو يصاب بالقلق وهذا طبيعي لنظم النفس، ولكن الزحلقة في اتجاه كثافة هذا الشعور يحوّل الخوف إلى رهاب، والقلق إلى عصاب وهكذا، وبقدر كثافة هذه الجرعة يتزحلق فيها الإنسان لأسفل أكثر فأكثر، حتى يبدأ في الدخول في حقل خطر للغاية وهو «النفاس» (Psychosis) لأن وسائل الخروج منه تصبح في غاية الصعوبة، وهي حالة الجنون عندما ينفك عن الواقع، فما اصطلح الناس عليه بالجنون هو ذلك الانفكاك المريع عن الواقع، فالمريض يستخدم ألفاظاً سليمة

ولكنها بدون أي تشابك مع الواقع، فهو يقول مثلاً: عندي بناية من الذهب الخالص، أو: قضيت البارحة وقتي في القطب الجنوبي، وما شابه. وبالمقابل فهناك رحلة صعود للروح عندما يشتد نظام «الضبط والسيطرة» بحيث تنتقل النفس إلى مرحلة النقد الذاتي والمراجعة الدؤوبة (النفس اللوامة) والتطهير المستمر والصعود النامي، حتى تخف العمليات في النهاية وتتحرر النفس من ضغوط الخوف والحاجة والشعور بالفقر أو الخوف منه والقلق والحزن وما شابه من المشاعر السلبية، فتستوي الأمور أمامها لأنها «فَكَّت» قلبها عن التعلق بما «يزول»، أو كما قال الفيلسوف الهولندي «اسبينوزا» في القرن السابع عشر في كتابه «رسالة في تحسين العقل» أنه بحث عن السعادة التي لا تغيض فهي كاملة ولا تزول فهي دائمة، وهي ما سماه القرآن «النفس المطمئنة».

قبضة من الأمراض الاجتماعية

والأمراض الاجتماعية هي انتشار وسيطرة وتمكن فكرة ما من العقل الجماعي، بحيث إنها تحرر السلوك في هذا الاتجاه، فالسلوك هو إفراز لا واعٍ في النهاية، والفكرة عندما تتفشى وتستقر فإنها تتحول إلى عمق اللاوعي الذي يطلق السلوك بدوره، وهكذا فالأخلاق والسلوكيات هي عمليات جماعية لاواعية يومية، وهناك مجموعة من الأمراض الخطيرة التي إذا تمكنت أصابت المجتمع بالشلل العقلي، ويمكن أن نشير إلى أفكار مفصلية أساسية تحمل الطابع التأسيسي لحركة المجتمع مثل اغتيال العقل وتفشي الخرافة واللاسننية، وتأليه القوة وسيطرة فكرة شريعة الغاب، وأن السيف فوق الكتاب وليس العكس (على حد تعبير الامام ابن تيمية)([81])، ومنها احتقار العلم والاستخفاف به وعدم تحويله إلى مؤسسات وغذاء جماهيري، ومنها الاعتماد الآلي على اتهام الآخرين، وأننا لا دور لنا في حصول الكوارث الاجتماعية، وعدم الانتباه إلى أن العامل الداخلي أهم من العامل الخارجي، ومنها عبادة القديم والانفصال عن الحاضر وعدم معرفة التحولات الضخمة في القرون الخمسة المنصرمة بشكل كرونولوجي([82])، وبذلك تبقى الذاكرة الجماعية معلقة في الفضاء التاريخي ولا تتقدم باتجاه المستقبل، ومنها عدم اعتبار التاريخ والواقع كمصادر للمعرفة، بل حتى الشك بكل علم التاريخ، والعالم اليوم يوثق ليس التاريخ بل الأنثروبولوجيا (التاريخ غير المكتوب) ([83])، ومنها اعتماد العنف وعدم الإيمان بالطريق السلمي وسيلة للتفاهم وحل المشكلات، ومنها غياب المرأة المذهل عن صنع القرار، ومعاملتها بشعور الدونية وعدم دخولها في صناعة المجتمع الحديث مع كل الأهمية المحورية لدورها في إنجاب الإنسان وتربيته، ومنها رفض الديموقراطية وإلغاء الحوار وعدم الإيمان بالتعددية والتسامح مع الرأي الآخر، وأن العملية الديموقراطية عملية عضوية تراكمية بطيئة، وليست منحةً من فوق، بل هي قبل كل شيء نمو في التربة وبجذور لا يمكن اقتلاعها، ومنها عدم الانتباه إلى أن التاريخ حركة عبر الزمن، وأن هناك إضافات لا تتوقف

في المعرفة الإنسانية، أو كما علّمنا المفكر الجزائري «مالك بن نبي» في دراساته تحت عنوان مشكلات الحضارة: من أن الذي يدخل العالم وهو لا يدرك إضافات القرن العشرين سيجلب إلى نفسه السخرية.

بين السرطان البيولوجي والسرطان الاجتماعي

هل يمكن للمجتمع أن يتسرطن فيقضي نحبه، كما يقضي سرطان المعدة أو الكولون على المريض؟([84]) هل يمكن للخلايا الاجتماعية أن تصاب ب «الخبث» في تصرفاتها كما تفعل الخلايا السرطانية المدمرة في الجسم؟ هل هناك مظاهر أو تصرفات اجتماعية توحي بمثل هذا التحول المدمر؟ وهل هناك أدوات وأجهزة للتشخيص المبكر في هذه التحولات الخبيثة؟ بل هل تطورت الأبحاث الاجتماعية بما فيه الكفاية، مثل الأبحاث البيولوجية فطورت المعالجة «الاجتماعية الكيمياوية والشعاعية بل والجينية» من أجل التطهير الاجتماعي والقضاء على الخلايا المسرطنة القاتلة ونجاة البدن من موت محقق؟ وهل يموت المجتمع بهذا الداء العضال كما يموت الأفراد بالسرطانات المختلفة؟ بل هل هناك بالأصل «موت اجتماعي» فتموت الأمة كما يموت أي فرد؟ وإذا وجد فكيف تتجلى صورته؟ دعنا نغوص

في أعماق البحث الفيزيولوجية والاجتماعية على حد سواء لنرى تجليات العلم الحديثة في هذا الصدد.

دخل عليّ الزميل «أبو حسن» وقد استشاط غضباً؛ فارتفع صوته وتهدجت نبراته، على واقعة اقتصادية مدمرة تحدث بين الحين والآخر وفي أكثر من بلد، عن رجل خدع الناس فجمع أموالهم، وغرر بهم، تحت سراب الربح الوفير، فيأتيهم رزقهم رغداً، وإلى بيت بابهم بالعشي والإبكار، وهم مستلقون على ظهورهم، يأكلون السمن والعسل، وهكذا قام «الساحر» الاقتصادي الجديد بالمعجزة الألمانية الاقتصادية الثانية! وأراح العباد من همّ المستقبل واستثمار الأموال، فهرع الناس إليه زرافات ووحداناً، يضعون بين يدي الساحر تعب العمر وشقاء الليالي، وتراكمت الأموال والآمال، حتى انقشع السراب الخادع –كالعادة– فانهارت المؤسسة المالية الجبارة المذكورة، وأفلس صاحبها «المظلوم»!! وطارت الأموال إلى الأرصدة الخارجية، وتبخرت أموال الناس بين يدي «الدجال» الاقتصادي، وأصابهم ما أصاب أهل البستان {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}([85]) وأخذوا يقلبون أيديهم في ظل الكارثة، وهم يتأملون سمك القرش الاجتماعي الجديد، بين اقتصاد مدمر، وثقة تخلخلت بين الناس، وأسعار العقارات ارتفعت وبشكل وهمي، بأشد من سرعة الصاروخ وبأعلى من قمم الغمام، وجمود في حركة المبايعات. فالعقارات أصبحت معلقة في الهواء بعد انتفاخ الأسعار الوهمي، في انتظار مسيلمة كذاب جديد. ولا غرابة لما حدث لأن الحمق لوحده ليس له علاج،

فكيف إذا أضيف إليه الطمع. وقديماً سأل الجاحظ غلاماً فقال: له يا غلام، أيرضيك أن يكون لك مائة ألف دينار وتكون أحمقاً؟ قال: لا والله يا عماه، قال له الجاحظ: ويلك ياغلام، ولمَ؟ قال: يا عماه، أُضيّعِ الدنانير وأبقى أحمقاً([86])!

هذا المرض الاجتماعي ليس اليتيم الذي يحدث، بمحاولة الفرد «الانتهازي» أن يتضخم ف «يتورم» و «يتسرطن» على حساب الجماعة التي منحته الوجود الاجتماعي بعد البيولوجي، فيتحول إلى «مجموعة القوارض الاجتماعية»([87])، التي تقضم الشبكة الاجتماعية!! أو الخلايا السرطانية الاجتماعية التي تفترس الأنسجة الحية، يا ترى كيف يمكن تصنيف هذا المرض ضمن قائمة «أمراض اجتماعية» لا تحصى؟ فكما يصاب الفرد بالمرض، سواء العضوي أو النفسي، فإن الجماعات لها أمراضها «النوعية» الخاصة بها، فكل مرض يشكل وحدة عضوية خاصة به ذات شخصية متكاملة سواء الزكام أو السل أو انتهاءً بالسرطان، كذلك الحال في الأمراض الاجتماعية، فالجعبة مليئة، وليس المثل السابق إلا واحداً من الكثير من أمثال «عدم احترام القانون وتجاوز إشارات المرور» و «كراهية النظام والانضباط»

و «السطحية في معالجة الأمور» و «عدم رؤية المشاكل قبل وقوعها، بل الاصطدام بها بعد ذلك مثل العميان!!» و «نمو الفردية إلى درجة الانتفاخ» و«النطق بلا مسؤولية» و «عدم احترام الآخرين»([88]) و«التسيب الوظيفي» و«اللافعالية» و«البيروقرطية غير المنتجة» و«عدم تقدير الوقت» و«ضعف الذوق الجمالي» و «غياب الروح العملية» و «انطفاء روح المبادرة» و «عدم الشعور بالحرج من سرقة المال العام»، وتبقى مجموعة خطيرة للغاية تساهم في تقويض البنيان الاجتماعي يأتي في قمتها «الرشوة» و «المحسوبية» و «الوساطة» واختصرها القرآن بالثلاثي: الشفاعة التي تقابل الوساطة {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}([89]) والعدل مقابل الرشوة {وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}([90]) والمحسوبية {لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً}([91]) ويمكن القول باختصار: تتم معرفة قوة مجتمع من ضعفه، بمدى سيطرة العلاقات الشخصية أو قوة نفاذ القانون، فحين يتضخم الأفراد ينكمش القانون، لأن كلا الوجودَين متزاحمين في الوعاء الاجتماعي، والنمو الورمي للأفراد هو في العادة مؤشر على بداية مرض الجماعات والمجتمعات. ويظن أولئك «المغامرون» أنهم يحسنون صنعاً، وأنهم «شطار» و «أذكياء» ويعرفون كيف «تؤكل الكتف»، ولكن السرطان حينما ينمو، فأول ما يفعله هو أن يقضي على الجسم الذي أمده بأسباب الحياة، فيكون مثله كمثل القرد سيّء الذكر في قصة كليلة ودمنة، حين نشر غصن الشجرة الذي يجلس فوقه!! وبذلك يدمّر الورم نفسه من حيث لا يشعر، حين يدمر مصادر وجوده، فيهوي والبدن إلى فراش الموت والعدم.

هناك «قانون اجتماعي»([92]) يربط بين العلاقات الشخصية وشبكة العلاقات الاجتماعية، وأي زحزحة من قطب لآخر يعطي الفكرة عن مدى تماسك المجتمع وقوته من ضعفه، وفكرة المركزية واللامركزية التي طورتها المجتمعات الغربية هي ثمرة نضج تلك المجتمعات، كذلك تربط علاقة صارمة بين فكرتي «الحقوق»

و «الواجبات». فالواجب هو «حق» من جانب، وهو «واجب» من الوجه الآخر، تماماً مثل وجهَي العملة!! لنتأمل هذه الفكرة المهمة: إن أية «معاملة» هي واجب على لموظف يؤديه في الوقت الذي هو حق لمن يستفيد منه، وتنعكس الأدوار، فنفس الموظف يرى من حقه أن يعالج بشكل جيد أثناء مراجعة المستشفى، في الوقت الذي يعتبر هذا واجباً على الطبيب يؤديه. وهكذا تصبح «العملة الاجتماعية» تدور بين «حق – واجب» في كافة شرايين الخدمة الاجتماعية، ويجب أن لا تزوّر هذه العملة، فيجب أن يقوم الطبيب بعمله في غير تذمر وملل، كي يتحرك الموظف بنشاط وهمّة لتسيير المعاملة وترك طاولته في نهاية الدوام نظيفة، كي يؤدي الشرطي مراقبته للمرور بدون محاباة. وهكذا يتم تبادل هذه العملة في مرافق الحياة. وحسب قواعد الاقتصاد، متى يا ترى يعتبر المجتمع معه «فائض في العملة» إذا نظرنا إلى العملة الاجتماعية المذكورة سلفاً؟؟ أو أنه غني، أو أنه في حالة بحبوحة حضارية؟؟ الجواب عندما يتم تحصيل فائض في الواجبات!!.

إذاً نحن أمام ثلاث معادلات اجتماعية في الواقع: الأولى هي تلك التي تقول بفائض الواجبات عن الحقوق، وهي تشي بالتالي بحقيقة مجتمع متفوق حضارياً، الثانية بتساوي الحقوق والواجبات وهي تعطي فكرة عن مجتمع متوازن، أما عندما تتفوق حركة المطالبة بالحقوق في المجتمع عن تأدية الواجبات اليومية، فإن المجتمع يبدأ في الانهيار.

ويترتب على القانون الذي ذكرناه قانون اجتماعي آخر على غاية الأهمية وهو: عدم المطالبة بالحقوق، أو بكلمة أدق تعميق اتجاه القيام بالواجب، لأن المجتمع الذي تعلم أن يقوم بواجباته سوف تنشق السماء وتعطيه حقوقه، فالحقوق لا تؤخذ ولا تُعطى، بل هي ثمرة طبيعية للقيام بالواجب. يقول المفكر السعودي الدكتور محمود محمد سفر في كتابه «ثغرة في الطريق المسدود»: «لقد فقدنا الوعي الصحيح بدورنا كأفراد وجماعات في عمليات التنمية وأصبحنا جميعاً من «أصحاب الحقوق».. وما أدراك ما «أصحاب الحقوق»، إنها سمة التخلف في جيلنا.. حيث أصبحنا لا نعرف إلا حقوقنا على حكومتنا.. وجهلنا تماماً واجباتنا، وتكونت هنا وهناك في عالمنا الإسلامي جمعيات وهيئات للمطالبة بالحقوق.. حقوق المرأة، وحقوق العمال، وغيرهم. وقد آن لنا أن تتكون بيننا «هيئات للقيام بالواجبات»ي التي أغفلتها أو عجزت عنها الإدارات الحكومية. إن سيكولوجية مدمرة تتكون عندما يعيش الإنسان في أجواء المطالبة بالحقوق واللهث وراءها عند أجهزة

غير قادرة على منحها.. حيث يصبح الإنسان عبداً لوهم اسمه «الحقوق» يستبسل في المطالبة بها وربما أعطى حياته من أجلها.. ولو أنه أنفق في سبيل الواجب بعض ما أنفقه في سبيل الحقوق لبلغ كثيراً مما يرجو من تقدم وازدهار.. إن التنمية في مجتمع ما تبدأ مسيرتها عندما ينسى أفراد هذا المجتمع حقوقهم ويذكروا واجباتهم.. إن الأمة تحتاج في ساعات «الإنقاذ التنموي» إلى النفر القدوة الذين لا يسألون أين الرزق الوفير؟ وإنما يسألون أين الواجب الكبير؟.. ولقد ساقنا الحديث عن التنمية إلى دور الأثرياء في مجالاتها لأننا نؤمن أنه في غياب الدور الحضاري للمال يمكن أن يصبح الثراء مدمراً. فعندما تصبح وسائل الثراء سريعة ورخيصة يبدأ المجتمع في الانصراف عن التنمية الحقة، والتي تتطلب جهداً ومشقة، حيث يصبح كل هم أفراد المجتمع أن «يغترفوا من نهر طالوت ولا ينتظرون ويصبرون أمام مشاكل التنمية»([93]).

عندما زارنا الأستاذ مالك بن نبي في دمشق عام 1971 وجلست معه وسألناه عن العديد من القضايا، بدأت تضغط على عقلي فكرة في صدد الذهاب إلى العالم الغربي للاختصاص الطبي، وخلاصتها أن الرحلة تحمل مبررها الكبير ليس من أجل تحصيل الفن الطبي، فهذا هو أقل المبررات وأكثرها هامشية، وهو الذي جعلني أيضاً أتردد في مغادرة الوطن، في الوقت الذي كان يتسابق زملائي في شد الرحيل للخروج، وأنا أعذرهم طبعاً، فلكلٍ وجهةٌ هو موليِّها، كان ما يضغط عليّ ويؤرقني هو «فعالية الغرب» الكامنة خلف الطب وكل العلوم، بل وخلف كل التكنولوجيا ومراكز البحث، وهذه قضية أثرناها مع الأستاذ مالك بن نبي، وكانت وجهة نظره أن معظم أبناءنا يذهبون إلى الغرب فلا يفهمون عليه «سر الفعالية»، وإنما يحصل معهم ما سماه –رحمه الله– الارتماء إما في «مزابل الحضارة» أو الانزواء في «مقابر الحضارة»! ويعني بكلامه هذا رؤية الحضارة الغربية من ثقبين، إما الفساد الأخلاقي والإباحية الجنسية الفظيعة، وإما المخابر العلمية وبطون الكتب وأجواء المستشفيات، والحضارة ليست هذا ولا ذاك، كما أنها لم تخلق في هذه الأمكنة.

كان الأستاذ مالك يريد من الشباب المسلم والعربي أن يذهب إلى الأماكن التي تولد فيها الحضارة فعلاً، كان يريد بناء بانوراما ضخمة، وجغرافية عقلية، لفهم الحضارة ككائن عضوي مترابط، التعرف على المؤسسات التي تحافظ على الحضارة وتطورها باستمرار، التعرف على فعالية الفرد والشروط النفسية والاجتماعية التي تولّد هذه الفعالية وتحافظ عليها باستمرار([94])، التفريق بين «العلم» و «الثقافة» حيث يشترك في الثقافة الرئيس والأجير، ويختلف في العلم الطبيب عن الممرض، ولذا فالطبيب يرجح بالعلم دون الثقافة. وكان حرص الأستاذ مالك على الثقافة قبل العلم. الثقافة هي المحتوى الضخم لعالم «اللاوعي»، والذي بموجبه يتصرف الفرد أمام الأحداث، والثقافة

تتشكل منذ لحظات مقابلة الإنسان للعالم الجديد بعد الولادة إن لم تكن حتى في الرحم. فالطفل الذي يتعلم منذ ساعات عمره الأولى أن العالم (المتمثل بأمه) يستجيب له بالبكاء، يتعلم البكاء وسيلة لحل المشاكل!! إلا أن العالم القاسي من حوله سوف يحمل له العديد من المشكلات الصعبة والمفاجآت، التي سوف تحيل حياته إلى جحيم ونكد وإحباط، لأن العالم يمشي وفق سننه الخاصة، وليس هو أمّه التي أفسدت «ثقافته»، ولذا فلن يستجيب له بالبكاء والصراخ، كما حصل مع العرب في هزيمة حرب 1967، والتي لم يستجب لهم العالم فيها، عندما بكوا وصرخوا وزعقوا بأعلى صوتهم، والتي يحاولون فيها حتى الآن إصلاح ذلك الخرق الذي لم يرقع بالشكل الملائم حتى اليوم. هذه هي الثقافة العاجزة التي نعيش فيها بكل أسف!! وهذه هي القضية الكبرى التي كرس المفكر مالك بن نبي نفسه لها (مشكلة الحضارة). هذه الفكرة حلت عندي إشكالية مهمة في الإجابة والتفسير عن بعض الأشياء التي لم أجد لها تفسيراً في البدء، لماذا يتصرف من اختص في الغرب بعد عودته بصورة غير التي كان يتصرف بها هناك؟ فلا يحافظ على الموعد، أو يلقي بالبقايا على الأرض، أو يستخدم زمور السيارة كالبقية، أو لا يتقيد بإشارات المرور، أو يعتقد بالخرافة إلى أخمص قدميه ومخ عظامه. كما أنني أدركت أن سفرتي إلى الغرب حيثما كانت وجهتي كانت مصيرية وحيوية، فإن أي باب من أبوابها سوف يدخلني إلى بنائها الداخلي، سواء كان الاختصاص في ألمانيا أو بريطانيا أو أمريكا (الابن البكر لأوروبا) أو حتى أوروبا الشرقية، أو إسبانيا الحالمة المسترخية على ظهر جبل طارق! فكما يدخل المسلم إلى الصفا والمروة من أبواب شتى، كذلك الحال في دخول فناء كنيسة الحضارة الغربية ذات الأبواب العديدة([95]).

هناك مغالطة يجب تحريرها، واكتشفت هذا أثناء مؤتمر حضرته في مدينة «ميونيخ» الألمانية في المركز الإسلامي أثناء إقامتي في ألمانيا، حيث تم التعرض لمشكلة المرأة ووضعها في الغرب، وكان محور المتكلمين في إطار «تَسقُّط عورات الغرب» والكشف عن نقاط

الضعف التي يعرفونها هم بالذات وعن أنفسهم أكثر مما نعرف نحن، والفكرة التي استولت عليّ حينذاك وقمت في وقتها بشرحها بكثير من القوة والتحليل، وخلاصتها الأفكار الثلاث التالية: الأولى: إننا في الواقع وكأننا نريد تطمين أنفسنا أننا بألف خير، طالما كان الغرب على وشك السقوط منتحراً بعيوبه التي لا تنتهي (كذا!!) والثانية: إننا نتأمل الغرب من خلال عيوبه، وهذه فضلاً عن كونها غير عادلة فهي مضللة لنا نحن بالذات أكثر منهم، والثالثة: فليموتوا بعيوبهم لأن ما ينقصنا ليس التعرف على عيوبهم، بل التعرف على عيوبنا نحن بالذات، والقيام بعملية النقد الذاتي، كي نبدأ مسيرة الإصلاح والإقلاع الحضارية. ما نحتاج إليه أكثر هو الاستفادة من مزاياهم الإيجابية، والتعرف على أسرار الفعالية عندهم، وينابيع القوة والتفوق. وهذا سيقودنا إلى موقف

مختلف تماماً وعادل وإنساني، فنحن لا نريد تدميرهم، كما لا نشمت بسقوطهم، ولا نفرح بنكس القيم الإيجابية التي تعبوا في تحصيلها. بل يجب معاملتهم تحت قانون: عامل الناس بما يليق بك لا بما يليق بهم، من أجل علاقات إنسانية غير استعمارية للمستقبل، كنت أقول لبعض الألمان أحياناً إن عندكم من القيم ما يجب أن أدافع أنا عنه، من أجل المحافظة عليه لأنه ذخر إنساني قبل أن يكون إنجازاً غربياً.

إن العديد من القيم التي رأيناها في المجتمع الغربي، وأزعم لنفسي معرفة متواضعة بالمجتمع الألماني، الذي يعتبر من قمم مجتمعات العالم، فألمانيا هي صيدلية العالم، وأرض الفلاسفة، ومكان الموسيقيين المبدعين، وأرض حملة جوائز نوبل، ولكنها وبنفس الوقت محرقة آوشفيتز وأرض الهولوكوست([96])، ومستنقع العنصرية، ومزبلة كبيرة لكل الإباحيات الجنسية ممتدة من مدينة «فلينسبورج» في معهد «بيآته» (Flensburg In–Institut – Beate) حتى الغابة السوداء (Sshwarz – Wald) وما يهمني من الألمان، واستفدت منهم في ذلك بأكثر من تكنيك «شق» الجلد للجراحة، أو «ثقبه» بالمناظير، أو ترقيع الشرايين وتقطيع الأوردة، استفدت منهم «أخلاقيات العمل»، فالإنسان الألماني أو الغربي عموماً قد يسكر ويخمر في الليل ويعربد جنسياً، ولكنه في صباح اليوم التالي لا يتأخر في حضوره للعمل، لأن العمل عنده مقدس، بل إنك إذا أردت تعذيب الألماني فاجعله يكف عن العمل، ويشهد لهذا ظاهرة «متلازمة ظهر يوم الأحد»([97]) (Syndrom Sunday) وهي مؤشر خطير عن «الخواء والتجوف الحضاري» كما يحصل مع تجوف نخاع الشجرة الداخلي مع كل فخامة القشر الخارجي.

إن عندهم من الفائض في «العملة الاجتماعية = الواجب» ما يجعل أمراضهم مسيطراً عليها، وهذا يعني أن عندهم من الأمراض ما يكفي، ولكن قوتهم تأتي من مصدرين: الأول: معرفتهم بطبيعة هذه الأمراض، والانتباه الدائم لها، ومراقبتها سواء بسواء مثل مراكز مراقبة انتشار الأمراض والعدوى، بما فيها إدمان التلفزيون والإباحية الجنسية، كل ذلك من خلال توفر أداة النقد الذاتية الاجتماعية. قد تحدث عندهم سرقات ومخالفات، ولكن الصحافة لها بالمرصاد. ومن المعروف طبياً أن معالجة الخراجات هي في شقها وفتحها للخارج كي ترى الضوء، كما أن أخطر أنواع الباكتريا، هي الباكتريا «اللاهوائية»، أي تلك التي تعشعش في الظلام، والغانغرين فيه ليس له علاج إلا البتر المفتوح!! كما أن الأمراض النفسية تعالج بنقل آليات «اللاوعي» المختبئة في الظلام إلى «الوعي»، أي الضوء الصحي والنور المطهر. لذا فإن آلية النقد الذاتي «بشروطها» هي تلك الآلية المطهرة للفرد والنفس والأسرة والمجتمع، بل وحتى المجتمع الدولي. الثاني: إن المحصلة الكمية للأخلاق الاجتماعية تعطيهم الوضع الطبي المعروف «عدم انكسار المعاوضة»، [98]

فقد يمرض الإنسان كما هو في داء «أديسون»، أي تخرب خلايا الغدة فوق الكظرية([98]) المسؤولة عن تنظيم السكر والملح والهورمونات في الجسم. طبياً لا تظهر أعراض المرض حتى يحترق ما يزيد عن 75% من مجموع الخلايا في الطرفين، وعندما يصل البدن إلى هذه المرحلة يكون قد دخل في مرحلة «انكسار المعاوضة»، والمجتمع الغربي ما زال في مرحلة «المعاوضة الاجتماعية»، وذلك بفضل زخم مجموع الأخلاقيات والقيم السائدة حتى الآن، ويخطئ الكثير حينما ينعت الحضارة الغربية بصفتين: إما اللا أخلاقية أو أنها حضارة مادية. ويجب طبعاً أن نحدد ما معنى «المادية». الحضارة الغربية لا تحتاج مثلي ليدافع عنها، فهي التي تقود العالم إن شئنا أم أبينا، سواء في جناحها الإنجلوسكسوني أو اللاتيني أو الجرماني أو حتى الأصفر الياباني، الذي هو امتداد هذه الحضارة للشرق الأقصى. ثم إن الحضارة الغربية تمشي بدفعة قوية من الأخلاقيات والقيم، ويجب أن يتم الانتباه إلى العنصر الأخير، كي نصحو من أوهامنا وأحلام اليقظة التي نسبح فيها.

إنني كنت «شاهداً» في الحضارة الغربية ولم أكن زائراً حتى أكتب «أمريكا التي رأيت»، بل عاينت القوم. وأزعم لنفسي معرفة زخم الحياة عندهم، وطرفاً من أسرار قوتهم، كما أعرف بالضبط أمراض الشرق ومصائبه. فأنا والذين عاشوا في الغرب فترة طويلة أصيبوا بحالة لا يحسدون عليها، فلم يعد الشرق يعجبهم، كما أن الغرب لم يسعدهم، فهم «نفسياً» في الأرض التي لا اسم لها!! والسبب أنهم عرفوا الشرق والغرب، وبذا أصبحت أداة النقد والمقارنة عندهم حادة قاطعة، والرؤيا عندهم واضحة مبلورة، وهذه لا يصل إليها إلا من استطاع أن يخبر الشرق والغرب، ونحن الذي أدينا وظيفة «الشهادة» علينا أن ندلي بشهادتنا في محكمة التاريخ وبأمانة. فلا شيء أعظم من العدل الذي قامت عليه السموات والأرض.

إنني يجب أن اعترف –بغض النظر عن بعض الحساسيات التي هي طبيعية، والمشاعر النفسية التي ليست حكماً نهائياً ولا عدلاً في مثل هذه الأمور– أننا استفدنا بل دُهشنا لحزمةٍ من الأخلاقيات والقيم التي تمسك بمجتمعهم، وتعطيه فضيلة القوة والتفوق، وهو ما لاحظته البعثات الأولى من العالم العربي التي أرادت اكتشاف الغرب كما حدث مع «رفاعة الطهطاوي» الذي وضع كتابه الهام في هذه القيم الإيجابية التي نتحدث عنها «الذهب الإبريز في أخلاق أهل باريز».

منذ اللحظة الأولى بين بيروت و «نورمبرغ» (مكان ولادة الحزب النازي) اكتشفت أنني في مدى ثلاث ساعات بالطائرة كنت أخترق الجغرافيا فقط، وكان عليّ ثلاث سنوات لاختراق حاجز اللغة، ولكن ثلاثين سنة لا تكفي للفهم العميق للثقافة.

في بيروت وأنا نزيل الفندق الذي يدفع ثمن «البيات» لم أعرف طعم النوم بسببين: الأول قرقعة «القباقيب»، والثاني «انبساط» صاحبنا المشرف على إراحة نزلائه، فلم يطب له النوم إلا على أغاني «صباح» و «أم كلثوم» وبأعلى صوت، وبالطبع أنا لست ضد الغناء إلا في هذا الوقت، أما في نورمبرغ فأخذت الانطباع الأول ولم أنسه بقية العمر ظاهرة «السكون». كان شكل المطار أنيقاً نظيفاً منظماً و «هادئاً»، فعرفت أنني فارقت حضارة «الضجة والوسخ والضوضاء» واستقبلت حضارة «النظافة والسكون والهدوء».

إنني أذكر هذه الملاحظات بشيء من الألم لأنني أنتمي إليها، مع شعوري الذي لا يختلج بعظمة وروعة الحضارة التي خرجت منها، وإمكانياتها غير المحدودة في استيعاب إعصار الحداثة، بل وشق الطريق لمجتمع ما بعد الحداثة. هذا الشعور سبب لي الألم مرتين، فأنا أدين للثقافة التي خرجت منها «وهذا أنفنا، فهو كبير مثل أنف سيرانو دي بيرجاك!!»([99])، في الوقت الذي أزكي (في جانب) مزية من هم خصومنا أو من لا يحبونا على أقل تقدير، ولكن هذا ما تتطلبه الشهادة التاريخية، ويوجبه العدل، ونحتاجه كي نستيقظ ونصلح أمورنا، التي لا تحتمل التأجيل. وكانت الملاحظة الثانية «لا شيء في الأرض»، وتذكرت الحديث «وإماطة الأذى عن الطريق من الإيمان»([100]). ثم توالت الملاحظات حتى شكلت تياراً كبيراً، وبانوراما ضخمة، وخريطة تفصيلية، إلى درجة أنني أعرف ارتكاساتهم وتصرفاتهم سلفاً، فيما لو واجهوا أي مشكلة لحلها، وكيف أن عندهم منهجاً خاصاً في التصرف في النائبات «وكيف أن في رأسهم أغنية خاصة لمشكلة البوسنة، وإلا حلوها كما احتل هتلر كل يوغسلافيا في مدى 11 يوماً، وليس تأديب صرب البوسنة فقط، وبالمناسبة، فخريطة الهجوم النازي قد وضعها وزير الدفاع الألماني في درجه لساعة الصفر – معلومات مجلة الشبيجل.

يصدق هذا على الألمان كما يصدق على الأوروبيين، يزيد وينقص، خاصة كلما صعدت إلى الشمال ومِلت إلى الوسط البروتستانتي([101])، ففيهم باقة من الأخلاقيات والقيم التي نحن بأمس الحاجة لها، سواء بتأملها لإعادة صنعها، أو بنحتها وتوليدها من ثقافتنا المليئة بالقيم الإيجابية وإعادة اكتشافها بعد صدمة الغيبوبة التاريخية التي مُني بها العالم الإسلامي في فترة القرون الفارطة الأخيرة، كما هو الحال في نظافة الشوارع والبيوت والمحلات العامة (دورات المياه العامة والموجودة على الطرقات السريعة عندهم نظيفة بشكل ملفت للنظر). هذه النظافة ليست «الحكومة فقط» وراءها وإنما هو القانون الأخلاقي والتربية الصارمة، والتثقيف المستمر، والتنبيه الدائم، وتعاون الدولة والمؤسسات والفرد.

يقول جان جاك روسو في كتابه «في العقد الاجتماعي» عن القانون الرابع: «يضاف إلى هذه الأنواع الثلاثة من القوانين نوع رابع وهو أهمّها جميعاً، وهو القانون الذي لا ينقش على الرخام ولا على البرونز، وإنما في قلوب المواطنين، والذي يصنع تكوين الدولة الحقيقي، والذي يكتسب كل يوم قوى جديدة؛ والذي عندما تشيخ القوانين الأخرى أو تنطفئ، يحرك أوارها أو يتمّمها، ويحافظ على شعب في روح نظامه، ويحل قوة العادة شيئاً محل قوة السلطة. وأعني بذلك الطباع والعادات وعلى الأخص الرأي العام، وهو فرع مجهول لدى ساستنا، لكن نجاح جميع القوانين الأخرى يتعلق به: ذلك هو الفرع الذي يهتم به المشرع العظيم في السر في حين يبدو أنه لا يهتم إلا بتنظيمات خاصة، إلا أنها في الواقع ليست سوى عقد القنطرة الذي تشكل فيه الطباع، الأكثر بطئاً في نشوئها، مفتاحه الذي لا يتزعزع»([102]).

كان ما رأيناه هو «النظام والانضباط في دقة الساعة» و «الدقة بحب وشغف»، «المثابرة بجلد لا يعرف الممل» و «التعاون والعمل بروح الفريق ولو بدون حب بين عناصره»، و «اليقظة التي تلمحها في العيون وسرعة الحركة والسهر على المصالح»، و «النطق بهدوء وبدقة وبمسؤولية والنظر في وجه السائل!!»، و «المحافظة على الموعد إلى درجة الهوس»، و «الالتزام ومعرفة معنى المسؤولية»، و «الصدق فهو انفع للمعاملات والحجز وسواه»، و «احترام الآخر ولو كان طفلاً أو من الشرائح الاجتماعية المستضعفة»، و «الفعالية في معالجة المشاكل»، و «البيروقراطية الميسرة» فالمعاملات تمشي على شريط كهربائي لا يقف، فلا تحتاج لملاحقة ومتابعة في كل مرحلة كي لا تموت في أحد الأدراج!! وهذه الكومة من القيم تحتاج إلى تفصيص ميداني كي يتم تأمل كل واحدة بشكل مستقل. والشيء المهم فيها كان بروزها في المجتمع، فشكلت «ظاهرة اجتماعية» و «تياراً مسيطراً هادراً» وليست حوادث فردية، فالجد والاجتهاد والنشاط والحركة تغلف المجتمع كله، وتهبه اللون الخاص به، وتعطيه موسيقاه المنعشة لأفراده المتهادين على وقعه.

هل نريد الآن أن نفهم الأخلاق والقيم «السرطانية» في مجتمعنا؟ لا بد من تعريف السرطان البيولوجي إذاً؟ إن السرطان هو إعلان التمرد العام على نظام الجسم، وهو في صورة ثانية «الخلل الوظيفي الزماني المكاني». فالخلية المجنونة تتكاثر بدون هدف إلا عربدتها الخاصة، وهي تترك مكانها لتحتل بغير جدارة مكاناً خاصاً بآخرين، وهي تنمو بسرعتها الخاصة مثل نشاز اللحن خلال لحن البدن البديع، وهكذا فمن كانت مهمته البناء يتجه للتدمير (سرطان العظام)، والخلايا المخصصة لجمال الوجه تتحول إلى فقاعات ورمية سوداء بشعة (سرطان الجلد)، وخلايا الأمعاء تترك مكانها لتنزل ضيفاً غير مرحب فيه في الكبد والرئة بل والدماغ (سرطان الكولون)... ولنذكر تماماً أن ضياع المجتمعات يحدث أيضاً بنفس الطريقة، فالسرطان الاجتماعي الذي يأكلها عندما

تضيع المسؤوليات.. ويشذ الناس على القانون.... إن كثرة الخلايا بلا معنى هادف يجعل البدن فاقداً لهدف الحياة، ويصبح بلا معنى. وجرت القاعدة أن الذي يفقد هدفه في الحياة حل به الفناء لأنه أصبح معادلاً للفناء، أو هو يسير نحو الفناء لأنه فقد مبرر الحياة، وهكذا فإن السرطان هو تعبير عن فقد مبرر الحياة بفقد هدف الحياة([103]) ويجب أن نعلم أنه كما يموت الأفراد، تموت الجماعات، وتدول الدول، وتفنى الأمم، وتنقرض الحضارات

ف «لكل أمة أجل»، ومن خلال السرطان النوعي الخاص بكل مستوى.

هل يموت المجتمع كما يموت الأفراد؟

أما موت الأفراد فليس من إنسان إلا وقد عاش هذه الواقعة لإفرادٍ آخرين من بني جنسه قريبين عزيزين أو بعيدين مجهولين، بل إن حقيقة الموت لنا كأفراد لا تفارقنا يوماً واحداً، فنحن نعي أننا جئنا إلى هذه الدنيا بغير رغبة منا أو استشارة، كما أننا سنودع هذه الحياة بغير رغبة ولا استشارة، ولكننا لا نستطيع أن نهضم أو نستوعب موت مجتمع ما، فلا يوجد فرد منا عاصر موت مجتمع بالشكل الذي يموت فيه الفرد. فهل يعني هذا أن المجتمع خالد فلا يموت؟ أو أنه كائن من نوع غير «بايولوجي» فيموت ككل الكائنات التي تولد فتموت؟ وإذا كانت «سنّة أو قانون» الولادة والموت تطوق هذا الكائن الذي نسمّيه «المجتمع» وتشكل مصيره، فقد بات علينا معرفة هذا «البعد الجديد» في الحياة الإنسانية، أي تشكل المجتمع ثم مراقبة احتضاره وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وكيف يتم ذلك؟ وبأي آلية؟ وفي أي ظرف؟ وتحت أية شروط؟ (لكل أمة أجل).

مقارنة بين الموت البيولوجي والموت الاجتماعي

اعتدل صديقي في مجلسه ثم حدَّق فيَّ النظر ملياً وقال وفي وجهه علامات اليأس والألم: إن تحليلي في غاية التشاؤم وانطباعي عن المجتمع العربي أنه قد تحول إلى جثة على طاولة التشريح فهو بحكم الميت، وفي قناعتي أنه سيندثر بشكل نهائي في القرن القادم.

صُدمت وبعمق، فهذا الإنذار المرعب (Prognosis)([104])، يشكل حالةً متقدمةً حتى عن وضع السرطان، فيبقى السرطان مرضاً لا أمل في الشفاء منه، مع هذا يبقى المريض مريضاً، أي أنه ما زال حياً يرزق، ولو أنه محكوم بالإعدام.

لقد مضى صديقي الدكتور في تحليله خطوة أبعد، واعتَبَرَ أن المجتمع العربي بحكم الميت مع كل مظاهر الحياة والنشاط لإفراده!! فمن أين جاء بتحليله هذا ياترى؟؟ إنه كباحث في العلوم الإنسانية والتربوية عنده من المشعرات (INDEX) والدلائل والمؤشرات إلى وضع المجتمع، ولادة أو موتاً، صحة أو مرضاً، عافية أو اعتلالاً، لذا تقدم فطرح هذا التشخيص (DIAGNOSIS) فاعتبر الجسد الاجتماعي (جثة ً).

قلت له معقباً ومتسائلاً بنفس الوقت: إننا معشر الأطباء عندنا من المؤشرات ما فيه الكفاية على موت الفرد (عضوياً) من انعدام النبض، وتوقف ضربات القلب، وغياب التنفس، وعدم تدفق

الدم بجرح الجلد، أو توقف النشاط الكهربي للقلب والدماغ ولمدة طويلة،

بل حتى إن الجثة تبدأ في التغير بعد فترة، فتكون أولاً حارة لتصبح بعدها باردة، وتكون رخوة لتصبح بعد ذلك مثل قطعة الخشب المتيبسة (الصمل الجيفي)، ثم تبدأ في التعفن والتحلل، ويصبح القبر خيرُ سترٍ لهذا القميص المتهتك، الذي يتمزق في كل لحظة:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم   غُلب الرجال فما أغنتهم القلل

واسُتنزلوا بعد عز عن معاقلهم   فأُودعوا حفراً يابئسما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ماقبروا   أين الأسرة والتيجان والحلل

أينَ الوجوهُ التي كانت منعمةً   من دونها تُضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم   تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طالما أكلوا دهراً وماشربوا   فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

نظر إليّ صديقي الدكتور متأملاً ثم أجاب: بهذه الدقة من التحديد ليس عندي جواب؟!! مع هذا لنضع الكلام آنف الذكر تحت المجهر النقدي لنرى صموده وصلابته أمام التحليل؟!

ما هو المجتمع بالفعل؟ هل يمكن فهمه ككيان نوعي؟

لا يمكن أن نفهم «موت المجتمع» ما لم نفهم ما هو «المجتمع» بالأصل. فإذا استطعنا أن ندرك تكوين هذا الكائن «النوعي» أمكن لنا أن نحدد مرضه من صحته، وموته من حياته، فالمجتمع ليس مجموعة أفراد، بل هو «شبكة علاقات» تنظم نشاط الأفراد([105])، فإذا أردنا تصور «الشبكة الاجتماعية» أو «النسيج الاجتماعي» أمكن تشبيهه بالخيوط والعقد، العقدة الواحدة متصلة بالعقدة الثانية من خلال خيوط الشبكة، وبذلك فإن كل عقدة متأثرة سلباً أو إيجاباً بوضع الخيوط التي تصل ما بين هذه العقد، وتعطينا البيولوجيا مثالاً ممتازاً لهذا الوضع، حيث يترابط ما يزيد عن (100) مليار خلية عصبية «النورونات» (Neurons) في الدماغ من خلال نسيج عصبي كثيف، كل خلية مزودة بحوالي ألف ارتباط، بحيث يشكل الدماغ الذي يحمله كل فرد منا في رأسه، من زاوية الاتصالات؛ أكبر وأعقد من كل الكون المحيط بنا. وتتعاون هذه «النورونات» من خلال «نظام التحام» بين كل خلية وأخرى، تسري فيها سيالة عصبية، تعبر هذا النسيج من أقصاه إلى أقصاه، بحيث تحيل الدماغ في النهاية إلى وحدة عمل مركزية واحدة منسقة مبدعة، والنسيج

الاجتماعي، أي شبكة العلاقات والخيوط التي تربط بين الأفراد، تتعلق أيضاً بالأفراد الذين يفرزونها، ولذا فإن وضع الشبكة المرتخي أو المشدود، المتوتر أو المسيَّب، النشيط أو الخامل، يتعلق بالأفراد الذين يحفظون هذه العلاقات أو يدمرونها، وينبني على هذه الفكرة أمران هامان:

1 – الأمر الأول: إن قوة الشبكة الاجتماعية وإحكامها هي من قوة الأفراد لأنها من صناعتهم.

2 – الأمر الثاني: إن الأفراد قد يمزقون هذه الشبكة، فيما لو شُدّ الخيط أو توتر بشكل زائد لمصلحة إحدى العقد، وهي «الظاهرة الورمية» التي تحدثنا عنها في بحث السرطان الاجتماعي، حيث تؤدي ضخامة الفرد (العقدة في الشبكة الاجتماعية) إلى قطع الأوتار الاجتماعية، وبالتالي بداية تدمير المجتمع على حساب نمو الأفراد وضخامتهم بظاهرة (السرطان)، فالسرطان ليس إلا مجموعات من الخلايا تعلن التمرد على النظام لحسابها الخاص، غير عابئة بما يحصل للجسم، ولكن السرطان كما عَلِمنا في مثل القرد الذي ينشر غصن الشجرة القاعد فوقه، فعندما يقضي على البدن بارتكابه هذه الحماقة المصيرية، يقضي على وجوده بالذات.

يقول مالك بن نبي: «بيد أن جميع أسباب هذا التحلل كامنة في شبكة العلاقات، فقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسوراً نامياً، بينما شبكة علاقاته مريضة، ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد، وأكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب «الأنا» عند الفرد من «تضخم» ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية، فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم، فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً»([106]).

المجتمع يعتبر شبكة علاقات وليس كماً من الأفراد

كان اكتشاف حلقة البنزين في الكيمياء العضوية شيئاً مثيراً للغاية، فالسكر السداسي (الغلوكوز) الذي يستخدم للطاقة في جسمنا، مكون من ذرات من الفحم الأسود (الكربون)، كما أن الألماس اللامع الرائع الصلد، مكون من ذرات من (الكربون الأسود) المضغوط بشكل جبار. والذي منح اللمعان للذرات السوداء القبيحة، هو طبيعة (التركيب الداخلي) لذرات الكربون، فأصبحت (يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار) والمجتمع بدوره هو (طبيعة تراص) خاصة بين أفراده، فإذا بقي ذرات كان سخاماً أسوداً، وشحاراً قاتماً، فإذا تراصت ذراته تحول إما إلى إعصار طاقة، أو لمعان تفوق عبر التاريخ. فالذي منح ذرة السكر الحلاوة المنعشة والطاقة الرائعة، وأعطى ذرة الألماس الصلابة المخيفة والتألق المدهش الفذ، هو طبيعة التركيب الداخلي، مع أن ذرات الكربون بالأصل سواد وقتام، وهشاشة وضعف بين العناصر المعدنية، بل يعتبر الفحم (شبه معدن) وليس معدناً، فهو

ليس في صلابة الحديد، أو ندرة الذهب، أو ثقل الزئبق، أو إشعاع اليورانيوم، فالذي يعطي التركيبَ القوةَ الضاربة، أو النوعية الممتازة، أو التميز والتفوق، هو كيفية «اجتماع» عناصره الأولية. وكذلك المجتمعات، فالذي يَسِمُ المجتمع بالقوة أو الضعف، بالتميُّز أو السطحية، بالتفوق أو الانحطاط، هو نوعية علاقة ذراته (أشخاصه) الداخلية. وبذلك تفوّق المجتمع الياباني وتأخّر المجتمع العربي، مع أن النقطة الزمنية لاحتكاك كلا المجتمعين بالمجتمع الغربي كانت متقاربة، فارتفع المجتمع الياباني وحلّق، في حين أن المجتمع العربي ما زال يجرجر أقدامه المتعبة المريضة، ويعجز عن السيطرة على حل مشاكله، وبين عامي 1960 و1990 حقق المجتمع «الكوري» قفزة نوعية، وبقي المجتمع «الغاني» يتجرع غصص التخلف، مع أن مستوى دخل الفرد كان واحداً في نقطة البدء!!([107]).

إذاً المجتمع هو تركيب (Structure) تماماً كما في التراكيب الكيمياوية العضوية، وهو بالتالي ليس «مجموعة ذرات» و «كومة أشخاص»، ونحن نعلم من الكيمياء العضوية، أن تغيير فاعلية مُركّب من وضع إلى وضع يتم من خلال السيطرة على تغيير نوعية العلاقات الكيمياوية الداخلية، ويبقى «الكم الذري» كما هو بدون نقص أو زيادة، فينقلب المُركّب الخامل إلى فعاّل وبالعكس، والدواء إلى سمّ زعاف، والسمّ إلى ترياق، كما حصل مع باول إيلريش (Ehrlich Paul) بعد 606 من المحاولات؛ لقلب التركيب الكيمياوي لبعض الأصبغة، فتحوّل المركب السام في النهاية إلى ترياقٍ وعقارٍ لمعالجة داءٍ فتكَ بالجنس البشري أكثر من 400 عام (الإفرنجي – Syphilis)([108]).

كيف يبدأ المرض في المجتمع؟؟

كيف يتحول المُركّب إذاً؟ كيف ينقلب في وظيفته؟ بل وكيف يمرض المجتمع؟؟؟؟ كلّها تحدث بنفس الآلية (تغيُّر طبيعة العلاقات الداخلية بين العناصر الأولية)، فإذا تورم الأفراد وتحولوا إلى «قوارض اجتماعية»، تلتهم الشبكة الاجتماعية، وانحدر المجتمع صوب الفناء والموت، وبنفس الآلية التي يموت فيها الأفراد. ولكن علينا أن نتأمل هذه الظاهرة جيداً. فما الذي يحدث عند موت الفرد؟ دعنا نتأمل ظاهرة «الفك والتركيب» في أي موجود تحت أيدينا من مثل الكرسي أو الطاولة أو السيارة، وكيف نسمي الطاولة «طاولة»؟ أم كيف نمنح لقب الكرسي ل «الكرسي»؟ أو السيارة ل «السيارة»؟؟ إن هذا يرجع ليس

ل «القطع أو الأجزاء» التي تشترك في تركيب الطاولة أو الكرسي فضلاً عن السيارة!! فلو أمسكنا بالكرسي و «فكّكنا» الأجزاء عن بعضها، لم تعد الطاولةُ «طاولةً» ولا السيارةُ «سيارةً»! والسبب هو أن السيارة تأخذ «وظيفتها» و«شكلها» الذي يمنحها الاسم من «اتصال القطع» و

«تلاحم الأجزاء»، فتقوم السيارة بوظيفة محددة من مثل الحركة لنقل الركاب والأمتعة. كذلك الحال في الكرسي الذي نجلس عليه، فإذا التأمت قطَعُه، وتضافرت عناصره الأولية، لتؤدي وظيفة «الجلوس» عليه، استحال إلى كرسي، أما قطعُه الأولية فليس لها اسم، وأجسادنا هي تركيبٌ من هذا النوع، ومعقدٌ للغاية. والذي يحدث في الموت، شبيه بما يحدث للكرسي عندما تتناثر قطعه وتعود إلى سيرتها الأولى، أو للسيارة عندما تُفكَّك وترجع إلى وحداتها الأولية، وأشار القرآن إلى هذه الحقيقة عندما قال: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ}([109]). فالجسد الذي يتحلل إلى عناصره الأولية لا ينقص منه شيء، وبَدَنُنَا في الواقع مكوّن من برميل ماء، ومقدار من الحديد يكفي لصناعة مسمار صغير، وقبضةٍ من الكلس، وكمية من الكبريت تكفي لرأس عود ثقاب، وحفنة من الفوسفور، وأثارة من اليود والنحاس، وبقيةٍ تافهة من الفوسفور المتقد، وكميةٍ من الغازات التائهة!!

فنحن ك «مواد أولية» في «ثمننا» لا نساوي شيئاً مذكوراً، ولكننا في تركيبنا الإنساني لا يصل إلينا «سعر»، لذا فالذي يبيع نفسه بالذهب يعتبر تاجراً في منتهى الغباء!! وعندما يموت الفرد بيولوجياً فإن البدن يتحلّل بعد فترة ليرجع إلى دورة الطبيعة، ولا غرابة عندما نسمع أبا العلاء المعري ينشد:

رُبّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحمِ الأضداد

خفّفِ الوطءَ ما أظن أديم ال أرض إلا من هذه الأجساد

إن العنصر الواحد مثل حديد الدم، أو فوسفور المخ، أو يود الدرق، أو كلس العظام؛ مصيره في النهاية إلى التراب، إلى دورة الطبيعة، ليعاد تشكيله واستخدامه من جديد، في غاية جديدة، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث، وخلق مبتكر. قد يكون بشراً جديداً، أو أنسجة حيوان، أو محتويات خلية نباتية. فأجسادنا الزائلة جاءت من الطبيعة، وهي تيمّم شطرها مرة أخرى إلى التراب: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}([110]). والذي حصل مع الموت اتسم في الواقع بصفتين جوهريتين سبقت إحداهما الأخرى، فأما الخلل الأول بعد الموت والذي يطرأ على الإنسان فهو «توقف الوظيفة»، فيتحوّل الإنسان إلى صورة جامدة، لا يبكي ولا يضحك، لا يتألم ولا يحس، لا يتكلم ولا يسمع، فإذا استقرت هذه الحالة انتقل إلى الحالة الثانية وهي «تحلل الشكل»، فالميت مثل النائم، يبقى في الفترة الأولى محافظاً على شكله، بل يبقى اللحم حاراً ولساعاتٍ بعد الوفاة، كما تبقى بعض الخلايا حية، بل قد تنمو الأظافر شيئاً ما، ثم يسيطر الموت، فتبدأ «علاقات» الأنسجة بالتفكك و «ارتباطات» الخلايا بالتمزق النهائي، كي يتفكك الجسم تماماً إلى وحداته الأولية. والمجتمع عندما يبدأ بالانهيار في مرحلة الموت يمرّ بما يشبه هذه المراحل من «شلل الوظيفة»،

لينتقل بعدها إلى مرحلة «اندثار الشكل ودماره الكاملين»... ليتحول في النهاية إلى «كومة» من الأناسي و «خردة» من البشر لا يجمعها رابط، أو يضمها مثل أعلى، أو تحدوها قيم عليا، أو ينظمها تنسيق مشترك، فيعيش كل فرد لنفسه، أو يتحوّل الإنسان من «الشخص» إلى «الفرد»، فيخسر ذلك «البُعد» الذي منحه أياه المجتمع، حينما أضاف إلى معادلته البيولوجية «المعادلة الاجتماعية»([111]).

موت الأفراد وموت المجتمعات حسب القرآن

ومن الملفت للنظر أن القرآن أشار إلى المَيْتَتَين، فذكر موت «الفرد» {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ}([112])، كما أشار إلى موت الأمم والمجتمعات {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ}([113]). فالأجل هنا جماعي وليس فردي. فالآجال إذاً نوعان: منها ما هو خاص بالفرد، والآخر بالمجتمعات، كل من نوعية متباينة، وهذا يعني بكلمة ثانية أن الأمم تموت، والدول تنتهي([114])، والشعوب تفنى([115])، والحضارات تباد وتنهار([116])، بل إن حديث القصعة أشار أيضاً إلى طرف من هذا: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فيتحول المجتمع الإسلامي إلى مواد غذاء وتموين لبناء أجساد أخرى، عندما يختل تركيب التكوين الداخلي الاجتماعي، فتتحول طاقات الأفراد المنسابة عبر الأقنية الاجتماعية إلى مصادر تفجير لها، فتتمزق أقنية الوصل الاجتماعية، ويتهتك النسيج الاجتماعي.

جاء في كتاب «ميلاد مجتمع»: «ولكن الطاقة الحيوية قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها، أعني ما لم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليا تعيد تنظيم هذه الطاقة وتعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة في المقام الأول –حيث تشترك في حفظ النوع– إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان حين يسهم في النشاط المشترك لمجتمع ما»([117]). كما أسعفنا القرآن بأمثلة عن مجتمعات باتت مريضة تمشي باتجاه الموت، وكيف تم التصرف تجاهها، بين فتية أهل الكهف، الذين انطلقوا لتأسيس مجتمعهم الخاص بهم وضنوا حتى بالكلب أن يبقى في المجتمع السابق!! وبين موسى (عليه السلام) وهو يواجه أعظم حضارة في عصره، حيث حدد مهمته على وجه الدقة، من أنه لا يريد إصلاح المجتمع الفرعوني الذي وضع الموت يده الباردة عليه. إنه يريد شعبه، الذي ينتظره أن يُدفن في الصحراء أولاً من خلال «التيه» كي يخرج من أصلابهم جيل لا يعرف غير الشمس والحرية، وهو الذي لن يرتعد من «القوم الجبارين» الذين توهمهم آباؤه كذلك. والمثل الثالث في انفلاق مجتمع المدينة الساحلية إلى ثلاث مجموعات أمام تحدي الانحراف، نجى فيها الفريق الصغير نواة الأمة الجديدة، بترابط جديد للقيم،

أما بقية المجتمع فتشوه الترابط الداخلي عنده، ليتحول إلى مجتمع «القردة الخاسئين» {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}([118]). ولا غرابة، لأن كروموسومات القردة تشبه 99% من كروموزومات الإنسان، ولكن الاختلاف في البناء الداخلي، ولو باختلاف 1% يقلب البناء رأساً على عقب، ويحوّل البشر السوي إلى قردٍ خاسئ!!

شهادة التاريخ في موت المجتمعات

إن المجتمع الفرعوني حينما اندثر وطواه التاريخ، وبقيت الأهرامات تشهد على حيوية شعب أصبحت في ذمة التاريخ، لم يمت أفراد ذلك المجتمع «بيولوجياً»، ولم تُغيَّب عناصره الأولية في التراب، وما زال الإنسان الفرعوني «المصري» يعيش، ولكن كعنصر أولي يشارك في حضارة مختلفة، فعندما مات المجتمع الفرعوني تحول أفراده إلى عناصر أولية و «طوب» أو «لبنات» امتصها مجتمع زاحف نامٍ متفوّق، كوَّن بها نفسه من «لبنات» المجتمع الميت، الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهكذا تحول المجتمع «الفرعوني» إلى مجتمع «روماني»، ثم مات بدوره ليتحول إلى مجتمع «إسلامي»، وهكذا طوى التاريخ بين جنبيه مجتمعات تترى، ضمّها قبر التاريخ وضريح الحضارات {ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ}([119])، مثل المجتمع اليوناني والقرطاجني والأزتيك والإنكا والوبيخ والفرعوني الخ... {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً}([120]).

تحليل يومي تشريحي لحركة المجتمع

ومن خلال البانوراما التي استعرضناها من القرآن والتاريخ وعلم الاجتماع والكيمياء العضوية والبيولوجيا بل وحتى علم الأدوية، نتوجه لتسليط الضوء على فكرة «السلسلة الذهبية» كي نفهم في ضوئها معنى الموت الاجتماعي، وتقطع شبكة الربط الحضارية!!

ما معنى أن «معاملة» ما في أي قطاع اجتماعي لا تمشي إلا بطريقة «الدفع المتتابع المستمر» مع شيء من المقبلات من «الوساطة»؟؟!! إن هذا المرض خطير للغاية، ومؤشر لأزمة اجتماعية، فالعملية الاجتماعية أياً كانت هي –إن شِئنا أم أبينا– وحتى تنجز، تتكون من سلسلة من الأفعال الاجتماعية، يقودها الأفراد الاجتماعيون، من خلال معادلة «حق – واجب»، أي أن الواجب الذي يؤديه فرد في سلسلة «أ» ستكوّن له حقاً

في سلسلة «ب» مثل العلاقة بين «علاج طبي لمريض»

و «استخراج رخصة قيادة سيارة في مصلحة المرور» و «نقل رسالة بريدية»، فالعملة، أي «الخدمة الاجتماعية» هي عملة ذات وجهين (حق – واجب)، فما كان حقاً لفرد هو واجب للتأدية في ذمة آخر.

هذه العملية الاجتماعية مهمة في كل «حلقات السلسلة» بما فيهم الفرَّاش وحامل الأوراق، لأنه يكفي أن «تنام» المعاملة في «درج» أو يضطرب التعقيم في مرحلة طبية، أو يهمل أي موظف الخدمة الاجتماعية، أن تضطرب السلسلة كلها وتحل الكارثة!! وهذه الحقيقة القاسية والمؤسفة هي لب العملية الاجتماعية. فإذا كانت «السلسلة الاجتماعية» مكونةً من عشر حلقات بين الرئيس، ومساعده، والسكرتير، والموظف المتلقي، وحامل الأوراق، والمدقق، والناسخ، والضارب على الآلة الكاتبة، وصاحب الكمبيوتر، والجالس خلف سنترال التلفون، يكفي أن تضطرب «حلقة واحدة»، وحلقة واحدة فقط لا غير، من هذا السلسلة كي يختلَّ العمل بأكمله، وهذه المشكلة هي أس الأسس في التركيب الاجتماعي، فعندما يكون الموظف متسلِّلاً بدون إذن([121])، والساعي مهمِلاً، والمدقق نعساناً، والناسخ فوضوياً، والجالس على الكمبيوتر جاهلاً، والقاعد خلف السنترال نائماً! يكفي الخلل في «حلقة مفردة يتيمة» ولو كانت كل «السلسلة» من الذهب الخالص و24 قيراطاً، أن تحل الكارثة وتقع المصيبة، وتتوقف السلسلة أن تمر بها «السيالة الكهربية» الاجتماعية، وبذا ينطفئ الضوء الاجتماعي، ويذهب نوره، وتحترق الآلات ويعم الخراب، وتسود الفوضى، ويبدأ المجتمع في التحول إلى مجتمع... نفسي نفسي.

إن هذه الحقيقة المرة والموجعة هي الإصابة العصبية الاجتماعية الكبرى، والتي تحوّل المجتمع إما إلى «مشلول» بانقطاع العصب، أو متشنج مضطرب بإصابة العصب الجزئية، مشلول عندما يعطب العصب بالكامل فلا يمرر السيالة العصبية الاجتماعية، ومتشنج بعدم تناسق عضلات الفعل الاجتماعي في اضطراب مرور السيالة العصبية حسب نسبتها ومقدارها.

موت المجتمع لا يعني بالضرورة فناء الأفراد

إن النزول إلى ساحة العمل الاجتماعي مرهقة إلى أبعد الحدود، مزعجة إلى حد المرض، مضيِّعة للوقت بدون مبرر «لأننا ملوك الزمان» بل وتأكل الكرامة الإنسانية أحياناً، فلا موظف يبقى خلف طاولته، ولا عامل يبقى مرتبطاً إلى عمله، والدخول إلى الطرقات هو النزول إلى ساحة الحرب يحمد الفردُ فيها اللهَ في نهاية المطاف على السلامة، وملاحقة المعاملات جولة في بلاد «أليس للعجائب»

و «عبقر» للجن، وإنجازها وكأنها إزاحة جبل، والسر في هذا هو تقطع «نقط الاتصال والالتحام الاجتماعية» بين «حلقات» السلسلة الذهبية التي أشرنا إليها، فلا تعود ذهبية، بل تتحول إلى سلسلة تتك، وحديد صدئ، والصدأ على كل حال يعني التفكك والعودة إلى حالة «الخام الطبيعي»، فإذا اضطربت «السيالة الكهربية» الاجتماعية، وتقطعت حلقاتٌ متعددة، من سلاسل شتى، كان مؤشراً خطيراً لتدمير النسيج الاجتماعي، وكان معناه أن المجتمع يبدأ يكف أن يكون مجتمعاً، بل يتحول إلى «مُجمَّع هزيل» و «مافيات اجتماعية» وحوضاً مرعباً لسمك القرش وقنافذ البحر والأخطبوط الاجتماعي، وهذا المرض لن يقف عند هذا الحد، بل سيقضي في النهاية حتى على تلك الجزر الطافية هنا وهناك في الأوقيانوس (المحيط) الاجتماعي المتخبط، كما كانت حالة الإمبراطورية الرومانية في العصور الوسطى، وفي النهاية يصبح المجتمع أمام طريق مغلق، وعليه أن يولد من جديد، إما بحزمة قيم جديدة بالولادة الروحية الجديدة كما فعل الإسلام مع «البشر الخام» في الجاهلية، حيث لم يكن يهم «طرفة بن العبد» إلا قدحاً من الخمر، وقتالات طائشة، وممارسة الزنا مع بنات الهوى([122])، أو الذوبان والاختفاء الكامل في مجتمعات قوية متفوقة، واندثار ثقافة المجتمع

{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}([123]) وقد حدث هذا في التاريخ ويتكرر.

مجتمع «مضخة الماء» والمجتمع الكهربائي والإلكتروني

ما الفرق بين مجتمع ومجتمع؟؟ هناك ثلاثة أنواع من المجتمعات فيما لو أردنا استخدام المصطلحات العصرية!! مجتمع «مضخة الماء» والمجتمع «الكهربي» و «الإلكتروني». فعندما لا تمشي المعاملات إلا بطريقة «الدفش المتتابع المستمر»!! فهي تعود إلى مجتمعات «مضخة الماء»، فالماء يتدفق طالما بقيت اليد ملتصقة بالذراع الحديدي، فإذا توقفت عن «الدفش» انقطع الماء وتوقف الخير!! وهكذا فالمعاملة التي تقف مباشرة قبل هدفها بملمتر واحد؛ لا تصل إلى هدفها بدون «الدفعة الأخيرة» ويعتبر كل جهد سابق وكأنه لا شيء، فلا تولد أو ترى النور بدون الحقنة الأخيرة!! أما المجتمع «الكهربي» فهو الذي يتحرك بكبس الأزرار، فتمشي المعاملة لوحدها بدون متابعة إلى مقرها الأخير، بسبب قوة كل حلقة من «السلسلة الذهبية»، وهكذا تولد كل معاملة وصاحبها مطمئن إليها طالما حرَّكها، وهو الذي لمسناه في الماكينة الاجتماعية الغربية أثناء العيش بينهم، وهي من أسرار تفوقهم وقوتهم، فلا تحتاج أي معاملة إلى متابعة أو ملاحقة، فضلاً عن نشوء مؤسسات خاصة في المجتمع لمثل هذه الوظائف الطفيلية «تخليص المعاملات – متابعة

الجوازات – تحصيل الديون الفوري»!! أما المجتمعات المستقبلية مجتمعات «النبض الإلكتروني» فهي تلك التي تتربع على عرش الإلكترونيات، ويفتح لها القرن الواحد والعشرين ذراعيه للاحتضان، من مثل المجتمع الياباني([124]). وحتى يمكن نقل المجتمع من عصر «مضخة الماء» إلى «الفعل الكهربي» فضلاً عن «التوهج الإلكتروني» فإنه يتوقف على اتصال عناصر العملية الاجتماعية، فإذا أدت إحدى «حلقات» السلسلة عملها بفعل «جذبي بانتكاس داخلي» قعد المجتمع وانشل، وإذا تحول إلى روح «الواجب وضمن المراقبة المتقابلة المزدوجة وبآلية النقد الذاتي» تحول إلى مجتمع «حركة الكهرباء» فإذا قفز إلى روح «المبادرة» أصبح بسرعة الومض الإلكتروني!! ولله في خلقه شؤون.

ثمن الانهيار الاجتماعي

مع تمزق شبكة المجتمع تدفع كل عناصر المجتمع الثمن، ومع كل فوائده المركبة، حتى من هم في قمة الهرم الاجتماعي، والسبب بسيط، هو أن «الماكينة الاجتماعية» لا تعمل، حتى الأوامر التي تأتي من فوق تفقد حرارتها كلما نزلت إلى أسفل، فتتباطأ ويتوقف الإنتاج، وكأنها مثل القانون الثاني في الديناميكيا الحرارية، فهي تبرد مع الوقت، والتحرك باتجاه المحيط، أي إن الفعل الاجتماعي يتحول من فعل «واعٍ إرادي» إلى عمل «فيزيائي»، وشتان بين الإرادة والمعدن، والحيّ والجماد، والفعل والانفعال، والطبيعة والإنسان، في حين أن المحافظة على الشبكة الاجتماعية تجعل الحياة سهلة لكل واحد فيها، ممتعة لكل فرد، حلوة لكل من يشارك في نشاطها، ولعل هذا هو الذي قصده القرآن حين ربط بين مفهوم «الاستقامة» والفائض في الحياة الاجتماعية «غدقاً» {وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً}([125]).

مثل إنكليزي معبّر

يقول المثل الإنكليزي إن هناك قصة طريفة جرت لأربعة أشخاص أسماؤهم «كل واحد» و «أي واحد» و «لا أحد» والرابع كان اسمه «بعض الناس». وكان هناك أمر مهم يجب أن ينجَز. فُسئل «كل واحد» كي ينجزه، إلا أن «كل واحد» كان يتوقع من زميله «بعض الناس» أن يقوم به، إلا أن «بعض الناس» غضب لأن المهمة كانت مهمة الزميل «كل واحد»، إلا أن «كل واحد» فكّر أن «أي واحد» يمكنه أن يؤديه، ولكن الزميل «لا أحد» تحقق أن «أي واحد» يمكن أن يفعلها، وبذلك كانت المحصلة أن «كل واحد» لام «بعض الناس» لأن «لا أحد» فعل ما كان يجب أن يفعله «أي واحد»!!!

This is a story about four people named» Everbody» ,«Somebody,« »Anybody ,«and» Nobody.«a

There was an important job to be done ,and» Everybody «was asked to do it. »Everybody «was sure» Somebody «would do it» .Anybody «could have done it. »Somebody «got angry about that ,because it was» Everybody'«s job» .Everybody« thought» :Anybody could do it ,but» Nobody «realized that» Everybody «wouldn't do it .It ended up that» Everybody «blamed» Somebody «when» Nobody «did what »Anybody «could have done.a

قصة الملك وشعبه المحب

وتحكي القصة أن ملكاً أراد اختبار محبة شعبه له، بأن نصب في الميدان العام للبلد حوضاً كبيراً، وطلب من كل فرد عربوناً لحبه قدحاً صغيراً من العسل، وفي اليوم التالي كان الحوض فارغاً، لأن كل واحد فكر بنفس الطريقة: «وما الذي سيؤثر في الوعاء الكبير أن ينقص منه قدحي الصغير؟!!».

نوادر جحا ومغزاها الاجتماعي

شخصية أسطورية من الماضي يضحك المرء عند تذكرها بما تحمل من ظلال الدعابة والفكاهة، لترتسم على الوجه الابتسامة أحياناً، ولا يكتم المرء نفسه أحياناً، فينطلق مقهقهاً بالضحك العالي، متعجباً من تناقضات التصرفات التي تواجه كل منا في موقفٍ من المواقف، ولكنها شخصية تمثل العقل الجماعي وخبرة الزمن، الجريدة المتنقلة وهمس الإشاعات، كما تروي التراث وإفرازات الوسط الاجتماعي، بل والنكتة السياسية أحياناً، والتعبير عن مكنونات السر الجماعي بطريقة لاذعة معبرة تفرّغ الهمَّ في ضحكةٍ ساخرة، وشر البلية ما يضحك!!

يطل علينا من بعيد رجل عليه ملامح الوداعة والذكاء، على ظهر حمار، قد علت رأسه عمة كبيرة وتلفّع بجبة واسعة، ربما كان معاصراً لتيمورلنك، لا ندري على وجه الدقة، لكن الشيء الأكيد أنه يعيش في داخل كل واحدٍ منا، لأنه أصبح قطعةً من التراث الشعبي الذي يشكل المخيلة الجماعية.

هذا الرجل نصف المعتوه، نصف الحكيم، الذي لا يعني ما يقول، ولكنه أحياناً يعني ما لا يقول، ويلقي أحياناً في الجهر وبشكل نكتة ما لا يتجرأ على سماعه الآخرون في السر، لأنه يعبر عن مكنون الضمير الاجتماعي، في شكل قصص ونكت وملح، تُرّوح عن القلب، وتُحْدِث توازن القول والصمت، وتعوض عن محنة السكوت الطويلة، وتصل هدفها بسهولة. وتسجل الاعتراض على الأخطاء الاجتماعية، من رجلٍ أعزل مسالم وديع، يستخدم النكتة كسلاح في معركة الترميم الحضارية.

إنه يعترض على الصمت الاجتماعي والسكوت المطبق، فإذا تكلم تحدث بلغة لا توقظ نائماً ولا تزعج مستيقظاً. إنه يسجل اللامعقولية في مجتمعنا، الذي يمكن فيه ل «الطناجر» أن تولد وتموت!!

إنه يؤرخ لثقافتنا لغة الفخامة الفارغة، ومحنة العقل بين كلام لم يعد يرتبط بالواقع، ويتكلم بلغة السحرة. إنه يستعرض التمرد الأحمق في وجه تربية جوفاء، ولكنه التمرد الذي ينبض في غير وقته ويتحرك في غير زمانه، ليقود إلى كوارث جديدة. إنه يسجل لحظات الشعور بالانهيار الاجتماعي الذي لا يملك اتجاهه شيئاً، وفوضى المكان والزمان.

إنه يسجل للعصا دورها في إمكانية تحويل الإنسان إلى كائن يمشي على أربع. كلها صور بديعة من النكتة اللاذعة، والتعليق الساخن، والضحكة العريضة الساخرة، فهذه هي أسلحة الرجل الأعزل. والمشكلة تبقى في عمومها مشكلة «مرض الثقافة»، ولذا فهو ينزل إلى بطن المجتمع ليرى علاقات التعامل المالي في «الدين والاستدانة» والتعامل المريض للناس، فيكتشف بُعْد الكارثة في أرض الواقع اليومي. إن معظم نكات جحا هي تسجيل اعتراضات وملاحظات على المرض الاجتماعي. إنه لا يُعنى بالفكاهة والتندر التي تتناول مسائل اجتماعية مسطحة، في قضية الحموات والتندر على أهل الصعيد أو «الحماصنة» أو الفلاحين وأهل الريف عموماً، بل يدخل في نكات واضحة الهدف، قد اتخذت موقعها في مواجهة الكارثة الاجتماعية، التي تغوص في الزمن إلى حقبة بعيدة جداً، منذ أن أعلن العالم الإسلامي أن وقت الرشد قد انتهى.

نموذج الصمت الاجتماعي

يخرج على الناس فيقول: هل تعلمون بما في صدري؟ يقولون: لا. يقول إذاً من الأفضل أن لا تعرفوه. وفي الأسبوع الثاني يكرر: هل تعرفون ما أريد قوله لكم؟؟ فيحتارون في الإجابة ثم يفضِّلون: نعم، نعرف ما يدور في صدرك!! فيقول: ما فائدة أن أخبركم بشيءٍ تعرفونه وأن تسمعوا ما قد سمعتموه؟!! وفي الأسبوع الثالث يخرج على الناس فيقول: هل تعرفون ما أريد قوله؟؟ فيحارون أكثر في الإجابة، ثم يرون أن أفضلَ حلٍّ أن ينقسموا إلى فريقين، فريق يقول «أعلم»، وفريق ينكر المعرفة، وبهذه الطريقة يكونوا قد أمسكوا بطرفي الحل. لكن جحا يخرج تماماً من هذا الشق الميت الذي صنعوه ولم ينتبهوا له، عند حافة العلم من عدمه؛ ويجيبهم: إذاً فليخبر الذي يعلم مَنْ لا يعلم!!

جدلية هذه النكتة هي في الصمت الاجتماعي العام، فالخطأ الاجتماعي يقف أمام حصار ومتناقضة واجبي السكوت والقول، وفضَّل مجتمعنا منذ القديم وحتى الآن أن يسكت، فلا يقول بما في صدره، ونظراً لأن هذا الوضعَ غيرُ طبيعي؛ فإن أفضلَ مسرى له للتنفيس هو في استخدام النكتة، أو –وهو أخطر– انفجار العنف، فالأفكار طاقة لا بد من تصريفها، إن لم يكن في جدلية الحوار العام، فبالصدام كآلية توازن بديلة.

اللامعقولية في المجتمع

استعار من جاره طنجرة للطبخ وأعادها إليه في اليوم التالي ومعها صحن!! فتعجب الجار فلما سأله عن الصحن أجاب: لقد ولدت الطنجرة!! ففرح الجار بذلك وبدأ يعيره أكثر. حتى كان يوماً فتأخر، فلم يعِد ما استعار من الأواني، وكانت هذه المرة أوانيَ ثمينة، فسأله عن أوانيه قال: قد

ماتت!! قال: ويلك، كيف تموت الطناجر؟؟ أجاب: من صدّق يوماً أنها تلد، فعليه أن يصدق في اليوم التالي أنها تموت!!!

ثقافة المبالغة وفخامة الألفاظ

اعتدنا في أحاديثنا أن نفخم الألفاظ، ونكثر من التعابير إلى درجة الإسهال، واستولى علينا مركب «الكثرة» إلى درجة الورم المؤذي، وعند اللقاء تبلغ ألفاظ الترحيب طول عدة كيلومترات، وعند أقل الخلافات نتحول إلى أطفال نتراشق بالألفاظ السامة، وكلها علامات على طفولة مجتمع.

كان جحا إذا أراد أن يذكر شيئاً بالغَ فيه كثيراً، فإذا أكل فقد شرب البارحة برميلاً كاملاً من اللبن، وإذا مشى عبر عشرات الكيلومترات، وإذا أنفق كانت عشرات الآلاف من الدنانير قد فرشت الأرض. فنصحه صديقه أن يكف عن هذه العادة القبيحة، فقال: وماذا أفعل؟ قال: إن كنتُ بجانبكِ سعلتُ أو تنحنحتُ بقدرِ المبالغة، فإذا انتابتني نوبة سعال رهيبة، فاعلمْ أنك بالغتَ بقدر موج البحر!! حتى كان يوم ضم المجلس علية القوم فتكلم جحا فقال: ياجماعة بنيت مسجداً، قال القوم: خيرٌ ما فعلت. قال: هل تعلمون ما طوله؟؟ قالوا: لا... مبارك إن شاء الله. قال: خمس وعشرون ألف ذراع!! قالوا بصوت واحد: قد كبَّرته جداً يا جحا، فسعل صديق جحا حتى أمسكت به موجة لئيمة من السعال كاد أن يختنق بها، فأسرع القوم يضربون ظهره ويقدمون له الماء!! قال جحا سائلاً: ولكن هل تعلمون ما عرضه؟ قالوا: لا شك أنه سيناسب هذا الطول الخيالي!! قال جحا بقنوط: لقد جعلت عرضه ذراعاً واحداً فقط!! فهتف القوم بلسان واحد: قد ضيَّقته كثيراً ياجحا!! فنظر جحا بعين حولاء إلى صديقه، الذي يرمقه وهو مجهد من سعاله السابق، وتنهد فقال: الله يُضِّيق على الذي ضيَّق عليّ!!

عندما ينتفي التفاهم لا يبقى سوى التمرد ولكن متى وأين؟؟

في بعض الظروف يتحول التظاهر بالطاعة إلى ما هو أقبح من التمرد بما لا يقارَن.... لنسمع هذه القصة:

كان جحا يعيش في رعاية عمه بعد وفاة والده، وكان يعاكسه في كل شيء –لا نعرف لماذا– فاذا قال له اذهب إلى اليمين ذهب شمالاً، وإذا قال له انزل صعد، واذا قال له اخرج دخل، وهكذا؟!! حتى كان ذلك اليوم الذي كلف العم جحا وعمالاً له بحمل أكياس من الطحين على ظهورهم، والعبور بها في مجرى نهرٍ صغير، إلا أن جحا عندما وصل منتصف النهر اشتد دفع الماء وقوي تياره، وبدأ يترنح بين ضغط الماء وثقل كيس الدقيق على ظهره، فارتعب العم وحار ماذا يوصيه؟ ولم يبقَ أمامه إلا التقيد بتعاليم التعامل اليومي في جو عدم التفاهم القائم فصاح به:

ياجحا.. ياجحا.. ألقِ الكيس في النهر، فالتفت جحا إلى عمّه متهلل الوجه: يا عماه، قد كنت مخالفاً لتعاليمك طوال الوقت، إلا أنني قررت هذه المرة أن لا أعصيك.. وفي لحظات كان كيس الطحين يرقد في الوحل والطين!!.

عند الشعور بالانهيار الاجتماعي يبقى السقف أفضل تعبير

سكن داراً قديمة كان سقفها يحدث فرقعة، وعندما اشتكى إلى صاحبها، قال له ويلك: هذا لا يضر شيئاً، ولعلك نسيت أن السقوف تسبح الله، فإذا سبحت قرقعت، فأجاب جحا: إن كل خوفي أن تدركها رحمة أكثر فتسجد فوقنا!!.

المشي على أربع بالعصا

حمل جحا إوزة مشوية إلى عمه، الذي يسكن في حلب، وغلبه الجوع وهو في الطريق؛ فأكل إحدى رجليها، وعندما سأله عمّه عنها زعم أن الإوز كله خلقه الله برجل واحدة في حلب، ثم أشار إلى سرب الإوز في حديقة عمه، وكان الإوز قائماً على قدم واحدة كعادته وقت الراحة. قام عمه حينها مغضباً: أتسخر بي... وأمسك بعصا غليظة وهجم على سرب الإوز ملوحاً بها، فطار السرب كله ولم يعقب، التفت إلى جحا وصاح: هل رأيت الآن أن الإوز في حلب يعدو على قدمين وليس واحدة؛ فأخبرني الآن عن حقيقة الأمر، أين ضاعت فخذة الوزة المحمرة؟؟ قال جحا مضطرباً قليلاً: على مهلك يا عماه... فوالله ما رفعت على أحد مثل هذه الهراوة إلا مشى على أربع، وليس على ساقين اثنتين!!

إن جحا يؤرخ لنفسه جائعاً بين مواكب الجائعين، الذين قد تنقلب طبيعتهم الآدمية في بعض الظروف تحت التهديد بالقوة.

خبر الحمار الذي ضاع

عندما ضاع حماره وجاء الشامتون لكي ينقلوا له الخبر الأليم ليروا كيف يستقبله!! قام فحمد الله وبدأ يكرر المزايا التي حظي بها عندما فقد الحمار؛ من هذه المزايا أنه لم يكن على ظهر الحمار عندما ضاع؟!!

إن جحا بهذه القصة يسجل وضع الاضطراب الاجتماعي عندما يحصل، فعندما لا يبقى أمان للحيوانات يكون الطريق قد فُتح لضياع البشر أيضاً، على طريقة قصة الجمل الهارب.

قصة الجمل الهارب

أبصر جمل صديقاً له من الجمال شارداً على وجهه لا يلوي على شيء، وقد بدا الذعر في عينيه وانتفخت أوداجه واحمرت عيناه، صاح به الجمل الأول: ويلك، ما لك، ولمَ كل هذا الرعب؟؟ أجاب وهو منطلق بكل جموح: لا تسألني ففي المدينة يعدون الآذان؛ فإذا عثروا على أحد منا معشر الجمال، أو أحد الحيوانات يملك أربعةً من الآذان قطعوا الأذنين الزائدتين!! صاح به صديقه: وأي ضير في هذا؟ فالحمد لله لا نملك نحن معشر الجمال سوى أذنين جميلتين!! قال الجمل الشارد وهو يشد ركضه باتجاه الصحراء أكثر فأكثر: هذا صحيح ولكنهم يا عزيزي يقطعون الآذان أولاً ثم يعدون فانفد بجلدك قبل الأوان!!

إن أمان الحيوان مرتبط بأمان الإنسان في المجتمع، وبالعكس. وينقل لنا التاريخ أن القاهرة في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي قامت بحملة رعب مكثفة ضد الكلاب، فقُتل منهم في وقت قصير قرابة الثلاثين ألفاً، حتى كادوا أن ينقرضوا، ولا نعرف على وجه التحديد لماذا حقد الفاطمي على هذه المخلوقات المسكينة كل هذا الحقد، فالأمر جد كما نرى، فعندما يضيع حمار جحا، لا يسأل جحا عن حماره أين صار، بل يحمد الله على نجاته بالسلامة.

أتصدق الحمار وتكذبني؟!!

طلب منه جاره أن يعيره حماره ولكنه اعتذر عن الطلب قائلاً: إنني آسف جداً. الجار: خيراً إن شاء الله.. ما المانع؟ وإنني أعدك بحسن معاملته!! فأجاب جحا جاره وهو يتلفت حوله حذراً: الحقيقة يا جاري إن الحمار –أجلَّك الله– أعطاك عمره البارحة؟!!

في هذه الأثناء اندفع الحمار المختبئ في الزريبة بنهيق شديد!! فرجع الجار إلى جحا: أهكذا يا جاري تعاملني فتزعم أن الحمار ميت وهو حي يرزق بدليل نهيقه؟!! يصرخ جحا مستشيطاً من الغيظ: أهذا قدري عندك أيها الجار العزيز؟ أتكذبني وتصدق الحمار؟!!

هذه الواقعة يريد منها جحا بطريقة معكوسة فضح النفاق الاجتماعي، فالمنطق يقول إن جار جحا على خطأ، لكن الواقع يقول إنه على صواب، وهدف جحا من وراء تقرير هذا التناقض، هو أن يظهر قدرة المنطق على تبرير كذب الناس من دون وعي الناس، فعلينا أن نصدق أن الذي يغرق في كل الموبقات والمخالفات، هو من معدن رائع بمجرد انتسابه بالكلمة للشرف، رغم أن أعمال المذكور تشهد ضده بصوت أعلى من نهيق حمار جحا؟!!

قَبِّل يدي قبل كل شيء!!

وعندما جاءه أحدهم ليستدين مبلغاً من المال قال: هل لك في إقراضي مبلغاً من المال؟ جحا: على شرط واحد!! السائل: وما هو؟ جحا: أن تُقبِّل يدي!! السائل: ولكني يا شيخي أُقَبِّل يدك كل يوم!! جحا: نعم، ولكن قَبِّل يدي هذه المرة على نية الدَّين!! السائل: استحلفك بالله ما وراء هذا الطلب؟ قال جحا: لأنني عندما استردّ ديني –هذا إذا استرديتُه– عليّ أن أقبّل قدميك!!

هذه القصة قد تدعو إلى الضحك حقاً، ولكن ما يضحك فيها أنها تمثل الواقع بشكل مخفف!! هل نروي للقارئ بعض الحقائق «الجحوية» التي يجب أن يعلقها أمامه كل من يبدأ رحلة الدَّين!!

إذاً عليك اتباع القواعد الذهبية الخمس عشرة التالية:

القاعدة الأولى: لا تدين ولا تستدين. وإن كنت ولا بد دائناً فأعطِ مبلغاً بقيمة أو نية الصدقة والهبة.

القاعدة الثانية: إذا ديّنت فاعتبر المال بحكم المفقود.

القاعدة الثالثة: في حال عودة الدين اعتبر أن الأمر غير طبيعي وضد قانون الطبيعة.

القاعدة الرابعة: يجب أن لا تغضب ولا تحزن، ويجب أن توطن نفسك على هذه الأمور عندما تبدأ رحلة الدَّين.

القاعدة الخامسة: في الدَّين أنت تحل مشكلة للآخر أما هو فسوف يخلق لك مشكلة، ما لم ترجع إلى القاعدة الأولى فتعتبر الدين هبة أو صدقة.

القاعدة السادسة: الفرق كبير بين القواعد النظرية المذكورة أعلاه وبين تصور المعاناة، وطول الانتظار، وعشرات الاتصالات، والشعور بالمرارة في هذه الورطة، وتوغر الصدر، وجيشان النفس، وتنشؤ الحقد، وبزوغ الكراهية، وتشنج العلاقات، وتفكك الروابط العائلية، وشحن النفس بالتجارب السلبية عن غدر الإنسان وخبثه وقلة وجدانه.

القاعدة السابعة: قواعد الدين السابقة تشبه قانون نيوتن في الجاذبية، أي تزداد كثافة القواعد مع القرابة والصداقة، فكلما اقترب الدين في علاقته ازداد إرباك الدين بعلاقات طردية.

القاعدة الثامنة: المعاملة تكشف الدَّين «بالكسر» والتقوى، وليس التديّن الظاهري، الذي يقود إلى الثقة فيُخْدع الإنسان. وينقل عن عمر (ر) أنه كان لا يعتمد على ثقته في الإنسان لأنه «رآه يهمهم ويدمدم في المسجد» بل على قاعدة «هل سافرت معه؟ هل عاملته بالدرهم والدينار؟؟» فهذه

هي المحكات الرئيسية لمعرفة معدن الإنسان ودينه الحقيقي، لأن النفس مولعة بالمال مُحبة لرؤيته هاشة باشة لمداعبته وجمعه والتمتع به. ويتولد من هذه القاعدة الرئيسية بعض القواعد الفرعية، فأخذ الدين مثل أكل الحلاوة وإرجاعه مثل نزع الروح، والذي لا يدرب نفسه ذلك التدريب الشاق على إرجاع حقوق الناس يكون أحمق من مستوى كبير، بخسارة ثقة الناس وهي أكبر رأسمال يعيش عليه الإنسان. وكما قال عالم الاجتماع «ماكس فيبر»: عندما ترى العامل مرقَّع الثوب وهو يعمل بجد فتأكد أنه يفي ديونه.

القاعدة التاسعة: القاعدة القديمة التي كنا نسمعها عندما كنا صغاراً «الدَّين هَمٌّ بالليل ذِلٌّ في النهار» طواها الزمن وأصبحت من ملفات التاريخ العتيقة، وأصبحت الآن معكوسة، فالدائن قد تحول ليس فقط إلى مدين بل إلى متسوّل يستجدي دَينه ويركبه الهمّ إذا كان المبلغ كبيراً. وصعدت إلى السطح مجموعة من القيم الجديدة لا تخطر على قلب إبليس بذاته، حيث يعمد أحدهم إلى الاقتراض من كل شخص مَحضه الثقة وعطف عليه، حتى لو كان من أقرب الناس إليه، فكل هذا لا قيمة له في سبيل بناء ثروة كاذبة من عرق الآخرين، حتى إذا اجتمع رأس المال المطلوب تمّت المتاجرة والمضاربة به، فإذا ربح ألقى إلى الدائنين بين الحين والآخر من المال الذي فاض من الرأسمال المكدس من جيوبهم بعض الكسرات والنثارات والحطام، أما هو فأكل الدسم والعسل من الربح، ما يعيش به في بحبوحة، وإذا كان العكس فالظروف هي المسؤولة عن هذه الكارثة!!

القاعدة العاشرة: من رحلة الدَّين يتم التعرف على «طبائع البشر» وكيف رُكِّبت. وهي جديرة بالدراسة بالكشف عن الصفات الإنسانية من الجشع والطمع والمخاتلة والكذب، فليس هناك أكثر كذباً من المديون، وعدم قدرة ضبط النفس وحملها على الواجب الكريه في ردّ المال بعد أن دخل الجيب، فأخذه كان أشهى من العسل وردّه أمر من العلقم.

القاعدة الحادية عشر: يتم التورط في الدَّين عادة بسبب «الطمع» في الربح الموهوم، تحت زعم أرباح فلكية وفي هذا الباب من القصص الشيء الكثير.

القاعدة الثانية عشرة: تقول إن كل دين رُدَّ بعد عشر سنوات كان قريباً من الصفر بفعل التضخم النقدي، وما بينهما بنسبته من التأخير، والقاعدة تظهر أن من يأخذ الدين جملةً يعيده بالمفرق، فصاحب الدين يستردّ الدين مثل قطع الصحن الذي رمي به إلى الأرض فأصبح حطاماً مهشماً، وهيهات أن يلتئم صحن بعد هذا الكسر الكبير!!

القاعدة الثالثة عشرة: هناك حالة نفسية في علاقة الدائن والمدين بالدَّين، فالنفس تميل بآليات خفية عجيبة إلى نسيان الدين، وهي أمر غير متعمد، بل هي آلية خاصة خفية تعمل عليها

النفس حتى بدون تدخل صاحبها، ولذا فالدائن لا ينسى دَينه، في حين أن المستدين ينسى ما عليه، يتعلق هذا خاصةً بالأرقام، ما لم يروض الإنسان نفسه على قواعد أخلاقية صارمة.

القاعدة الرابعة عشرة: إذا تديّنت مالاً فاعتبره ثعباناً في جيبك يجب أن تتخلص منه قبل أن يلدغك، وإذا أعطيته للآخرين فانسه فهو أريح للبال وأفضل للنفس، وإلا وطِّن نفسك على طريق طويل ممض، مليء بالمعاناة، وتنغيص النفس وتعكير المزاج ووجع الرأس المزمن.

القاعدة الخامسة عشرة: أصعب مراحل الدَّين عندما يحتاج الدائن ويدخل حالة عسر، ويتمنى ماله فلا يصل إليه، فهو يتألم من عدم تحصيله، وهو يخاف من أن يستدين، فهو في حالة حرجة لا يُحسد عليها، فاذا نجى من الحقد المزمن، كان من الصالحين بدون نزاع، والأيام تظهر أن معاملة الناس شيء مرعب بحق، ولكن أخلاق الناس لا تنكشف على حقيقتها، إلا في المنعطفات الشديدة من الحزن الشديد والغضب المتأجج والفزع الأكبر.. أو عند الشهوة والمال!! شخصية جحا الأسطورية التي برزت فجأة في التاريخ تروي الخبرات اليومية الموجعة، وتقص تناقض الكلام والواقع، ولا تعني ما تقول، أو تعني ما لا تقول، تنزع القناع عن الثقافة المريضة المتشكلة عبر العصور. تحولت إلى التراث الشعبي، مخزن الحكمة الجماهيرية، تحاول عن طريق النكتة أن تدخل الوعي لتصحيحه بعملية جراحية من دون نزف أو رض، وتلهم الضمير بكثير من الأفكار الإيجابية عبر ضحكة تصدر من الأعماق.

كيف انتشر الإنسان في الأرض؟

إلى الشرق من مدينة كارسون بمسافة 60 كم في صحراء نيفادا الأمريكية الممتدة، تطل فوهة كهف تثير الفضول وتبعث الرهبة في قلب من يقترب منها، أو يحاول الدخول في ظلامها الدامس، فمن بطن هذا الكهف –هكذا تقول الروايات المحلية– تخرج الأرواح والأشباح من حين لآخر، ويزعم بعض المجاورين أنهم رأوها فعلاً، ولذا تعارف أهل المنطقة على تسمية هذا الكهف ب «كهف الأرواح» (cave–spirit).

الشيء الأكيد الذي خرج من هذا الكهف ليس الأرواح والأشباح المزعومة، بل انتشال الهياكل المغيبة، والجثث التي تعفّنت وبلت مع مرور الأيام، ففي عام 1940 ميلادية قام اثنان من الباحثين بالكشف عن بقايا هيكل عظمي، تم تقديره بأنه يعود إلى حوالى ثلاثة آلاف سنة، وتساءل الأركيولوجيون الأمريكيون من يومها: متى وطئت قدما الإنسان الأمريكيتين؟ وكيف استطاع الوصول؟ من أين يا ترى؟ وبأي وسيلة؟ ما هو الطريق الذي استخدمه جدنا الإنسان على وجه الدقة لقطع ظهر الأرض من شرق أفريقيا حتى البيرو وتشيلي في أمريكا الجنوبية؟

ولكن المفاجأة التي تم العثور عليها قبل اسبوعين في مطلع شهر مايو (أيار) من هذا العام 1996 فاقت كل تصور وتجاوزت كل ما كشف عنه حتى الآن في تاريخ أمريكا الشمالية.

إنسان «كهف الأرواح» في صحراء نيفادا يعود إلى عشرة آلاف سنة

لقد تم العثور على جثة شبه كاملة، لرجل يرجع إلى عهد سحيق قد أودع حفرة في الكهف، بكل مظاهر العناية والتبجيل، وإلى جانبه كيس يحمل بقايا ما لا يقل عن اثنين من القرابين البشرية من رماد وعظام إنسانية، بعد أن أحرقت معه، في حفلة توديعه إلى مثواه الأخير على ما يبدو، كي تخفف عنه وحدته في رحلته المنفردة عبر نفق الأبدية!!

كانت المومياء محنطة بشكل ممتاز بعوامل الطبيعة، عن طول يبلغ 160سم، وبعمر تقديري في حدود 45 سنة، ما زالت الجمجمة والكتفان مغطاة بالجلد الأحمر والشعر الأسود، قد غطي بمعطف من الوبر، ولُفَّت الجثة بحصيرة من أعشاب نبات «الديس»([126])، وعند الكشف عنها في المتحف الوطني لولاية نيفادا الأمريكية، برز القسم العلوي من الجسم جافاً محفوظاً صامداً عبر الأحقاب، وأما الأقدام فقد انتعل صاحبها حذاء الهنود الحمر التقليدي من مادة «الموكاسين»

(moccasin) إلا أن فحص الهيكل العظمي أبرز كارثة طبية حقيقية، وصورة عن معاناة التخلف الطبي الذي كان يقاسي منه إنسان ذلك الوقت، ففي الفك انتشرت بقايا خراجات الأسنان القيحية الرهيبة، بدون أي معرفة بالمضادات الحيوية والمسكنات، وظهرت بقايا الاهتراء العظمي ورحلة الآلام المبرحة العصبية تاركة بصماتها على عموده الفقري، أما الجمجمة فبدا فيها كسر خطير لم يندمل بعد، وفي البطن خرجت بقايا من الأمعاء المتغضنة قد أطلت من فوهاتها بقايا حسك المسك الذي كان يتغذى عليه.

عمد الباحثون إلى تقدير الوقت الذي عاش فيه هذا الإنسان عن طريق نظير الكربون 14 وكانت النتيجة صاعقة، فهو يعود إلى مائة قرن قبل الآن (بالضبط 9415 سنة)([127]) وبذلك احتفل الأركيولوجيون الأمريكيون عن كشف أقدم إنسان عاش في أمريكا الشمالية حتى الآن.

وبذلك يكون بين الإنسان الذي كشف عنه الأنثروبولوجي الأمريكي «تيم وايت»([128]) في حوض أواش الأوسط في الحبشة العام الفائت، وأعطاه اسم «أرديبيثيكوس–راميدوس». وإنسان أمريكا الجديد الذي كشف عنه الآن، الذي حفظته الطبيعة الجافة في صحراء نيفادا، حوالى 4.5 ملايين سنة؟!! فهي رحلة يعجز الذهن عن الاستغراق فيها، ويجلل بالخشوع وتمشي في مفاصله القشعريرة، عن رحلة انتشر فيها الجنس الإنساني من أفريقيا عبر كل القارات حتى وصل أمريكا الجنوبية، فبنى فيها الحضارات الأولى، حضارة الإنكا والمايا والأزتيك، التي دمرتها يد الإسبان لاحقاً، في بداية القرن السادس عشر للميلاد كما تُمزق أي وردة ناضجة جميلة متفتحة، بأسنان أشرس من أنياب الذئاب بحثاً عن الذهب([129]).

العلم ينمو ويتضخم بين حركتي الحذف والإضافة

والآن بين هذين النموذجين تتأكد ويترسخ يوماً بعد يوم مجموعة من الحقائق القابلة للحذف والإضافة، فالعلم وسط ديناميكي متحرك، وأرجو أن يفهم القارئ أن العلم ينمو بهذه الطريقة، فهو كم هائل لا يتوقف عن الحركة والنمو، كما وصف القرآن الكلمة الطيبة، بل حتى الفكرة الضارة وغير الصحيحة تحمل قابلية النمو حتى مستوى الوصول إلى شجرة {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ}([130]). فالفكرة، أي فكرة، كائن يحمل صفة الحياة، وبالتالي قابلية النمو والحركة والتجدد، ولكن المشكلة بين أي فكرتين هي في أمرين: الاستمرارية والخيرية، فالأفكار الصالحة تصمد وتنمو خلافاً للأفكار الضارة، فبعد أن عرفت الكرة الأرضية كحقيقة نستقر عليها، تمّت مجموعة من الإضافات والحذف بدون توقف، فعرف أنها تتحرك، ثم عرف أن الحركة دائرية، ثم عدلت إلى إهليلجية، تقع الشمس في أحد المحرقين، ثم عرف أن سرعتها تتغير مع اقترابها وابتعادها عن

الشمس، وأخيراً عرف أنها لا تمشي في خط الدوران بشكل مستقيم تماماً بل مثل ترنح السكران، بفعل جذبها من الشمس من جهة، وبقية الكواكب المحيطة بالشمس من جهة أخرى، فكان الكوكب في «مرجوحة» في مسيره حول الشمس، بل وعرف أن زمن اليوم هو أقل من الغد وهو أطول من البارحة، فيومنا بعد خمسة مليارات سنة لن يكون 24 ساعة بل ستة وثلاثين ساعة([131]). فرحلة العلم –كما نرى– كمالية تراكمية تصحيحية، حيث يزداد صقل المعلومات ودقتها وتراكمها، بل وحتى انقلابها النوعي أحياناً، كما حدث مع تفسير حركة الشمس، فكلنا يظن أنه يتحرك حينما يكون في القطار أو في وسيلة نقل من باص أو سيارة، ويتحرك القطار الآخر بجانبه، فيظن أنه هو الذي تحرك، تحت ضغط شعور كاذب وهمي، وهو لم يتزحزح من مكانه، وهذا ما حدث في تفسير حركة الشمس حول الأرض، حيث دفع أناس حياتهم ثمناً لعشق الحقيقة عندما أرادوا معارضة الأفكار السائدة. والشاهد في هذا الموضوع أنه مع كل وضوح قضية حركة الشمس تبين بعد ذلك أنها غير صحيحة وأن الأرض هي التي تدور. وينطبق هذا أيضاً على تفسير المشاكل الاجتماعية والنفسية والفلسفية والأنثروبولوجية التي نحن بصدد دراستها، وفي المجال الاجتماعي يبرز تطبيق هام لوهم حركة الشمس، حينما يظن الكثير من المتحمسين أن تغيير الحكومات سيغير الأوضاع، تماماً مثل تفسير حركة دوران الشمس حول الأرض قديماً، ولم يتفطنوا للطرح القرآني المزلزل أن «تغيير النفوس» هو الذي يغير الأوضاع وليس تغيير الحكومات، لأن الذي سيحصل بتغيير الحكومات هو تغيير الأسماء وليس الحقائق، طالما كانت «البلاسما» الثقافية التي يسبح فيها الجميع لم تتغير، وأن الحكومات هي شكل الأمة في المرآة، وظل المجتمع على الأرض، وأنها أفضل قميص خيط للأمة عند أحسن خياط، فلا يمكن لديكتاتور أن يحكم شعباً واعياً، فالمشاكل –كما نرى– ليس في ذاتها بل في تفسيراتنا ومواقفنا اتجاهها، وهذه مشكلة عقلية وفلسفية، فالكون كما وصفه القرآن هو في حالة تجدد {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}([132])، وهو في حالة ازدياد {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ}([133])، وهو صعود من مستوىً لآخر

{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ}([134]).

العلاقة الجدلية بين الحقيقة الموضوعية والصورة الذهنية

وعلاقة العقل مع هذا الوجود هي في تكوين الصورة الذهنية الأقرب للحقيقة الخارجية الموضوعية، ولكن هل هذه المهمة سهلة بهذا الشكل؟؟ ثم كيف نستطيع وما هي المشعرات والمؤشرات أن العقل قنص الحقيقة الخارجية أو ابتعد عنها؟ فالحقيقة تبقى لنا نحن البشر نسبية وديناميكية!

إن هذا الإرساء الفلسفي جزء أساسي من هذا البحث الذي نتوغل فيه في محاولة فهم وجود الإنسان ومعناه، ولماذا وجد؟ وكيف ومتى وجد؟ وإلى أين يمضي؟ وهل هناك معنى لرحلته الطويلة وما هي البرمجة خلفه؟

إن هذه القضية الإنسانية الضخمة عكف عليه كم ضخم من البشر من فروع شتى من المعرفة، في محاولة لكشف آلياتها الخفية والاقتباس من هذا الوجود العامر بالأسرار، من علماء الرياضيات وانتهاء بعلماء اللغة والألسنيات. فغاليلو قديماً اعتبر أن الوجود مكتوب بلغة رياضية([135])، فإذا فهمنا هذه اللغة فأتقنا قراءتها انفتحت لنا مغاليق الوجود، ولكن يا ترى هل نستطيع قياس حرارة الحزن بمقياس درجة حرارة الجسم (الترمومتر) عندما يصاب بتسمّم الدم؟ أو هل نستطيع معرفة ضغط الغضب وانفجاره مثل مقياس ريختر للزلازل أو توريشيللي لمعرفة الضغط الجوي؟ أم نشوة الروح مثل مقدار تركيز أيونات الهيدروجين؟ أو كشف أورام الكراهية العميقة كما تكشف أورام الدماغ بالتصوير الطبقي المحوري والرنين المغناطيسي؟ إن نظرية غاليلو مع وجاهتها تعرج هنا!

كذلك حاول علماء اللغة والألسنيات كما فعل الفيلسوف «محمد عنبر» في دراسة جبارة تذكر بعقلية إبراهيم بن سيار النظام في محاولة فهم نبض الوجود وقوانينه الخفية من خلال اللغة([136]).

والآن ماذا حدث خلال رحلة أربعة ملايين من السنين؟

إن المعلومات التي تتدفق يومياً من الذين يبحثون في تاريخ الأرض كلها تشير إلى بداية الإنسان من أفريقيا، فرحلة آدم وحواء الطويلة بدأت من شرق أفريقيا، قبل أن تنتهي بعد أجيال لا تحصى في كهف الأرواح في صحراء نيفادا، ولا يعني هذا أن هذه المعلومات نهائية، بل هي بالأصح إحصائية، ولكن الصورة تتكامل كل يوم، كما فعل الثنائي السويسري الباحث «كريستوف – سولي كوفر» و «مارسيا بونك دي ليون» بذكاء خارق من أجل ضم القطع العظيمة إلى بعض، على طريقة جمع أجزاء الصورة من قطعها المتناثرة (puzzle) بإدخال القطع المتناثرة لجمجمة إنسان في أنبوب كمبيوتر شعاعي، وبدراستها بالأبعاد الثلاثية وإعطاء كل قطعة رقماً خاصاً، أمكن جمع القطع بكل سهولة، في فترة قصيرة نسبياً وظهرت الجمجمة كما كانت عندما كان صاحبها حياً يرزق([137]).

إعادة تصنيع التاريخ الإنساني وبحث الجذور «علم الجينيالوجيا»

نفس الشيء يحدث الآن في محاولة إعادة تصنيع التاريخ الإنساني الطويل، من خلال تضافر مجموعة من العلوم مثل التشريح والجيولوجيا والبيئة والمناخ والأنثروبولوجيا والأركيولوجيا. وهناك الآن ثلاثة علوم، على الأقل، تحاول فهم الرحلة الإنسانية الطويلة، في تركيبة علمية متضافرة، هي الباليونتولوجيا وعلم الجينات والألسنيات. فالأحافير تعطينا عمر العظم أو الهيكل الذي ينتشل من طبقة الأرض، وعلم الجينات يدرس «الميتوكوندريا» في الخلايا في فك الإنسان لمعرفة الأرومات والسلالات الإنسانية المتصلة ببعض، كما أن دراسة اللهجات الإفريقية قادت إلى كشف هام في فرق واضح بين معظم لغات الأرض التي تعود إلى جذع واحد هو اللغة «النوستراتية».

والمهم هو تطوير تقنيات متقدمة، فعلم الأركيولوجيا لم يقفز للأمام بدون تطوير قياس العمر عن طريق تقنية الكربون 14، كذلك جهاز (reaction chain polymerase =.R.C.P) في دراسة الجينات والميتوكوندريا الخلوية، وتطوير علم حفريات الجينات كفضاء معرفي جديد([138]). أما تقنية «البوتاسيوم–الآرغون» فقد أنارت الطريق في معرفة عمر الأرض إلى يوم ميلادها قبل حوالى خمسة مليارات سنة (4.6 مليارات سنة)، ونفع للغاية التصوير الطبقي المحوري (can S.T.C) لدراسة الجماجم، خاصة الأذن الباطنة، لدراسة جهاز التوازن لارتباطه بانتصاب الإنسان ومشيه سوياً على قدمين، بالإضافة إلى دراسة الانطباعات الخاصة بمكان قشر المخ الخاص بالنطق، فهناك مكانان لعمل اللغة في الدماغ، الأول مختص بالقواعد «الجرامتيك» في منطقة «بروكا»، والثاني لتفسير معاني الكلمات وتختص به منطقة «فيرنيكه». ويرتبط قاع الجمجمة بجهاز التصويت، وهو بحث شيّق ومثير للغاية لمعرفة متى نطق الإنسان، لأن كلاً من الحلق والدماغ يندثر بعد موت الإنسان، وفيهما مركز التصويت والإدراك بالكامل!! فكيف يمكن معرفة نطق الإنسان من الناحية الأنثروبولوجية؟ إن هذا استدعى تطوير علوم شتى وبشكل غير مباشر وتقنيات رفيعة للغاية، كما هو الآن في تطوير جهاز التصوير المجسم التحليلي بالاستعانة بتقنيات الليزر، حيث يمكن تركيب هيكل الجمجمة بشكل صناعي من خلال تسليط أشعة الليزر الملقم بمعلومات من الكمبيوتر، على صمغ خاص يشكل بناء الجمجمة المرغوبة تدريجياً تحت أشعة الليزر وحسب المعلومات المعطاة، في مدى عشر ساعات ملليمتراً ملليمتراً ويجمد للفور.

نظريات وصول الإنسان القديم إلى أمريكا

كيف وصل الإنسان إلى أمريكا إذاً، وملأ 42 مليون كيلومتر مربع من القارة المضاعفة، وفي فترة بضع مئات من السنين؟

يرى علماء الأركيولوجيا عموماً، ويتفقون في هذه النقطة، أن بداية الرحلة الإنسانية قديمة للغاية، كما أن الأنواع الإنسانية التي ظهرت على وجه الأرض لم تكن نوعاً واحداً، بل ما لا يقل عن أحد عشر نموذجاً، ولكنها انقرضت بالكامل ولم تترك سوى آثارها من عظام وجماجم، وبقي نوعنا الذي ساد وسيطر وعمر الأرض. وهناك تأكيدات اليوم أن نوع الإنسان «النياندرتال» اجتمعنا به في الشرق الأوسط وأوروبا، ولكنه انقرض تماماً بشكل مليء بالغموض، ويبدو أن بداية الرحلة تعود إلى حوالى 200 ألف سنة عندما اكتشف الإنسان العاقل النار وتحرك من دفء أفريقيا إلى الشمال، فعمر الشرق الأوسط قبل مائة ألف عام، وأوروبا قبل حوالى 35 ألف سنة، ووصل أستراليا قبل 60 ألف سنة، ومع رحلة المتابعة عبر آسيا وصل إلى مضيق «بهرنك» الذي كان وقتها جسراً يصل آسيا بأمريكا عبر آلاسكا، وكان هذا قبل 12 ألف سنة، فهذه هي النظرية الأولى لوصول الإنسان إلى أمريكا. وترى النظرية الثانية التي تمثلها العالمة الأركيولوجية البرازيلية الفرنسية الأصل السيدة «نيدة جيدون» أن الرحلة كانت أبكر، وربما بدأت قبل خمسين ألف سنة، أما العالم فيليب فلوركه من بوجوتا فيرى أن الإنسان بدأ وصوله قبل 300 ألف سنة من نوع الإنسان المنتصب (هومو أيريكتوس) من أفريقيا بعد أن ركب طوافات الخشب التي وصل بها من الباسيفيك (المحيط الهادي).

بقي أن نذكر أن النوع العتيق الذي عمر أمريكا لم يبقَ له أثر أيضاً، ومومياء كهف الأرواح كانت من هذا النوع العتيق، الذي تشبه جمجمته رأس الحصان بوجه طويل ورأس ممطوط. ويعمل العلماء بفرح الآن على الصيد الثمين في هذه المومياء، فكل قطعة فيها تحلل الآن من أجل الوصول إلى كشف المزيد من أسرار الإنسان ورحلته عبر الزمن.

متحف «لوفر» العصر الحجري

(أحدث كشف أركيولوجي لأقدم كهف إنساني

يعود إلى 32 ألف سنة)

عندما حاول المؤرخون قديماً التأمل في الزمن وامتداده إلى الخلف أصيبوا بما يشبه الدوار وفقد التوازن، في محاولة تصور الزمن المتدفق الممتد في نظم لا يعرف التوقف، وغشيهم الضباب وهم يحاولون تقدير الزمن الذي مرّ على عمر الأرض، وشعروا أنفسهم أنهم أمام هوة لا قرار لها، أو نفق لا تُرى نهايته، أو أفق كثيف السواد لا تطوق العين مداه ولا يخترق البصر سدوله. هو أشبه بباب مغلق لا سبيل إلى سر مفتاحه، وحقل لا يُسبر غوره، وفضاء ينقلب فيه البصر خاسئاً وهو حسير. فتراوحت الأرقام التي وضعوها بين 3139 سنة في محيط الثقافة الإيرانية، و4642 سنة عند اليهود، وارتفعت عند النصارى الأرثوذكس لتصل إلى 5992 سنة وبضعة أشهر (زيادة في الدقة)، أما المؤرخون في محيط الفكر الإسلامي القديم فلم يخطر في بالهم أكثر من سبعة آلاف سنة، واعتبر بعضهم أن ستة آلاف وخمسمائة سنة مضت، ولم يبقَ أمام انهيار العالم ونهايته سوى

خمسمائة عام فقط([139]). وبالطبع فهم معذورون في ضوء غياب أي تقنية متطورة لمعرفة عمر الأرض، واستنطاق العظام، وحديث الشجر، ولغة الطبقات الجيولوجية، فضلاً عن تقنيات إعادة تصنيع شكل الحياة مرة أخرى، كما هو الحال الآن في تقنيات الليزر لإعادة تركيب جمجمة إنسان «نياندرتال»، كما كان صاحبها يحملها ويمشي بها، أو المعاهد الجديدة المتطورة التي تعيد تشكيل الهيكل العظمي([140])، فيما يشبه متحف الشمع لمدام توسو([141]).

لو بُعث الطبري أو ابن خلكان هذه الأيام!

لو بُعث «الطبري» هذه الأيام وتُليت عليه الأرقام الحديثة عن عمر الأرض وبداية الحياة ورحلة الإنسان على وجه الأرض؛ لصُعق من جبروت الأرقام الفلكية، في امتداد الزمن الذي كشف عن سره العلم الحديث، ولصُدِم بأن العالم الذي توقع نهايته في مدى خمسة

قرون ما زال حياً يبعث، ولاكتشف أن قصارى الرقم الذي قفز إليه سقف تخيله، وهو سبعة آلاف سنة، يعتبر رقماً هزيلاً بسيطاً في غاية التواضع، مع عمر الأرض الذي يمتد إلى 6.4 مليار سنة، وبداية عديدات الخلايا التي باشرت رحلتها على وجه الأرض قبل ما يزيد عن نصف مليار

سنة، وبداية رحلة الإنسان التي شقت الطريق قبل حوالى خمسة ملايين من السنين. بل حتى البدايات المتواضعة التي تمت إماطة اللثام عنها في فترة الأشهر القليلة الماضية، عندما بدأ الإنسان العاقل الرحلة الثقافية، والتي تعود إلى ما لا يقل عن 32 ألف سنة كما حدث مع كشف مغارة «شوفي» «Chauvet» حذاء وادي نهر «الآرديش» «Ardeche» في فرنسا، الذي هزّ الأوساط العلمية وضرب الرقم القياسي في أقدم كهف إنساني، وأثار الدهشة في كمية غير معقولة من الرسومات والصور، تجاوزت الثلاثمائة حيوان من فصائل شتى، من الحصان والماموث وغزال الرنة والأسد والبيزون ووحيد القرن والثور البري، في مناظر فنية خلابة وكأنها صالات متحف «اللوفر» في باريس ولكن في العصر الحجري، بألوان ما زالت تحافظ على قوّتها إلى اليوم على جدران ذلك الكهف السحيق المظلم([142]).

فما قصة هذا الكشف؟ وما وراء حياة الكهوف هذه؟ وما معنى رسومات الكهوف القديمة عند إنسان العصر الحجري؟ هذا ما يحاول علماء الأركيولوجيا الإجابة عنه اليوم.

قصة مغارة «شوفي» (Chauvet Grotte) وعمر الرسومات داخلها

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف مساءً، وبدأ الليل يرخي سدوله؛ ولكن الباحثين الأركيولوجيين الثلاثة ما زالوا في غمرة حماسهم، وهم يشقون طريقهم بين الصخور والأشجار التي تغطي منطقة وادي نهر «الأرديش» (Ardeche) في جنوب فرنسا. صاحت السيدة «إيليت برونيل ديشان» (Deschamps Brunel Eliette): إنها حفرة صغيرة تفتح على قاع بعمق عشرة أمتار في الأسفل، إنه كهف كبير للغاية. تقدم رئيس الفريق هاوي الآثار جان ماري شوفي (Marie Jean Chauvet) ومساعده «كريستيان هيلير» «Hillaire Christian» وصرخ بأعلى صوته فضاع صوته في عمق الكهف. كان اليوم يوافق الثامن عشر من ديسمبر (كانون الأول) من عام 1994. مع كل التعب الذي عانوه من عمل ذلك اليوم ولكن روح الكشف والبحث أعطتهم المزيد من الجلد للمتابعة، وبدأوا ينزلون درجات السلم الذي وضعوه درجة فأخرى. وعندما استوت أقدامهم على أرض الكهف أناروا جدرانه بكاشف ضوئي قوي، وكانت المفاجأة أروع من الخيال، فقد بدأت رسوم لا نهاية لها تتلألأ تحت أنوار الكشاف من حيوانات شتى، بين مجموعة مندفعة من الأسود، واثنان من حيوان وحيد القرن في حالة مواجهة، وعدد من فيلة الماموث، وأخرى من الغزلان، في ألوان بهيجة من الأسود والأحمر والبني، وفي فن مقتدر حاذق يشير إلى حب الإنسان للفن منذ أن بدأ رحلة الوجود.

نحن الآن في متحف اللوفر الحجري

يروي «جان كلوت» القصة بكل متعة: «عندما دخلت الكهف عقلت الدهشة لساني لكمية الرسومات والنقوش والألوان، فتجوّلت ببصري أحصيها، في مواكب رائعة وألوان متباينة وأنواع شتى. كان عددها 217، قد تم رسمها بتكنيكات مختلفة، ولكن الكهف لم يفحص حتى الآن على وجه الدقة، وسوف يتم الحصر الكامل في دراسة السنوات القادمة، ولربما وصل العدد إلى 300 حيوان. نحن حقاً في متحف اللوفر القديم، أكثر حيوان تم التركيز عليه هو وحيد القرن الذي وصل إلى 47، ما يعادل 22% من مجموع الرسومات، وكانت الأسود التي بلغت 36 أسداً (18%) بدون شعر كثيف كالذي يميز أسود أفريقيا الشرقية، وبدون أنياب بارزة، ولكن الذيل مع نهايته المميزة رسما بعناية فائقة، وبرزت أنياب الماموث الممتدة بعدد ملفت للنظر 34 (16%)، وكان عدد الخيول المليحة 26 (12%)، أما الثيران البرية فعددها 19 (9%) وكلّها رسمت باللون الأسود بعد أن حفرت النقوش في الصخر، ثم أُضيف الطلاء اللوني. أما الدببة فكانت 12 (5.5%) وبلون أسود مما يوحي بأنها من نوع الكهوف، تمييزاً لها عن الدببة ذات اللون البني والجبين البارز، وبرزت عشرة من غزال الرنة (5%) بلون أسود جذاب، ومُثلت الحيوانات الأخرى بأرقام مختلفة من 7 من الثور البري (الأوروك)، وسبعة من الجدي، وثلاثة من الأيل الأسود، وفهد أحمر اللون، ولم تنسَ المجموعة أن تضيف في النهاية طير البوم إلى المجموعة.

إن معنى نقوش الكهوف ما زالت لغزاً غامضاً عند الأركيولوجيين. هل كانت تيمناً بصيد وفير؟ ولكن الحيوانات المعروضة في 60% من مجموعها هي حيوانات لا تُؤكل بل تَفْتَرس!! هل هي تعبيرات عن بداية مرحلة الطقوس وفكرة المقدس، ومكان لتعليم طبيعة الحياة خاصة أن الرسومات تميزت بالرشاقة والأبعاد الهندسية الثلاثة الفراغية، ولم تكن هذه الكهوف للسكن اليومي بل أشبه بأمكاكن العبادة والطقوس.

إن فكرة اليوم الآخر وعقيدة الحياة بعد الموت عثر لها على جذور عميقة مع أقدم أشكال الإنسان، حتى إنسان «نياندرتال» كان يودع الميت بطقوس خاصة، وما زال الإنسان حتى اليوم في كل مكان يحترم الموت، باعتباره يحرض معنى المقدس عند الإنسان منذ أن تشرب الإنسان الوعي وتميز بالإرادة والحرية والشعور بالجمال والغائية والبرمجة والسننية في الكون.

حقيقة الصور وعمرها

يعتبر كل كشف ما قبل تاريخي، بغض النظر عما يحتويه من أهمية علمية، لا قيمة له قبل تقييم عمره، ولذلك ينزع العلماء أثناء كشفهم عن أي وثيقة تاريخية إلى وضعها ضمن الجدول الزمني حتى تأخذ أهميتها التاريخية أو ما قبل تاريخية، وهذا الذي حدث مع كهف «شوفي»، ولكن كيف الطريق إلى تقييم عمر الكهف؟ ومتى تمّت الرسوم على جدرانه؟ وهل هي رسوم حقيقية أو

وهمية؟ قام بها البعض بالمشاركة مع الذين أعلنوا هذا الكشف لكي يقوموا بتزوير تاريخي؟! أو تمويه الرأي العام عن بعض المزاعم غير الموثقة؟! فالكذب والتلاعب في أوساط الأكاديميين وارد، كما يحدث في كثير من المؤتمرات العلمية عندما يتقدم البعض لعرض نتائج أبحاثه ممن خلال اللعب بكيفية معينة في البيانات، فيصبح بطل الساحة والفارس المجلي، وهو الكذاب الأشر. وفي واقعتنا هذه قد يقوم البعض برسم أي شيء يوحي أنه من العصر الحجري أو يدّعي صاحبه أنه قام بكشفه! وكذلك قد يعتبر أي إنسان أي عظمة مرمية أنها تعود إلى عدة ملايين من السنين، مع أن العثور على قطعة عظم من هذه النوعية هي في غاية الصعوبة، ولا توجد في الغالب إلا في شرق أفريقيا مهد الإنسانية الأول، وتحتاج إلى تمشيط عدة كيلومترات مربعة من الأرض على الطريقة التي تحدثنا بها عن العالم الأنثروبولوجي «تيم وايت الأمريكي» و «شرنك» الألماني الذي كشف عن جمجمة إنسان «رودولف».

ومع أن التزوير في كشوفات من النوع الذي نحن بصدده يعتبر نادراً، ولكن عقلية العلماء الصارمة تفترض شتى الفروض قبل الإعلان عن أي كشف تاريخي خطير من النوع الذي بين يدينا، خاصة إذا قام بتقديم معلومات ذات إثارة نوعية واختراق علمي جديد، أو قلب لنظريات سابقة.

كل كشف كبير معرض للشك والريبة

كل الكشوفات السابقة والهامة عن كهوف الإنسان تعرضت لهزة كبيرة من الشك فيها وحملات التكذيب. هذا كان مصير الكهف الذي كشف في إسبانيا «التاميرا» (Altamira) عام 1879، كذلك سلسلة الكشوف في فرنسا؛ في الأربعينات من هذا القرن في اكتشاف كهف «لاسكو» «Lascaux»([143])، وكهف «روفيناك» (Rouffignac) في منتصف الخمسينات، وأخيراً كهف كوسكير عام 1991. وقبل هذا مع كشف إنسان «نايندرتال» (Neandertal) عام 1856 حينما كُذِّب العالم الألماني «يوهان – فولروت»([144])، الذي أعلن عنه بعد كشفه قريباً من مدينة «دوسلدورف» الألمانية، أثناء اصطدام معول عامل في المقلع الحجري الموجود هناك، وكان من أشد المعارضين الدكتور المشهور فيرشوف «صاحب الثلاثي الدموي الطبي المشهور في أسباب الجلطة الدموية»([145]).

لذلك عمد الباحثون في الكشف الجديد على التكتم الشديد على الخبر قبل الإعلان عنه، وجرى الاتصال بالعلماء المتخصصين في مجال تقدير عمر الأشياء، سواء كانت كهوفاً أو هياكل عظمية، مومياء محنطة أو هرماً قائماً، واستمر العمل في ذلك أكثر من ستة أشهر، وفي فرنسا تم

تكليف المتخصص «جان – كلوت» (Clottes Jean) البارع في استخدام تقنية الكربون 14 لكشف اللثام عن حقيقة عمر هذا الكهف وحقيقة الرسومات المنقوشة على جدرانه.

كل السر في مليغرامات تافهة من الفحم

تم إغلاق الكهف أمام عيون المتطفلين والفضوليين، وبقيت هياكل عظم الدببة والحيوانات المختلفة مرمية كما هي في صحن الكهف، ولم يُسمح بدخول أحد، أو أخذ صور قد تؤثر على نوعية صباغ الصور، كما هو الحال في منع التصوير في متحف اللوفر، واقترب الخبير «جون كلوت» الأشيب المحنك الذي أثبت كفاءة في العديد من عمليات تحديد الأعمار، فاقترب تحت دهشةٍ ممزوجةٍ بفضولٍ لا يقاوم يتأمل رأس الأسد ووجه البيزون وقدم الماموث، حتى يرى أي الأماكن أفضل لحك الفحم منها، ثم اختار منطقتين من وحيدي قرن ومنطقة ثالثة من حيوان البيزون؛ فقام بخرمشة بسيطة فيها نال بضع مليغرامات من الفحم منها، فوضعها في إناء محكم ثم مضى بها إلى معمله القريب من باريس.

جهاز التانديترون (Tandetron) في مدينة «جيف سور يفيت» (Yvette Sur Gif)

يعتبر معمل جهاز «التانديترون» في المدينة المذكورة قرب باريس معهداً متميزاً في تقنية كشف الأعمار بواسطة تقنية الكربون 14، حيث يتم وبواسطة هذه الملغرامات القليلة التي تحتوي مليارات الذرات تعيين نسبة نظائر الفحم، فيتم بالدرجة الأولى فصل الذرات عن بعضها البعض، وهكذا يتم فصل ذرات الفحم الأصلية عن نظائرها، فالوزن الذري للفحم هو 12، حيث يحوي المركز ستة بروتونات موجبة الشحنة وستة نيترونات محايدة الشحنة، في حين أن نظائر الكربون يحمل مركزها نترونات أكثر، ومع الزمن تتحول طبيعة النترون إلى بروتون([146])، فتنقلب طبيعة الكربون إلى نتروجين، وهذا التحول يحتاج في العادة إلى 5730 سنة كي تتحول نصف الكمية من نظير الكربون إلى نتروجين، و5730 سنة أخرى لنصف النصف أي

الربع وهكذا. وبإحصاء كمية نظير الكربون في المادة والنتروجين ونسبة كل مادة إلى أخرى تعرف كمية التحول، فكلما كانت كمية نظير الكربون أكثر، كان معناه أن عمر المادة المذكورة أحدث وأصغر، وكلما كانت كمية النتروجين أعلى كان عمرها أكبر في الزمن، فإذا لم يتبقَّ في مادة الفحم شيئاً من نظير الكربون وتحوّلت كلها إلى نتروجين، كان عمر المادة 57300 سنة بالتمام والكمال، فإذا وجدت مادة الفحم في أي مادة يبحث عنها الأركيولوجيون وقد استنفدت كل ذرات نظير الكربون، وجب القفز واللجوء إلى ساعة أخرى من نوع تدل على عمر أطول من الفترة المذكورة. ولقد تم الاهتداء إلى ساعة كونية جبارة هي في تحول مادة البوتاسيوم إلى آرغون على ما

شرحناها في مقالة سابقة، وتعطي عمراً يمتد ليس عشرات الآلاف من السنوات بل مليارات السنوات. فساعة «البوتاسيوم _ الآرغون» تعد حتى مليار وربع من السنوات، بمثل طريقة نظير الكربون، وهذا يعني إمكانية قياس العمر حتى 12.5 مليار سنة، أي منذ أن وجدت ذرة بوتاسيوم في هذا الوجود، ومنذ تشكل النظام الشمسي، وولادة كوكبنا الأرض، فلم يعد بهذه الطريقة شيء لا نعرف عمره الآن. أين أنت أيها الإمام الطبري لتمتع حسك العلمي بمثل هذه الأخبار المزلزلة؟

طرق أخرى للاهتداء على عمر رسومات الكهوف

أي خط مرسوم على جدار يجب تأمله تحت المجهر، ويمكن معرفة أنه جديد أم أكله الزمن، ويتم هذا من خلال قراءة ظهره وحوافه تحت عدسة دقيقة، وهذا يعرفه خبراء الخطوط جيداً، فالقديم يعلو ظهره طبقة رسوبية حسب طبيعة المكان، كذلك فإن حواف الخط الحديث تمتاز بالتمادي والاتصال والوضوح خلافاً للخطوط القديمة التي تتكسر وتتآكل وتعمل فيها العوامل الجوية فعلها. لقد أصبح علماء الأركيولوجيا خبراء في كشف الزيف وتقديم أخبار الهزات العلمية.

الإنسان قبل ثلاثين ألف سنة

عندما انتهت تحريات «جان كلوت» المكررة عن عمر فحم كهف «شوفي» كانت النتيجة صاعقة مزلزلة، كانت الأرقام تقول 30340 سنة، و30940 سنة، و32410 سنة. فرق 600 سنة بين خطين، وفرق ما يزيد عن ألفي سنة بين خط وآخر، بقي فيها الإنسان لم يتغير كثيراً بالكاد يكسي عورته تفترسه الذئاب والدببة والنمور، بصعوبة يسدّ رمقه ولا يموت جوعاً، يعيش بأعداد قليلة، يحاول بأي طريقة المحافظة على النار الموقدة، لطرد الوحوش من كهفه، وربما طرد إنسان «نياندرتال» الذي كان ربما يشارك الوحوش في افتراس الإنسان، ولعل هذا ترك في الذاكرة الجماعية الإنسانية ذكرى الغول المفترس([147]) يطارد الوحوش والوحوش تطارده، لا يتورع عن أكل الجيف والميتة وقتل أخيه الإنسان، لا يعرف اللباس والنظافة، رائحته مرعبة، ومنظره مخيف، ومعشره بئيس، وحياته وكأنها بدون هدف وبرمجة، ولكن يبدو أن مستقبلاً عجيباً كان بانتظار هذا الكائن، فهو الذي سيزور القمر على ظهر مركبة، ويبارك في نسله فيصل إلى المليارات، وهو الذي سيجوب أعماق البحار بالغواصات، وهو الذي سيشهق إلى السماء بناطحات السحاب، يفجر الذرة ويتخاطب بسرعة الضوء، هو الذي سيشيد المؤسسات ويشرّع الدساتير ويبني النظم ويقيم الحكومات ويرفع الدول وينطلق إلى الحضارة، هو الذي سيعلن معنى الرحمة والأخلاق، ومن نسله سيخرج أنبياء الحكمة والرحمة، وعليه ستتنزل كلمة الرحمن الرحيم، وإليه ستوكل في الأرض خلافة رب العالمين.

قصة الإنسان تكتب من جديد «إنسان نياندرتال»

معلومات جديدة مثيرة في قصة إنسان «نياندرتال»

(Neandertal Mankind)

في صيف عام 1856 كانت مجموعة من العمال مشغولة في مقلع للحجارة قريباً من مدينة «دوسلدورف» الألمانية (Duesseldorf) في وادي نهر قريب للمدينة يعرف باسم نهر «نياندر» «Neander» عندما قفزت في وجه عامل مع ضربة المعول قطعة صلبة من سقف جمجمة ارتاع من منظرها، فهُرع إليه زملاؤه يتأملون هذه القطعة العظمية الغريبة([148]). ماراعهم فيها قساوتها غير العادية، وتبارز محجري العينين، وكثافة منطقة الحاجبين وعلوهما، وتسطح الجبهة وتماديها للخلف، ومع استمرار الحفر ظهرت بقيةٌ للهيكل العظمي حيث بدت إلى السطح مجموعة عظمية في غاية القساوة من: سقف جمجمة، عظم ترقوة، لوح كتف، عضدان، قطع منوعة من أضلاع الصدر، عظم الحوض، قطعتان من عظم الفخذ([149]). وأخذ من يومها ذلك الهيكل العظمي، الذي أصبح علَماً لكشوفات لاحقة اسم «هيكل وادي نهر النياندر» «نياندر- تال» (Neander – Tal) باعتبار أن كلمة «Tal» باللغة الألمانية تعني وادي، وهكذا تولد اسم هذا الهيكل العظمي وهذا الصنف من الإنسان الذي انتشر في يوم من الأيام في كل المعمورة من أوروبا حتى آسيا الوسطى، وعثر على ما لا يقل عن 300 نموذج له حتى الآن في كل مناطق العالم، ولم يختف من الوجود إلا منذ 35 ألف سنة. ويبقى السؤال: من الذي كشف وأصر على أن هذه العظام تعود لإنسان غارق في القدم لا ينتسب إلينا؟ ومن الذي تابع هذا الموضوع بشغف المسحور ولهفة العطشان؟ إنه الأستاذ «يوهان فولروت» (Johann Fuhlrott) الذي كان يُدَرِّس الطلبة في المرحلة الثانوية في مدينة «دوسلدورف» الألمانية في منتصف القرن التاسع عشر و «المهتم» بدراسة التاريخ القديم للإنسان([150]).

الحرفة والاهتمام والإبداع والعلاقة الجدلية بينهم

في كتاب «العبقرية والإبداع»([151]) أشار المؤلف إلى ظاهرتين ترافق الإبداع. الأولى: السن، حيث برز معظم الإبداع في العقد الثالث من العمر بين سن العشرين والثلاثين، والأمر

الثاني: الاهتمام. وبذلك فإن الكثيرين من المهتمين والذين يأتون من خارج حقل الاختصاص يبرعون فيه ويسبقون العاملين في نفس الحقل غير المهتمين، كما

يذكر القرآن أن الأسرار لا تتفتح لمن يمرّ عليها وهو ساهٍ {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}([152]). وهذا الذي حصل في قصة بقايا هذا الهيكل العظمي، الذي أظهر –لعين الخبير– اختلافاً واضحاً عن جمجمة الإنسان العادي، خاصة في أسنان قاطعة رهيبة «اعتُبرت يداً ثالثة له أو سكين الجيب المرافق» ووجه دميم بملامح قاسية فظة([153]). فالاستاذ المهتم «يوهان فولروت» كان شغوفاً مهتماً بالهياكل العظمية وله صلة بالأوساط العلمية، وعندما وقع الهيكل تحت نظره سارع إلى الخبير في التشريح «فرانتس جوزيف كارل ماير» «Mayer Carl Joseph Frantz» في مدينة بون (العاصمة الحالية لألمانيا) الذي أعطى اهتماماً بالغاً لطبيعة العظام الجديدة المكتشفة، وقام بدراسة الطبقة الأرضية التي تم العثور فيها على بقايا الهيكل العظمي، وقرر أن هذه البقايا العظمية تعود إلى فترة طويلة أكثر ما يتصوّر الإنسان، وتعود في الغالب إلى إنسان ما قبل التاريخ (Prehistorical) وفق طبقة «الديندريت» (Dendriten)([154]) التي عُثر على العظام فيها. ولكن إذا كان هذا النوع من الإنسانيات «Homonides» سبق ظهورنا فإلى كم من الزمن يرجع؟ وكيف عاش؟ وكيف بدا شكله عموماً؟ بل كم يبلغ عمر الأرض؟ وهل لرحلتها بداية؟ أم أنها قديمة؟

لقد احتار في ذلك الفيلسوف الأندلسي قديماً حينما عجز عن تصور بداية لهذا الكون، حتى جاءت المعلومات الحديثة بعد مرور ثمانية قرون على وفاته، تدشن انعطافات نوعية في معرفة ولادة المجرات وانفجار الكون([155])، وتشكل الأرض، وانبثاق الحياة، وظهور الإنسان، والثورة الثقافية بإنتاج الأدوات، والسكن، والتجارة، واكتشاف النار، والثورة الزراعية قبل تسعة آلاف سنة، ونطق الإنسان، وتشعب اللغات، وانطلاق الحضارات.

عمر الأرض وكم تمتد وبداية الحياة ومتى انطلقت؟

هذا السؤال أقلق المفكرين منذ زمن طويل، ففي عام 1650 للميلاد عمد جيمس أوزشير «Ussher James» كبير أساقفة آيرلندا إلى دراسة مكثفة لنصوص العهد القديم والجديد في محاولة لاكتشاف بداية رحلة الخليقة، وقرر في النهاية أن الخلق تم قبل 4004 سنة بالضبط، وبعد هذا التاريخ بحوالي مائة سنة قام الفرنسي «كونت دو بوفون» (Buffon De Comt) الباحث في التاريخ الطبيعي، فرفع رقم بداية عمر الأرض إلى 70 ألف سنة. إلا أن الفيلسوف الألماني الشهير «إيمانويل كانت» (Kant Immanuel) عندما عصر دماغه لفهم رحلة الحياة على الأرض، أدرك أن

بداية الحياة تفوق أي تصور إنساني معاصر، فوضع كتابه الشهير «التاريخ الطبيعي العام» عام 1755، فوجد ونظرياً –بشكل ملفت للنظر– أن الرحلة قد تمتد إلى ملايين السنوات إن لم تكن مئات ملايين السنوات([156])، ولكن أين التقنية التي نعرف بواسطتها عمر طبقات الأرض فضلاً عن عمر العظام التي تبرز إلى السطح بين الحين والآخر؟

عندما نراجع كتاب «تاريخ الأمم والملوك» للطبري، نرى روح العصر، وتحدد إمكانات فتح أبحاث من هذا النوع، كما نرى فيه الأمانة العلمية وهو ينقل آراء عصره وتحديدهم لعمر الأرض، فتراوحت الأرقام التي وضعوها بين 3139 سنة في محيط الثقافة الإيرانية، و4642 سنة عند اليهود، وارتفعت عند النصارى الأرثوذكس لتصل إلى 5992 سنة وبضعة أشهر (زيادة في الدقة)، أما المؤرخون في محيط الفكر الإسلامي القديم فلم يخطر في بالهم أكثر من سبعة آلاف سنة، واعتبر بعضهم أن ستة آلاف وخمسمائة سنة مضت، ولم يبقَ أمام انهيار العالم ونهايته سوى خمسمائة عام فقط([157]). ويختم الطبري المؤرخ كلامه بحكمة كبيرة: «والله أعلم»، فهو يترك المجال دوماً للزيادة والنقص والحذف والإضافة، وهذه طريقة في غاية الحكمة اعتادها علماؤنا قديماً في ختم أبحاثهم.

ولكن أين يقع مكان إنسان «نياندرتال» المكتشف في الرحلة الإنسانية؟ إن هذا يجعلنا نتطرق لأمرين حساسين. الأول: هو الأبحاث التي نمت في ذلك الوقت وبعض التوجهات الجامحة والمتطرفة في فهم الخلق الإنساني، وتكللت بكتاب «داروين» في أصل الأنواع الذي صدر عام 1859، أي بعد ثلاث سنوات من اكتشاف إنسان «نياندرتال» الذي حاول البعض استغلاله لبناء نظريات فلسفية كاملة (نظرية هربرت سبنسر والنظرية النازية لاحقاً) سوف نتعرض لها لاحقاً عندما نبدأ في تنوير القارئ في فلسفة العلوم ونظرتها الجديدة.

بحثنا الحالي يقتصر على سكب أحدث المعلومات في مجال الأركيولوجيا والأنثربولوجيا والباليونتولوجيا، في محاولة لإدخال العقل العربي المسلم المعاصرة بدون خوف أو اهتزاز، فلا يمكن التفاعل مع العالم الحديث ما لم نعرف أين يقف العلم اليوم، وأين وصلت طلائع البحث العلمي وذيولها الفلسفية. وثانياً تعريف القارئ بظاهرة الكذب العلمي!! وقد يتعجب القارئ من هذا المصطلح، ولكن الواقع يقول ذلك، فالقرن التاسع عشر كان مملوءاً بالعجائب، ومع بداية القرن العشرين حدثت أكبر كذبة في تاريخ الأنثروبولوجيا، وهي القصة المعروفة بإنسان «بيلت داون» (Piltdown).

أكبر كذبة في تاريخ الأنثروبولوجيا

بين عامي 1908 و1915 انشغل الرأي العام العلمي في أوروبا حول كشف هز الأوساط العلمية وأربكها، وتسابق المتحمسون فيها بما يشبه أصحاب الأيديولوجيات في إثبات آرائهم، حيث تقدم الهاوي الأركيولوجي البريطاني «شارلز داوسن» (Dawson Charles) بكشف اعتبر في وقتها أنها الحشوة التي سوف تسد الحلقة المفقودة في نظرية نشوء الإنسان (Link Missing) وكانت جمجمة كبيرة لإنسان تم العثور عليها في منطقة «بيلت داون» من ولاية ساسيكس «Sussex» في بريطانيا، يشبهنا في كل شيء سوى خلل خطير في تركيبة الفك السفلي، فكل سماتها توحي بأن الفك أقرب لفك قرد! ولم يحزر أحد أن هذه الجمجمة قد اختُرعت من ألفها إلى يائها ورُكّبت من جمجمة إنسان عادي عاقل من جنسنا وأضيف إليه فك قرد من نوع «الأورانج أوتان»! واستمرت هذه الكذبة ما يزيد عن أربعين عاماً (41 عاماً، من عام 1912 حتى 1953) حتى تم كشف التزوير عام 1953 على يد ثلاثة من العلماء من جامعة أكسفورد، وعرف متسبب التزوير، وأن هذا «المقلب» الذي شربه العلماء في وقتها بكل بساطة، كان سببه صراع شخصي من الحسد والغرور بين البروفسور ويليام سولاس (Sollas William) الذي نصب الفخ لمنافسه «سير آرثر سميث وودوارد» (Woodward Smith Arthur Sir) الذي كان يعمل في المتحف البريطاني في تاريخ العلوم الطبيعية. وحدث هذا التزوير في ضوء تخلّف إمكانيات معرفة عمر العظام والعلوم المساعدة لكشف عمليات التزوير.

كان همّ المتحمسين أن يثبتوا في وسط الصراع الأيديولوجي أن الإنسان جاء من القرود بأي ثمن!! فاتهم فقط أن يتقنوا لعبة التزوير بإضافة فكٍّ لقرد كبير إلى إنسان معاصر، فوقعوا في مطبّ مَن قبلهم، حينما تصوّروا الرحلة قصيرة إلى هذا الحدّ!! ونحن نعلم اليوم أن إنسان «نياندرتال» الذي هو من الدفعات الأخيرة الأخيرة قبل ظهور الإنسان العاقل بفترة تعود إلى حوالى 150 ألف سنة. ولم يظهر نوعنا إلا منذ حوالى أربعين ألف سنة، فيسود المعمورة وتختفي كل الأشكال الباقية بما فيها إنسان «نياندرتال» و «كرومانيون». وهذه القصة تروي عبرة كبيرة في علاقة الأيديولوجيا بالعلم.

الأيديولوجيا والعلم أو النظرية والواقع

إن هناك علاقة جدلية بين العلم والفلسفة، فهناك بُنىً ومنظومات وجسور فكرية في غاية الأهمية بين العلم والفلسفة. إن العلم حيادي، والفلسفة هي تفسير ومحاولة بناء أطر فكرية تحتوي العلم وتعطيه معناه وتوجهه، لذا وجب على العلم التحرر على حد سواء من الخرافة ومن الأيديولوجية، أي البنى الذهنية الخانقة للنمو العلمي. فهذه قضية أولى في صدد حادثة التلفيق العلمي التي نحن بصددها. فقبضة من العلماء تحت وطأة الفكر الأيديولوجي أرادت البرهنة على ما

يدور في «رأسها» من مفاهيم، فأرادت إلصاقه بالواقع بأي ثمن، ولا مانع في تركيب أي رأس على أي فك! ونحن نعلم من الواقع أنه لا يحابي أحداً، لأنه يعمل وفق قوانينه الخاصة، بل لا مانع عند هذه الطائفة أحياناً أن تلجأ إلى التزوير، ولكن التاريخ يعلمنا أن تزوير الحقائق لا يصمد مع الزمن وفق قانون الزبد، وما ينفع الناس كذلك يضرب الله الحق والباطل: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ}([158])، والعكس هو الصحيح، أي أن البنى الذهنية تتشكل من الواقع، وهناك علاقة جدلية بين النص والواقع، أو النظرية والممارسة، فالنص يتصحح ويتم هضمه وتصوّره وتنزيله في صور ذهنية بممارسة الواقع، ولذا

فهو كمٌّ متحرك نامٍ ينضج مع الزمن، والممارسة تتخصب وتتقعد وتنطلق من النظرية، فكلاهما طرفان في علاقة واحدة جدلية معكوسة. الطبيب الذي لا يمارس المهنة يتحول إلى إنسان نظري ويتوقف أن يكون طبيباً، والمعروف في تخصص الجراحة أن الجراح الذي يتوقف عن الممارسة ثلاث سنوات يكف عن الاعتراف به جراحاً، ويصبح خطراً على المريض في إجراء العملية، وكذلك الطبيب الذي يمارس مهنته بدون تخصيب القاعدة النظرية العلمية من الاتصال العلمي ومواكبة التطورات الحديثة وحضور المؤتمرات العلمية، يتحول مع الوقت إلى ممرض، ومن النوع السيىء.

هذا المرض، أي محاولة تطويع الوقائع للرغبات الإنسانية، وقعت فيه الشيوعية سابقاً عندما واجهت علم الوراثة واختلافه عما تنادي به الأيديولوجية الشيوعية.

جاء في كتاب الأيديولوجية الانقلابية: «تؤمن الماركسية أن الطبيعة الإنسانية تعتمد في معناها على الأوضاع الاقتصادية، وتتغير بتغيرها، لهذا السبب ورعاية لمفهوم التفاؤل، رأت الحكومة السوفيتية نفسها مضطرة إلى اقتلاع جذور علم الوراثة، الذي يعلن أنه ليس بإمكاننا أن ننقل عن طريق الوراثة خصائص نكسبها أثناء حياتنا؛ كما أن أي تحول أساسي في طبيعة أي جنس لا يحدث إلا عن طريق التناسل الموجّه أو الطبيعي، فبينما تتغير الخصائص المكتسبة بتغير الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية التاريخية، نرى أن الطبيعة الإنسانية تبقى ثابتة، لهذا رأى العهد الستاليني ضرورة التخلص من العالم «أفيلوف» ذي الشهرة العالمية واستبداله ب «ليزانكو» سعياً وراء تأكيد مبدأ نقل الخصائص المكتسبة عن طريق الوراثة، لأن المنطق الأيديولوجي الشيوعي رأى أن المفهوم الماركسي الذي يبشر بإنسان جديد عن طريق التطور الاقتصادي يتحطم عند هذا المبدأ. يُعتبر علم الوراثة الجين أو الجرثومة المورثة ثابتة ثباتاً نسبياً، وأن التغيرات التي تحدث فيه لا تعود إلى الوسط الخارجي أو إلى نماذج مختلفة فيه، فرفضه الموقف الأيديولوجي الشيوعي لأنه وجده يلغي إمكانية التطور وسيادة التطور، وقال فيه بأنه ذو صبغة دينية أو طابع لاهوتي

وميتافيزيقي، يدور حول قضايا خالدة، أي حول مسائل لا تتغير أو تتبدل. إن هذا الموقف لا يعني أنه كان مصطنعاً من قبل الذين يشرفون على الحزب والأيديولوجية ومن ضمنهم ستالين، فهؤلاء آمنوا ولا شك بكثير، إن لم يكن بكل الاتهامات الموجهة لعلم الوراثة وأتباعه، فهم رجال أيديولوجيا وليسوا رجال خبرة علمية، فأخذوا من النظريات العلمية ما يتناسب مع أيديولوجيتهم على الرغم من أن النظرية القائلة بوراثة الخصائص المكتسبة وراثياً كانت قد أفلست علمياً حتى في حياة «أنجلز» نفسه. كان هذا الموقف في الواقع حلقة أخرى من جهد متواصل في تدجين العلماء وتوجيه العلوم الطبيعية تبعاً للموقف الأيديولوجي»([159]).

أبحاث الدكتور «أويجين دوبوي» في إندنوسيا والكشف عن إنسان جاوا «الإنسان المنتصب» (Homoerectus)

ومن المفارقات العجيبة في هذا الوقت أن الدكتور «أويجين دوبوي»(Dubois Eugene) كان يبحث في إندنوسيا في جزيرة جاوة بنفس التوجه الذي وقعت فيه لجنة إنسان «بيلت داون» وكانت

السنوات الأولى من عمله بدون ثمرة، حتى عمل في منطقة بركانية فعثر على نموذج في عمق أربع عشرة متر تحت البقايا البركانية. كانت الجمجمة بكل أسف لا تناسب الحجم الذي كان يتصوره الأيديولوجيون، فجمجمة جاوا ذات سعة تصل إلى 900 سم مكعب لإنسان كان يمشي منتصباً، فلم يعجب هذا الحجم العلماء في ذلك الوقت. كانوا يريدون حجم 1300 أو 1500 سم مكعب ولكن بشرط أن يكون مركّباً من قسمين، قسم إنساني وقسم مشتق من شكل قرد، وهو الشيء الذي لم يصلوا إليه حتى الآن، بكل بساطة لأن الشكل الإنساني لم يخرج من القرود كما كان يتوقع هكسلي وسبنسر في القرن التاسع عشر، بل كشفت التحريات الأنثروبولوجية الحديثة أن الجنس الإنساني اشتق من شجرة الحياة بشكل متفرد، وكل النماذج الإنسانية التي تم الكشف عنها حتى الآن، ربما وصلت إلى حوالى 11 نموذجاً ينطبق عليها هذا القانون البيولوجي، بدءاً من النموذج الذي كشف عنه الأنثروبولوجي دونالد جوهانسون الأمريكي وأعطاه اسم «لوسي» لامرأة كانت تمشي منتصبة عاشت قبل 4.3 مليون سنة، أو أكثرها قدماً والذي كشف عنه الأنثروبولوجي الأمريكي «تيم وايت» ويعود إلى قرابة 5.4 مليون سنة قبل شهور قليلة من الآن، أو الذي كشفت عنه العالمة البريطانية «ميف» من عائلة «ليكي» التي تعمل بهمة رائعة في كينيا ووصلت إلى كشفين مزلزلين؛ الأول يعود إلى حوالى 4 مليون سنة، والثاني لهيكل يافع في 12 سنة من العمر، بقرب بحيرة «توركانا» في شمال كينيا ويعود إلى 6.1 مليون سنة، وهو نموذج الإنسان المنتصب، وهذا النوع تم العثور على شكله أيضاً في إسبانيا وآخر في القوقاس حيث تشتعل نار الحرب الآن، أو بقية النماذج الأخرى (هابيليس – نموذج رودولف – روبوستوس – بوايسي... إلخ)، وانتهاء عند

الشكل الذي وصل إليه الدكتور دوبوي في جاوا، فالواقع لفظ هذا الهيكل وبالتالي يجب تفسيره حسب الواقع واستنطاق الأرض التي لفظته، وعمر هذا الهيكل وفق الطرق الحديثة. وعندما لم يعبأ الوسط العلمي باكتشافه، كونه لا يلبي رغبات المشرفين أصيب بصدمة شديدة وإحباط جعلاه يتوقف عن متابعة بحوثه لمدة 28 سنة، حتى اندفع العلم في مسارات جديدة وعرف أن الدماغ كان ينمو مع الوقت، وأن الكون مبني على الحركة والتغير بدون توقف، فهذا قانونٌ أنطولوجي، فالله يزيد في الخلق ما يشاء وكل يوم هو في شأن.

أهمية الواقع في البناء الفكري

القرآن يؤكد على السير في الأرض في صورة أمر: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}([160]). بكل أسف، معظم الذين ساروا في الأرض لينظروا كيفية بدأ الخلق هم من غير العالم الإسلامي، ليس هذا فقط، بل إن المسائل الضخمة التي أثيرت في القرن التاسع عشر تُعتبر حتى اليوم من المحرمات (تابو) في العالم الإسلامي فلا يبحثها، ويخبرنا التاريخ أن العالم الغربي انطلق عندما كسر هذه المسلَّمات العقلية، فاخترق هذه الحواجز العقلية ليصل إلى الديموقراطية من خلال قفز أربع حواجز كما تفعل الخيول في القفز. أولاً: عدم الخوف من التفكير، فالتفكير لا يقود إلى الضلال. ثانياً: لا حدود للبحث العلمي، فلم يعد هناك «تابو» يخاف من الاقتراب منه سواء في السياسة أو الجنس (كما في إنشاء معهد كينيسي في أمريكا لدراسة الجنس عند الإنسان)، أو المعتقدات (فهذه هي مثلث التابو في العادة) كما فعلت مجلة «در شبيغل» الألمانية في عددها الأخير ببحث أركيولوجي عن حقيقة العهد الجديد وحيثيات كتابته. ولا غرابة إذاً أن نرى أن أقل المناطق في العالم إنتاجاً للعلم هو العالم الإسلامي. ثالثاً: لا يقتل الإنسان من أجل تفكيره أياً كان تفكيره، وهذا يقود إلى القاعدة الذهبية الرابعة: أنه لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة، وبالتالي يجب أن يقوم التعامل بين الناس على أساس التسامح طالما كلنا يقنصنا طرف من أسرار الوجود العامرة.

المعاناة في شق الطرق الجديدة

عندما أعلن «فولروت» عن كشفه عن إنسان «نياندرتال» كذَّبه معظم العلماء لأنه لا يشابه شكلنا المعروف، ولم يكن في التصور أن هناك كائناً إنسانياً آخر كان يعيش قبل مائة ألف سنة، وعندما تعرض الدكتور المشهور في التشريح المرضي، والذي يعرفه طلاب الطب جيداً، «فيرشوف» لإنسان «نياندرتال» ضحك بشدة لهذه البقايا المشوهة التي لا تسمن ولا تغني من جوع في كشف علمي محترم، واعتبرها بقايا إنسان معتوه كان مصاباً ب «الخرع»([161]) بسبب تقوس عظام الفخذ، وكيف يسلم فيرشوف لهذا الكشف؟؟ فالجمجمة كانت غير مكتملة، لم يحكم تزويرها

كما في جمجمة «بيلت داون»! كل ما بقي منها كان سقفها لا أكثر، فكيف يمكن أن نبني عليها حكماً خطيراً كهذا؛ بأن هذه العظام ترجع إلى عهد لم يكن قد وجد جنسنا فيه بعد؟؟([162]). والذي حدث بعد هذا فاق توقعات كل من «فيرشوف» و «فولروت» معاً، حيث عثر على أكثر من 300 هيكل في كل أرجاء الأرض حتى تركستان في وسط آسيا، وكان أكثرها مدعاة للإثارة إنسان نياندرتال الذي كشف عنه في كهف «شانيدار» (Shanidar) في العراق في المناطق الكردية على بعد 400 كم إلى الشمال من بغداد، حيث كشف عن بقايا عظمية لمجموعة بائسة من إنسان نياندرتال اجتاحتها ظروف مناخية قاسية أودت بحياة من كان في الكهف، ولكن بقايا الهياكل كشفت عن معانٍ إنسانية رافقت هؤلاء البشر في ذلك الوقت السحيق الغارق في الزمن القديم، حيث كان يدفن الإنسان مع باقات الورد في ظل عقيدة الاعتقاد بالبعث بعد الموت، كما أفادت تلك الكشوف عن هول الحياة ومقاساتها عندهم بين رجل مبتور الساعد مهشم الأطراف مشلول الجانب، أو آخر مطعون بضربة قاتلة في صدره تركت ندباتها على الأضلاع بعد مرور ثلاثين ألفاً من السنين، مع رعاية اجتماعية رافقته حتى سكرات الموت.

المعلومات الجديدة في مقابلة غير متوقعة بينه وبين أجدادنا

كانت المعلومات المتدفقة حتى قبل أشهر قليلة أن إنسان «نياندرتال» انقرض بالكامل قبل خمس وثلاثين ألف سنة، بعد أن بدأ رحلته قبل 150 ألف سنة، ولكن المعلومات الجديدة التي برزت على السطح قبل شهر من الآن وفق الكشف الذي تم الوصول إليه في صيف عام 1995 في كهف «زافاريا» (Zafarraya) قرب مدينة «ملقا» (Malaga)([163]) في جنوب إسبانيا تفيد أن فترة طويلة من اللقاء والعيش المشترك بين هذا الإنسان المفتول العضلات، والمدور، والقصير القميء الفظّ، مسطّح الجمجمة، ذي الجسم المشعر والأنف الكبير العريض، الذي لم يعرف الثقافة وإنتاج الأدوات، وبين الإنسان رشيق القوام، منتصب القامة، جميل الصورة، عالي الجبين، دقيق الأنف، الفنان في إنتاج الأدوات، منطلق اللسان بالنطق والتعبير، قد تمت واستمرت آلاف السنوات، ولكن السر المغلق أمام علماء الأنثروبولوجيا حتى اليوم عن سر انهيار هذا الكائن واختفائه من وجه المعمورة إلى غير رجعة كما اختفت من قبله كائنات أخرى وابتلعت الأرض الديناصورات الرهيبة. إن حديث الأرض لم ينتهِ بعد، فهي ما زالت تحدث أخبارها بوحيها الخاص. كل ماعلينا أن نتعلم لغة نطقها، فنصغي إليها جيداً، عندها سنسمع أخباراً عجيبة عن أسرار دفينة تبوح بها لعشاق المعرفة فقط.

البدء بفك جينوم إنسان نياندرتال

قد لا يخطر في بالنا أن جنسنا ليس الوحيد الذي سار على الأرض، فنحن نسلٌ متواضع، وحلقةٌ بسيطة في سلسلة من «إنسانيات» وطأت الثريا تزيد عن عشرة أنواع.

وإنسان «نياندرتال» هو الحلقة الأخيرة المختفية قبل 28 ألف سنة، ولا يستبعد أن يكون أجدادنا البواسل (كذا) من تطوع في إفنائه.

والآن بعد فك جينوم الهومو سابينز (نحن) والشمبانزي، جاء الدور على جينوم إنسان «نياندرتال»...

وتعود قصة هذا النوع من الفصيلة الإنسانية إلى عام 1856، حين عثر عمال المقالع، بجنب مدينة دسلدورف الألمانية في كهف، على بقايا عظام خالوها أنها لدب بري، حتى أصبحت علماً في علم جديد، على إنسان جديد، وبذلك نشأ علم «الأنثروبولوجيا = علم الإنسان» ومعه أصبح إنسان «نياندرتال» نجماً عالمياً. والجديد أن العلماء عاكفون حالياً على فك جينومه لمعرفة القفزة النوعية بيننا وبينه وبين الشمبانزي، وما الذي جعل الإنسان الحالي إنساناً يخترع القنبلة الذرية ويهذي في الفلسفة ويقتل في السياسة بدون جوع.

شق الطريق للمعلومات الجديدة عظمان وعظيمان؛ فأما العظام فجاءت من كهف «فينديا» (Vindija) في كرواتيا، من إنسان «نياندرتال» عاش قبل 38 ألف سنة، وكهف المقالع من وادي نهر نياندر قرب دسلدورف حيث أعلن أستاذ الثانوية «فولروت» (Johann Fuhlrott) للمرة الأولى عن هذا الإنسان.

وأما العظيمان فهما «إدوارد روبن» (Rubin Edward) الأمريكي حيث نشر أبحاثه في مجلة «الطبيعة والعلم»، معلناً عن فكه 65 ألفاً من الأزواج الحامضية في الكود الوراثي.

والثاني هو «سفينتي بيبو» (Paeaebo Svante) من معهد «ماكس بلانك» في «لايبزيج Leipzig» (ألمانيا الشرقية سابقاً)، والثاني من أصل كوبي، أتتبع أبحاثه بشغف منذ أكثر من عشرين سنة، وبدأ نجمه باللمعان في الضربة الأولى، من شق الطريق لعلم «حفريات الجينات» (Paleogenetic) في مومياء رمسيس، ثم استقطبته السويد، وأخيراً مُنح كرسياً جامعياً في أشهر معهد ألماني، حيث يطور أبحاث «الأنثروبولوجيا التطورية».

وهو مثل كل علماء الأنظمة الثورية، فقد فر الرجل من كاسترو ليستبدل جنسيته، كما فعلت أنا مع الجنسية الكندية، ويأمن على ذراريه من ظلال المخابرات، عن اليمين والشمائل بالغدو والآصال.

ولقد استطاع هذا العالم الدؤوب فك ثمانية ملايين من أزواج الأحماض النووية، ويأمل أن يفك كامل الكود الوراثي «ثلاث مليارات» عند إنسان «نياندرتال» في مدى عامين، بالتعاون مع الشركة الأمريكية «علوم الحياة 454» (Sciences 454 Firma)، حيث يتم التقاط قطعة جين صغيرة في مفاعل صغير، مثل فقاعات الصابون، ويكاثرونها بنسخ لانهائية، لتقرأ على شكل متسلسل، وتقارن بسلاسل الإنسان والشمبانزي، حيث تبين أن الفروق بيننا وبين بنيه لا تزيد عن 1%، ولكنها كلمة الله في الإنسان الكلمة الأخيرة...

وفي البدء كان الكلمة...

وخطة كشف الكود الوراثي قائمة على ساق وقدم، لوضع خرائط تفصيلية عن جميع الكائنات من الجن والإنس والطير فهم يوزعون..

وأهمية هذا العمل أنه يمكن إعادة استنهاضهم من بطن القرون الخالية، كما كانت فكرة «جوراسيك بارك» الثورية عام 1994، فقد تم إيقاظ الأوابد التي كانت تدب على الأرض قبل ثمانين مليون سنة، بأطنانها الثقيلة وأدمغتها القاصرة، كما هي في أنظمة الاستبداد البائرة، التي يهلكها الله ولا يبالي، ويمسحها من وجه الأرض لعدم صلاحيتها، كما مُسحت الديناصورات، فلا تسمع لهم ركزا..

والمشكلة التقنية في وجه العلماء هي ندرة هذه العظام وعدم نقاوتها، فقد ثبت مثلاً كذب عظام الديناصورات لفيلم جوراسيك بارك، التي اختلطت بالمادة الوراثية من الإنسان، ولحسن الحظ فإن عظام كهف «فينديا» من كرواتيا اعتُبرت عظام دب بري، فحفظت معزولة لوحدها مما منحها نقاوة استفاد منها العلماء.

ويقول «ميخائيل هوفرايتر» (Hofreiter Michael) من معهد «ماكس بلانك» في «لايبزيج» إن تقلب الجو والرطوبة على مدى خمسين عاماً في متحف غير مكيف، يؤذي المخلفات أكثر مما تفعله الكهوف الباردة في أربعين ألفاً من السنين. وهو أمر يقرب إلى أذهاننا معنى بقاء أجسام فتية الكهف مصانة في مدى ثلاثة قرون، فإذا كانت السنة بألف سنة مما يعدون، فثلاثة قرون تبقى يوماً أو بعض يوم، كما تخاطب أصحاب الكهف وهم يستيقظون من رقدتهم: كم لبثتم؟ وكلبهم باسط ذراعه بالوصيد...

ويقول «هوفرايتر» إن حرارة ثلاثين تحت الصفر كما في القطب المتجمد الجنوبي تحفظ الكود الوراثي بحالة سليمة مليوناً من السنين، ولكن الحياة لم توجد ولا تتابع طريقها في القطب بل الشرق الأوسط الدافئ، حيث تختلط المادة الوراثية وبقاياها مع الجراثيم والفطريات مثل كهوف الفراعنة في ما يشبه الشوربة الوراثية، وهو تحدٍّ ليس بالقليل.

وعلم الأنثروبولوجيا لم يتطور إلا في مناطق الجفاف الحارة، كما في أثيوبيا وتشاد وكينيا، حيث طوفان التخلف يحفظ طوفاناً من عظام الآدميين بحالة سليمة، جعلت العلماء يشتغلون في جو حرارة جهنمي لاكتشاف إنسان «لوسي» و «أرديبيثيكوس راميدوس»، على يد «دونالد جوهانسون» و «تيم وايت».

وحالياً يتعامل «بيبو» مع 4 غرامات فقط من العظام السليمة من إنسان نياندرتال، بعد أن مسحوا «Screening» أكثر من سبعين عظمة من بقايا هذا الإنسان التائه في دروب التاريخ المنقرض.

ويحتاجون إلى 20 غراماً من عظام أصلية، وهو ما سوف يدفعهم أن يرجعوا إلى الكهف الكرواتي، فالصرب والكروات بارعون منذ تلك الأيام في شرب الدماء وأكل لحوم بعضهم... فقد كانوا «كانيباليزم».

هكذا يقول العلم..

وذرية بعضها من بعض..

ومذابح البوسنة شاهد على هذه النزعة الإجرامية، التي تفيد في أبحاث إنسان نياندرتال، الذي كان يقتات على لحم إخوانه، ويلقي العظام منهوشة اللحم، مما يساعد على حفظها في الكهوف الباردة؛ فلم يبقَ مكان للجراثيم والخنافس والصراصير والذباب الأزرق ليقتات من اللحم..

وهذه من سخرية التاريخ والأنثروبولوجيا، أن الوحشية خدمت العلم بكيفية غير متوقعة.

هل نحن في بداية التاريخ أم نهايته؟

في 3 نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 1974 عثر الأنثروبولوجي الأمريكي «دونالد جوهانسون» مع مساعده «توم غراي» عند ضفة نهر «أواش» في منطقة «هدار» على بعد 240 كم شمال شرق العاصمة الإثيوبية أديس أبابا على بقايا هيكل إنساني يعود لأنثى كانت تمشي منتصبة. وخلال ثلاثة أسابيع من العمل المتواصل أمكن جمع حوالى 40% من الهيكل العظمي، وبفحص عمر العظام في مركز «كليفلاند» للأبحاث الجيولوجية أدركوا أنهم أمام أقدم كائن بشري عرف حتى ذلك الوقت، وإذ عمتهم الفرحة لهذا الاكتشاف التاريخي بقوا طول الليل يكررون أغنية البيتلز «لوسي في السماء ومعها الماس» لهذه الأنثى التي غيبتها طبقات الأرض قبل ما يزيد عن ثلاثة ملايين من السنين «3.2 مليون سنة» فأعطوها اسم «لوسي» (Lucy) وأصبحت علماً على هذا الاكتشاف المثير.

ولم تكن «لوسي» الأقدم، بل وصل الرقم حالياً إلى سبعة ملايين من السنين. وهذا الرقم بدوره ليس بداية البداية للإنسان، بل قد يصل الرقم إلى عشرة ملايين سنة كنقطة بداية لظهور الإنسان المنتصب، أو ما يعرف بجنس «الهومونيد» عموماً.

وقصة «لوسي» هذه تعلمنا أن تاريخ الأرض أقدم بكثير من كل تصور إنساني. والمفكرون قديماً، ومن كل الثقافات، لم يجمح بهم الخيال أكثر من بضعة آلاف من السنين. فالطبري قدر عمر الوجود من البداية إلى النهاية في سبعة آلاف سنة. وشرَّاح العهد القديم جزموا ببدء الكون بسنة 4004 قبل الميلاد. وذهب الفرس أبعد من ذلك، فمطوا الرقم إلى حدود سبعين ألف سنة. ولكن «فرانك كلوز» صاحب كتاب «النهاية – الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون» من سلسلة عالم المعرفة (رقم 191، ص 12) كان حكيماً حينما نقل عن الهنود في أحجية نقل الحجارة أن الكون يعود إلى عشرة بلايين من السنين. أما الفلاسفة مثل ابن رشد فقد تورطوا في فكرة أزلية الكون.

كذلك يختلط الأمر عند نقطة هل وجد الإنسان دفعة واحدة أم أنه نشأ أطواراً؟ وفي علم الأجنة لوحظت هذه الظاهرة عند الأجنة الإنسانية ومرورها في مراحل قبل أن يُجْعَل الإنسان «خلقاً آخر» فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفي القرآن إشارات لطيفة إلى أن الخلق تم في ستة أيام، فلم يحدث دفعة واحدة: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}([164]). وإذا كان هذا صحيحاً فقد تكون نفس خطة «المراحل» قد طبّقت على خلق الإنسان، فخُلق «أطواراً» كما جاء في القرآن: {مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً}([165]).

والعلم كتاب مفتوح، ولا يعني أن ما نقوله نهاية الحقيقة وسدرة المنتهى، بل ينمو العلم بآليتي الحذف والإضافة، فينمو بدون توقف. وفوق كل ذي علم عليم. ويجب ألا نخاف من العلم. والعلم والإيمان في النهاية وجهان لعملة واحدة، كما في معادلة الطاقة والمادة.

والقرآن يفيد أن الخلق في حالة زيادة: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ}([166])، وهذا يعني أن خلق الكون لم ينتهِ، بل هو في رحلة تراكمية متتابعة. مثل اللوحة التي لم يكتمل رسمها بعد، وأن هناك من الخلق ما سوف يظهر: {وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ}([167])، وأن هناك النشأة الآخرة: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ}([168]). فهذه ثلاث حلقات في فهم الخلق الإلهي؛ بأن الخلق يتم «أطواراً». وأن الخلق لم ينتهِ، بل «يزداد» بدون توقف، وأن هناك من الخلق ما سوف نعلمه ويكشف عنه التاريخ أولاً بأول، وب «كمٍّ» لا يكف عن التوسع مثل محيط لا يحيط العقل بشواطئه. ولو تحولت أشجار الدنيا إلى أقلام وتحول البحر مداداً يمده من بعده سبعة أبحر بالحبر ما نفذت كلمات الله.

وجدلية النص والعقل والتفسير ثلاثي صعب الاستقرار. وفكرتنا عن الخلق الإلهي ترجع في معظمها إلى تصورات بشرية، يتم إسقاطها على النصوص. والله وصف الإنسان على أشكال مختلفة من الطين اللازب، ومن حمأ مسنون، وصلصال كالفخار. والفخار غير الطين، وهي مرحلة متقدمة من جفاف الطين. والإنسان يُخلق في بطن أمه خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث.

وقصة عمر الكون وتاريخ الأرض أو وجود الإنسان على الأرض أثارت خيال الناس؛ فمنذ متى خلق الكون؟ ومتى وجدت الأرض؟؟ ومنذ متى مشى الإنسان على الأرض؟ والأهم، هل الإنسان القديم هو نفس الإنسان العاقل الثقافي الذي ننتسب إليه؟

وأنواع الإنسان المنتصب التي ظهرت على وجه الأرض كثيرة زادت عن عشرة، انقرضت كلها وبقي الإنسان العاقل المعروف

ب «الهومو سابينز». وآخر نوع انقرض منها قبل 27 ألف سنة هو إنسان «نياندرتال» الذي كشف عام 1856 للمرة الأولى عند مدينة «دسلدورف» الألمانية.

وكانت التقديرات الأولية لظهور الإنسان العاقل (الهومو سابينز) تعود إلى حوالى أربعين ألف سنة. وهو الكائن الثقافي الناطق الذي استخدم الأدوات والحلي واعتنى بطقوس الميت ورسم الحيوانات على جدران الكهوف. ولكن الكشوفات الحديثة في ألمانيا التي أعلن عنها «ديتريش مانيا» (مجلة «در شبيغل» الألمانية، العدد 6، من عام 2004) بعنوان «من الوحش إلى الآدمي» (Om Menschen zum Raubtier) دفعت الرقم إلى عشرة أضعافه. فقد كشف عن 28 جمجمة وفك سفلي وتسعة أسنان تعود إلى 370 ألف سنة، وكلها تفيد إلى وجود إنسان استخدم الأدوات وطارد الوحوش وواجه السباع وقتل الماموث وتغذى بلحم الضواري.

ويعتبر كتاب «داروين» حول أصل الأنواع والإنسان هو حجر الزناد في قدح الأفكار حول منشأ الحياة والإنسان والرحلة التطورية، كما كان الدافع خلف نشوء علوم جديدة مثل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) أو علم طبقات الأرض من الآركيولوجيا والباليونتولوجيا، أو علاقة الجينات بالوراثة، أو فكرة الطفرة في علم الجينات.

وعندما طرح «تشارلز داروين» آراءه في عامي 1859 و1871 قامت ضجة كبيرة حول طروحاته، وكان ذلك بعد رحلة سفينة «البيغل» التي أوحت إليه بأفكاره حول وجود الكائنات وآلية تطورها من خلال الانتخاب. ولو كانت الأفكار حول طفرة الجينات التي كشفتها «باربارا مك كلينتوك» من نيويورك، وكذلك قوانين «مندل» في الوراثة، معروفة أو ما كشفه علم «الأنثروبولوجيا» من حفريات الإنسان كما هو اليوم، لتم استقبال الأفكار بهدوء علمي أكثر. ولكن أفكار «داروين» هزت العالم وما تزال. وحتى نحن نناقشها بعد مرور قرن ونصف عليها بحذر شديد، مع أن العلم لا يرحم، فهو يشق طريقه بقوانينه الخاصة. فليس أعظم من العلم ولا أروع من السلم. و «داروين» لم يتكلم عن الخالق بل عن الخلق، وطبق الآية القرآنية فسار في الأرض فنظر كيف بدأ الله الخلق.

مع هذا فالفكر الفلسفي ليس مفتاح الوصول إلى حقائق الأشياء، بل اعتماد أساليب جديدة لكشف الحقيقة، أي فهم لغة جديدة حروفها ليست نطقاً هجائياً، بل حديث من نوع آخر. وعبر عن هذه الفكرة المؤرخ البريطاني «هـ. ج. ويلز» بشكل آخر في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» حينما اعتبر أن الجواب عن هذه الأسئلة لا يأتي من الكتب بل من الأرض، ويعتبر «سجل الصخور» هو الوثيقة التي تنير الطريق لمعرفة مثل هذه التطورات المفيدة.

إن التاريخ الفعلي للإنسان لم يبدأ بعد إذا أخذنا بعين الاعتبار الامتداد الزمني الرهيب لتاريخ الأرض حوالى خمس مليارات سنة مقارنة بعمر الحضارة بستة آلاف سنة، واحتمال امتداد الحياة بنصف مليار سنة أخرى ما لم يرتكب الجنس البشري حماقة إفناء جنسه.

فما الذي ينتظر الإنسان إذاً؟ وهل التاريخ ختم عليه وانتهى كما زعم «فرانسيس فوكوياما» أم أننا أمام بداية التاريخ؟ وبماذا يختلف فوكوياما عن العجائز في بلادنا الذين كانوا يقولون: تؤلف ولاتؤلفان، أي أن العالم سينهدم، وأن التاريخ الهجري لن يستمر في تدفقه مع الألف الثانية.

إن فوكوياما مع حقيقة التاريخ تذكرني بقصة جحا كيف فرق بين الحي والميت. فقد سأل امرأته ذات يوم عن الفارق بين الحي والميت فقالت: إذا بردت رجلاه ويداه. فخرج يوماً إلى الجبل يحتطب في فصل الشتاء فشعر ببرد في يديه ورجليه فتذكر قول امرأته فقال: لا شك أني ميت. ثم استلقى على ظهره وترك حماره سارحاً في الفلاة فهجمت عليه عصابة من الذئاب فافترسته وهو يرى بعينه ما يجري فرفع رأسه قليلاً وقال: أيها الجبناء، أتفتكون بحمار مات صاحبه ولا من يدافع عنه؟ لو كنت حياً لأريتكم؟

الأقزام في الرحلة التطورية للإنسان

كان المظنون في الرحلة التطورية عند الإنسان أنها باتجاه واحد، فالإنسان يزداد طولاً ودماغه يكبر حجماً فيزداد ذكاءً وجمالاً ويعمر أكثر، ولكن كشف العلماء عن تطور مقلوب، انكمش فيه الإنسان في جزيرة «فلوريس» الإندونيسية إلى قزم في حدود متر، وتضاءل دماغه إلى حجم دماغ شمبانزي، بما لا يزيد عن 380 سم مكعب، ونزل وزنه إلى 19 – 26 كغ. مع أن أجداده من الإنسان المنتصب «الهوموايركتوس» (Erectus Homo) الذين علوا ثبج البحر الأخضر بحراً، ووصلوا إلى الجزيرة كانوا عمالقة فبلغ طول أحدهم 180 سم، وحجم دماغهم ما يقترب من أدمغتنا الحالية بحدود 1260 سم مكعب، ولكن بعزلتهم الموحشة في الجزيرة، وشح الغذاء قاموا بتكيف بئيس أخرج من أصلابهم ما يشبه القردة. صحيح أنهم مشوا منتصبين، واخترعوا الأدوات، وأكلوا حيوانات «الستيجودون» (Stegodon) وسواه، وهو فيل بحجم صغير من تلك الأحقاب بطول 120 سنتمتراً، ولكن مع انكماش الدماغ مُسخوا ونُكسوا وانقرضوا قبل 13 ألف سنة، بعد أن عمروا الجزيرة حوالى 840 ألف منذ مجيء أجدادهم من نوع الإنسان المنتصب. وكان الكشف عن هذا النوع من الجنس البشري (الأقزام) في سبتمبر عام 2003 في جزيرة «فلوريس» (Flores) الإندونيسية، كشفه فريق علمي من 17 باحث في كهف «ليانج بوا» (Bua Liang) بعمق 40 متراً، عثروا على بقايا كاملة لجمجمة محفوظة بشكل جيد وبعض الأضلاع وأكف وأقدام وشظايا من عظام الحوض، ومع المزيد من البحث وصلوا إلى الكشف عن حوالى سبعة هياكل عظمية يعود أقدمها إلى 93 ألف سنة وأحدثها إلى 13 ألف سنة. وجزيرة فلوريس تقع في أرخبيل الملايو شرق جاوا بجانب جزر تيمور الشرقية وإلى الشمال من أستراليا، ومن أعلن الكشف كانا عالمان من جامعة نيوانغلند في أوستراليا هما «بيتر براون» (Brown Peter) و«مايك مورْوود» (Mike Morwood)، ونشر البحث في مجلة «الطبيعة» (Nature) العلمية في خريف 2004، وأشار إليه «يورج بليش» (Blech Joerg) في مجلة «المرآة» الألمانية (Spiegel Der, 45/2004) ببحث موسع بعنوان «انكماش الدماغ في عالم جوليفر». وعلم الأنثروبولوجيا كشف عن العديد من الأشكال الإنسانية التي عمرت الأرض زادت عن عشرة، منها الذي كشفه الأنثروبولوجي الأمريكي «دونالد جوهانسون» وأخذ اسم «لوسي»، وهي قصة مثيرة عن هيكل عظمي يعود لامرأة كانت تمشي منتصبة قبل 3.4 مليون سنة. ثم دفع زميله «تيم وايت» الرقم إلى 4.6 مليون سنة بكشفه عن إنسان «أرديبيثيكوس راميدوس». ثم قفز آخر رقم إلى ستة ملايين من السنين بكشف العالم الفرنسي «برونيت» مع فريق تشادي عن «إنسان الألفية» (الميلينيوم). وما يعرف بالإنسان العاقل الذي

ننتسب إليه، اشتق من فرع أكبر منه هو الإنسانيات (الهومو نيد)، ومن هذا الفرع الكبير نبت فرعان على الأقل كان أولهما الإنسان العاقل، والآخر «الهومو إيركتوس»، ومن فرع الإنسان العاقل جاء نوع «النياندرتال» (Neandertalensis Homo) الذي كشف في وادي نهر النياندر بقرب مدينة دسلدورف الألمانية. وهو نوع إنساني عمر الأرض قبل 150 ألف سنة، وانتشر في أوروبا بشكل موسع ثم انقرض قبل 35 ألف سنة. وأما جنسنا العاقل «الهومو سابينز» فأصبح له حوالى مائة ألف سنة ويزيد، واجتمع بإنسان نياندرتال على ما يبدو، ولا يستبعد أن يكون نوعنا «العاقل» هو المتسبب بانقراض إنسان نياندرتال قتلاً، ويبقى احتمالاً لا أكثر. وحسب قناة «الديسكفري» فإن إنسان «نياندرتال» لو تكاثر بمعدل أكثر من 2% لعمر الأرض، ولكنه لم يعن بذريته فهلك وضاع، ولو عاش لشهدت البسيطة وجود نوعين من البشر، وهو افتراض خيالي حتى الآن، لأن نفس الهومو سابينز بعضه لبعض عدو بأشد من الوحوش فكيف بوجود نوع ثانٍ؟ ويحتار العلماء في انقلاب الرحلة التطورية لتنتج البشر الأقزام، ولكنها ظاهرة بيولوجية مرصودة في الطبيعة، ففي جزيرة قبرص يوجد فرس نهر ضئيل الحجم. وفي «جزر القناة» حذاء كاليفورنيا يوجد ماموث قزم، وفي جزيرة «كاي» أمام سواحل فلوريدا يوجد غزلان مثل التي على اليابسة بنصف الحجم بسبب النظام الغذائي. وهناك فلسفة عند ابن خلدون كتبها في مقدمته أن ما يقضي على الناس في المجاعة ليس قلة الطعام بل اعتياد الأمعاء الطويل على الرطوبات ووفرة الطعام، فإذا حصل انقطاع حاد لم يكن هناك اعتياد فيهلك الناس من العادة أكثر من ندرة الطعام. وقصة البشر الأقزام في جزيرة فلوريس تقول إن الجنس البشري ليس موحداً، وإن مصيره ليس أكيداً، وقد يأتي بشر آخرون، وما ذلك على الله بعزيز: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}([169]).

مؤشرات صحة المجتمع

عندما فاجأ نابليون فرسان المماليك عند سفح الهرم كان المجتمع المصري متجمداً في مربع الزمن في عصر كافور الأخشيدي يجتر أحلام ألف ليلة وليلة والسندباد البحري، يلقي القبض على الإنسان على رائحة الظن، ويوضع على الخازوق بدون محاكمة. كان مجيء نابليون كما قال المفكر «ابن نبي» صفعة حضارية لمجتمع انقطعت صلته بالتاريخ، وكان اللقاء هذه المرة بين جيوش نظامية عصرية مدربة مسلحة بالمدافع والعلم والنظام المتطور، وفرسان المماليك على صهوات الجياد يعيشون خمسة قرون إلى الخلف، ولم يكن الشعب المصري يفرق كثيراً في حكامه بين نابليون والفرعون بيبي الثاني، في حالة تنازل عن المصير جملة وتفصيلاً.

كانت أوروبا هذه المرة قد خلقت خلقاً جديداً. فلم تعد تلك الحملات «عصابات صليبية مفلسة يقودها ملوك أميون يشترون تذاكر لدخول الجنة ويعالجون السعال الديكي بلبن الحمير» على حد تعبير النيهوم الساخر.

راهن نابليون على هذه الحاسة فخاطب الشعب المصري بظلم المماليك، وانتبه المؤرخ «الجبرتي» إلى انقلاب محاور التاريخ فكتب في «عجائب الآثار» مأخوذاً بالإجراءات القانونية لمحاكمة «سليمان الحلبي» مما وصفه المؤرخ البريطاني «توينبي» أنه كان يتمتع ب «حس حضاري».

إن مقياس تفوق المجتمع هو بتوفير الضمانات «للإنسان»، وخاصةً للشرائح المستضعفة، فبقدر توفير الأمان والضمان للضعفاء بقدر نمو هذا المجتمع وفيضان الإبداع ومتعة العيش فيه، وهذه الأشياء لا تتحقق بالتسميات، واعتبر القرآن الألفاظ لا قوة فيها:

{إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}([170]). كذلك الدول مهما حملت من شعارات ضخمة لا تنفعها بشيء إلا بتحقيق العدل وتوفير الضمانات للأفراد الذين يعيشون في كنفها. وعرفت أثناء إقامتي الطويلة في ألمانيا أن المجتمعات الرأسمالية قامت بتطعيم مجتمعاتها بلقاح مدهش ضد انتشار الشيوعية فيها من حقن «اشتراكية» بإدخال مؤسسات الضمان الاجتماعي، وبقي على المجتمعات الشيوعية أن تسعى جهدها لتحقيق نموذج المجتمع الرأسمالي. وما زلت أتذكر مناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على إدخال ألمانيا نظام الضمانات الاجتماعية إليها في عام 1982.

الفرد اليوم في الغرب يتمتع بضمانات منوعة ضد المرض والشيخوخة والتقاعد والبطالة وحوادث العمل، كما أن رواتب العمل توزع حسب الجهد وليس على الجنسية، وهذه كلها ترعاها مؤسسات عملاقة عريقة، وما يسمى نظام المساعدة الاجتماعية هو إعلان مدهش أن الإنسان في الغرب لن يموت جوعاً، بل يُمنح مساعدة هي حقه الطبيعي وليست صدقة أو منّة، تسدّ له رمقه وتستر له عورته وتؤمن له سقفاً يظله، أي ضمانات الجنة الفيزيولوجية، التي تعتبر قاعدة هرم الحاجيات الإنسانية. وانتبه إلى هذه القاعدة المصيرية (قاعدة العدل) ابن قيم الجوزية حينما أشار في كتابه «أعلام الموقعين» إلى القاعدة الذهبية «فحيث العدل فثم شرع الله»، وعندما قرر عمر (ر) نصيباً للذمي العاجز لم تنمو هذه المبادرة إلى مستوى المؤسسات، وتمّت مصادرة بيت المال إلى جيب الحاكم الأموي.

كانت مهمة الدين إذاً «أرضية» بإقامة «العدل» في مشروع ضخم، فالاقتراب من روح العدل هو مشعر التمييز في إسلامية المجتمعات وليس المظاهر أو الألقاب ورفع الشعارات. وتبقى الحقيقة أقوى من كل مظهر، والإسقاط الواقعي لفكر التوحيد في المجتمع هي حذف كل مظهرٍ ألوهية للبشر بتحقيق كلمة السواء: {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ... وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ}([171]). والحضارة هي ذلك المجتمع الذي يوفر «الضمانات» للأفراد الذين يعيشون فيه. واعتبر المفكر «مالك بن نبي» أن الحضارة الإسلامية انطفأت مع الأسطر الأخيرة لابن خلدون في مقدمته عندما قال: «وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة».

يتميز الأفراد بصفات شخصية تفرق الواحد عن الآخر مثل الفعالية والكلال والصدق من الكذب. وهذه الصفات الشخصية لها مناخ اجتماعي ينمّيها أو يحيدها، فالأجواء الدكتاتورية تعوِّد النفاق وتؤصّل الكذب وتنمّي أخلاقيات العبيد، وأوساط القهر تبقي مجالاً لاتجاهين: الكيد المبطن في طرف، مع الثناء المبجل إلى حد العبودية في الاتجاه المقابل. وطفت الأمثال الشعبية على السطح تشي بمقدار تغلغل هذه الأمراض الثقافية مثل «الإيد اللي ما بتقدر تعضها بوسها وادعي عليها بالكسر»، «ياللي أخد أمنا بنسميه عمنا»، «ما دخلنا»، «من حيط لحيط وربي سترك»، «عين ما تقاوم مخرز» تحكي آلية إلغاء الذات، وتحمل مخاطر إلغاء الآخر، فإذا أردنا معرفة مرض مجتمع من صحته فللنظر إلى تعامل الفرد مع من فوقه ومن هو تحته، هل يتحول إلى عبد لمن فوقه؟ وإله على من هو دونه؟ هل هناك مراقبة متقابلة في سلم التسلسل الاجتماعي وتراتبية السلطة؟ أم أن رحلة الصعود تعتمد قاعدة: لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون؟ لتتحول الشرائح

الاجتماعية إلى النموذج الفرعوني، وينفلق المجتمع إلى شرائح وطبقات، وينهار باتجاه الظلم الاجتماعي واستئثار بعض الشرائح بمزايا القوة والثروة والنفوذ والتأله.

إذا كانت أجواء القهر والخوف تستتبت أخلاقيات النفاق فإن المناخ الحرّ يعلّم الانتقاد البنَّاء والصدق والنصيحة وعدم التآمر وإظهار الرأي. ويعتبر «المودودي» أن المجتمع الإسلامي أصيب بصاعقة تاريخية لم يُعافى منها في ثمانية أمراض تسرّبت إلى الجسم الإسلامي كاختلاط للمرض الأموي، من تعطل «آلية نقل السلطة السلمي»، وتغير «طريقة عيش الخلفاء»، وانحراف «السياسة المالية»، و «زوال حرية الرأي»، فأصبح الذي يريد التعبير عن رأيه يمسح على رأسه قبل النطق ويطلب الأمان من الوالي قبل الكلام. ويذكر التاريخ أن الكثير من الناس فقدوا حياتهم من أجل كلمة تفوهوا بها وتحوّلت الأمة إلى مجتمع أخرس.

ومنذ أن استُل السيف من غمده لحلّ المشاكل تلطخ بالدم ولم يرجع بعد إلى غمده، ورسم تاريخنا، وما زال، بمسلسل محموم دموي من قنص السلطة اللاشرعي، هكذا فعل البيت الأموي لتثبيت حكمه بارتكاب أفظع الجرائم من حجم قتل الحسين واستباحة المدينة وضرب الكعبة بالمنجنيق على يد الحجاج، وبعدهم العباسيون يفرشون السجادات على جثث الأمويين وهم يأكلون ويغنون يسمعون حشرجة المذبوحين في غمرات الموت، أو ينبشون قبور الخلفاء فيجلدونهم وهم رميم؛ ليدور السيف عليهم من جديد فنسمع أخبار «سمل» عيون الخلفاء، ثم في عقاب كوني عند أبواب بغداد يخرج خليفة عباسي سمين حاسر الرأس ليقابل جزّاراً مغولياً من طراز هولاكو يناشده المحافظة على الحريم ليموت رفساً بالأقدام في كيس، ثم ليأتي مسلسل المماليك البحرية والبرجية الذين انتهت حياة الكثير منهم بالخلع أو القتل، أو العثمانيون الذين كان خليفتهم يدشن توليه العرش بذبح كل إخوته بفتوى من شيخ الإسلام لأن «الفتنة أشد من القتل» في تأويل جداً مقلوب كما فعل فاتح القسطنطينية مع أخيه الرضيع، ومراد الثالث مع إخوته الخمسة. وخلَّد شِعْرَنا هذه المأثرة أن لغة السيف هي المفضلة وأن الفكر لا قيمة له:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتبِ

في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

فبدل أن يدور السيف مع الكتاب حيث دار على حد تعبير «ابن تيمية»، مشى الكتاب حيث طلب منه السيف ووعاظ السلاطين أن يمشي، وهكذا ولدت أمة صماء بكماء، وترسخت لغة العنف، وتم تأليه القوة في المجتمع، وانطفأت لغة الحوار، وتمّت عسكرة المجتمع، واختفى المجتمع المدني، وانطفأت روح الشورى، وانمسخ المجتمع الإسلامي ونكس على رأسه فاجتاحته القوى الخارجية عندما فقد القدرة على تقرير المصير. يقول المؤرخ «شبنجلر» في كتابه «أفول الغرب»:

«الشيء المؤكد أن الرومان لم يفتتحوا العالم، بل وضعوا أيديهم على غنائم وأسلاب كانت في متناول يد كل راغب، لأن الشرق القديم كان قد تنازل عن جميع حقوقه في تقرير مصيره».

إن أمريكا اليوم تحسن قراءة سطور التاريخ!

جدلية اللغة والواقع

كتب «جيرهارد شبورل» (Spoerl Gerhard) في مجلة «در شبيغل» الألمانية، عدد 46، 2002، عن الانتخابات الأمريكية في 5 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002: «إن الصراع الانتخابي في أمريكا هو دوماً معارك العائلات الكبرى». ويروى عن بوش أنه أنفق لفوزه 150 مليون دولار. وهو ما يذكر بعائلات الفلافيين والأنطونيين التي حكمت روما بالمال وشراء الضمائر. وإذا كان بوش بعد أحداث سبتمبر قد قسم العالم، كما في العقيدة الزرادشتية، إلى ظلام ونور ومحور الشيطان وحلف الرحمن ومن ليس معي فهو مع الإرهاب، فهو في 21 نوفمبر (تشرين الثاني) أعلن أنه في طريقه لكسب مشاركة خمسين دولة في حربه الجديدة ضد العراق، كما أرسل إلى 11 دولة عربية يعطيهم فيها مهلة شهر أن يختاروا أن يحدّدوا مكانهم في حربه ضد العراق. ومشكلة القوة أنها أداة بطاشة مغرية للاستعمال كما فعل الغزاة الإسبان على رواية «تزفتيان تودوروف» في كتابه «مسألة الآخر»، حينما صقلوا سيوفهم في وادي نهر جاف ثم قاموا بذبح أفراد قرية ومواشيهم للتأكد من مضاء الخناجر. وفي التاريخ كانت آشور تملك آلة حربية مروعة استخدمتها في دفن شعوب كاملة وسوت معظم مدن الشرق الأوسط بالرغام أو أخذتهم لمعسكرات الاعتقال. ويذكر الفيلسوف «برتراند راسل» في كتابه «السلطان» عن ابن «موسوليني» كيف أنه كان يتمتع بإلقاء القنابل على قرى الإثيوبيين ويتمتع بحرقهم على قيد الحياة، ويقول تحت عنوان «ترويض الدولة» إن قدرة الدولة العصرية بلغت ما كان يتصوّره الأثينيون عن آلهة الأولمب. ويذكر «غورباتشوف» في كتابه «البروسترويكا» أن الطاقة النارية التي تحملها غواصة واحدة هي أكثر من كل النار التي استعملت طيلة ست سنوات في الحرب العالمية الثانية. وفي 8 أبريل (نيسان) عام 1991 نشرت مجلة «در شبيغل» الألمانية في عددها 15 أن قافلة عراقية تضم ستين ألف جندي بطول 16 كم كانت في طريقها للانسحاب من الكويت تم عقابها على طريقة آلهة الأولمب فلم يرجع منهم مخبر. ويقول «بوب ناجنت» (Nugent Bob) يصف الفيرنو: «كان منظر الشارع الذي يقود إلى الشمال في العراق يحكي فصولاً من الجحيم لدانتي. فمع تصاعد سحب الدخان وتدافعها إلى عنان السماء مثل الغيلان الفظيعة، تحولت الدنيا إلى ما يشبه الغروب... لم أرَ مثل هذا حتى ولا فيتنام»، قالها وهو يلقي نظرة على مقبرة بطول كيلومترات من السيارات المدمرة والشاحنات المحترقة والجثث التي تدافعت إليها كلاب الصحراء من كل صوب والملقاة هنا وهناك في الصحراء. بعض هذه الجثث قد

ذاب عنها اللحم وتحولت إلى هياكل عظمية. وفي داخل السيارات المحترقة الجثث المشوية التي التصقت بمقود السيارة ببقايا كانت في يوم من الأيام أذرعاً وأيادي!

أمام هذا السيناريو المروع للحرب في التاريخ الإنساني كتب الممثل الأمريكي «سين بين» (Penn Sean) رسالة مفتوحة كلفته 56 ألف دولار كي تنشر في جريدة «الواشنطن بوست» يستعطف ويرجو الرئيس الأمريكي أن يوقف الحرب وهو قادر على ذلك. ولكن الحرب كما يصفها الفيزيائي «فيرنر هايزنبرغ» (Heisenberg) في صدد حديثه عن هتلر في زيارته لانريكو فيرمي: «متى كانت الحرب يا صديقي عقلانية؟». ومن أمريكا أرسل لي عراقيون حماسهم للحرب الأمريكية وهم بسذاجتهم المضاعفة يرون أن الطاغية نبت في وسط الصالحين، وأن قتل الطاغية سيقيم الخلافة الراشدة كمن يظن أن قتل البعوضة سينهي توالدها من المستنقع، وأن كل المشاكل ستحل مع حلول العلم الأمريكي في بغداد، ولا يتصورون أن الشعوب هي التي تصنع طغاتها كما تصنع العاملات الملكة في خلية النحل وأنهم بحاجة إلى نظرية كوبرنيكوس اجتماعية، ولكن تفسخ الجثث الميتة لا يوقفها كلامي. وفي خريف 2002 قامت روسيا لتحرير رهائن مسرح موسكو بتجريب الغازات على الفئران البشرية. وهذا يقود إلى جدلية عجيبة بين الطغيان والإنسان والامتلاك: {كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}([172]). وأرسل لي الأخ «أحمد المسقطي» وهو يعقب على فكرة السلام التي أنادي بها انطلاقاً من مبدأ «ابن آدم» فقال: «إن مبدأ ابن آدم يمثل صراعاً بين الحق والباطل أو بين الباطل والباطل على أربعة أشكال. الأول: لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. فهذا الرادع هو الخوف من الله. والثاني: لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك لأني أخافك. والثالث: لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني أنا باسط يدي إليك لأقتلك، فهذا هو رادع التهديد. والرابع: لا أنا باسط يدي إليك لأقتلك ولا أنت بباسط يدك لتقتلني لأننا نخاف دمار كلانا (مذهب العقلانية) فهذا الرادع هو الخوف من الدمار. فأما رادع الخوف من الله فلا يمكن تعويضه أو تبديله برادع الخوف من الدمار لضمان سلام العالم. فهل رادع الخوف من الدمار وحده كافٍ لإنهاء الحروب ليحل السلام في العالم أم السلام بالإسلام الذي هو السلام الحقيقي؟ هل هذا الكلام طوباوي، أو أن الرئيس بوش سيصبح داعية سلام وهو يملك في يده آلة حرب ذرعها سبعون ذراعاً؟ أم أن هذا الكلام يسمعه أحد أو تنصاع له أمريكا كما طالبها بذلك الرئيس الأمريكي كارتر في نوفمبر (تشرين الثاني) 2002، حينما ناشد أمريكا أن تتخلى عن أسلحة الدمار الشامل كما هي تطالب العراق بذلك من وجهة نظر أخلاقية: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ}([173]). ومن الغريب أن 19 دولة من حلف الناتو اجتمعت في براغ في 21 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002 لتتفق

على تجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل مع أن من يمتلك أسلحة الدمار الشامل يمتد من سور الصين إلى حائط المبكى وانتهاءً بالبيت الأبيض. حقاً إن العالم الذي نعيش فيه يدعو للضحك {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى}([174])». لقد تأملت كلمات الأخ الكريم وخطرت لي خواطر في الموضوع وهو أن أسلوب التفكير وكيفية تناول الموضوع يرجع إلى نوع معين من أساليب الفهم والفكر. فكما أن هناك لغة للتفاهم بين الناس كذلك هناك لغة خاصة لهذا الحقل، ولكن لم نبتكر بعد كلمة جديدة لهذا الكشف الجديد. وهناك لغة فكرية ليست كلمات وحروفاً ونطقاً وإنما إدراكات وأحكام وقواعد للوجود ولكيفية نقل التصورات. ولا حرج أن نتعاون لفهم هذا الكشف ثم لإعطاء اسم لهذا الكشف. هناك ثلاث مراحل للإنسان أثناء تكونه الفكري. الأولى: هي مرحلة نقل الأفكار بواسطة السلوك وتصرف الإنسان. الثانية: مرحلة نقل الأفكار بواسطة الكلام باللغة الصوتية. الثالثة: مرحلة تلقي الأفكار بواسطة الكتاب والقراءة. المرحلة الأولى تبدأ من وقت الولادة مباشرة بواسطة المعاملة والجو المحيط منها. مثل تعلم الطفل قضاء حاجاته بواسطة البكاء. كما تحدث عن ذلك مالك بن نبي في قاعة المحاضرات في جامعة دمشق بعد هزيمة يونيو، وأن هذا يعكس تصرفات الزعماء لاحقاً في طريقة لحل المشاكل، وهو ما فعله العرب في هزيمة 1967، حينما ظنوا أن الصراخ والبكاء للعالم سوف يحل مشكلتهم، ثم بواسطة سحنة الوجوه وتقطيب الوجه والابتسام والأصوات الغاضبة أو الأصوات الراضية بصرف النظر عن اللغة التي يتكلم بها الإنسان. فنحن نعلم أن المتكلم غاضب، وإن كنا لا نعرف لغته التي يتكلم بها. والطفل يمتصّ القيم والمواقف المرضية أو المغضبة ومعنى العيب والعورة من موقف الناس منها وتفاعلهم تجاهها. والطفل دائم التطلع إلى وجوه القوم المحيطين به ليمتص أو يتعرف على السلوك المقبول أو الشائن والمرفوض من أصوات الرضا والرفض وسحنة الوجه بصرف النظر عن نوع الحروف المستخدمة عربية كانت أو إيطالية. فإذا تصرف الطفل أي تصرف التفت ونظر إلى هذه الذي أسميه «اللغة السلوكية» أو الفهم من المسلك والتصرف لا بواسطة اللغة بل لا بد من ابتكار اسم جديد لهذا الأسلوب من التلقي غير اللغة. لأن اللغة تحدث بأسلوب معين وإلى الآن لا يوجد مصطلح مرضي لهذا الموضوع. وبعضهم يسميه «إبستمولوجيا» أو نظام الفكر، وبعضهم يسميه «اللغونة»، ويمكن أن نسميه «اللغة التحتية»، أو الأسلوب العميق في نقل المفاهيم والقيم والإيحاء. والمفاهيم التي تنتقل بواسطة هذه الوسيلة يكون إعطاؤها وتقبلها عفوياً غير واعٍ لا من قبل المعطي ولا من قبل الآخذ. وكثيراً ما ننكر أننا نحن الذين أعطينا هذا السلوك أو التصرف. والطفل لا يعرف بدقة كيف أخذ السلوك. وهذا يدفعنا أن نضع هذه المرحلة تحت المجهر تحت عنوان حديث الرسول (ص)» «كل مولود يولد على الفطرة» فأي فطرة هذه؟ إن هذه الفكرة فجرت الحنين في قلب الغزالي قديماً ليكتشفها فغاب في رحلة عشر سنوات. هذه المرحلة تكون في الطفل قبل أن ينطق خلال السنتين أو الثلاث الأولى من عمره،

وإضاءة هذه المرحلة لها أهمية بالغة، والناس لا يلتفتون إلى هذه المرحلة ولا يعدونها شيئاً بارزاً في حياة الناس لأنها غير ملاحظة وغير مهمة، وهي أكثر من مهمة وتأسيسية، ومنها يتشكل الإنسان طبقاً عن طبق. هذه اللغة من عالم اللاوعي هي التي تقود الناس ل 95% من التصرفات، وبوش لا يشذ عن هذا القانون. وهذا يدخلنا على إدراك شيء جديد هو «متيافيزيقا» التاريخ. فلو كان الأمر بيد بايزيد الذي كان يجهز جيشاً عام 1402م تعداده نصف مليون جندي لاجتياح أوروبا لفعل، ولكنه فوجئ بتيمورلنك يقفز على ظهره في معركة أنقرة ويأخذه أسيراً مع زوجته ويموت قهراً في الأصفاد، لأن الجنين الأوروبي كان يولد آنذاك فأنقذه تيمورلنك من حيث لا يريد، كما حصل مع موسى الذي جاء إلى قصر فرعون في التابوت وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني، وليكون لهم عدواً وحزناً ويصبح نواة تدميرٍ لفرعون وقومه وما كانوا يعرشون.

عرضت قناة «الديسكفري» بحثاً عن الكذب توصل الباحثون فيه إلى كشف أن الكذب ليس من خلال الكلمات بل من حواف وظلال الكلمات وكيفية نطقها وتعبيرات الوجه السريعة المرافقة للحن القول. وهذا يعني أن الكلمة المنطوقة لم تعد مصدر ثقة. وبتعبير القرآن هي فاسق {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا}([175])، وحتى نتبين صدق القول ومطابقته للمعنى فهي عملية معقدة من عدة جوانب. وحتى لو قال من قال صادقاً فلا يعني أنه أصاب الحقيقة، وهذا يعني أن هناك حجباً فوق حجب أمام الإمساك بحقيقة جزئية ومتغيرة لا تنفك عن التملص من أيدينا بأشد من الإمساك بسمكة في الماء. وليس كل شاهد واعياً بما يرى، والكثير من الناس يعيشون قرناً كاملاً ولكن بوجود بيولوجي وليس ثقافي، فإن سألت أحدهم عن أحداث القرن لم يروِ لك شيئاً ذا بال. والكثير من العمال الأتراك الموجودين في ألمانيا لا يعرفون ألمانيا إلا ساعات عمل ووجبة ثقيلة وزيارة بعضهم، ويبقى أحدهم عشر سنوات بدون القدرة على نطق عشر كلمات ألمانية على نحو صحيح. فهذا وجود وفيلسوف يسبر أعماق الثقافة ويجتمع بأدمغة المجتمع النابهة وجود، ولكن لا يستوي الأعمى ولا البصير ولا الظل ولا الحرور ولا الظلمات ولا النور وما يستوي الأحياء ولا الأموات.

نحن نظن أننا نتعلم اللغة في المدرسة عبر القراءة والكتابة ولكن الواقع أن اللغة ليست واحدة بل ثلاث تتشكل طبقاً عن طبق. والطفل يفهم تعبيرات الوجه قبل أن يستوعب كلمة واحدة. وعندما يتعلم نطق الكلمات يستوعب من جديد أن هناك لغتين، ما ينطق وما يقصد، فقد يقول أحدهم للآخر «مرحباً» وهو يعني أن لا مرحباً بكم. وهنا تبرز حواف جديدة من «لحن القول» غير ما حمل على الصوت. وعندما أراد القرآن تعليم النبي حقيقة المنافقين قال إنه سيفتح له نافذة مزدوجة على «السيماء ولحن القول»: {وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}([176]). وعندما يدخل الطفل المدرسة يبدأ في تعلم أكثر اللغات سطحية وصعوبة وحياداً

عن المعنى والحاجة للتأويل. وهكذا فنحن أمام ثلاث لغات: اللغة «الصامتة»، واللغة «الصائتة»، واللغة «المكتوبة».

فأما المرحلة الأولى فهي «اللغة السلوكية»، أو اللغة التحتية، والمفاهيم التي تنتقل بها تكون عفوية سواء من يوحي بها أو من يتلقاها، ويتقبلها الطفل عادة على نحو غير واعٍ، لهذا كثيراً ما ننكر أننا مصدر هذا السلوك عندما نصاب بالحرج من بعض تصرفات أطفالنا. وإلقاء الضوء على هذه المرحلة حاسم في فهم خلفية السلوك، ولكن الجميع يمر عليها مروراً عابراً غير مدقق ولا معاد، ولا نبذل جهداً في إبرازها، ولا قدرة لنا على ذلك، والإنسان بشكل عام لا يقدر أن يعطي للشيء المهمل قيمة إلا في ما ندر، والذي أبرز هذه الزوايا المظلمة من التصرف الإنساني هي أساليب التخصصات الدقيقة الحديثة في علوم الألسنيات التي أخذت تبرز أهمية بعض الجوانب الخفية والهامة في آثارها وعمقها، ولكنها مهملة وغير مركز عليها عندنا: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}([177]). وفي العادة لا ينتبه الإنسان إلا بالتنبيه، وإلا القليل من الناس، وفي بعض الظروف النادرة وفي جو من المعاناة.

أما «المرحلة الثانية» فهي مرحلة الكلام ونقل الأفكار والتصورات باللغة، وهي مرحلة كشف عنها العلم أنها تتم مع نمو الحنجرة بعد السنة الأولى وبالتدريج، وربما يصدم الطفل في هذه المرحلة، ولكن يمتصه بالسلوك ولا يقدر أن يعبّر عنه باللغة، ويرى ويكشف أن هذا الأسلوب فيه كثير من النفاق وعدم الصدق والتوافق كيف نقرر أشياء باللغة ولا نلتزمها بالسلوك، وهذا التحول قارة جديدة من العلم ينبغي كشفها. وهنا يقع الإنسان في أول أزمة عقلية مع استخدام مقود اللغة أن فيها وجهين: ظاهر وباطن، ولا تعني كل كلمة ما يراد منها. والمجاملات التي نقوم بها يومياً وقف عليه عالمان لغويان لاكتشاف مقدار الكذب في أحاديثنا في بحث نشرته مجلة «در شبيغل» الألمانية، فوصلا إلى نتيجة إحصائية مفزعة تفيد أننا نكذب بمعدل عدة كذبات في بضع دقائق. وكما يقول التكريتي في كتابه الهندسة النفسية عن «البرمجة اللغوية العصبية» (NLP) إن المشكلة تكمن أصلاً في اللغة، فهي تحوي خروقاً يصعب رتقها، وأهمها عيوب ثلاثة لا سبيل لإصلاحها هي التعميم والتشويه والحذف.

وأما «المرحلة الثالثة» فهي مرحلة التعلم من الكتاب بواسطة القراءة، وما يتعلمه الإنسان من القراءة سطحي أكثر من المرحلتين السابقتين. فالطبقة الأولى «السيميائية» عميقة وكتيمة وراسخة وعفوية. أما الثانية فدونها في العمق. أما الثالثة فهي عائمة. ولا بد من كشف دقيق موسع لهذه المراحل للدخول إلى التمييز بين اللغة الصامتة واللغة الصائتة واللغة المرسومة على الورق بالحروف.

إن مفاهيم المرحلة الأولى تسيطر على المرحلتين التاليتين، فمن يعرف قراءة نظام وآلية وأسلوب تكوّنه بوعي يتمكن من حل كثير من المشكلات التي تحدث في المرحلتين التاليتين.

والدراسات اهتمت بالمرحلتين الأخيرتين، وهناك دراسات حول التفريق بين الأمّي والمتكلم والذي لا يقرأ، وبين المثقف والمتعلم الذي يقرأ، والأول محتقر مُهان خجول، ولكن سلطانه أعمق بكثير من هذا المتعلم وإن كان يعطي له احتراماً كبيراً، إلا أنه بدأ يسحب البساط من تحت أقدامه، فهذا الاحترام مبالغ فيه ووهم مسيطر على النفوس.

أما المرحلة الأولى فلم أرَ مَن أعطاها عناية تستحقها كما يجب. وحاول الفيلسوف الفرنسي «ميشيل فوكو» أن يبحث عنها، ليس عن هذه المرحلة بالذات، وإنما تحدث عن نظام الفكر الذي يسيطر على بيئة ما بصرف النظر عن اللغة التي يتكلم بها، فالعالم الإسلامي على اختلاف لغاته يتكلم لغة ثقافية واحدة ويعيش نظاماً فكرياً واحداً محمياً ومحروساً ومحصناً ومدافعاً عنه بإحساس دقيق ممتاز وبحساسية مرهفة، ويشعر بالخطر إذا خرج قطاره عن سكّته، فلهذا الجميع في توافق تام لحراسة شجرة الحياة الثقافية.

وإلى الآن لم ندخل في نقاش فعلي أو محاولة تطبيق هذا المنهج على بحث مشكلة «ابن آدم والعنف ومشكلة الإنسان». والمشكلة في تقديري ليست في ابن آدم ولا في العنف، وإنما في أسلوب الفهم. كيف نعرف الصحيح من الخطأ؟ وكيف نفهم عن الله؟ وما هذا الله؟ وكيف نفهم الصواب؟ وما المشكلة؟ وكيف نعرف أن المشكلة حلّت؟ وهل لنا قدرة للتلقي عن الله بالطريقة الأولى أم الثانية أم الثالثة؟ هذه الكلمات والأفكار أكتبها موجزة جداً ومبتورة وغير متناولة بدقة وعناية وتأمل.

وعندما نجتمع مع شخصيات كبيرة معتبَرة وذكية ومقدَّرة في المجتمع ويتحدثون باعتداد، ويبحث أحدهم عن الروح والنفس والله والرسول، وقال الله وقال الرسول، فيجب أن ترهبنا قعقعة الكلمات أو قال فلان وفلان. نريد أن نتحدث ماذا يحدث لنا وكيف يحصل الفهم وكيف انتقلت إلينا هذه الأفكار. دعونا من الحديث عن السماء، ولنبحث في الأرض، ولنعد إلى الإنسان المولود على الفطرة.

كيف تصيغ البيئة هذا المولود؟ إن هذا يحدث أمامنا بقوى تحيط بنا وتصدر منا وليست غيباً ولا خارقاً، ولا أنه لا يمكن فهمها أو السيطرة عليها، والمشكلة الخارقة الصادمة التي هي أم المشكلات أننا حين نقول قال الله أو قال الرسول إن قول الله وقول الرسول لا يمكن أن يأتي من الله

ولا من الرسول إلا إذا مرّ بقنوات وأجهزة من صنع البشر في مراحلها الثلاث. وحتى الله استعمل معنا اللغة التي صنعها الناس العاديون: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}([178]).

هذه النقطة، أي أن الله والرسول وكلامهما وسائر كلام الناس نتداوله بواسطة المراحل الثلاث التي تمر بها كل المخلوقات البشرية، وتدخل هذه المفاهيم بواسطة هذه المراحل، ولا يمكن أن نتصل بأفكار الله أو كلام الله أو كتابه، وكذلك ما يتعلق بالرسول (ص) إلا بواسطة هذه المراحل الثلاث، وخاصة نحن الآن ليس أمامنا إلا كتاب بين دفتين لا نفهمه إلا بواسطة اللغة أو الكلام محكياً أو مكتوباً. فالمسلمون بكل سذاجة يظنون أن لهم القدرة على الاتصال بالمعاني التي أرادها الله بواسطة هذه اللغة دون الرجوع إلى الواقع الذي يتحدث عنه.

إن مشكلة اللغة، أي لغة، ومشكلة الدلالة والرمز ينبغي أن تبحث ليس كشيء خارق أو سحري أو غيبي، وإنما كشيء تقع كل جزئياته تحت سمعنا وبصرنا وملاحظاتنا، وليس منها شيء خفي إذا أراد البشر تأمل الواقع الذي يحدث أمامنا.

ومن هنا كان إلحاح القرآن على الرجوع إلى الواقع، وطلب الفهم منه بدون ملل، وأكد على مدّ أشرعة البصر والسمع، وأكد على النظر على نحو معاد ومكرّر، وما ألح عليه القرآن فرّغه المسلمون من المعنى، وصاروا ينظرون إليه بريبة، ولا يثقون بالواقع الذي هو رصيد الكتاب، والذي جعل الكتاب مبيناً كريماً عظيماً لأنه ألحّ وأيّد وعاد للنظر، وقال لنا إن اليوم الآخر والمعاد والحق كل ذلك حق مثلما أنكم تنطقون.

نحن الذين ننطق نُخرج الهواء برنين معيّن بين الحنجرة واللسان والأضراس، ثم نربط المعنى بهذا الرنين بواسطة الذبذبات والموجات الصوتية، وهي قابلة للارتباط بأي معنى، ولهذا وجدت لغات لا نهاية لها ولا حصر، ومنها ذكر القرآن اختلاف ألسنتكم وألوانكم آية، إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون. ولو كان بين الكلمة والمعنى ارتباط غير ربطنا الاعتباطي ولو كان هناك ربط وجودي لما كان في العالم إلا لغة واحدة، ولما قال الله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}([179]). وبقدر البعثات بقدر الأمم بقدر اللغات وإن من أمة إلا خلا فيها نذير.

هذه الموضوعات لم تبحث جيداً، والبشر هم الذين كشفوا المعاني، وهي لغة فكرية غير اللغة اللسانية، ولا يوجد لها بعد اسم، ولكن مع تداول الموضوع فسيتولّد له حتماً اسم من غير أن نشعر أو نقصد. وعندما يصير الموضوع واضحاً يتولد الاسم الذي نراه نحن. وحتى الله يستخدم

المصطلحات التي وضعها الناس حينما يرسل الرسل بلسان الأقوام. وعندما طلب مشركو قريش ملكاً كان الجواب: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ}([180]).

وهناك ظاهرة لا نقدر على تحليلها هي ظاهرة دلالة الكلمة ودلالة الواقع. ونحن نظن أن الكلمة أدلّ على الواقع من أي شيء آخر، ونعتبر أن الأمر بديهي، ولكن الوهم الذي نقع فيه شبيه بالوهم الذي وقع الناس فيه قديماً في إدراك حركة الشمس؛ ونحن نعلم كيف تورط الناس في هذا الوهم الواضح الجلي لنا حالياً، ولكنه كان يكلف يومها حياة الناس، و «جيوردانو برونو» دفع حياته على النار ذات الوقود لمفهوم من هذا النوع، ولكننا نعلم بنفس الوقت صعوبة كشف حقيقة الواقع. وهذا يفرض علينا أن نتعمق في فهم هذه الظاهرة، وأن العودة للنصوص لم تكن لتحل إشكالية هذه الظاهرة، ولو اقتصر الناس على فهم هذه الحقيقة من الكلام أو اللغة أو من النص لاستمر القتال ولأمكن أن نؤوِّل النصوص لأن النص قابل للتأويل. وقصة حركة الشمس ليست الوحيدة، ومنها مثلاً قصة خلق الإنسان: هل خلق دفعة واحدة كما جاء في العهد القديم أو أنه خلق أطواراً؟

كما نرى، فنحن الذين نصنع المعنى، ونحن الذين نصنع العلاقة بين الكلمة والمعنى، مع هذا فإن الذي صنعناه وما زلنا نستمر في صناعته قد لا يزيد عن وهم وخيال. والتصور المفصول عن الواقع يمكن أن يطير ويغوص ويحلّق، بينما الواقع لا قدرة له على الطيران، بل يلتزم ومقيد بالواقع ويمشي ببطء، ولكن هذا المشي البطيء يقطع مسافة، ولكن الخيال وإن كان يطير إلا أنه لا يقطع مسافة ويبقى في مكانه. وينبغي أن نكثر من تأمل هذه الفكرة أو هذه الأوهام التي عندنا استعداد أن نموت من أجلها وأن نميت الآخرين أيضاً من أجلها. وفي الحياة يمكن أن تصادفنا مثل هذه الأوهام الصادقة مثل ظاهرة الشمس ودورانها حولنا، ويمكن أن نشاهد «الأصداق» المتوهمة. بعبارة أخرى يمكن أن تكون لنا القدرة على رؤية جانبين: «الأوهام الصادقة» مثل الشمس والقمر وحركتهما، وكذلك «الأصداق الواهمة». ومجرد إيجاد مثل لهذه المقولة صار صعباً، ونموذج على ذلك استيلاء وهم على الناس بأن الناس مجبرون على طاعة الديكتاتوريين وعدم قول الحق أمامهم ظناً منهم أن قول الحق يفضي إلى الهلاك، بينما هذا وهم صادق مثل وهم ظاهرة الشمس وحركتها، بينما هناك شيء حقيقي ولكن يُنظر إليه أنه وهمٌ وهو محاولة مواجهة الطغيان بكلمة الحق وأنها وسيلة القضاء عليه أكثر من قتل الطاغية.

ربما ليست العبارة واضحة تماماً، ولكن يمكن إدراكها بقلب العبارة، فكثير من الأشياء الحقيقية نفهمها بشكل خاطئ. وبعبارة ثالثة ظن الكذب صحيحاً وظن الصحيح كذباً، وهناك حالة ثالثة هي فهم الصحيح صحيحاً وفهم الكذب كذباً.

ليس هناك من طريق للخروج من الفهم الخاطئ إلى الصواب إلا بالرجوع إلى تأمل الظاهرة والنظر في عواقبها، فإذا جعلنا النظر إلى الوقائع والظواهر وعواقبها مستبعداً فلن يمكن الحل بواسطة الصور الذهنية، لأن الصور الذهنية المنفصلة عن الواقع يمكن أن تكون أوهاماً، لذا لا بد من العودة للواقع، وهو أن الواقع أدلّ على نفسه من الصورة التي نتخيلها نحن، وأدلّ على نفسه أيضاً من الكلمة التي نطلقها على صورنا الذهنية. وهذه الحقيقة المستبعدة هي أم المشكلات الإنسانية.

ويمكن ذكر ظاهرة يمارسها «النحّال» وتحصل يومياً أو فصلياً، وذلك حين يكشف خلايا النحل فيجد ملاحظات عليها، ويضع مثلاً حجراً صغيراً على الخلية الضعيفة فيصير الحجر رمزاً على معنى معين. فإذا رأينا حجراً على خلية نعرف بمصطلحنا الذي ولده تصورنا عن الخلية أثناء وضع الحجر. ولكن يحدث في مرحلة ثانية عند الكشف عن الخلايا أن نضع حجراً أكبر على الخلية القوية وليست الضعيفة لأنها تحتاج إلى إضافة إطارات جديدة للشغل، فنعرف أن الخلية التي عليها حجر كبير تحتاج إلى إطارات جديدة. وأحياناً نضع حجراً مختلفاً على الخلية المريضة لنعرف أنها بحاجة لمعالجة، ومرة رابعة قد نضع الحجر في وسط الخلية ليدل على المرض، وأحياناً نضع الحجر في الأمام ليدلّ على الضعف، وأحياناً نضع الحجر في المؤخرة ليدل على القوة. وفي يوم نرى حجراً فلا نعرف على أي شيء يدلّ، هل هو دلالة على الضعف أم القوة أم المرض، أم على نوع النحل؟ كأن نعد خلية للإكثار من نوعها فتختلط علينا الأمور فلا نعرف على أي شيء وضعنا الحجر وعلى ماذا يدل. وأمام هذا الاضطراب فإن الشيء الذي نفعله بعد قليل من التفكير هو إلغاء دلالة الحجر والعودة إلى التعامل مع الخلية من جديد، أي العودة إلى الواقع.

هذه الظاهرة الطبيعية تساعدنا على فهم المشكلة العويصة، وهي أن الحجر الذي وضعناه لم يصر هو مصدر المعرفة والعلم، وإنما هو رمز قابل لأن يعطي معاني كثيرة. ولكن للخروج من الحيرة نعود إلى الواقع للتعامل معه برموز جديدة. الرموز ليست هي المرجع الحقيقي، بل مرجع ثانوي عارض لفهم الحقيقة والتعامل معها. هذه النقطة الجلية والخفية معاً هي التي تحدث المشكلات والأزمات في العالم الإسلامي والعالم الإنساني.

الله تعامل معنا بالرموز والحقائق، وقال لنا بأن نرجع دائماً إلى الواقع وننظر فيه، وأن الرموز إن هي إلا مساعِدات مرحلية مؤقتة يمكن أن تختلف بحسب الزمان والمكان، ولكن سننه الواقعية لن تتغير، وكلما رجعنا إليها نجدها كما هي ثابتة، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا، ولكن الرموز يمكن أن تتبدل وتتحول، ولا تزيد عن أسماء ما أنزل الله بها من سلطان.

السلطان هو في السنّة الثابتة، ويمكن أن نقول إن الرمز شيء مساعد للفهم وقتي، ولكن الواقع هو المرجع والأساس من سنّة الذرة إلى قانون المجرة.

ومن هنا لما بدأ الاهتمام بالوقائع والتفاهم مع الله بواسطة سننه توقفت النبوة، لأن النبوة مرحلية وانتهت، ولكن النبي الأخير وخاتم الأنبياء (ص) لما أصر على النظر في الكون والاعتبار بسنن الماضين، كل هذه أدلة متظاهرة على أن التعامل مع الله وفق سننه لا يتغير مع أهوائنا: {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}([181]).

وانتبه إلى هذا محمد إقبال، وخاصة في بحث ختم النبوة ولماذا ختمت، ولم يعد يأتي نبي ولا كتاب، لأن الكتاب والنبي الخاتم دلّنا على الطريق الذي لا ينتهي. دلنا على الكلام الذي ليس هو حروفاً وكلمات بل وقائع ملموسة وحقائق لا تهتز أو تتغير.

كتب آية الله عبد الله جواد الآملي في مجلة «الثقافة» وهو يشرح معنى الكتاب من سورة الرعد وما المقصود به، فقال بأن الكتاب التكويني هو الكون، وأن الكتاب التدويني هو القرآن، وكلاهما حق. ثم وضع عنواناً آخر ذهب إلى أن الكون كله علم متجسد، وقال بأن هذا النظام مهيمن على البشر والعلم يدرسه لأنه هو نفسه، أي الكون علم متجسد.

نحن إذا دخلنا مكتبة رأينا عدة آلاف من الكتب فنقول إنها علوم وما كتب فيها علم، والذين ألفوها علماء، وإنهم تلاميذ هذا النظام، وما دوّنوه هو جزء يسير مما عرفوه من هذا الوجود. ولكن كيف يكون محتوى هذه الكتب علماً؟ والذين دوّنوه علماء؟ وإن مضامين الكتب ومعارف العلماء هي كون متجسد.

والذي أريد أن أقوله إننا لا يمكن ولا نستطيع أن نقول إننا نفهم القرآن. والدليل على ذلك كيف ألحّ الله على معرفة التاريخ البشري في القرآن وأخبار الأمم وأن نكون شهداء على الناس. ولكن هذا القسم الضخم من القرآن أهمله المسلمون وكأنه لا قيمة له أبداً، ولا يُلتفت إليه ولا يحاول أحد أن يجعل نفسه مختصاً فيه. وما يجب أن نفهمه من هذا أن دلالة الكتاب يمكن أن تلغى إلغاءً تاماً وكأنه غير موجود، والذي سينبّه المسلمين إلى هذا الذي في الكتاب هو الاهتمام بالتاريخ والكون، والمثل على ذلك قوله تعالى: {سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}([182]). وهذه الآية موجودة عند المسلمين منذ يوم نزولها، ولكن هذه الآية لم تفد المسلمين بشيء، وحتى الذين عرفوا كيف بدأ الخلق لم ينطلقوا في بحثهم من هذه الآية، وإنما من ملاحظة الكون، فكان الانطلاق.

والذي دل على نفسه وما فيه هو الكون ذاته وليس الكتاب، والأدل والأعمق في الدلالة أن المسلمين يرفضون معنى هذه الآية بعد أن صار محتوى هذه الآية المرجع الأساسي لفهم الأمور. مرة أخرى أقول إن الحدث أو الشيء أدل على ذاته من كل وصف، وعند الاختلاف فالمرجع ليس الكتاب وإنما العودة إلى الحدث أو الشيء.

ومثلاً فإن صخرة ما أدل على نفسها من كل كلام يقال عنها، حتى لو كان كلام الله، لأن الله استخدم كلام البشر في الحديث عنها، ولكنه لما خلق الصخرة لم يحتج للبشر، فالصخرة أدل على صنع الله من كل كلام يمكن أن يقال عن الصخرة، وعند الاختلاف فإن المرجع الذي يجب الرجوع إليه ليس الكلام، بل هو البحث في الصخرة ذاتها. ويُروى عن تلاميذ لأرسطو تناقشوا عن عدد أسنان الحصان فاختلفوا جداً، ولو فتحوا فم الحصان وعدّوا الأسنان لوصلوا وتوقف النزاع.

وإذا جاء علم جديد وفهم جديد أعمق عن الصخرة فلن يزيد عن التعامل مع الصخرة، وهذه البديهية البسيطة مخفية عن أعين المسلمين وعن البشر أيضاً، لهذا يلح القرآن على الرجوع إلى الكون المادي والاجتماعي لفهم سننه ونظامه، ويدلل بذلك على أن الواقع أدل على ذاته من كلامه أيضاً، ولما يقول ستفهمون في المستقبل معنى هذا الكلام لأن الواقع هو الذي سيكشفه.

وحين يسأل الأخ الكريم ويقول: فهل رادع الخوف من الدمار وحده كاف لإنهاء الحروب ليحل السلام في العالم، أم السلام بالإسلام الحقيقي؟ وجوابي أن رادع الخوف من الله لم يصنع السلام بين المسيحيين خلال ألفي سنة، كما أن رادع الخوف من الله لم يصنع السلام بين المسلمين خلال ألف وخمسمائة عام بدءاً من معركة صفين وانتهاءً بحرب الخليج. ولكن الرادع النووي صنع السلام بين الذين دخلوا هذا العالم، وهذا ليس عيباً في الإسلام ولا نقصاً فيه.

لا بد من إقامة الدليل، والدليل واقع في الأرض. والرادع النووي صنع السلام، والرادع الديني الأخروي لم يصنع سلاماً. عفواً، ينبغي أن لا نخطئ، فلماذا نقول إن الرادع النووي رادع إلهي أيضاً وبسننه؟؟

فهذا ما يقول الله عنه إذا كنتم لا تصنعون السلام لأني أقول لكم ادخلوا في السلم فدخلتم الحرب فلسوف أرغمكم بآيات الآفاق على الدخول في السلم كافة فهذا معنى انظروا وانتظروا.

إن لم يحصل لكم إيمان بالموعظة فسيحصل لكم إيمان رغماً عنكم بعواقب الأمور: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}([183]).

قتل الإنسان ما أكفره، اقتصادي وطماع، إذا ظن أنه ينجو بالعقوبة فسيغامر ويدخل إلى المخاطر، ولكن إذا تأكد له أنه لن ينجو فهنا يعد إلى العشرة والمائة والألف قبل اقتحام العقبة وما أدراك ما العقبة.

الحرب يدخل إليها الإنسان طمعاً في النصر، ولكن إذا تأكد من الهزيمة والموت لا يقدم عليها إلا كما يُقدم على الانتحار. وطبعاً فإن عدد المنتحرين دون شك أقل من الذين يموتون موتاً طبيعياً.

هذه الأشياء يمكن دراستها من خلال الواقع الإنساني وطبيعته وتكوينه، ودراسة خلق الله لا تناقض الكتاب، ولكن البدء في الدراسة من كتاب الله، دون أن يعترف للواقع أنه هو الذي سيشهد في النهاية بمعنى الكتاب وصدقه، لا يحل المشكلة بل يضاعفها.

وهذا الأسلوب غير واقعي، بل الواقعي هو الذي يرغم الجميع، هو الآتي، أي لما تظهر الأمور في الآفاق نضطر أن نغير فهمنا للقرآن.

القرآن يقول عن القلوب إنها هي التي تفقه، أي إن القلب هو عضو الفهم: {لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا}([184])، ولكن الواقع، أي التعامل مع الواقع، كشف أن القلب لا يزيد عن مضخة للدم، ولا علاقة له بالفهم، وإنما هو مضخة قابلة أن تعمل بسرعة أو ببطء حسب الأوامر التي تصدر إليها، وليست هي التي تُصدر الأوامر.

والواقع هو الذي بيّن أن هذا القول حقيقة أو مجاز أو خيال لأن الإنسان يشعر أن قلبه هو الذي يخاف ويطمئن: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}([185]). وهذا الحديث على الشعور العام السطحي، وليس على

أساس البحث العميق في الواقع. ومع ذلك فالإنسان سيرجع إلى أن القلب هو الذي يفهم إذا ثبت بالدليل الخارجي هذا الشيء لا بمجرد القول.

حدثني صديق لي أن بعض الناس تشككوا في وصول الناس إلى القمر، فاجتمعوا ليتخذوا قراراً في هذا. وأثناء بحثهم قال أحدهم: إذا تبين فعلاً أنهم وصلوا إلى القمر فماذا سنقول؟ قالوا: سنقول إن فهمنا للقرآن كان خاطئاً. وهذا المثل أو الحدث لا يهم سواء وقع أم لا، ولكن الواقع يدل على أن هذا التسلسل هو الذي كان يحدث على مرّ التاريخ.

نحن الآن نصاب بصدمة في مثل هذه الأمور، ولكن بسبب الصدمة جدة الموضوع وصدقه وواقعيته، فالناس ينكرون الأشياء الجديدة في أول الأمر، ولكن بعد أن يشهد الواقع يضطرون أن يتكيفوا معه. وفي بلد مسلم حدثت معركة كبرى حول استخدام مكبرات الصوت للأذان قبل أربعين سنة أنها بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. واليوم لا يرتفع في نفس المدينة صوت الأذان إلا بمكبرات الصوت، وأحياناً في السحر لقيام رمضان، ولساعات وفي مسجد داخل مشفى، في عمل لا يوصف أنه مريح لمرضى بأمسّ الحاجة للراحة والنوم.

وما كتبت سابقاً يصيبني بالزهد كمن يخض الماء، لأن البحث والمتابعة وإعادة القول مراراً غير مفيد، وجدواه في المستقبل القريب المنظور قليل لأن هناك مشكلة إنسانية أن الشيء الذي يسلّم به كثير من الناس يسهل قبوله، لا لأنه صواب، بل لأن التسليم به لا يُحدث معارضة وحرجاً. ولكن الأمر الذي ينكره الناس وخاصة حين يتم الإجماع على إنكاره يفقد الإنسان القدرة على إدراكه. وعندما جاء النبي بالصدق قالوا عنه كذاب أشر، سيعلمون غداً من الكذاب الأشر.

إلا أن معرفة التاريخ وكيف مرّ البشر بمثل هذه المنعطفات كثيراً، ومن اطلع على التاريخ الإنساني يكتشف أنهم كانوا يرفضون أموراً ثم يقرون بها، وكانوا يقبلون أموراً أخرى ثم يتركونها.

إن رؤية نماذج من هذا النوع يجعل الإنسان يتشكك في أن هذه الأشياء التي نسلم بها ليست خالدة أبدية، والله وحده هو الأبدي السرمدي ليس كمثله شيء ولكن المخلوقات متغيرة.

لو تيسّر للإنسان أن يراقب فكرياً وضع الكرة الأرضية ونشوء الحياة فيها، وأنواع الحيوانات التي عاشت فيها، وفي يوم ما كانت الحياة كلها في الماء ثم صارت اليابسة ثم وُجد الإنسان، فقد يطرح السؤال نفسه: لماذا لا يخطر في بالنا أن هذا الخلق لا يزال مستمراً؟ لماذا لا يخطر في بالنا أن الخلق لم يتوقف ولا يزال يخلق ويزداد في الخلق وأن هناك نشأة أخرى؟

إن الميزة الكبرى للإنسان أنه يستفيد من التاريخ، ومعرفة كيف بدأ الخلق هي التي تدل على استمرار الخلق والزيادة فيه. ونحن البشر لم ندرك تاريخ الأرض إلا منذ مائتي عام. فما هي المائتا عام بالنسبة لملايين السنوات التي عاشتها الأرض وليس فيها كائنات عاقلة. إن التاريخ سيضطر المسلمين أن يغيروا فهمهم للقرآن. وعند هذه النقطة فإن المسلمين يقفون من التاريخ موقفاً سلبياً ولا يعترفون بالتاريخ العام، وإنما بتاريخهم فقط، بينما لا يأخذ تاريخهم حجمه الحقيقي سلباً وإيجاباً إلا إذا نُظر إليه من خلال التاريخ العام.

إننا نتعلم ببطء شديد وبمعاناة أشد، نتعلم من بعض ونعترف لبعض. وبالمعاناة نتمكن من إبصار بصيص من النور الخافت.

رحلة التاريخ الإنساني

قبل 65 مليون سنة ضرب الأرضَ مذنبٌ بقطر 10 كم استقر في أمريكا الوسطى بقوة خمسة مليارات قنبلة ذرية من حجم «هيروشيما» أدى إلى انسدال غلاف ذري على سماء الأرض وقاد إلى انقراض الديناصورات. وفي فترة سحيقة في القدم انفجر بركان «كراكاتوا» في إندونيسيا غلف الأفق بدخان غشي الناس بعذاب أليم وانقرض البشر، فلم يبقَ إلا 75 ألف نسمة. وفي عام 1453 زحف الطاعون إلى أوروبا فقضى على نصف السكان. ولم يرتفع عدد سكان الأرض حتى القرون الوسطى عن 300 مليون نسمة، بما يقترب من عدد سكان إندونيسيا حالياً. وفي الحرب العالمية الثانية قُتل في ساحات القتال أكثر من خمسين مليون نسمة، منهم في الجبهة الروسية لوحدها 23 مليون نسمة، وكلفت معركة «ستالينغراد» مليوني ضحية، وفي معركة استسلام «برلين» سلم ثلاثة ملايين نسمة روحهم لملك الموت. وفي عام 1918 اندلع وباء الأنفلونزا من أمريكا فقضى على 600 ألف، ومات من وطأته في العالم ثلاثون مليون نسمة، ولم يكن يعرف الطب شيئاً اسمه الفيروس. وهكذا فهو: {الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}([186]). وعلى الرغم من حمم السماء وبراكين الأرض وطواعين التاريخ وأوبئة الحروب فقد استمر الجنس البشري في متابعة طريقه في الوجود والتكاثر. وبعد أن كان عدد السكان عام 1800 ملياراً فقط، تذهب التوقعات أن يكون عدد سكان الأرض عام 2050 اثني عشر مليار نسمة. وما تدفع الأرحام أكثر مما تبلع القبور. وهنا تبرز ثلاثة أسئلة: إلى أين يمضي الكون؟ هل الوجود البشري مهدد؟ وما هو المخطط البياني للتقدم والانهيار في التاريخ؟ فأما رحلة الكون من منظور فيزيائي كوني فالشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. وأمامها من الحياة خمسة مليارات سنة، وأما الأرض فهي تدور في فلكها منذ 4.6 مليار سنة. وأما الحياة فقد انبثقت قبل 3.8 مليار سنة. ولكن الإنسان لم يدبّ بقدميه إلا قبل ستة ملايين من السنين، حسب أحدث الكشوفات العلمية. وبدأت الثورة الزراعية في جنوب العراق قبل تسعة آلاف سنة. وأما الحضارة فعمرها لا يزيد عن ستة آلاف سنة، ولم نعرف الكهرباء إلا منذ 120 سنة، ولم نطبع كتبنا إلا قبل 500 سنة، وكان نسخ كتاب في بغداد يتطلب شهراً، ومنذ ثلاثين سنة فقط تركنا الورق وبدأنا ننقش في الهواء على ثبج البحر الأخضر الإلكتروني. وأمريكا التي ضربت أفغانستان في خريف 2001 بصواريخ كروز كانت عام 1903 تتعثر على ظهور البغال والحمير وزينة، ويخلق ما لا تعلمون، قبل أن يحقق الأخوان «رايت» أول قفزة في الطيران على ظهر الهواء. والجواب على السؤال الأول أن الكون ماضٍ في وجوده حسب نظرية الانفجار العظيم في تمدد لا

نهاية له، ولا يستطيع أحد الجزم يقيناً هل هو عالم واحد بمائة مليار مجرة؟ أم مجموعة عوالم مثل فقاعات الصابون؟ وعن السؤال الثاني، فبعد أن ملك الاتحاد السوفياتي لوحده ثلاثين ألف رأس نووي و40 مليون طن من المواد الكيماوية من أسلحة الدمار الشامل، وملكت أمريكا ما هو أفظع، هل يمكن أن يتعرض الجنس البشري لضربة ماحقة تنهي وجوده؟ والجواب أن التفكير العلمي يجب أن يبقى مفتوحاً لكل الاحتمالات، فليست مهمته التنظير بقدر قراءة الواقع والتاريخ، فهي مصادر الحقيقة. ويمكن أن تنتهي الحياة الإنسانية بضربة مذنب كما حصل في «شو ميكر» الذي ضرب المشتري. أو بحماقة إنسانية تبدأ بسيطة بالدعوة إلى ضبط النفس كما في أي توتر يحمى بين دولتين مثل الهند وباكستان تتطور بعمل جنرال مجنون إلى ضربات نووية. وكنت يوماً مع طبيب كشميري فسألته عن الوضع فتمنى أن لو كان بيده صاروخ نووي يضرب به الهند. وكما يقول «برتراند راسل» عن حماره في كتاب «هل للإنسان مستقبل؟»، إن تصرفات البشر ليست واعية دوماً، ويمكن أن تحكمها الغرائز البدائية من الخوف والكراهية، وعندما شب الحريق في الزريبة عنده حاولوا إخراج الحمار فأبى حتى دفعوه دفعاً وأنقذوه. كما يمكن أن تكون النهاية بانفجار فيروس من نوع الايبولا، فينتشر في الهواء ويعدي بالطرق التنفسية بحيث تتكدس الجثث في عواصم العالم أجمعين. ولكن ما يجعلني أنزع إلى عكس هذا ثلاث أفكار: أن هناك خطة مبرمجة للوجود، وأن الكون لم يُخلق عبثاً أو باطلاً، وأن هناك معنى لوجود الإنسان. هكذا أتصوّر. كما أن الجنس البشري صمد في كل عاصفة وتابع طريقه. وأما السؤال الثالث والأهم وهو: كيف نرى مخطط التقدم والانهيار في التاريخ؟ هل الجنس البشري يمشي نحو الأفضل؟ أم أنه لا يتغير شيء، فالإنسان كان يقتل بالسيف وهو الآن يفعلها بصواريخ توما هوك؟ أم أنه يتراجع القهقرى؟ وهو موضوع ذو ثلاث زوايا: التكنولوجيا والمؤسسات والإنسان.

ليس هناك أفضل من الطب نموذجاً للتقدم، ففي عام 1496 انفجر مرض «الإفرنجي» ولم يعرف مسببه اللولبية الشاحبة حتى عام 1906 على يد «فريتس شاودين» حينما رآها تحت المجهر. وتوصل «فلمنغ» عام 1928 إلى اكتشاف البنسلين الذي يقضي على المرض كاملاً وفي أي مرحلة. أي أن رحلة «الزهري» أخذت أربعة قرون بين انفجاره ومعرفة سببه. وهو رقم اختُصر مائة مرة في فيروس الإيدز، فقد كُشف المرض عام 1982 وشوهد الفيروس عام 1986 بالمجهر الإلكتروني. وفي الوقت الذي كاد الملك «إدوار السابع» أن يدفع حياته ثمناً لانفجار زائدة دودية في بطنه في حفلة تتويجه على العرش بعد موت الملكة فكتوريا، فإن الطب اليوم يدخل تجويف الصدر فينتزع القلب والرئتين ويزرع بديلاً عنهما في عمل يقترب من المعجزة يقع له أرسطو مغشياً عليه. وهو من اعتقد أن مركز التفكير الفؤاد.

لقد كان القرن العشرين سلسة متواصلة من اختراق الحقول المعرفية في كل ميدان للوصول إلى الأسرار النهائية. هكذا استطاع «أحمد زويل» أن يسحق وحدة الزمن إلى «الفمتو ثانية»، وأصبح البشر يتواصلون بسرعة الضوء، وتمت معرفة تراكيب ما دون جزيئات الذرة من اللبتون والكواركز بعد البروتون والإلكترون، وتم تركيب مضاد المادة مقلوبة الشحنة، وحدّد عمر الكون ب 13,7 مليار سنة، وعُرف تركيب الشمس، ورست الباثفايندر على سطح المريخ، وتطورت مدارس علم النفس تكتشف الأدغال المظلمة في اللاشعور، كما تم الرسو على نواة الخلية واكتشاف الجينوم البشري في مائة ألف جين ويزيدون. ويتمتم «ميشيل ويست» من معهد التكنولوجيا المتقدم للخلايا من «ماسوشوستس» أنه في عام 2099 سوف يصبح عمر الإنسان في يدنا فنمطه كيف نريد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب.

هذا ما كان من تطور التكنولوجيا، وينطبق هذا على «المؤسسات»، فبعد أن كان الحاكم يقتل بيده وعلى بيتٍ من الشعر أصبح القضاء حاجزاً، وحيل بينهم وبين ما يشتهون. وفي الوقت الذي كان المماليك والعثمانيون يضعون المشبوه سياسياً على الخازوق، فإن سليمان الحلبي الذي قتل كليبر سجل عنه المؤرخ المصري الجبرتي وقائع محكمته على يد الفرنسيين في ثلاثين صفحة. وبعد أن كان تكميم الأفواه عادياً، هبطت المعلومات إلى الدشوش الفاغرة أفواهها على جميع البشر من الملأ العلوي من المحطات الفضائية إذ يختصمون. وكسر العلم الجغرافيا، ويتأوّه رجال المخابرات حسرة على ما أنفقوا فيها، فقد انكسرت مراقبة الصناديق البريدية، بعد أن أصبحت تطير من فوق رؤوسهم بأجنحة إلكترونية يحاولون اصطيادها بالمكانس، وتم تحطيم مؤسسة الرق، وتموت مؤسسة الحرب تدريجياً على الرغم من أنف أمريكا.

يقول المؤرخ «توينبي» إن هناك جدلية بين الآلة والفكر، بمعنى أن الجدل الإنساني يقوم على قاعدة أنه يمشي نحو الأفضل دوماً. ولذلك فإن الشرخ الحضاري الحالي بين الشرق والغرب بعد أحداث سبتمبر في أمريكا يخضع لنفس قانون الارتجاج في أي شيء، من ضغط الدم والبورصات وحرارة الجسم وموج البحر، بفارق أن تلك تتأرجح صعوداً وهبوطاً على خط السواء وتحقق قيماً وسطية، فسكّر الدم يتراوح حول مائة ملي غرام في ليتر الدم، وحرارة البدن حول 37 تزيد وتنقص، ولكنها تتأرجح حول هذا المحور. أما التاريخ الإنساني فهو مخطط مائل إلى الأعلى. وإذا كانت العقارب لم تتغير منذ 400 مليون سنة فإن البشر يتغيرون على الساعة، ولكنه مثل وزن الذبابة على حافة سفينة. إنهم يرونه هزيلاً ونراه كبيراً.

واليوم يتقدم «جيفري لانج» في كتابه الجديد بعنوان مثير «حتى الملائكة تسأل» فلقد راهنت على كائن: {يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}([187]). ولكن جواب الله كان مختلفاً: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا

تَعْلَمُونَ}([188]). وإذا كان الإنسان لا يعرف تنظيف نفسه في مرحلة من حياته، فإن الجنس البشري ما زال في طفولته ولم يبدأ عصر الرشد بعد. وكل رحلة الحضارة لا تزيد عن خمسة آلاف سنة، مقابل رحلة البشرية التي بدأت قبل خمسة ملايين من السنين.

الجنس البشري في صورة جديدة ومفاجئة

مع دخول القرن الواحد والعشرين يزيد الجنس البشري عن سبعة مليارات من الأنام؛ فإذا أردنا ضغط هذا الرقم إلى ألف إنسان وتحويل الكرة الأرضية إلى قرية صغيرة، فإننا سوف نفاجأ بطيف جميل للغاية من التنوع الإنساني، بين اللغات والأديان والأعراق والألوان والأعمار والجنس. وسنجد التباين بين المهن والاهتمامات والثقافات والحضارات. إن هذا الوجود الذي نعيش فيه يدعو للتأمل والخشوع، فبقدر ما هو بسيط بقدر ما هو معقّد، وبقدر ما هو منوّع بقدر ما هو موحّد. فالضوء الذي نراه في غاية البساطة، ويتعامل معه الإنسان في كل لحظة، استطاع العالم الفيزيائي إسحق نيوتن أن يكتشف أن طبيعته ليست موحدة، بل هي مزيج من ألوان شتى. ونقلنا هذا الفهم إلى إدراك الكون على أن كل ظاهرة تضم طيفاً من العناصر. ولا يخرج الجنس البشري عن هذه الحقيقة. وهذا يعني أن عيوننا تبصر ولا تبصر. فهي تخطئ أكثر من مرة وهي ترى مزيجاً من الألوان يظهر بشكل أبيض. وهي لا ترى إلا في حيز بعينه، وهو شق بسيط بين أمواج لا تنتهي من قبل ومن بعد. وهنا حصل ما يشبه التناقض في تفكير الناس في تلك الأيام، وهو أن الكون الذي نبصره ليس كل الكون، بل إننا نسبح بين عالمي الغيب والشهادة، فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون. وإذا كان الطيف اللوني يتعرج بكل هذا التنوع، فإن الصوت الذي نسمعه يشكل أيضاً، مثله مثل الروائح ومذاق الأطعمة، حقيقة طيفية أيضاً من حقائق الوجود الكبرى، وهي هنا مشكلة فلسفية كبرى، إذ إن إحساساتنا جعلتنا نقسم الوجود على أساس «الثنائية» (وهو غير صحيح) من أمثال البارد والحار والرطب والجاف، القلوي والحامض والوجود في الواقع. فالبارد لنا هو ليس كذلك، فهناك البرودة المطلقة، وهي درجة كالفن والتي تبلغ 273 تحت الصفر، وترتفع الحرارة لتصل في قلب النجوم عشرة ملايين درجة حرارة، وهي ليست نهاية الحرارة. فداخل بطن النجم حيث تستعر الحرارة تصل إلى مليارين (2000 مليون) درجة حتى يتم إنتاج الحديد من العناصر الأخف، بل قد تصل درجة الحرارة إلى 7 مليارات (7000 مليون) كما أن فكرة الحامض والقلوي هي أيضاً نابعة من إحساساتنا المضلِّلة، وهي ليست في الواقع أكثر من تركيز شوارد الأيدروجين في الوسط. والأذن البشرية تميز اهتزاز الصوت الذي يتراوح بين 16 و20000 هزة في الثانية، فإذا زاد أو نقص لم تسمعه. وتبلغ حساسية الأذن درجة أن تميز بين صوت وصوت فيما لو اختلف بثلاث هزات في الثانية، وبذلك تميز الأذن البشرية ما بين 34 ألف لحن مختلف. كذلك يسبح الوجود بين الذرة والمجرة. ونحن نسبح في الواقع بين العالم الأكبر والعالم الأصغر. وبواسطة تطوير التلسكوب والميكروسكوب بدأنا نبصر «الفيروسات» بتكبير وصل إلى ما يزيد على مائة ألف مرة. ويطمح

الإنسان إلى تطوير المجهر «البروتوني» ليرى الذرة عياناً بعد أن يقفز بالتكبير إلى حوالى مليون مرة، كما تم بالقفز عبر إرسال التلسكوبات خارج الأرضية «تلسكوب هابل»، فيرى مجرات تبعد عنا بحوالي عشرة مليارات سنة ضوئية. وفكرة الطيف هذه تستولي على الروائح أيضاً، فتتشكل من سبعة أصناف أساسية كما كشف عنها العالم آمور عام 1964 وسمّيت بالنظرية الفراغية الكيماوية. وهكذا نستشعر الروائح الأساسية من أثيرية وكافورية ومسكية وزهرية ونعناعية. وبقية الروائح هي مزيج الروائح الأساسية السبع بنسب مختلفة. كذلك الحال في إحساس اللسان المذاق بين الحلو في مقدمة اللسان والمرّ في مؤخرته والحامض والمالح في جوانبه بشبكة من النهايات الذوقية تتجاوز 9 آلاف برعم ذوقي! وهكذا، فظاهرة التنوع والاختلاف في الوجود خاصية أساسية قد بُرمِجَ الكونُ على أساسها. فاللغات والأعراف والثقافات تنبع بشكل حتمي من أصل هذه البرمجة الإلهية: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ... وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ}([189])، فهذه اللفظة الأخيرة هي في غاية الأهمية، ويجب أن ندرك أبعادها ونتأمل معها، فهي اعتبرت أن غاية الوجود الكبرى تقوم على التنوع، أي على الاختلاف وليس النموذج الواحد على التعددية. وعندما نريد جعل البشر جميعاً نسخة واحدة نكون مخالفين للبرمجة الإلهية لهذا الكون. والسر في نعمة الاختلاف هو أن جدلية التنوع والاختلاف تقود إلى ازدهار الحياة وتنوعها وجمالها. فبالاختلاف تعرف الفروق وبالتباين، تتجلى الحقيقة أكثر، وبالجدلية في الاجتماع البشري يتحقق التوازن. لو استطعنا ضغط الجنس البشري في قرية صغيرة بحيث تصغر الكرة الأرضية ستة ملايين مرة فتتحول إلى قرية صغيرة تضم ألف شخص فقط، سوف نرى الجنس البشري في صورة جديدة مفاجئة. ولنبدأ أولاً بالأرقام: أين سيكون معظم الناس؟ يقول الإحصاء إن الألف إنسان سيتوزعون على الخريطة «الديموغرافية» التالية: 584 آسيوياً، 124 أفريقياً، 95 أوروبياً، و84 من أمريكا اللاتينية، و55 سوفيتيا، و52 فقط من أهالي أمريكا الشمالية، وفي النهاية ستة ينتمون إلى أستراليا ونيوزيلندة الجديدة. أهالي هذه القرية التي يعيش فيها ألف إنسان سوف يعانون من صعوبة في التفاهم، فكيف ستتوزع «خريطة اللسان»؟! أكثرها الصيني، فمن أهل القرية سيتكلم 165 لغة الماندارين الصينية، وأقلها كمجموعة اللغة العربية 37، وبينها تتراوح الإنكليزية 86 فرداً، الهندي والأوردو 83، والإسباني 64، والروسي 58. هذه اللغات تخص نصف سكان القرية، ونرى اللغة العربية تسبق الألمانية والفرنسية، فنصف السكان الباقي يتكلمون لغات شتى (بنغالي، برتغالي، إندونيسي، ياباني، ألماني، فرنسي، و200 لغة أخرى متفرقة). أما توزع الأعمار في هذه القرية فمنها 330 طفلاً يلعبون، و60 فرداً فقط فوق الـ65، من العمر يدلفون إلى شيخوخة العمر، «إلا أن نصف الأطفال بكل أسف غير ملقحين ضد الأمراض المعدية مثل الحصبة وشلل الأطفال». تقدر ثروة هذه القرية بحوالى ثلاثة ملايين دولار (الميزانية السنوية)، ولكن كيف تتوزع هذه الثروة بحيث أنها لو قسمت بالعدل للحق كل فرد 3000 آلاف

دولار سنوياً، والواقع يقول إن 200 شخص في هذه القرية يملكون 75 في المائة من ثروتها، وإن 200 شخص يشحذون 2% من الدخل، والبقية للبقية. يا ترى كم عدد الذين يمتلكون سيارة أو أكثر، والذين يدبّون بأقدامهم على الأرض بأحذية أو حفاة؟ فقط 70 شخص تحملهم السيارات، و930 شخصاً يتفرجون! وأما الغذاء والماء النقي فثلث أهل هذه القرية يأكلون ما يقيم أودهم ويشربون الماء الزلال. إذا حذفنا 330 طفلاً يلعبون فيبقى بين أيدينا 670 فرداً يُعتبر نصفهم من الأميين (خريطة التعليم)، وعندما نأتي على الأراضي التابعة لهذه القرية نجد 6000 فدان. هذه الأراضي موزعة بين 700 زراعية، و1400 رعوية، و1900 غابات، و2000 صحارى وسفلتة وتندرا، ومناطق قاحلة. الغابات تتناقص بسرعة (لكل طن من الورق يستهلك شجرة)! والأراضي القاحلة تزداد، وما يوزع في الأسمدة يبلغ 83% تخص 40% من الأراضي الزراعية لإطعام 270 فرداً من أهل القرية المتخمين، أما ال17% الباقية فتذهب للأراضي ال60% الباقية لإطعام 73% من أهل القرية المساكين! أما ميزانية هذه القرية التي تبلغ كما ذكرنا ثلاثة ملايين دولار فإن سقف الإنفاق يذهب إلى التسلح وآلة الحرب (181 ألف دولار). وفي قائمة الإنفاق في القاع تأتي الصحة، حيث تبلغ 132 ألف دولار. من الغريب لأهل هذه القرية أن 100 شخص منها قد دفنوا تحت أرضها من الأسلحة بأشد من علم المجانين من الأسلحة النووية ما يكفي لنقل مصير القرية إلى مصير قوم لوط، وبقية ال900 شخص ينظرون بهلع ورعب إلى مصيرهم المرهون بأيدي المجانين القلة. أما الذين يجلسون على الإنفاق فيرون أن كل حاجات الجنس البشري من الطعام الكافي والماء النظيف والصحة والتعليم والإسكان، بل والزواج، هي في حدود 17 مليار دولار، فيقبضون أيديهم ويرون فيه كمية لا يمكن إنفاقها، إلا أنهم يوقعون بكل سرور على نفس هذه الكمية للتسلح في مدى أسبوعين!

مصير الإنسان... إلى أين؟

جاء في كتاب «الخواطر» للفيلسوف الفرنسي باسكال (Pascal) ما يلي:

«إن الصمت الأبدي الذي يلف هذا الفضاء اللانهائي يخيفني، ولكن هناك لانهائية أخرى هي لانهائية صغر الذرة، وعقلنا يتذبذب في حيرة وارتياع بين الشاسع غير المحدود والدقيق غير المحدود...

إن من يتأمل نفسه على هذا النحو تخيفه نفسه، وإذا أدرك أنه معلق بين هاويتي اللانهائية والعدم ارتعد فرقاً، وبات أميَل إلى تأمل هذه العجائب في صمت منه إلى ارتيادها بغرور، فما هو الإنسان بعد كل هذا في الطبيعة؟ إنه العدم إذا قيس بغير المحدود، وهو كل شيء إذا قيس بالعدم، إنه وسط بين العدم والكل، وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها يلفهما سر لا سبيل إلى استكناهه، وهو عاجز على السواء عن رؤية العدم الذي أُخذ منه واللانهائي الذي يغمره»([190]).

إذا لم نعرف كيف كان الإنسان «قبل» عشرة آلاف سنة، فإن القفز عبر الزمن لرؤية مصير الإنسان «بعد» عشرة آلاف سنة يصبح ضرباً من المستحيل، فالوجود الإنساني في حالة صيرورة وكمّ معرفي تراكمي، ومعرفة البدايات تعطي تصوراً عن تشكل النهايات، ذلك أن المجتمع الإنساني لا يبقى على حال، بل هو في حالة ديناميكية متغيرة متطورة نامية، وما لم يتشكل عندنا «بانوراما» – نظرة شمولية (Panorama) للرحلة الإنسانية عبر التاريخ، ومعرفة المنحنى البياني للصيرورة الإنسانية، فإننا سوف نبقى نوجه أصبع الاتهام تجاه الإنسان، ولا نرى فيه إلا ما رأته الملائكة: أنه كائن مجرم وشقيّ مخرب: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}([191])، ولكن توقع الملائكة هذا يمثل نصف الحقيقة فقط، ولمعرفة بقية الحقيقة للاقتراب من رؤية شمولية ومسح طوبوغرافي للطبيعة الإنسانية، فإن قراءة التاريخ والانثروبولوجيا وعلم الحضارات وقوانين المجتمع، سوف تسعفنا في إلقاء الضوء على فهم المصير الإنساني بشكل مختلف في ضوء جواب الله تعالى للملائكة: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ}([192]).

*****

يا ترى كيف يمكن التوصل إلى معرفة حقيقة عمر الأرض والشمس؟ وكم أصبح للإنسان وهو يدب على ظهر هذا الكوكب؟

يطيب لأفلام الخيال العلمي إظهار الإنسان مع الديناصورات، ولكن هذا الترافق الزمني غير صحيح، كما كشفت عنه الأبحاث العلمية الجديدة، فبعد اختفاء الديناصورات بفترة طويلة ظهر الإنسان، فالديناصورات دبت على الأرض بأطنانها الثقيلة وأدمغتها الصغيرة قبل 570 مليون سنة([193]) واختفت عن وجه اليابسة قبل حوالى 65 مليون سنة، في حين أن بدايات الإنسان ظهرت قبل حوالى «ستة إلى سبعة» ملايين من السنين عددا! وفي هذا الصدد يواجهنا سؤال ملح هو؟؟:

كيف استطاع العلماء تحديد هذه الأشياء وبهذه الأرقام، وليس هناك من أثر تاريخي أو وثيقة تقر على هذه الحقيقة؟ كيف تم استنطاق الوجود وبأية وسيلة تم معرفة عمر وسيرة حياة هذه الكائنات؟ إذا كانت الديناصورات وطأت الأرض بهياكلها العملاقة وأنيابها المرعبة وأدمغتها القاصرة، قبل نصف مليار سنة فكم أصبح للحياة على وجه الأرض؟ سواء وحيدات الخلية، أو عديدات الخلايا، متمثلة في بقية الحيوانات من زواحف وطيور وحيوانات ثديية؟ بل كم أصبح للكون من عمر؟ ومتى تشكلت المجموعة الشمسية؟ ومتى بدأت الحياة على وجه البسيطة؟ وأين تقع الحياة الإنسانية في هذه الرحلة الطويلة؟!!

*****

لابد إذاً من معرفة «الأداة» التي يمكن بواسطتها استنطاق الشجر اليابس والحجر الصلد، النجم اللامع والهيكل الرميم، عن عمره في ما أفناه؟ ومنذ متى غُيّب في أحشاء الثرى؟؟ ف «اللغة» هنا التي تنطق، تختلف في طبيعة أقلامها ومدادها وورقها، والقرآن أشار إلى أعضاء تتكلم ليس في طبيعتها النطق، ويُسكت مَن في طبيعته النطق: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ}([194]). فالفم الذي ينطق يُغلق، وتبدأ اليد بالكلام على طريقة جديدة ولغة مستحدثة لا بد من ترجمتها، وتفسير حركاتها، فالأصابع لا تنطق، ولكن بإمكانها أن تكتب وتشير وتنقر وتعزف وتضغط وتلمس وترسم وتنحت وتشكل، فأمامنا شريحة واسعة من إمكانيات التعبير الجديدة.

و «اللغة» يعبر بواسطتها عادةً إما نطقاً أو كتابةً، وهي الشكل التجريدي الراقي عند بني البشر، ولكن الطبيعة لها لغةُ نطقٍ مختلفة، فهي لا تصوت أو تكتب على طريقتنا، بل على طريقتها الخاصة بها، وما علينا سوى اكتشاف هذه اللغة من واقع الطبيعة. وأشار القرآن إلى

إمكانية أن تتحدث الأرض: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}([195])، إلا أن هذا الحديث ليس تصويتاً بشرياً، بل نطقاً خاصاً بالشجر والحجر، علينا أن نفهمه بعد ترجمته.

وانتبه «غاليلو» سابقاً إلى حديث الطبيعة هذا؛ فاعتبر أن الطبيعة كتبت بلغة خاصة، وهي لغة رياضية، علينا اكتشافها وصياغتها على شكل معادلات. وأصاب غاليلو في حديث الطبيعة التي تتحدث بطريقتها الخاصة، ولكن حديث الطبيعة يبقى حديث الطبيعة الذي تمثل المعادلات تعبيراً غير نهائي عن حقيقته، فالطبيعة هي أكبر من الطب والهندسة والرياضيات والاقتصاد والمعادلات، فلا يمكن قياس العواطف والتجليات الروحية مثلاً بالغرامات أو درجات السلّم الزئبقي، بالسنتمترات المكعبة أو الفهرنهايت على الشكل الذي افترض غاليلو!!

إن عملية استنطاق هذه «اللغة» من الطبيعة هي التي حرمت المؤرخين قديماً من إمكان الغوص في بطن التاريخ لمعرفة كيفية بدء «خلق الأشياء»: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}([196])، بسبب عدم انتباههم إلى إمكانية هذه اللغة الجديدة، إلى درجة أن شراح العهد القديم في أوروبا اعتبروا أن العالم بدأ في العام 4004 قبل الميلاد، وهي التي منحت العلماء اليوم، وبطرق علمية مختلفة، معرفة عمر العناصر المعدنية، والشجرة المعمِّرة، والصخرة الراقدة عبر الأحقاب الجيولوجية، والهياكل العظمية التي حفظتها طبقات الأرض، والمدن التي طواها التاريخ، والحضارات التي انهارت ولفّها ليل الزمن.

ولم تعد الإمكانيات محصورة في تحديد عمر الشجرة فقط من خلال حلقاتها الداخلية، بل حتى قراءة هذه الحلقات على شكل «سيرة ذاتية» (C. V) ومعرفة سنوات الخصب من الجفاف التي مرت خلال حياة الشجرة، فقد كُتبت القصة وحُفظت ووُثِّقت وخُتمت بختم «الواقع» الذي لا يكذب ولا يزوِّر، ولا يحرِّف النصوص أو يؤوّلها؛ فهي وثيقة أكيدة سطرتها يد الزمن كوثيقة أصلية غير مزورة، لذلك كانت طبقات الأرض في حفظها للنصوص التاريخية ووقائعها، أدلُّ على نفسها بنفسها من أي نص كتب عنها مهما كان مصدره، كل ما تحتاجه هو المحاولة الدؤوبة لفك ألغاز هذه اللغة، كما حصل مع حجر رشيد في مصر.

وإذا امتلكنا هذه الأداة سواء من خلال العناصر المشعة في الطبيعة، مثل اليورانيوم أو الراديوم وسواهما، أو الكربون 14 من الشجر، أو الحفريات المختومة مثل البصمات على الحجر وفي طبقات الأرض، أو حلقات الشجر الداخلية، أو تحليل كلس العظام في الهياكل العظمية، أو التحليل الطيفي ل «اللون» القادم من المجرات، كما في ظاهرة «دوبلر والزحزحة الحمراء»([197]) التي طبقها العالم الأمريكي «إدوين هابل» لاكتشاف تباعد المجرات وظاهرة تمدُّد الكون.

كل هذه الأدوات المنوعة يغوص الإنسان بواسطتها مثل أدوات الجراح في قاعة العمليات، ولكن الحقل هنا هو الوجود كله وليس جسم المريض، فيتأمل المجرات بالتلسكوب، والباكتريا بالمجهر، ينبش طبقات الأرض بحثاً عن الهياكل العظمية وبقايا الحفريات، يقلب النظر في مخلفات المدن البائدة والحضارات التي ابتلعتها الأرض، فيصل ليس فقط إلى «عمر» هذه الأشياء، بل إلى تسجيل «موثق» إلى أبعد الحدود، وبدون أي تزوير للقصة الكاملة التي حدثت.

إن بصمات المجرمين ومخلفات الشعر والدم تقود إليهم مهما أقسم أحدهم بالأيمان المغلظة أنه لم يرتكب الجريمة، لأن آثارهم تنطق بشكل حيادي وموضوعي عما حدث، فإمكانية الخطأ بين بصمة وأخرى هي بنسبة واحد إلى 64 مليار، فالخطأ هنا ممتنع، ولعل الآية القرآنية أشارت بشكل خفي إلى هذا السر في تفرد البصمة، من أن البعث سوف يكون كاملاً غير منقوص بما فيها البصمة «البنان» التي هي تفرّد قائم بذاته لكل شخصية إنسانية: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} ([198]). كذلك الحال في «بصمات الحفريات» على الصخر وطبقات الأرض، فلا يمكن أن تضلل.

هكذا استطاع العلماء الذين «مشوا في الأرض» استنطاق الحجر والشجر، النجم وطبقات الأرض، الراديوم والكلس، العظام والدماء، وهذا الاختراق لهذا الفضاء المعرفي هو في حالة زيادة يومية وتراكم معرفي نامٍ، تتفاعل عناصره مع بعضها فتولد عناصر جديدة، وهكذا أمكن الكشف عن هياكل العائلة المالكة الروسية للقيصر نيقولا الثاني الذي غاب في بطن الأرض مع الثورة البلشفية برصاص الشيوعيين الحمر.

*****

وطالما أمكنتنا هذه الأدوات الجديدة من كل هذه المعرفة الغزيرة والمنوعة، فإننا نقترب اليوم من لغز بداية الكون في إطار نظرية «الانفجار العظيم» (Theory Bang Big) التي تفيد ببداية عجائبية خارقة للوجود، بدأت فصولها قبل حوالى 13,7 مليار سنة، من نقطة لم يستطع العلماء إلا اعتبارها أنها لحظة «متفردة»(Singularity) حيث انفجر الكون على صورة كرة نارية هائلة في جزء من «سكستليون» من الثانية، أي واحد مقسوم على عشرة أمامها 36 صفراً، حيث كان الكون كله بما فيه من كل المجرات الحالية، مضغوطاً في حيز أقل من بروتون واحد.. حيث لا زمان أو مكان.. لا طاقة أو مادة.. لا قوانين تنظم الكون، أي غياب كامل لكل مفاهيم الوجود التي نتعامل معها اليوم!! هذا ما تقوله باختصار نظرية الانفجار العظيم التي جاءتها التأكيدات من كشوفات «هابل» في تمدد الكون، ثم الكشف عن «الإشعاع الأساسي» في الكون على يد كل من «آرنو

بنزياس» و «روبرت ويلسون» عام 1965([199]) والتي تمشي معظم الدلائل باتجاه تأكيدها حتى الآن.

وإذا كانت نقطة البداية قد دشنت للكون قبل 15 مليار سنة، فإن مجموعتنا الشمسية التي ننتمي إليها ربما تكون قد بدأت قبل حوالى ثماني مليارات سنة، أما أمنا الأرض فتتأرجح الأرقام عند 5.4 مليار عام. ويبقى السؤال عن الحياة التي باشرت وجودها قبل مليارات السنوات، وكانت الحياة البدائية في صورة وحيدات الخلية التي لا تحتاج للأكسجين، حيث لم يكن في تلك العصور الساحقة وجود للأكسجين في غلاف الكرة الأرضية، وفي مسلسل الحياة هذا تأتي الحياة الإنسانية في قمة الخلق الإلهي، حيث يرجح أن تكون قد بدأت قبل حوالى 2.3 إلى 4.3 أو ربما إلى 10 مليون سنة وفي أفريقيا الساخنة، ربما في شرق الحبشة، على النحو الذي كشف عنه العالم الأمريكي الأنثروبولوجي «دونالد جوهانسون» في نوفمبر عام 1974([200])، في مثلث عفار شرق الحبشة، حيث تم الكشف عن 80% من هيكل عظمي لامرأة تمشي منتصبة، تعود إلى ما يزيد عن ثلاثة ملايين من السنين (هيكل لوسي)، فإذا وضعنا الآن الحياة على شكل كتاب، شكلت الحياة الإنسانية فيه الصفحة الأخيرة من كتاب سماكته ألف صفحة.

*****

بقي الإنسان لفترة طويلة يطارد الوحوش والوحوش تطارده، يأكلها وتفترسه، يعيش على الصيد وجمع الثمار، بدون ذكر في التاريخ، فلا تدوين، فكان خارج التاريخ، ولفترة ملايين السنين، ثم حدث الانعطاف الأول والخطير في تاريخ الإنسان باكتشاف النار والمحافظة عليها متقدة، فصرف خطر الحيوانات عنه، كما استطاع أن يتقدم للعيش في المناطق الباردة، وكان هذا قبل حوالى 900 ألف سنة، وبذلك خرج من أفريقيا في أرجح الأقوال ليعمر القارات كلها، وأما أمريكا فانتشر إليها من أقصى الشمال عبر مضيق بهرنج، الذي كان يصل آلاسكا بآسيا، ولعل شبه أهل الأسكيمو بأهل الشرق الأقصى والصين يوحي بمجيئهم من هناك.

*****

وبقيت فترة الصيد وجمع الثمار واعتماد النار والانتشار في الأرض فترة طويلة من الزمن وبدون أي قفزة نوعية، حتى دشنت المرأة الانعطاف الخطير الثاني بدخول الثورة الزراعية، وكان ذلك قبل حوالى عشرة آلاف سنة، ففي الوقت الذي كان الرجل فيه يركض خلف الصيد على ما خلدته نقوشات الكهوف، انتبهت المرأة للزراعة، ففجرت التاريخ وعطفت مجراه وحققت القفزة النوعية للجنس البشري، وبدخول مرحلة المجتمع الزراعي واستئناس الحيوان تحرر الإنسان ودفعة واحدة من

الموت «جوعاً»، فأطعم من جوع وآمن من خوف وسيطر على إنتاج غذاءه، وبها دخل الإنسان مرحلة المدينة، وانبثاق تقسيم العمل والتخصص فيه، على ما أشار إليه عالم الاجتماع «دركهايم» في كتابه تقسيم العمل، وعلى النحو الذي فهمه ابن خلدون في «المقدمة» من ضرورة المجتمع الإنساني من «الغذاء» الذي لا يمكن تحصيله بدون تعاون التخصصات.

وبتوفير الغذاء ازداد السكان، في صراع مع حصد الأمراض التي كانت تعالج بيد «السحرة» حيث كانت إحدى وظائف الساحر «الطب»، وبدأت التجمعات السكانية الكبرى في التشكل.

وببناء المدن وتخصص فريق الفلاحين بالسيطرة على إنتاج ما يزيد عن حاجة الجماعة، تحولت بقية الفريق الاجتماعي إلى تخصصات مختلفة، وبدأ الإنسان في وضع قدمه في أول طريق الحضارة، فتشكلت المدينة، وولد النظام السياسي الذي احتكر السلاح والعنف، وبدأ الإنسان مع أخيه الإنسان في تشكيل مجتمع المدينة «الآمن»، وبذلك تحرر الإنسان من الخوف من أمرين: فوضى الغابة وعنفها وجوعها، وهو ما أشار إليه القرآن عن نعمه على الإنسان من أنه: {أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}([201]). وهو ما نوّه به ابن خلدون كاعتبار ثانٍ للتجمع الإنساني بعد الغذاء «المدافعة».

*****

ظهرت على وجه الأرض مجموعات إنسانية على شكل مجتمعات بدائية تجاوزت 600 مجتمع، على ما حرَّره المؤرخ البريطاني «توينبي» في كتابه «دراسة التاريخ»، ولكن الحضارة كان عليها الانتظار بضعة آلاف من السنين قبل أن تنبثق، فانطلقت أول حضارة من جنوب العراق الحالي قبل 6000 سنة، لتتلوها 28 حضارة أخرى، في ظروف ما زالت قيد التحليل من قبل فلاسفة التاريخ، منهم «توينبي» الذي أشرنا إليه، والذي رأى في قانون «التحدي والاستجابة» آليةً تفسر بزوغ الحضارات أو بالعكس، انطفاءها، سواء كان التحدي في البيئة أم النفس كما في حضارة «البلوبينيز» مع تحدي «المحيط» أو حضارة جنوب الرافدين والنيل في تنظيم الريّ.

*****

ومع ولادة الحضارة حصل خطأ «كروموزومي» رهيب ذي قرنين أو شعبتين أو مرضين؛ كل منهما يزيد في تفشي القيح عند الآخر؛ هما «الحرب» و «الرق»، الحرب تولّد الرقّ، والرقّ هو القوة العضلية (الآلة في ذلك الوقت) المستخدمة في مزيد من الإنتاج، الذي اعتاد القوة العضلية المباشرة الإنسانية أو الحيوانية.

ولعل أفظع مرضين أصيب بهما الجنس البشري في تاريخه كانا «الحرب» و «الرق» لأنه بالحرب يدمّر وجود الإنسان بالكامل، وبالرقّ يمسحه من عالم البشر المعنوي، فهو ميتة من نوع جديد، فيُقتل مادياً ومعنوياً بالمرضين...

ومن هنا نفهم أيضاً النتيجة المباشرة لتفشي مرض «قوة العضلات» (العجول الآدمية) على وضع «المرأة»؛ فطالما كانت المرأة لا تمتلك «العضلات» فإن المجتمع تعرض لاختلال فظيع، بغياب المرأة عن التوجيه المشترك مع الرجل، فوقع المجتمع تحت سيطرة الذكور فقط، ونمت المؤسسات العسكرية، التي هي ذكورية بالدرجة الأولى، فكان اندلاع الحروب تحصيلَ حاصلٍ، فالحرب هي عملية ذكورية كاملة في التخطيط والقيادة والتنفيذ، بل والموت في النهاية! فالذكور يخوضونها بكل ضراوة ويموتون في ساحاتها، في حين أن الأنثى لا تشارك في هذه المذبحة الجماعية، بل تحافظ على الحياة، وتتجب الحياة ولا تموت في حمامات الدم المرعبة هذه، فهي خزان الحياة المتجدّد وينبوع الحب المتدفق، وبترسيخ الثقافة العسكرية «الإسبرطية» تم تحويل وتشويه كامل للثقافة الإنسانية باستلاب الإنسان من أهم عناصر إنسانيته، بشلّ روح المبادرة والبعد الفردي والاستقلالية، وتحويل المجموع إلى كتلة لحمية مضغوطة تعمل كالمطرقة ولا تناقش، وتحويل تيار الثقافة بكامله في الفنون والأدب والجمال وسواه، ليصب في تيار اتجاه تكريس ثقافة البطولة و «العنترية»، وهي كارثة إنسانية عامة، عانت وما زالت تعاني منها كل شعوب الأرض، ووضع لها محمد (ص) حلاً: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

*****

وقبل خمسة آلاف سنة حصل انعطاف ثالث لا يقل في وزنه وثقله عن الانعطافين السابقين باختراع الكتابة، فبواسطة الحرف والكلمة أمكن حبس المعنى ورسمه في الأوراق وشبهها، وبذلك أمكن وللمرة الأولى في التاريخ الإنساني «حفظ» الذاكرة الإنسانية، وبدأ تيار التراكم المعرفي وثورة المعلومات، ولعل فواتح السور من الحروف المكررة من «ألف ولام وميم وعين وصاد» والتي اختلف فيها المفسرون على مذاهب شتى وما زالت أحد أسرار القرآن، أقول لعل أحد تفسيراتها هي إشارتها

إلى هذه الثورة الخطيرة في العقل والتاريخ الإنساني، فالإنسان قبل «الكتابة» كان يتفاهم بالنطق والتصويت، ولكن حصيلة التجربة الإنسانية كانت تموت مع كل جيل فلا تُحفظ، تماماً كما لو تصوّرنا أن خلايا الدماغ تتكاثر وتموت كما يحصل مع الكريات الحمر في الدم، والتي تتبدّل كل 120 يوماً؛ فتتكسّر لتعطي حمضاً يذيب دهن الطعام، ويلوّن بعد ذلك فضلات الأمعاء الخارجة، ذلك أن خلايا الدماغ هي من عمر الإنسان تولد معه برقم محدد وتبقى معه وترافقه إلى رحلة القبر الأخيرة، فهي تخزّن المعلومات وتبني الذاكرة، تنمي الخبرة وتصقل المواهب، تشحذ القدرات الفنية، وهي بعد هذا مركز الإبداع وتجلي الشخصية، ولو تبدّلت وأعيدت صناعتها كما هو الحال مع باقي خلايا الجسم إذاً لكان على الإنسان أن يتعلم اللغة كل بضعة أشهر من جديد.

هذا الشيء كان يحدث مع الإنسان عبر التاريخ، كما لو كان الجنس البشري بدون دماغ وخلايا عصبية، وباختراع الكتابة تشكلت الخلايا العصبية الحافظة والدماغ الرائع للجنس البشري، الذي يحفظ الخبرات والذاكرة البشرية والتراكم المعرفي طبقة فوق طبقة.

*****

وبين القرن السابع والرابع عشر للميلاد تم تطوير الفكر بشكل نوعي على يد المسلمين الذين ودّعوا الفكر اليوناني، ليولِّدوا –بدفع من روح القرآن– المنهج الاستقرائي التجريبي، وروح البحث الواقعي واعتماد التجربة، لتتخمر بعد ذلك بعد نقلها في إيطاليا، لتفجر بعدها روح النهضة الجديدة في أوروبا، ومع تطوير الطباعة قبل 500 سنة بدأ العقل يتحرر، وتم ربط العالم ببعضه من خلال قوة البخار التي استخدمت قبل 200 سنة، ليتلوَها تسخير الكهرباء قبل 120 سنة، وأما الاستعمال السلمي للذرة فتم قبل 30 عاماً فقط، وكل إنجازات الجنس البشري الرائعة من الطب الحديث وجراحة الأوعية والمناظير والتخدير والإلكترونيات والبريد والفاكس والطيران والإنترنت، كله تم تطويره بعد الحرب العالمية الثانية.

*****

كذلك حصل انفجار سكاني بتسارع لم يعهده الجنس البشري من قبل، خاصة بعد ارتفاع المستوى الصحي، فالجنس البشري بين محطات عام 1800 – 1930 – 1960 – 1975 – 1988 قفز من مليار واحد إلى خمسة مليارات، وربما يصل العدد إلى 120 ملياراً مع نهاية القرن 21!

عندها ستتحقق نبوءة جول فيرن عن الغواصة ناوتيلوس، والكابتن نيمو، والمدينة في قاع البحر، كما عرض في فيلم عشرين ألف فرسخ تحت الماء، حيث تسخر إمكانات البحر لإيواء وإطعام المليارات المتدفقة من البشر.

وفي الوقت الراهن فإن الأرحام تدفع مع كل شروق شمس إلى الحياة ب 270 ألف إنسان، في حين تبلع القبور مع كل غروب شمس 140 ألف إنسان، فيزداد البشر كل 24 ساعة 130 ألف إنسان جديد ضيوفاً على الكرة الأرضية.

*****

وأما رحلة القوة عبر التاريخ والصراع المسلح، فكانت كل دورة تمضي أشد هولاً في إيقاعها من التي قبلها، في دورات جنونية من التخريب المتكرر للجهد الإنساني، والتدمير المعاد للمدن والدول والحضارات، حتى حصل الانعطاف السادس في مسار عشق القوة، بعد اكتشاف النار والثورة الزراعية ودخول الحضارة واختراع الكتابة والثورة الصناعية، ولعل الانعطاف الأخير الأخطر من نوعه، باعتبار توقف مصير الجنس البشري عليه، والمثير فيه أنه أفضى إلى عكس ما أراد أصحابه، وكان ذلك في الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم 16 تموز يوليو من عام 1945 في تجربة السلاح الذري الانشطاري الأول (قنبلة البلوتونيوم)، حيث وضع الإنسان يده هذه المرة على وقود المجرات، ولمس جدار جهنم الصاعق، وأدرك أن هناك انقلاباً نوعياً في مفهوم القوة، وهي حزمة من الأفكار التالية:

الأولى: لم يبقَ غالب ومغلوب في هذه الحرب بعد اليوم، ولن يدخل أحد الحرب وهو يعلم أنها انتحار جماعي.

الثانية: لن تحل المشكلات بعد اليوم بالقوة المسلحة، فهذا هو المنطق الجديد، منطق العصر النووي، وبالتالي وجب على الإنسان كما ودّع هراوة الغابة أن يودّع عقلية الغابة.

الثالثة: كانت بنفس الوقت إعلاناً غير مباشر ودعوة مبطنة إلى عودة الإنسان إلى إنسانيته، فوجب أن يودّع المواجهة والصراع والدماء والصدام، ويدخل العهد الجديد، ويعتاد اللغة الجديدة: الحوار وامتزاج الثقافات والتفاهم وتكوين الثقافة السلمية وتوديع روح العنف والبطولة الفارغة.

الرابعة: تحولت الكرة الأرضية إلى قرية صغيرة يرى الناس بعضهم ويتخاطبون بسرعة الضوء، ويتحركون بأسرع من الصوت، فهم قفزوا فوق ثقل الجسد ليلتحقوا بخفة الروح ونبض الأفكار.

الخامسة: النزاعات المسلحة اليوم وتكديس «خردة» السلاح هي بضاعة المتخلفين عقلياً، والذين لا يملكون «المعرفة» ونواتجها من التكنولوجيا، أو يعرفونها بدون فائدة منها.

واستعراض سريع لبؤر النزاع المسلح في العالم يرينا أن عالم الكبار «لا يتقاتل» والذي يتقاتل هم دول الأطراف المتخلفة فقط، أو لتأديب المتخلفين أو من تخلف عقله ولو كان في البيت الأبيض بعقل أسود...

السادسة: من يتقاتل من هذه الدول الهزيلة لا يملك مصيراً ومخرجاً للقتال، بل خاتمته متوقفة مرة أخرى على دول المركز التي تملك المعرفة والتكنولوجيا والمال. فمن ينطلق في شراء السلاح وتكديسه يكون كمن ارتُهن لعالم الكبار وباع قضيته إليهم.

السابعة: يتحول العالم تدريجياً إلى شريحتين:

شريحة من يفهم، وشريحة من لا يعقل، كما يتشكل العالم إلى طبقتين مسخِّرة (بالكسر) ومسخَّرة (بالفتح)، مستكبِرين ومستضعَفين على حدّ تعبير القرآن، من يملك «البرستيج» (Prestige = الوجاهة والنفوذ) ويأكل 80% من خيرات العالم، ومن يشكل كعدد 80% من سكان العالم ولكنه يحظى بأقل من 20% من خيراته. ويشكل العالم الإسلامي اليوم مركز الثقل فيه، فيجب أن نعي هذه الحقيقة المرّة من أجل تغييرها، بتغيير ما بنفوسنا أولاً.

الثامنة: تعلم شريحة «المستكبرين» في العالم علم اليقين أن زمن القوة انقضى وولى، وأن هذه الأسلحة هي الأصنام الجديدة، التي لا تضر ولا تنفع، وهم «سحرتها». وما نحتاجه هو توحيد محمد بن عبد الله (ص) كي يبطل السحر الجديد.

التاسعة: قد تتغبش هذه الرؤية عند البعض بمذابح راوندا، وقتال الشيشان، وقذائف مدافع الأفغان والبوسنة والعراق ثم لاحقا في الثورة الليبية عام 2011م، ولكن العالم الذي نعيش فيه هو عالم النور والكهرباء والكمبيوتر وجراحة الجينات والسلام، بالطبع ما زال بعض الناس يعيشون على فتيل المصباح والعدّ باليدين والكيّ واستخدام هراوة الغابة، ولكن العبرة بخواتم الأعمال وآخر الفتوحات العلمية، فإذا أصرّ المرء على ركوب الدواب والعد بالأصابع بدل استخدام الكمبيوتر تحول إلى عالم المسخَّرات (بالفتح).

*****

يقدّر عالم الفيزياء الكونية «ستيفن هوكينج» في كتابه «قصة قصيرة للزمان» أن الشمس استهلكت من وقودها حوالى النصف، وأن أمام الشمس في إطلاق النور والحرارة ما يزيد عن خمسة مليارات من السنين!

فإذا كانت الحضارة الإنسانية بدأت قبل ستة آلاف سنة فقط، والثورة الزراعية قبل تسعة آلاف، وأفضل إنجازات الجنس البشري تمّت في مدى الخمسين سنة الفائتة، فماذا ينتظر الإنسان في مدى مائة عام القادمة فضلاً عن الآلاف أو الملايين، كيف سيكون الإنسان بعد عشرة آلاف سنة يا ترى؟ خاصة وأن العلم يمشي بشكل متسارع.

قد نصاب بالحزن في اكتشاف أن التاريخ الفعلي للإنسان لم يبدأ بعد، وأننا ولدنا مبكرين للغاية، وحُرمنا من الرؤية المتألقة لعلم الله الذي سيتحقق فينا بعد حين: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} ([202]).

الخيار الصعب بين الغابة والدولة (1)

(مسار العنف أنثروبولوجياً وفلسفة ولادة الدولة)

رأى الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» (Russel Bertrand) في كتابه «السلطان» (The Power) أن جذر المشكلة الإنسانية هي في التناقض الصعب بين فردية يحافظ عليها الإنسان ولكنه يعيش ضمن مجتمع؛ فالنحل والإنسان يعيش كلاهما اجتماعياً. النحلة تتفاهم مع الأخرى برقصة محدودة، والبشر يتفاهمون باللغة.

النحل ينسى فرديته في الخلية، والإنسان يحافظ على فرديته ضمن الحشد. النحل باعتماده الرقصة كنظام لغوي مغلق، وذوبان فرديته، يكرّر إنتاج نوعه بدون تطوّر؛ فمجتمعات النحل والنمل لم تحقّق أي قفزة تطورية منذ مليون سنة، والمجتمع الإنساني الذي يعتمد اللغة كنظام مفتوح، ويحافظ الإنسان على فرديته ضمن القطيع يكتب لنفسه التطور (Development)، والتغير نحو الأحسن في رحلة لا تعرف التوقف.

جذر المشكلة الإنسانية

جذر المشكلة في المجتمع الإنساني عن مجتمع النحل أن الفرد يعيش في الجماعة وكأنه ليس منها بالمحافظة على الفردية، والنحلة تنسى نفسها وتذوب فرديتها، ومن هنا تنشأ المتاعب في المجتمع الإنساني، وعند هذه النقطة المحيّرة انعكست عبقرية الأفراد على تطوّر المجتمع، فالمجتمع يدين بتغيّره الدائم إلى تمرّد الأفراد وشذوذهم العبقري ولكن مخاضاً من هذا النوع ترافق مع الدم والعنف !

ولادة الإنسان الرحمية نازفة، ولكن هل تطوّر الإنسان يجب أن يُرسم بخطوط دموية؟ إن نظرية أنثروبولوجية لقراءة مسيرة الإنسان وفلسفة ولادة الدولة هامّة لإلقاء الضوء على قصة من هذا الحجم المثير: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}([203]). لنحاول فهم كيف تم خلق الدولة وولادتها في التاريخ؟ ولماذا دشّنت الحروب؟

بزوغ فجر الدولة

اعتمد الإنسان الأول طريقة التعامل مع «الفريسة» على مبدأ المطاردة والقتل؛ ثم انتقل بتطبيق هذه الطريقة على أخيه الإنسان، فبدأت «الحرب» عملياً، واستدعت تأسيس «مؤسساتها» الذكورية لاحقاً، ببناء أجهزة خرافية للجيوش والأمن والأسلحة.

كان بناء الدولة أحد الخيارات الصعبة أمام الإنسان، فعندما شقّ طريقه إلى «الثورة الزراعية» تحرّر من الخوف من الموت جوعاً، بتحقيق فائض الغذاء، وهذا دفع البشر إلى التجمع أكثر وبناء المدينة، ونشوء التخصصات، وبزوغ فجر الدولة؛ فلم يعد هناك حاجة أن يعمل الجميع في ركض متواصل طوال النهار لقنص فريسة أو اصطياد سمكة.

هذا الحنين إلى الصيد الذي مارسناه في الطفولة، هو من بقايا الذاكرة الجماعية القديمة لمجتمع الصيد، والحرب هي من مخلفات ذلك العهد أيضاً.

كانت الدولة في أحد حدّيها جيدة؛ فمن «داخلها» حرَّرت البشر من الخوف من بعضهم، باحتكار العنف ضمن حدود هذه الدولة في يد السلطة أياً كان شكلها، على ما شرحه أرسطو قديماً في كتابه «السياسة»، ولكنها أفرزت أمرين كريهين: طغيان الدولة، وبرمجة الحروب مع الكائنات التي تشبهها، أي الدول الأخرى.

تستطيع الدولة ضبط الأفراد ولجمهم وحلّ مشاكلهم، ولو تطلب ذلك التدخل المسلّح وسفك الدم وإزهاق الأرواح، وهو ليس كذلك في صراع الدول.

توقف صراع الأفراد واستمرار حرب الدول

إذا كانت قصة «ولدَي آدم» في القرآن قد أعطتنا نموذجاً دموياً من جهة عندما أجهز أحد الأخوين على الآخر: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ}([204])، لمجرد أن الآخر نجح في عمله، فانتقم الفاشل بتدمير الناجح. كذلك كان النموذج مشرقاً حين عرضت القصة نموذجاً جديداً لإدارة الصراع الإنساني بتحمّل الألم بدون الردّ عليه، بما فيه الوصول إلى درجة استقبال الموت.

قصة «ابن آدم» ترميز بالغ مثير للضمير، أن الشهيد أعلن عن موقفه بصراحة أنه غير مستعد أن يقتل لكنه مستعد أن يموت مقتولاً، في مراهنة عجيبة من نوعها كسب فيها الرهان بعد موته، حين ندم القاتل واعترف بخطئه؛ فتبنى موقف أخيه المقتول، وبذلك كانت بذرة الشهادة حية لا تموت كما جاء ذلك في القرآن: {بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}([205]). هذا الأسلوب يراهن على آلية نفسية خفية هامة لا نتفطن إليها في الصراع، فنحن نعتبر خصمنا شيطاناً رجيماً، وليس إنساناً يمكن أن يستيقظ عنده الضمير، بأسلوب تضحية من هذا النوع.

الأسلوب السلامي رخيص التكاليف لو تفطّنا إليه، ولا يعني أنه لا يوجد معاناة، أو أن الطريق مريح ولا يحتاج لتدريب، ولكنه طريق اقتصادي ونفعي للغاية، ويحتاج إلى تدريب كما في الثكنات العسكرية، ولكنه تدريب بدون أسلحة ودماء؛ بل تدريب الإرادة أن تلجم الغريزة إلى أبعد الحدود، وتنشيط الضمير لعدم الحقد على الخصم، مع الاستعدادات المختلفة لحماية البدن، في حالة توجيه أذية إلى الرأس أو المناطق الخطيرة من الجسم، كما فعل غاندي في تدريب أتباعه على مواجهة الخيل المهاجمة، أو في ضرب العصي على الرأس، ولكن ميزته أن الأطراف المتصارعة تولد منه بدون حذف أحد الطرفين، في تعانق أخويّ حبيّ، ويتوقف الصراع بدون حقد، بهامش يتسع للجميع، واعتراف متبادل صحي بين الطرفين. الصراع الدموي يقوم على إلغاء أحد الطرفين الآخر بضربة كلية ماسحة شاملة، بكل ذيولها النفسية المرضية.

هذا الموقف الرائع بين الأفراد لم يطبق بكل أسف في صراع الدول، حتى تلك التي تدين بنفس الثقافة والدين، ورأينا ذلك في صراع دول المنطقة من نماذج شتى، أو حين انجراف البلد الواحد إلى تفجره بالحرب الأهلية.

الذي حدث بين الدول أنها لم تتبنَّ موقف ابن آدم المقتول؛ فنشبت الحروب ولم تتوقف إلا بتطور السلاح النووي ودخول العصر الذرّي، حينما أدركت الدول أن خوض الحروب غير رابح إطلاقاً.

الفيلسوف «كانط» (Kant) يرسم تصميماً للسلام الدائم

الجدلية الصعبة والتحدي الأعظم حتى اليوم هو في رسم علاقات الدول. الدولة تستطيع ضبط الأفراد ضمن حدودها، ولكن من يضبط الدول في علاقاتها مع بعض؟

معضلة صدام الدول الذي لا يعرف التوقف تحت دعوى السيادة عالجه الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانط» (Kant Imanuel) في كتابه «نحو السلام الدائم» (Frieden Ewigen Zum) في القرن الثامن عشر، وصمّم نموذجاً بدائياً «لجمعية الأمم المتحدة»، ولكنها فكرة احتاجت قرنين حتى استوَت، وشعرت جميع دول الأرض بأهمية بناء مؤسسة دولية تتدخل في نزاعات الدول، تمهيداً لبناء دولة كونية عادلة، تمنح العدل للجنس البشري، وتلغي الحرب، وتلجم صناعة السلاح، وتوقف المجاعة، وتشكل جيشاً صغيراً جيد التدريب، سريع الحركة، للجم العنف في أي مكان على ظهر الأرض. فالعنف سوف يستمر بين البشر بقدر انخفاض مستوى ثقافتهم، وكذلك عدد السكان بدون روح مسؤولية تجاه مستقبلهم.

ارتفاع مستوى الثقافة والرفاهية سوف يتدخل في لجم معدل الولادات وتنظيمها، وارتفاع مستوى الثقافة سوف يلجم آليات العنف، بسبب العلاقة العكسية بين القوة والفكر.

سجلت الإحصائيات الديموغرافية للانفجار السكاني في العالم انكساراً ملحوظاً للمرة الأولى في تاريخ الجنس البشري، فحسب الإحصاءات التي نشرتها مجلة «در شبيغل» الألمانية في مطلع عام 1998، العدد 4، في 19 يناير (كانون الثاني)، تبين أنه بين عامي 1980 و1995 انقلبت الأرقام في عدد أفراد العائلة في «سوريا» مثلاً من متوسط العدد 7,4 أفراد للعائلة الواحدة إلى 4,7 أفراد، وفي الهند من 4,5 إلى 3,4، وفي تركيا من 4,4 إلى 3,4.

نفس الشيء يحصل الآن في انقلاب المفاهيم تجاه مؤسسة الحرب، فتحولت، كما قال قديماً الشاعر العربي امرؤ القيس، من فتاة مغرية إلى عجوز شمطاء مكروهة للشم والتقبيل.

كانت حكمة الشاعر العربي كونية اختراقية للمستقبل، صيغت بألفاظ الأدب، ولكنها تحمل كل عمق الفلسفة، وتنبّؤات المستقبل، وحمل الإنسان إلى شاطئ السلم مكرهاً على جناحي العلم.

العقل يعمل بغير طريقة العضلات، وفتح باب مغلق بذكاء لا يحتاج أكثر من سلك، ولكن العنف يمكن أن يفتحه بتحطيمه.

لم يكن التحطيم يوماً فتحاً بحال.....

بين فوضى الغابة وطغيان الدولة!!

كان الخيار صعباً أمام مجتمع المدينة بين فوضى الغابة وطغيان الدولة.

إذا كانت وظيفة الدولة تحرير الأفراد من طغيان بعضهم على بعض، وجعلهم يتمتعون بالحياة بالقفز إلى مجتمع الحضارة، فإنها وظيفة خطيرة في يد السلطة تصل إلى درجة الإلوهية، واستعباد رقاب البشر، لذا جاء الأنبياء في التاريخ لتحرير البشر من كل أنواع العبوديات، بما فيها طغيان الدولة.

جرعة «العنف» في الدولة والحجم «المكافئ» من مؤسسات «الأمن الداخلي» جعل الدولة رحمةً للعالمين، وبقدر كثافة جرعة العنف ضد الأفراد داخلياً، تتحول الحياة إلى جحيمٍ لا يطاق، يحرض الأفراد على الهرب منها، بالهجرة لمجتمع آخر كما نرى في زحف عشرات الملايين من اللاجئين السياسيين في العالم اليوم، أو تفضيل الرجوع إلى حياة الغابة، وفي قصة «أصحاب الكهف» نموذج لهذا الهرب والخلاص الفردي.

إذا استطاع الذكاء والجهد الإنساني أن يحول طغيان الدولة مع الوقت إلى حكومات شعبية شوروية، فإن المراهنة أن ينجح الإنسان في بناء مجتمع كوني يُحترم فيه كل الناس بغضّ النظر عن الجنس واللغة واللون والعرق والانتماء الثقافي، وبها تختم مرحلة من التاريخ الإنساني، يتضوّر فيها البعض من الجوع، ويعاني فريق من التخمة وزيادة الوزن، بتأميم الحرب والمجاعة إلى غير عودة.

نحو إلغاء حق الفيتو

الدولة القُطرية ب «احتكارها العنف» حققت الأمن داخلياً بإيقاف النزاع بين الأفراد. والدولة العالمية ستقوم بنفس الدور بإلغاء الصراع المسلّح بين الدول، في وظيفة «دولة» للدول في تحقيق إنساني لنشر السلام عالمياً، وهو هدف بدأ الجنس البشري بالاقتراب منه، في تدشين المنظمات الكونية مثل جمعية الأمم المتحدة واليونسكو ونظام البريد العالمي.

وفي ما يتعلق بمجلس الأمن وحق الفيتو فيه فهو يمثل خللاً كونياً في تحقيق العدل العالمي، وولادة مشوهة للعالم كنتاج للحرب العالمية الثانية، وبناء العالم على أساس طبقي وعلاقات القوة، عندما وضع مصير العالم في يد خمس دول تحتكر القرارات المصيرية إنفاذاً وتعضيلاً.

لم يطلب أحد في العالم بإلغاء هذا الحق، الذي ليس بحق، إلا دول عدم الانحياز، واليوم تحاول بعض الدول بعد أن فاحت رائحة العفن من مقاعده الراكدة، أن تلجأ إلى حل المشكلة بظلم أعظم، عندما تحرص على توسيع حلقة القوة، بنقلها من خمس أيادٍ إلى سبع، بإضافة كرسيين جديدين إلى نادي مالكي القوة في العالم، بإدخال خصوم الماضي اليابان وألمانيا إليه.

العدل لن يحلّ بإضافة كراسٍ جديدة إلى هذه الحفلة الهزلية بل إلغاء الحفلة كلها، ليس بإضافة كراسٍ جديدة؛ بل إلغاء كل الكراسي، وإقفال بوابة هذا النادي الظالم، والبدء برسم خارطة جديدة لقدر الإنسانية وإرساء العدل الكوني؛ فلا يعقل أن يكون بلد مثل الهند بمليار من البشر، لا يوازي خمسين مليوناً من البريطانيين، يجلسون على كرسي دائم في مجلس الأمن، كما لن يُحل الإشكال بإضافة دولة وحذف أخرى، بموجب علاقات القوة وامتلاك البوارج وحاملات الطائرات.

لا بد من تعديل الصيغة الكونية، وبناء العالم على أساس جديد، خالٍ من محاور القوة والاستكبار والاستضعاف.

الفلسفة والشعر والعلم

كانت أبيات الشاعر العربي القديم موجزة جميلة معبرة عن جدلية الحرب؛ فبقدر حماس الناس وتصفيقهم لها بدايةً؛ بقدر ظهور قباحتها وبشاعتها لاحقاً.

إنها كالفتاة رائعة الجمال، أو هكذا تبدو في البدء، لينكشف الغطاء وتذوب مساحيق التجميل، ويتساقط الشعر المستعار، ويظهر كل شيء على حقيقته.

هذه هي حقيقة الحرب معبَّراً عنها بلغة الشعر:

أول ما تكون الحرب فتيةٌ تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا حميت وشب ضرامها غدت عجوزاً غير ذات حليل

شمطاء جزت شعرها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

لقد سبق الشاعر اختراقات العلم أكثر من ألف عام، ومن يريد فهم العالم برؤية السيف وعقلية الفتوحات ينقلب إلى الخلف ألف عام.

الخيار الصعب بين الغابة والدولة (2)

(مسار العنف أنثروبولوجياً وفلسفة ولادة الدولة)

مؤسسة الحرب رؤية تاريخية

علاقات الدول قديماً لم تكن تعرف سوى الحرب وسيلة للتفاهم؛ فالحرب كمؤسسة قديمة أدّت دورها بشيء من النجاح، كما ذكر ذلك المؤرخ البريطاني «توينبي»، وكان يمكن للإنسان لو أحسنت ثقافته أن يشق الطريق إلى «مجتمع بلا حرب إطلاقاً» ، وهذه ليست أمنية ولا خيالات طالما كان الإنسان كائناً ثقافياً.

كانت مؤسسة الحرب تفرز أمرين هامين: الآلة العضلية (الرقيق)، و(الغنائم) بالاستيلاء على أراضي واقتصاد الآخرين. ولكنه حمل رد الفعل المضاد، باندلاع الحرب والبرمجة لها والاستعداد الدائم لها، وتأسيس الجيوش المجيشة والكائنات الأمنية الخرافية، والتطوير الدائم لآلة الحرب وتعهدها وتفقدها باستمرار، وقصة دولة آشور التاريخية «ذات الذراع البطاشة» التي ماتت «مختنقة» كما وصفها المؤرخ البريطاني «توينبي» في كتابه «مختصر دراسة التاريخ» «مثل الجثة في الدرع» تعتبر نموذجاً رهيباً لهذا. فهذا سياق تاريخي وقدر لا مفر منه، ومنه نفهم المعنى التاريخي في القرآن بالاستعداد للقتال «وأعدوا لهم». فهذا سياق كوني لم يكن الفرار منه ممكناً، ومنه يشع أيضاً معنى «الجيوبوليتيك» (Geopolitic) في الفرق بين معركتي «مؤتة» و «تبوك» في مطلع التاريخ الإسلامي، لماذا اصطدمت القوة العسكرية الإسلامية في «مؤتة» بمواجهة مسلحة مباشرة مع القوة الرومانية، عندما دخلت أراضي الدولة الرومانية، ولم يكن كذلك في تبوك.

الحرب قديماً كانت تؤدي دور الصيد للأفراد، واليوم تحول الصيد الفردي للتسلية، والحرب اليوم تمضي في مصير الصيد القديم، وستُعرض الأسلحة في المتاحف كما نتأمل صنارة الصيد اليوم؛ بفارق أنها كانت أدواتٍ لإبادة الجنس الإنسان، ولم تكن للغذاء. القتل للقتل فقط، على نحو غير مفهوم، غير مبرر، لاعقلاني جداً.

فيرنر هايزنبرغ: متى كانت الحرب عقلانية؟

قبل اندلاع الحرب الكونية الأخيرة كان العالم الفيزيائي «فيرنر هايزنبرغ» في زيارة لصديقه الإيطالي «إنريكو فيرمي»، سأله عن احتمالات الحرب فأجاب: ستخسر ألمانيا الحرب، لأنها تقاد تكنولوجياً، ولا طاقة لألمانيا بإعدائها، فهذه حقيقة أولى. والثانية أن هتلر يعرف هذا، وأتمنى أن يستوعب هذه الحقيقة، ولكن يا صديقي متى كانت الحرب عقلانية؟. وعند سؤاله: «وهل سترجع إلى ألمانيا؟ وأنت ترى سحب الحرب قادمة، وأنت في أمان هنا في أمريكا، وتستطيع البقاء والنجاة بالسلامة الشخصية «كانت الزيارة في آب (أغسطس) قبل اندلاع الحرب بشهر واحد». كان جوابه: عندما ينشأ الإنسان في وسط ثقافي حتى سن معينة يصبح أفضل وسط يؤثر ويتأثر منه؛ فيصبح قدراً اجتماعياً مرسوماً للإنسان، نعم، سأرجع إلى ألمانيا! وعندما تنتهي الحرب وتنهدم المدن الألمانية سأبني معاهدها العلمية بجيل جديد من الشباب، ودع الحرب وروحها والسيف والرمح، وارجع إلى القرطاس والقلم والفكر والتطبيقات العلمية.

جمهورية من الصراصير والعقارب والأعشاب!

إذا كانت الحرب قد أفرزت نظام «الرق» و «الاستيلاء على أراضي الآخرين» بالقوة المسلحة كإغراء لشن الحروب؛ فاليوم تحولت الحرب إلى رهان خاسر، وانتحار مطبق، وكائن خرافي يهدد وجود الجنس البشري بالإبادة، وكوكب الأرض بالتلوث، وشتاء نووي إلى عشرة آلاف سنة، بحيث تسود البسيطة جمهورية من العقارب والصراصير والأعشاب.

إذا كانت الديناصورات قد عاشت قبل 225 مليون سنة واختفت بالكامل قبل 65 مليون سنة، فاحتمالات الفناء للجنس البشري قائمة أيضاً إذا ارتكب حماقة، أو حدث خطأ غير قابل للإصلاح، فلقد صدر أكثر من كتاب عن «احتمالات نهاية الكون»، في تسرب فيروس قاتل، أو ال «أنثراكس» أو الطاعون، أو خطأ نووي، أو ارتطام الأرض بمذنب طائش.

قديماً كان الطاعون يجتاح العواصم فيفني أكثر من نصف المدن، ويترك الإمبراطوريات قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وبفعل الاتصالات الكونية الكثيفة اليوم وسرعة انتقال البشر بين القارات؛ فإن اندلاع طواعين حديثة يصعِّد الخطر إلى ما لا نهاية.

كتابة التاريخ باللون الأحمر

ثقافة «ابن آدم» القاتل وأسلوب «لأقتلنّك» تورط فيهما الجنس البشري كأسلوب تم اعتماده وإعادة إنتاجه بدون توقف، فنشأ إنسان مشوّه الثقافة، مريض النفسية، لا يعرف التفاهم مع أخيه الإنسان إلا بثقافة العنف وأدواتها، وتطور نظام الحرب ومؤسساته كخيار لا مفر منه، ورسم التاريخ بلون أحمر، ومات ملايين الناس بأفظع من الكوليرا والطاعون والجذام، وعاش الإنسان في الحرب

أو الخوف منها أو الاستعداد لها، فخلال ما يزيد عن 3500 سنة من تاريخ الإنسان، حظي الإنسان بعام واحد للسلام، مقابل 13 سنة كرسها للحرب، فكان التاريخ الإنساني دموياً رهيباً قاسياً، سطر بالبارود والدم والدمع والمعاناة والإفناء المتبادل.

ولكن هل كان هذا ضرورياً حتى يصل إلى عدمية ثقافة العنف؟! لقد، كان درس ابن آدم الأول القاتل، والخطأ الذي تم تبنّيه في التاريخ الإنساني هائلاً، ومن هنا نعلم أن العصر الفعلي للأنبياء لم يبدأ فعلاً. فالمسيح بشَّر بالسلام على الأرض والمسرة في القلوب، ولكن أتباعه شنّوا حرباً صليبية دامت 171 سنة في سبع حملات مرعبة، في أفظع حرب عرفها الجنس البشري، وأكثرها كلفة، وأعظمها ضحايا، باسم الدين وتحت راية السلام، في جدلية تناقض محيرة، فبقدر ما كانت المسيحية سلامية، بقدر ما كانت البابوية (الممثل الرسمي للمسيحية) في التاريخ عدوانية، ولم تكن البابوية الاستثناء الوحيد!

تدشين السلم بأدوات العلم

سألني الكثير أن طريقة القتل التي اعتمدها ابن آدم الأول «قابيل» لم تكن لتمشي في التاريخ لولا صلاحيتها وأنها «طبيعية»، فلا يمكن اعتماد طريقة ما لولا التأكد من صلاحيتها ولو إلى حين. وهذه الفكرة تمثل نصف الحقيقة السهل وليس كل الحقيقة بفعل ضغط الثقافة التقليدي، وثقافة هوليوود المتدفقة، وتصوير البطل الذي يفتك بأخيه الإنسان، وقد أصبحت اليوم ثقافة ممجوجة تدعو إلى الغثيان.

لم يكن الوصول إلى عتبة السلام العالمي وتدشين المؤسسات الدولية لولا العلم، وهو بدوره يرجع الفضل فيه إلى الأنبياء والفلاسفة والمفكرين عبر التاريخ، الذين أناروا العقل الإنساني وأطلقوه من عقاله في رحلة التأمل والتشكل.

عمل الفلاسفة والأنبياء لم يؤتِ أكله بشكل مباشر، فالدولة الراشدة لم تعمر أكثر من جيل، فتمت مصادرتها على يد البيت الأموي، ولم يكن الحل الشيعي بالأمثل بتبني نظرية الدم النبوي، ورسم التاريخ على شكل مسلسل دموي من عمليات قنص السلطة وبناء الأسر الحاكمة، وبمجرد استيلاء المسيحيين على السلطة في روما تبدلت الأدوار؛ فبدأوا بالفتك بخصومهم في حرب ضارية لا تعرف الرحمة، وإدخال القبائل الجرمانية بالقوة المسلحة في الدين الجديد، وعندما وصلوا إلى قبر المسيح في القدس عام 1099 باركوا دخول المدينة بذبح عشرات الآلاف من الناس، مما كان سيخلق دهشة بالغة للمسيح لو أطلع على ممارساتهم.

كل شيء تم وتكامل يبدأ في التآكل والانحلال، وهذا يحصل لكل مبدأ في دورة أزلية عجيبة، والقمر إذا أصبح بكامل تدويره لحق المحاق عاجلاً، وكل قوة سيلحقها الشيب والضعف، فهذا قانون وجودي يؤكده المبدأ الثاني من الديناميكا الحرارية في الفيزياء.

البرهنة العلمية على صحة موقف ابن آدم السلامي

تصور بعض الطروحات أن قابيل كان «البدوي» من السهوب أو «الراعي» الذي اعتدى على المزارع المستقر «هابيل»، فالحضارات المستقرة كانت تتعرض للغزو على يد أبناء السهوب الرعاة، أو ما سماها المؤرخ البريطاني «البروليتاريا الخارجية».

الحضارة الصينية كانت مغرية لجنكيزخان الذي سال لعابه لأكلها، وقبل أن يصل أبناؤه إلى اغتصاب لؤلؤة الشرق بغداد، كان قد اجتاح ودمّر الحضارة الصينية ووصل إلى شواطئ اليابان، ولولا عواصف التيفون في الشرق وفرسان المماليك في الغرب، لم تكن أي قوة لتوقف زحف الطوفان التتري.

في الواقع لولا تيار العقل الذي قدح زناده الأنبياء والمفكرون والفلاسفة عبر التاريخ لم يكن العلم ليشقّ طريقه في تطوير التكنولوجيا، ولولا التطور العلمي واستخداماته العسكرية لم يكن ليصل الجنس البشري إلى حافة السلام العالمي.

الذي برهن نظرية وصحة موقف ابن آدم الأول السلامي هو العلم، عندما تم تحييد القوة وعدم الاعتماد عليها، واللجوء إليها في حل المشاكل.

أدرك هذا الرئيس الأمريكي «آيزنهاور» بعد الحرب الكونية الأخيرة مباشرةً عام 1954، على ما جاء في كتاب «مصير الكوكب الأرضي» لمؤلفه «جوناثان شيل» عندما عبّر بصيغة موجزة معبِّرة: ليس أمام أطراف الصراع إلا مصيران: اللجوء إلى طاولة المفاوضات أو الانتحار.

السحر الجديد؟

انتهت مؤسسة الحرب وماتت وشبعت موتاً بعد ولادة السلاح النووي ومشتقاته من أسلحة الإبادة الشاملة. والغرب ما زال يعيش على هذه الخرافة، فيمارس السحر. إنه يسحر العالم اليوم ويوحي إلينا بشراء أسلحة فات وقتها. هو ودّع السلاح والحرب ولكنه يصنع السلاح ويبيعه للمسحورين. نحن مسحورون نعيش وقت السحر والساحرات والكهنة والتعزيم والبخور وكل طقوس السحر الجديدة، والذي لم يدرك هذا التطور الفريد وهذه النقلة النوعية، سقط في عقال السحر؛ فهو يكدّس السلاح مثل «الحجاب» لدفع الأرواح الشريرة.

يدخل ضمن هذه الحقيقة العجيبة الصراع العربي الإسرائيلي، فلا يمكن حل هذا الصراع المعقد بالسلاح النووي ونظيره، وليس أمامه انتصار وهزيمة؛ بل انتحار شامل مطبق لكل الأطراف.

اليوم يفعل عمل الاستشهاديين أكثر من السلاح النووي، ولكن التضامن العربي أكثر فعالية من الاستشهاديين. التضامن العربي ليس فيه خسائر؛ فيمكن أن يتحقق من غير أن يخسر أحد زعامة أو ملكاً أو أرضاً، فهو مبدأ يربح منه الجميع. النزاع العربي العربي هو التناقض الأساسي، والصراع العربي الإسرائيلي هامشي، وفي الوقت الذي يذوب العرب في تجمع مصيري، يمنحون مفاتيح مصير المنطقة، وتتحول اسرائيل إلى هونغ كونغ الشرق الأوسط.

يكاد يكون وجود إسرائيل الحالي مثل حلم مزعج صعب التصديق في البحر العربي، ولكن كوارث الواقع تفتح العين على أشدّ المنامات ترويعاً.

خرافة التسلّح؟!

حلقة العنف تقوم على آلية نفسية خبيثة محرضة للعدوان، وهنا يقف الناس أمامها في العادة بأحد موقفين: إما الخوف واللوذ بالفرار، وإما رد الفعل المضاد بأشد وأعنف. الموقف الأول مريض، والثاني لا يحل مشكلة. الأول يعزز قدرة الهجوم للمعتدي ويعطيه معنى التأله والغطرسة والقوة والعدوان والعنف المكثف؛ فينقسم الفريقان إلى عبد وإله! الأول يملك مفاتيح القوة التي لا رادّ لها، والثاني العبد المتملق الذي يقع تحت ضغط شعورين ساحقين ممتزجين معاً في وصفة غريبة، التزلف الظاهري والنفاق الخارجي، والحقد الداخلي بانتظار فرصة ردّ الاعتبار، وبذلك لا يحل العنف مشكلة.

الموقف الثاني يخدع بأنه حل المشكلة، بخلق توازن الردع المتبادل، كما هو الحال في الديناصورات النووية، ولكن ميزة هذا التوازن أنه قلق هش خطير، فلا يقود إلى سلام فعلي، وهذا الذي حصل مع الاتحاد السوفياتي عندما سقط وهو يملك أسلحة تدمير الكون مرات.

الاتحاد السوفياتي انهار وهو يملك كل الأسلحة. وألمانيا واليابان صعدتا إلى قمة العالم وهما لا تملكان أي سلاح. والعالم العربي يخزن السلاح بأشد من حماقة تخزين القات، في شهادة صاعقة أن السلاح والقوة لا علاقة لهما بالصعود والهبوط.

ولكن هل هناك موقف ثالث ليس بالمريض المنهزم ولا العنيف القاتل؟ نعم، بين الموقفين السابقين يمكن بروز موقف مختلف يعرف كيف يحل المشكلة بدون هزيمة أو عنف، بتحرير طاقة الحوار الإنساني، وتنشيط آليات الفكر بدون إبراز العضلات وإشهار السلاح.

تكنولوجيا للسلوك الإنساني

تغيير ما بالإنسان وصناعة سلوكه وأسرار توجيهه بيدنا، وهذا أهم من علوم الكيمياء وسحر الفيزياء النووية، وجاذبية علوم الكوسمولوجيا، وأسرار الطب والتشريح؛ فنحن هنا أمام تشريح العواطف وإفرازات السلوك، وهي أهم بمرات...

وأهم صناعة في الإنسان «الثقافة السلامية» إعلاناً لولادة إنسان جديد، من رحم ثقافة جديدة، عامر القلب بحب كل شيء في الوجود، جمّ التواضع، يمتلك قدرة مراجعة النفس ومحاسبة الذات، متسامح مع المختلف معه، مفعم القلب بالرحمة مع أخيه الإنسان، قد عاد إلى براءة الطفولة ودهشة الفلسفة، وودع ثقافة العنف بغير عودة.

مع ولادة النموذج الجديد للإنسان الجديد تطالعنا ثلاث صفات: عدم رد العنف بالعنف، الاستعداد للحوار مع الطرف الآخر في كل وقت للاقتراب من تصور الموقف السليم، التخلص من كل المشاعر السلبية، وهي ممكنة حسب طروحات علم النفس الحديثة. وهذا يعني التدشين العملي لرحلة العودة إلى الجنة التي خرج منها الإنسان: جنة الطفولة وبراءتها وجمال كل شيء فيها.

الأهرامات تبوح بأسرارٍ جديدة!!!

فمنذ القديم ذهب «أبو الهول» مثلاً في الصمت، فإذا ضرب المثل في الصمت قيل: كصمت أبي الهول (Sphinx)؛ فعندما رأيته للمرة الأولى أثناء زيارتي لمصر عام 1980، وهو باسطٌ ذراعيه بالوصيد، في جسد أسد ورأس إنسان، كان لا يكف عن التحديق في وجوه كل الناس، ولكنه لا ينطق بشيء، فهو يسخر من الزمن، فكل الناس تخاف من الزمن، أما أبو الهول والأهرامات الشامخة خلفه فهي تتحدى الزمن!! وعندما وقفت أمام جبل الحجارة التي تزن سبعة ملايين طن، التي تشكل أهرام خوفو (Cheops) الذي يرتفع إلى علو ناطحة سحاب (146,6= مائة وستة وأربعون متراً ونصف المتر) تذكرت قول نابليون بونابرت عندما دخل مصر عام 1798: «أيها الجنود، إن أربعين قرناً من الزمن تطل عليكم!!»، وتدفقت فيَّ مجموعة من الأحاسيس الغامضة التي تنتاب كل متأمل لهذا «النصب الرهيب» من الحجارة التي عجز الناس عن إزالتها فضلاً عن بنائها على ما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته!! وتؤرخ لحضارة عظيمة في مطلع التاريخ، أبدعت فبزغت شمسها وارتفعت، وكانت أمريكا العهد القديم على ما ذكر المؤرخ الأمريكي «ويل ديورانت» في كتابه «قصة الحضارة»، ثم أصابها القصور في الطاقة الإبداعية فانحطت، ثم أصابها المرض فتعفّنت شجرتها، ثم استسلمت ليد الموت فطواها الزمن ودرستها الأيام وأكلها البلى. والقرآن حينما يحدثنا عن موسى عليه السلام، فهو ينقلنا إلى منظر فريد، في مواجهة أعظم حضارة في ذلك الوقت، وعندما قابل موسى فرعون، لم يطلب سوى إطلاق بني إسرائيل من العبودية، كونه قد نفض يده من حضارةٍ تودع الحياة، ويتسرب إليها مرض الموت الذي لا يُرد، وبنو إسرائيل الذين سيمضي بهم لن يكونوا أفضل حالاً، فهو سيُضطر إلى دفنهم في الصحراء، حتى ينقرض جيل العبودية، ويخرج جيل جديد في هواء الصحراء المنعش لا يعرف إلا الشمس والحرية في فضاء الصحراء الشاسع، وهو مغزى التيه لمدة أربعين سنة، فهو الوقت الكافي لفناء جيل وخروج جيل جديد، وهو ما انتبه إليه ابن خلدون في مقدمته حينما تحدث عن أعمار الدول وحددها بثلاثة أجيال، بمائة وعشرين سنة بين الفتوة والنضج والترف، كما أن الفترة التي عاشها يوسف عليه السلام يتكرر فيها لفظ الملك وليس لفظ «فرعون»، كما جاء في قصة المنام: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ}([206]) مما يوحي باحتمال معاصرته لفترة حكم «الهكسوس»، الغزاة الآسيويين الذين حكموا مصر في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وهذا قد يدفع إلى الفهم أيضاً خلفية العذاب التي سلطت على بني اسرائيل، حينما رأى فيهم الفراعنة بعد طردهم الهكسوس من مصر، الطابور الخامس الذين تحالفوا مع الأعداء الخارجيين، وتكاثروا في

ظلهم. ويمضي التاريخ فيُغَيّب الأمم، ويمسح الشعوب، ويزيل الدول، ويهدم الحضارات، ويفترس الإمبراطوريات العتيدة وكأن لم تكن، ويطوي محاسن الوجوه التي تمضي إلى القبور ليأكلها التراب والدود!! كما أنشد أبو العتاهية في شعر الزهد:

ألا رُبَّ وجهٍ في التراب عتيقِ

ويارُبَّ حسنٍ في التراب رقيقِ

ويا رُبَّ حزمٍ في الترابِ ونجدةٍ

ويارُبَّ رأيٍ في الترابِ وثيقِ

فقل لقريب الدار إنك راحلٌ

إلى منزلٍ ناءِ المحلِ سحيقِ

وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ

وذو نسبٍ في الهالكين عريقِ

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له

عن عدو في ثياب صديقِ

أو يذكرنا بالشاعر أبو البقاء الرندي وهو يرثي زوال الحضارة الإسلامية في الأندلس:

هي الأمور كما شاهدتها دولاً

من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد

ولا يدوم على حال لها شان

أين الملوك ذووالتيجان من يمن

وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شداد في إرم

وأين عاد وعدنان وقحطان

أتى على الكل أمر لا مردّ له

حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا([207])

أسئلة محيرة حول الحضارة المصرية وبناء الأهرامات وسر التحنيط

مع مواجهة الهرم الشامخ تتفجر في العقل مجموعة من الأسئلة، عن هذا الصرح ما شأنه؟ لماذا بُني؟ ومتى وفي أي عصر؟ وكيف بُني؟ وما هي الوسائل التقنية التي استخدمت في رفع هذه الأطنان الثقيلة من الحجارة التي تتراوح فيها الأوزان من الصغيرة ذات 5.2 طن، إلى الكبيرة ذات

الأربعين طناً التي أغلقت مدخل مقبرة فرعون؟ في ظل انعدام أدوات بكرات الرفع ومثاقب أو مطارق الحديد، أو علم المعادن، أو حتى موازين الماء والزئبق لتسوية السطوح، فكل العمل قريب العهد من العصر الحجري الحديث، يعتمد الخشب والحجر واليد والفكر!! ما هو السر الهندسي البديع خلف بناء محكم من هذا النوع، في ظل تدفق المعلومات الأركيولوجية الجديدة، عن استواء قاعدة الهرم بما لا يختلف عن خط الأفق بستة عشر ملم (قرابة 1.5 سم!!) وعن التقاء حواف الأضلاع في زاوية قائمة محكمة (تسعون درجة) لا ينحرف فيها الضلع في مسيره أكثر من ثانيتين من الستين، من درجة واحدة من الدائرة ذات ال 360 درجة والتي لا تنافسها في هذه الدقة من الاستقامة إلا أشعة الليزر؟!([208]) ومن بناه؟ بل ما هي الأفكار الهائلة خلفه التي سخرت كمية هائلة من الناس، وحرضت شعباً بأكمله ليحمل ولمدة تزيد عن عشرين سنة، أحجار الفرعون «خوفو» على ظهره، من حكام الأسرة الرابعة التي حكمت مصر بين «2630 – 2470» قبل الميلاد، واستنفدت موارد مصر القديمة؟!! ماهذا الشغف والعشق والتعلق بدون حدود بفكرة الخلود، وتطوير معالجة الجثث وتحنيطها لتتحول إلى مومياء تصمد عبر آلاف السنين!! وأي سر عجيب في تقنية التحنيط التي توصلوا إليها([209])؟

ما هي طبيعة المرض الذي تسرب إلى الحضارة الفرعونية فجعل الموت يضع يده الباردة عليها؟!!

{فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ}([210])

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي دهى هذه الحضارة التي تُعتبر أطول الحضارات عمراً؟؟ فهي امتدت حوالى ثلاثة آلاف سنة بدءاً من الملك «هور – آ» (Aha Hor) الذي وحد الشمال والجنوب تحت العاصمة «طيبة» في صعيد مصر، وانتهاءً بممفيس عاصمة الشمال القريبة من القاهرة الحالية([211])، وانتهت عام ثلاثين قبل الميلاد مع محنة آخر ملوك البطالمة التي حكمت مصر «كليوباترة» وانتحارها بأفعى الكوبرا!! أي علّة انتابتها وأي مرض سيطر عليها؟ ما الذي خشَّب هذه الحضارة، وأدخل التيبُّس إلى مفاصلها، وأوقف تدفق الدم في شرايينها، ودفعها إلى الشيخوخة والفناء؟!! وما هو المرض الخطير الذي أصابها فأوقع فيها اللعنة؟؟ كما ذكر القرآن: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}([212])!!

كل السر في الحجر الأسود «حجر رشيد» (Stone Rosetta) ومفتاح اللغز في كلمة «كليوباترة»

كان اكتشاف الحضارة الفرعونية كأثر جانبي من حملة القائد الفرنسي «نابليون بونابرت» وكانت برفقته مجموعة من العلماء من مختلف الاختصاصات، بلغت 175 عالماً، منهم المهتمون في علم «الآثار المصرية»، الذي سيتطوّر لاحقاً إلى علم كامل مستقل (Agyptology)، والذي أوصل إلى فهم أفضل للحضارة الفرعونية هي مصادفة عجيبة في اكتشاف حجر بازلتي أسود مهمل، قد علته نقوش غريبة غير مفهومة، عثر عليه في شهر يوليو (تموز) من عام 1799 ضابط في المدفعية الفرنسية يدعى «بوسار» على بعد أميال قليلة من رشيد القريبة من الإسكندرية، تبيّن فيما بعد أنه يحمل وثيقة مكتوبة بثلاث لغات، في تمجيد الفرعون بطليموس الخامس. وحجر «رشيد» موجود اليوم في المتحف البريطاني وقد نقشت عليه ثلاث لغات، تتكون من 14 سطراً من الكتابة الهيروغليفية، و32 سطراً من الديموطيقية (المصرية المحلية الدارجة)، و34 سطراً من الإغريقية. والحجر من صخر البازلت الأسود الصلد جداً، وقد أمكن فك رموزه على يد العالم الفرنسي المشهور «جان فرانسوا شامبليون» الذي لم يعمر طويلاً (1790 – 1832)، وكان مفتاح اللغز هو كلمة كليوباترة المُكَرَّة، حيث استطاع أن يفك في المرحلة الأولى 11 حرفاً، ليحل سر الأبجدية الهيروغليفية لاحقاً، بعد جهد استغرق عشرين عاماً، والجدير بالذكر أن اللغة الهيروغليفية تحمل الأصوات الساكنة فقط بدون الحروف الصوتية([213]).

شامبليون و«خرطوشة» كليوباترة

يروى عن العالم الفرنسي العبقري «جان فرانسوا شامبليون» (Champollion Francois Jean) أنه وقع مغمياً عليه فنام لمدة خمسة أيام، من الإعياء المتواصل الذي تعرض له بعد أن عمل لفترة سبعة أيام بلياليها بشكل متواصل وبدون انقطاع، عندما وصل إلى فك لغز الكتابة الهيروغليفية([214])، ويروى عنه أنه بدأ يرى أشباحاً عجيبة وصوراً فرعونية مشوهة، ويسمع أصواتاً مبهمة وقعقعات من الضحك الساخر، من عمق التاريخ الفرعوني والأهرامات الصامتة، وعندما أدرك لغز الكتابة وأنها ليست رسوماً بل حروفاً صوتية، وأن المصريين القدماء استطاعوا في وقت مبكر تطوير لغة أبجدية كالتي نكتبها في الوقت الراهن صاح بالفرنسية: لقد حللت الإشكالية (Je affaire'L Tiens).

عبقرية شامبليون وتمكنه من «دزينة» (Dozen) من اللغات القديمة!!

تجلت عبقرية «شامبليون» منذ أن كان طفلاً صغيراً، فعندما كان في سن الخامسة أدهش والديه عندما كان يعيش معهم في مدينتهم في جنوب فرنسا «فيجي» (Figeac) بقدرته الذاتية في تعلم القراءة والكتابة بشكل منفرد!! وعندما أنهى المرحلة الابتدائية كان يتكلم الإغريقية واللاتينية

بطلاقة، ويقرأ النصوص القديمة للإنجيل باللغة العبرية، فأرسله والداه إلى المدرسة الثانوية في مدينة «غرينوبل» (Grenoble) فأضاف مجموعة أخرى من اللغات القديمة الشغوف بها، فتكلم اللغة العربية والقبطية والآشورية والكلدانية([215]). وعندما بلغ الثانية عشرة أثار اهتمامه ما ورد ضمن أخبار الحملة الفرنسية، التي نشرت في مجلة «رسول الأخبار المصرية» (Egypt `L De Courier) وعندما أطلعه أخوه الكبير على بعض الرسومات الهيروغليفية أثارت اهتمام الطفل فسأله: ما هذه الرسومات الغريبة؟ فكان جواب أخيه: إنها رموز مقدسة ضاعت معانيها منذ ألفي سنة، ولن يهتدي إلى سرها أحداً، فدع عنك هذا العناء!! وهو عليم بمدى شغف أخيه جان باللغات القديمة وكتاباتها العويصة، فأجاب شامبليون بإصرار وحنق: سوف أفك رموزها ليس الآن ولكن بعد عدة سنوات عندما أكون كبيراً بما فيه الكفاية لمثل هذه المهمة!!

كان عمر «شامبليون» تسعة عشر عاماً عندما عكف على مهمة فك لغز اللغة الهيروغليفية، وكان قد أخذ منصب أستاذ في التاريخ في جامعة «غرونوبل»، بعد أن تحطمت رؤوس الكثيرين، ولمدة عشرين سنة، في إدراك كنهِ هذه اللغة التي ماتت منذ آلاف السنوات! ومعها كل أسرار الأهرامات والحضارة المصرية القديمة، وأهمية فك لغز اللغة كونه سوف يفتح الطريق لفهم تاريخ مصر القديم، فكان لا بد إذاً من رائد يشق الطريق، وكان شامبليون هو الذي اهتدى للمفتاح، ليس بالصدفة، بل بالاستعداد الفطري، والذكاء الكسبي، وموهبة الفهم وجو التشجيع، والتمكن من دزينة من اللغات القديمة المعقدة، والصبر والجلد بدون حدود، وهكذا فالتجليات والعبقرية لا تتنزل على الذين ينامون على ظهورهم ويتشمسون على شواطئ الأنهار مثل السلاحف والتماسيح.

نظرية شامبليون التي قادت إلى الفتح الفلولوجي التاريخي

كانت النظرية التي وضعها «شامبليون» أن هذه الرسومات العجائبية للغة المصرية القديمة التي سمّاها الإغريق «هيروغليفية»([216])، بين مربعات وخطاطيف ومنشار ونصف هلال وثعبان وعصفور؟!! ليست صوراً، بل هي حروف أبجدية للغة متكاملة، فرسمة الثعبان قد تطورت مثلاً إلى حرف «ف»، ثم وقف أمام كلمتين جذبتاه بشكل خاص، بسبب وضعهما الخاص في النص، حيث وضعت ضمن خرطوشة، أي خط بيضوي محيط بالكلمة، وجاءت الكلمة بشكل متكرر، كانت الكلمة الأولى كاملة، وهي «بطليموس» والثانية مكسورة غير كاملة وهي «كليوباترة»، وفي يناير (كانون الثاني) من عام 1822 تلقى العديد من القطع الحجرية الأثرية وقد ظهرت فيها كلمة كليوباترة بشكل واضح ضمن الخرطوشة، حيث حوَت ما لا يقل عن عصفورين ومربع ودائرة

وخطاف وسكينة ومثلث قائم ونصف هلال ورغيف خبز!! وقال «شامبليون»: إذا صحت نظريتي في هذه الحروف الأبجدية فبإمكاني قراءة بقية الكلمات!! وتابع الحفر ومواصلة عمل الليل بالنهار، حتى كانت ليلة الثاني والعشرين من سبتمبر (أيلول) من عام 1822، عندما استطاع قراءة كلمة الفرعون «رمسيس» و «تحوتمس» بنفس آلية الحروف التي أدركها، عندها أطبق عليه الشعور أن ترجماناً قام من تحت الأرض فنقله إلى العالم القديم، فهو يرى الحياة بكل تجلياتها، عندها سقط على الأرض مغشياً عليه من هول المفاجأة، لأن الأرض انشقت، فظهر الفراعنة من قبورهم يتحدثون ويضحكون ويبكون: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا}([217]). وأطلت من بين سطور الكتابة الهيروغليفية حياة كاملة غنية، بدأت ترانيم كهنة المعبد تصدح، والبخور يعلو في موكب نقل «خوفو» إلى مثواه الأخير في أعظم ناطحة سحاب عرفها التاريخ القديم، وقعقعة السلاح في معارك العصر القديم، يخوضها تحوتمس الثالث حتى قرقميش (قريباً من مدينة حلب الحالية في سوريا). كذلك انطلقت من القبور آهات مئات الألوف من المعذبين، الذين انطحنت عظامهم وهم يحملون الصخور العظيمة على ظهورهم، تشد بالحبال وبأوتار عضلات المساكين، بوزن الأطنان، وبعمل يومي منذ شروق الشمس حتى غروبها، مقابل وجبة سخيفة من الخبز والبصل([218])، من أجل تشييد مقبرة من ملايين الأطنان من الحجارة لشخص متجبّر يدّعي الألوهية: {فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}([219]) {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}([220])، مما جعل الأركيولوجيين يعقبون على عمل من هذا النوع أنه جنون عظمة فاق كل المعهود.

ومع الإمساك بمفتاح اللغة الهيروغليفية انفتحت أبواب الهرم، فنطق أبو الهول، وتحدث أخناتون عن ثورته الدينية، وتحوتمس عن معاركه الحربية، وخوفو عن هرمه العملاق، و«جيدفري» (Djedefre) عن هرمه الرائع، من كتلة من أجمل ما نحتت يد الإنسان من حجر الغرانيت الأحمر بارتفاع 67 متراً، يلمع على شاطئ النيل مع غروب الشمس في منظر رومانسي خلاَّب، يعطيه اسم أهرام خيمة النجوم([221])؟!!

المغزى الحضاري لبناء الأهرام

يذكر المؤرخ «ابن خلدون»([222]) في مقدمته الشهيرة أنه في طفولته لفتت نظره حجارة «قرطاجنة» التي كانت في يوم من الأيام حاضرة دولة عالمية عملاقة تضم نصف مليون من البشر، قبل أن يدمرها الرومان ويذبحوا أهلها، ويسوقوا من تبقى من أهلها (في حدود خمسين ألف نسمة) عبيداً، ثم يحرثوا قرطاجنة بالمحراث، ويصبّوا اللعنات على أرضها، في عاصفة حقد دموية، وكارثة إنسانية لا يمكن تصور أبعادها، أثارت ذاكرة الرعب التاريخية عند تشرشل، وحرضت عنده الشعور بالفناء والعدمية والظلام، عندما رأى أشباح الجن النازية وهي تطوق العالم الديمقراطي مع بداية الحرب العالمية الثانية، والاستعداد لعملية «أسد البحر» في محاولة إنزال القوات النازية على أرض الجزيرة البريطانية، بعد عاصفة إحراقٍ مروعة للعاصمة البريطانية، وتناقص مخيف في الدفاعات الجوية والطيران البريطاني، في صراع ديناصورات رهيب بين الدول العظمى، تماماً كصراع ديناصورات العهد العتيق في العالم القديم بين روما وقرطاجنة، التي شابهت الحروب العالمية في القرن العشرين.

أقول يذكر «ابن خلدون» أن تلك الحجارة الفخمة من مخلفات بناء قرطاجنة كانت تستهوي الناس؛ فيعمد بعضهم إلى انتزاع الحجارة فيجدون أشد المشقة في ذلك ولا يستطيعون([223])، فذهب الناس في تفسير ذلك البناء الفخم وأمثاله، مما رآه الناس في العصور الخالية من إيوان كسرى في المدائن وأهرامات الفراعنة في مصر ومخلفات عاد وثمود؛ أن الذين بنوا الأهرام كانوا عمالقة الأجسام طوال الأعمار، مما مَكَّنَهم من هذا الانجاز العجيب!! ولكن ابن خلدون يفند هذا الشيء بعقلية علمية صارمة وبنقد تاريخي متميز، وهذا يشكل سابقة عقلية وفهماً مدهشاً لآليات العمل التاريخي، بل وتدشين وإرساء منهجية عقلية جديدة في فهم الحدث التاريخي من مثل أهرامات الفراعنة، التي نحن بصدد درسها في الإطار الحضاري التاريخي.

هل بنى الأهرامات العمالقة من البشر؟؟

ظن الناس قديماً، وتحت تأثير الخرافة والأسطورة وجوّ القصة الخلاَّب والساحر، أن الذين رفعوا الأهرامات كانوا ذوي قامات هائلة تمتد عشرات الأذرع في السماء، وبأعمار مديدة تمتد قروناً طويلة، يدبون على الأرض كما جاء في فيلم «جوليفر»!! وأن الجنس البشري يمشي في خط تاريخي انحطاطي، أي المزيد من النقص في القوة والعمر والطول والتمكن، وفي جو من عدم نمو

الروح العلمية، وتطور علوم الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا والبيولوجيا وقع العقل الإنساني في فخ الخرافة، لذا فإن «عقلية» ابن خلدون تعتبر شيئاً مذهلاً بحق في مثل عصره، مع سيطرة روح الخرافة وضغط مفاهيم الأساطير الخلابة، وذات نوعية ريادية حققت قفزةً نوعية في كل تاريخ العقل الإنساني، مما جعل المؤرخ البريطاني «توينبي» يعتبره «أنه أعظم عمل من نوعه أنجزه أي عقل في أي زمان أو مكان» (time any in mind any by created is that ,kind its of work best the s'It place or)، أو على ما أشار إليه الفيلسوف «إقبال» في كتابه «تجديد التفكير الديني» نقلاً عن فلنت: «إن أفلاطون وأرسطو وأوغستين ليسوا نظراء لابن خلدون، وكل من عداهم غير جدير حتى بأن يذكر إلى جانبه»([224])، وكل السر في هذه العقلية هو اعتماده منهجاً خاصاً في تفسير الوقائع، فما هو الجديد الذي اكتشفه «ابن خلدون» من الأدوات المعرفية لفهم الحدث التاريخي؟؟ الذي لم يطوره العالم الإسلامي بكل أسف، فلم يتابع رحلة ابن خلدون العقلية؛ فضلاً عن الاستفادة منه وجعله أداة تطبيقية في الممارسات اليومية.

تطوير العقلية العلمية النقدية واستقراء الواقع

لعل أهم فقرة في مشروع «ابن خلدون» التاريخي هي إلغاء العقلية النقلية واعتماد العقلية النقدية كخطوة أولى، فهو عندما أراد بحث ظاهرة «الكذب» التاريخي، الذي هو طبيعي في نقل الخبر «ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه»([225]) وصل إلى مجموعة من الأسباب الجوهرية التي تحرف صحة الأخبار، من مثل «التشيعات للآراء والمذاهب»، فيكون ذلك الميل والتشيع غطاء على بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله، ومنها «الثقة بالناقلين وتوهّم الصدق»، ليس لأن الناقل يريد الكذب، بل لعدم دقته، كما هي في العقلية العربية من العيب في عد النقود عند استردادها من المدين([226])، ومنها «الذهول عن المقاصد»، ومنها «تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب» ليصل في النهاية إلى تسليط الضوء على عنصر في غاية الأهمية ويعتبره أنه «سابقة على جميع ما تقدم» وهو الجهل بطبائع الأحوال في العمران، ذلك أن «كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصّه في ذاته وفي ما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض»([227]). وهكذا فمن أجل توليد وتكوين «العقلية النقدية» يجب إعدادها بأدوات معرفية أهمها الرجوع دوماً ل «الوقائع وطبيعتها»، فبسماع الأخبار يبقى الكاشف الدقيق والنوعي لصحتها من خطئها هو الرجوع إلى الواقع، وهكذا تتحول الطبيعة والتاريخ إلى «مصادر معرفة»

على حد تعبير الفيلسوف شاعر الإسلام «إقبال»([228]). فالقاعدة الذهبية عند ابن خلدون هي محاكمة الأخبار إلى الواقع([229])، فالأخبار –حسب ابن خلدون– إذا اعتُمد فيها على «مجرد النقل» ولم تُحَكَّم أصول العادة وقواعد السياسة والعمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والذاهب بالحاضر، فلا يُؤْمَن فيها من العثور، ومزلّة القدم، والحيد عن جادة الصدق!! وتطبيق هذا على قصة بناء الأهرامات ذو مغزى كبير، فابن خلدون رأى في بناء الأهرامات أنه عمل حضاري متميز، لا يقوم بناؤه على الأسطورة، بل على الجهد الإنساني الكثيف والمنظم الذي يقف خلفه دماغ مبدع، فبداية بناء الأهرامات قام على الإبداع وليس فقط على التسخير والرهبة من السوط!! بل إنه في بعض جوانبه من العظمة بمكانة كبيرة حينما نتذكر عجز من حاول أن يهدمه!! فيمكن مقارنة سهولة الهدم في العادة مع صعوبة البناء حينما نريد أن نقارن بين عملين، وابن خلدون يفاجئنا ببعض القصص الطريفة –وغير المتوقعة– في هذا المجال.

محاولة الرشيد بهدم المدائن والمأمون بحفر في الهرم فيعجزان!!

من بطن مقدمة ابن خلدون نفاجأ بخبرين يسترعيان الانتباه. لنبدأ بذكر الأول منهما: محاولة الخليفة العباسي هارون الرشيد. فعندما بطش بالبرامكة أرسل إلى خالد بن يحيى في محبسه يستشيره في هدم إيوان كسرى، فنصحه بأن لا يفعل ذلك حتى يشعر الرشيد بعظمة الحضارة التي ينتسب إليها، تلك التي هزمت وورثت الحضارة التي قبلها، ولكن الرشيد ظن أن هذا من التعاطف الخفي الذي يُكِنُّه البرمكي لحضارة فارس، فقال: «أخذته النعرة للعجم، والله لأصرعنه. وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه واتخذ له الفؤوس وحمّاه بالنار وصب عليه الخل»([230]). إلا أن الرشيد عجز عن ذلك. وأما المأمون –ولا نعرف الدوافع الخفية لعمله– فإنه قام بعمل مماثل حيال الهرم. فيذكر ابن خلدون أنه جمع الفعلة لهدمه فلم يستطع. وربما أفضى إلى بعض الحجرات الداخلية السرية. ولا يُستبعد أن يكون قد وصل إلى بعض الكنوز الأثرية([231]). ويصل ابن خلدون إلى تقرير مجموعة من الحقائق الأولية، منها أن الأهرامات قامت بجهد إنساني عبقري خالص، ومن بشر لا يختلفون عنا في شيء «واعلم أن تلك الأفعال

للأقدمين إنما كانت بالهندام (يقصد الهندسة) واجتماع الفعلة، وكثرة الأيدي عليها، فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع. ولا تتوهّم ما تتوهّمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها، فليس بين البشر في ذلك كبير بون، كما نجد بين الهياكل والآثار. ولقد ولع القُصَّاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك أخباراً عريقة في

الكذب»([232]) ومنها جبروت وعظمة الحضارة التي رفعت ذلك البناء «فانظر كيف تقتدر دولة على بناءٍ لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة، تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين»([233]).

ظاهرة دورة الحضارة

فاذا انتبهنا إلى النقاط التي ذكرها ابن خلدون نخلص إلى نتيجة هامة وهي «دورة الحضارة». فهذا الكائن الإنساني العجيب له لحظة ولادة، ودورة حياة ونمو وقوة، ثم ضعف وانهيار، ومخطط انحدار نحو الموت ككل كائن إنساني، سوى أن هذا الكائن المسمّى بالحضارة ليس من النوع البيولوجي، بل من تركيب «نوعي» إنساني خاص به. والقرآن يذكرنا بهذه الدورة في البيولوجيا: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً}([234]). وهذا ينطبق على الحضارة الفرعونية، فهي بدأت بقوة رهيبة من عمق مستنقعات النيل جنوب مصر وبكل عنفوان، ونهض

الإنسان المصري الأول يتحدى فوضى المستنقعات والتماسيح الزاحفة وثعابين الكوبرا وفيضان النيل، ومن خلال عقله الذي دخل إليه التنظيم –بواسطة الإشعاع الفكري الذي بثه أساتذة جامعة هليوبوليس– قام بتنظيم المجتمع والطبيعة حوله، وقفز المجتمع المصري من العصر الحجري إلى بداية الحضارة، وكان ذلك قبل حوالى خمسة آلاف سنة من الآن (قبل الميلاد بحوالي 3000 ثلاثة آلاف سنة)، ثم اشتد عوده، ثم يبس غصنه وانحدر إلى الموت في النهاية، ومواجهة موسى عليه السلام للحضارة الفرعونية لم تكن في مرحلة صحتها بل مرضها، ولفظ القرآن ينفعنا في إدراك مرحلة إفلاس الدولة المصرية التي دلفت إليها؛ فلم يعد في مقدورها بناء الأهرامات بتلك الصخور المكلفة، بل أصبحت الأهرامات أكثر تواضعاً، فلم يعد في مقدور مصر وإمكانياتها أيام الفرعون «رمسيس الثاني» الذي عاش في حدود عام 1220 قبل الميلاد، والذي واجهه موسى عليه السلام في غالب الظن، أن تبني أهراماتها من الصخر هذه المرة، بل من الطين: {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً}([235]). ويبقى السؤال الذي حامت حوله كل التفسيرات والتعليقات والتحليلات: كيف ينهض مجتمع ما ويقفز من المجتمع البدائي باتجاه الحضارة؟ ثم ما هي الحضارة على وجه الدقة طالما كانت كياناً مكتسباً؟ وهو السؤال الذي طرحه المؤرخ البريطاني «توينبي» بعنوان غريب: «المشكلة وكيف لا يجب حلها»([236]).

ما هي الحضارة وكيف تنبثق؟

لعل الإجابة عن سؤال: ما هي الحضارة؟ أسهل من الإجابة عن آلية نشأتها وولادتها!! وهذه المداخلة تناولتها بالتفصيل في مقالتي عن «التاريخ والطبيعة» وعملهما([237]). فالحيوان أياً كان، لم يتغير منذ آلاف السنوات، فالزمن عنده متوقف، وهو يعيش مع الطبيعة بدون تغير، حتى في أرقى الحيوانات مثل الشمبانزي، في حين أن «الظاهرة» الواضحة في الحياة الإنسانية هي آلية التطور التي تمشي بنظم «متسارع»، والزمن عنصر فيه. فالانجازات الآن تحقق تقدماً بمعدل عقد من السنين، في حين أن نظم التسارع كان قديماً بمعدل قرن أو قرون، وهذا التطور يملكه الإنسان كما يملك هو بدوره الإنسان، في علاقة جدلية متبادلة، والإنسان يبدع فيه ويسرّعه، وهو بدوره يمنح الإنسان المزيد من القوة والسيطرة والتقدم، والحضارة ليست حيازة الوسائل والأشياء، بل الوسائل هي المحصلة الطبيعية لنمو الأفكار، فالحضارة ليست تكديساً للأشياء، بل عملية تفاعل «الإنسان والتراب والوقت» كما بلورها المفكر الجزائري مالك بن نبي([238]).

أما كيف تنبثق الحضارة في مكان ما ولماذا، فهو الموضوع الذي تباينت فيه الاجتهادات وطرحت فيه العديد من الآراء. بل إن فكرة الحضارة لم يعرفها العقل الإنساني إلا منذ فترة قريبة، والجهود الموسوعية وأعمال رواد الأركيولوجيا كشفت النقاب عن جثث عشرات الحضارات التي فارقت الحياة، وكانت الحضارة الفرعونية أطولها

عمراً كما ذكرنا، فهي عمَّرت قرابة ثلاثة آلاف سنة!! وفي الدراسة الموسوعية المدهشة التي قام بها المؤرخ البريطاني «جون أرنولد توينبي»([239]) والتي أخذت من الجهد ما يزيد عن نصف قرن. كشف النقاب عن ما يزيد عن 600 مجتمع بدائي انبثقت منه حوالى 28 حضارة، مات منها 23 حضارة، وما زال على قيد الحياة خمسة، واحدة منها هي الحضارة الإسلامية.

وقد يكون من الجميل معرفة بعض الآراء التاريخية الفلسفية عن كيفية انبثاق حضارة ما، فكتابة التاريخ أخذت منحيين: إما سرد الأحداث، وإما محاولة فهم القوانين العميقة التي تحرك الأحداث التاريخية. وفي هذا القرن صدرت بعض الدراسات الهامة ذات العمق الفلسفي التحليلي، من أمثال الدراسة الموسوعية الهائلة التي قام بها، ولمدة تزيد عن نصف قرن، كل من «توينبي» و «ويل ديورانت». كذلك كان لكتاب «أفول الغرب» الذي أصدره الكاتب الألماني «أوسفالد شبنجلر» (Abendlandes des Untergang Der)([240])، في الثلاثينات من هذا القرن وقع كبير، وهو كتاب ضخم دسم في المعلومات والتحليلات، وإن كان مظللاً بروح تشاؤمية.

قانون التحدي والاستجابة عند توينبي

أقام المؤرخ البريطاني نظريته في ولادة الحضارات وانبثاقها على مركب «التحدي والاستجابة» (Response and Challenge)، على أن تكون ضمن الشروط الحدية «لا سهولة ولا استحالة»، ويتولد من هذا القانون عدة قضايا حيوية هامة، فالحضارة أولاً غير مرتبطة بالعرق أو الجنس أو الثقافة أو اللغة، بل يمكن لأي مجموعة من الناس أن تصل إليها إذا حققت شروطها، ويتولد من القانون أن ظروف الشدة هي التي تشكل «المنخس» والمحرض والمثير للإرادة الإنسانية كي ينهض من الوضعية البدائية، ليتسلق صخور الحضارة الصعبة. ومن هنا عقد توينبي فصلاً في كتابه عن «فضائل ومزايا» الشدة، فالرخاوة والترف والنعيم الزائد شروط مفسدة للإنسان، فلا يمكن أن يبني من خلالها الحضارة. كما أن نقيضه صحيح أيضاً، فظروف الشدة المرعبة والصعبة للغاية، تقضي على بذور «إمكانية» نهضة أية حضارة، وهو ما حصل لبعض الحضارات «المتعطلة» كما حصل عند الأسكيمو. وبتطبيق هذه الشروط الحيوية على المجتمع الفرعوني لا بد من دراسة الظروف التي كانت «محرض» النهضة الحضارية عند القوم البدائيين في دلتا النيل قبل ستة أو سبعة آلاف سنة.

الإنسان المصري القديم أمام ستة خيارات أحدها الانقراض والموت!!

حسب الدراسة التي ساقها «توينبي» عن المناخ السائد في تلك الفترة، كانت المنطقة في فترة تحول وانقلاب، من المناخ اللطيف الذي يشبه القارة الأوروبية اليوم بغزارة المطر ونبات الزرع والأحراش والغابات، إلى فترة جفاف وتغير في طبيعة المناخ. فواجه المجتمع البدائي، الذي كان يعيش جنته الأرضية بخمس خيارات متباينة، إما: (1) الزحف للشمال خلف المطر، أو (2) الزحف للجنوب باتجاه الغابات الاستوائية، أو (3) الزحف لحوض النيل في الأسفل ليأخذ مصير قبائل الشيلوك والدنكا، أو (4) تبديل طريقة معيشته من الصيد إلى الرعي، أي التحول إلى البداوة. (5) ويبقى الخيار الصعب والأخير والمهدد بالموت –وحصل هذا لقسم منهم، فاجتاحتهم يد الفناء في هذه الظروف الصعبة– وهو الاستجابة للتحدي باستنفار كل الإمكانيات لتغيير الطبيعة القاسية، من مستنقعات دلتا النيل وحوضها المرعب الطويل اللامتناهي، بين فك التمساح ولسع البعوض ونهش الأفاعي، بين فوضى طبيعة النيل وهجومه بالفيضان، الصحراء تحفهم من الجانبين وليس بعدها إلا ملوحة البحر، فشَمَر الإنسان المصري القديم عن ساقيه وذراعيه للعمل الدؤوب، وفي ظروف عمل مشجعة من التعاون المثمر والمبادرة الفردية. فالفرعون «سنوفرو» من بداية الأسرة الرابعة كان ينادي الناس: يا أصحابي([241])، وبدأ في تنظيم وشق أعظم شبكة إصلاح ري في تاريخ العصر القديم. وهذا الوضع تحقق أيضاً لحضارة سومر في دلتا دجلة والفرات. فالحضرات لا تنشأ تحت

رعب السوط وخوف العقاب، كما يقول المثل الإنكليزي: «قد تستطيع سَوق الفرس إلى النهر إلا أنك لن تستطيع جعله يشرب الماء بالقوة»!!

دور الأقلية المبدعة والأقلية المسيطرة

وعلى أنغام الراعي، وبآلية المحاكاة لقيادة حكيمة مثقفة موهوبة تمثل أقليةً مبدعة، سارت قطعان الجماهير، بروح الإعجاب والتقليد لهذه الأقلية، في أعظم مغامرات التاريخ وأكثرها مدعاةً للتشويق،

اندفعت لتقلب البيئة لصالحها، وتبني مجتمعاً راقياً يودع العصر الحجري، ومرحلة الكسل والاستلقاء على الظهور، فيبني الأهرام من الحجر القاسي الرهيب، وبعمل يدوي بسيط مرهق، وبإمكانيات محدودة، مغلفة بالإرادة والطموح اللامحدودين. فالأهرامات الرائعة بنيت في أفضل فترة توهجٍ للحضارة المصرية، في عهد الأسرة الرابعة، وفي مدى قرن واحد، بين الجد «سنوفرو» (Snofru) الذي بدأ في حفلة بناء لثلاثة أهرامات، والحفيد «منقرع» (Mykerinos)، وبينهما «خوفو» (Cheops)، وولديه (الأخوين) «خفرع» (Chefren) و «جيدفري»(Djedefre)، رفعت أعظم الأهرامات وأشدها صلابة ومقاومة للزمن، تغنّي قممها مع السحب التي تصطدم بها أغنية الخلود التي طمح إليها الفراعنة. هذه الفترة الرائعة وبإمكانيات ذاتية تم تدشين حضارة من أعظم الحضارات التي مرّت على ظهر البسيطة، ويعتبر «توينبي» أن النصف الأول المتألق من عمرها كان فترة الشموخ والنهوض والعظمة، في حين أن النصف الثاني، والذي امتد ألفي سنة، ولا يكتمنا سراً في هذا؛ كانت الحضارة الفرعونية «جثة» تنتظر الدفن، ولم تنفعها «مساجات القلب» و «حقنات الإنعاش» التي قام بها «أخناتون» في ثورته الدينية الإصلاحية، بكل الحماس والعشق الصوفي اللذين سجلهما له التاريخ، فلم تضخ الدماء في عروق الحضارة المتيبسة بعدها أبداً، وهذا يفسر هدف موسى عليه السلام الواضح في مواجهة الحضارة التي كانت جثة باردة، فهو لا يريد سوى إطلاق قومه من أغلال العبودية، أما الإصلاح في المجتمع المصري الميت فقد فات أوانه: {فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ}([242]).

وكان بناء الأهرام في النصف الأول من عمر الحضارة المصرية، إحدى أعظم التجليات من العبقرية المصرية، فهذا البناء المدهش، والعمل الهندسي والمعماري الفذ، الذي لم تخطئ قاعدته عن خط الأفق بأكثر من 16 ملم، حسبما كشفت الأجهزة الإلكترونية الحديثة، لم تشيده يد «عمَّال السخرة»، بل إرادة حضارية رهيبة، ودماغ علمي متوقد، وإمكانيات دولة عظمى من دول العهد القديم. وكان تسخير الحجر الصلد لتخليد الحضارة، وتطوير نظام التحنيط والمومياء ليقاوم الزمن،

بل ومحاولة إيقافه، يحمل في تضاعيفه المغزى العميق عن تحرر الإنسان من العصر الحجري وبداية عصر الحضارة، بإنتاج وسائلها وتطويرها، والتخلص من ضرورة البيئة وأسرها، بالتصدي لتحديها وتغييرها. وبقدر ما نجحت الحضارة الفرعونية في الأمساك بالزمان والمكان، فقد كانت استجابتها رائعة لهذا النوع من التحدي، فنظام «التحنيط والأهرام» يحاول أن يضع يده على اللانهاية، خلافاً لحضارة إحراق الجثة التي تمشي باتجاه العدمية، بقدر ما فشلت الحضارة المصرية في الرهان حينما تحول التحدي من البيئة والطبيعة إلى النفس والتاريخ، فدخلت شرنقة الموت.

في مثل هذه الشروط أبدع الإنسان فبنى الحضارة. أما حين تتحول الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة تسوق الناس بالكرباج والإرهاب والخوف والسخرة والإرغام، فإن المجتمع يتعرض للانشقاق، وتتوقف روح الإبداع عن العطاء والحضارة عن النبض والخفقان، لتتحول إلى شكل جامد، كالجثة بدون وظيفة، ليدفنها التاريخ بعد ذلك في ليل الفناء.

الأهرامات... متحف الشمع التاريخي!!

لا يمكن لمن زار مدينة لندن سائحاً، أن تفوته زيارة متحف الشمع ل «مدام توسو» (s'Tussaud Madame)([243])، حيث يرى المرء نفسه فجأة بين عظماء العالم بل وأشقيائه أيضاً؛ فتمثال هتلر يبرز منتصباً في مكان واضح ليس في وضوح تمثال «غاندي» المتواضع!! وفي النهاية يكاد الإنسان أن يصاب بالدوار بين هذه الوجوه التي لا تنتهي، الباسمة والعابسة، الضاحكة والباكية، الشاكية والمعذبة، بين قائدٍ انتهت حياته بالانتحار أو الاغتيال، أو شخصية هامة اخُتتمت نهايتها بالحرق أو الغرق!! وفي نهاية الدورة (Round) لا تنسى مدام توسو أن تنفحك عطراً خاصاً من روح القرون الماضية، ومدنها الملوثة العابقة برياح القاذورات بدون نظام تصريف صحي، أو ريح البارود وضرب الرصاص وصياح المذعورين والمنكوبين!! فإذا خرجت في النهاية أدركت –لحسن الحظ– أن الزمن كان متوقفاً مع كل من رأيت وعاصرت، وأن وجوه العظماء الصماء الخرساء ليس فيها نفخة روح أو نبضة حياة.

كذلك مضت الحضارة المصرية في فترتها الأخيرة بعد أن نزفت حتى الموت، وأفلست حتى العظم، وعقمت فلم تعد تولِّد فكراً جديداً، ونضبت عبقريتها فلم تعد تُخرج شيئاً، ومشى الزمن معها وهي محفوفة معزولة بين صحراء وبحر، حتى إذا أرادت الامتداد والقيام بالحملات العسكرية، لتمويل مشاريع التأله والجبروت خرت صريعة للأعداء الخارجيين؛ فاجتاحها الهكسوس، والآشوريون، والفرس، (قمبيز)، والإسكندر (332 قبل الميلاد)، وأخيراً تحولت إلى مستعمرة رومانية غير ذات بال (30 قبل الميلاد)، بعد أن فقدت القدرة على تقرير المصير([244])، تُنهب كنوزها فلا تصرخ، وتُقتلع خيرة أحجار الجرانيت من أهراماتها التي بذل الشعب المصري دمه وعرقه ودموعه في جلبه ورصفه، فلا ترتكس بأية مقاومة، وقبل هذا وبعده انطفأت الحضارة الفرعونية فلم يعد بقدرة الناس إمكانية تصور أنه كانت هناك حضارة عظيمة ولغة خاصة بها اسمها الهيروغليفية، حتى كانت نهاية القرن الثامن عشر، أي بعد موت الحضارة الفرعونية النهائي بحوالي 18 قرناً، من ينفض التراب عنها ليكتشفها ويعيد ذكرها إلى الناس، ولكنها كانت جثة حضارة أكلها البلى، وعفا عليها الزمن، وفعلت بها الأيام فعلها؛ فحوّلتها إلى رفات ورميم، وطوى التاريخ أهلها فأصبحوا حصيداً خامدين.

مومياء الفرعون «جيدفري» (Djedefre) تطل برأسها بعد مرور خمسٍ وأربعين قرناً!!

عندما طور خبير الآثار المصرية البروفسور السويسري «ميشيل فالوجيا» (Michel Vallogia) من جامعة جنيف، جهازه الجديد المزدوج الوظيفة، بين الرفع والحفر التلسكوبي في الأرض معاً (تماماً كما في جراحة المناظير المتطورة، هذه المرة هي في بطن الأرض وليس في أحشاء المريض!!) لم يتصور أنه سيحقق فتحاً جديداً في علم الآثار المصرية، ففي مارس (آذار) من العام الفائت (1995) وفي منطقة «أبو رواش» القريبة من القاهرة، استطاع باستخدام هذا التطور التقني الجديد، وبمساعدة فريقٍ عرمرم من الطوبوغرافيين والرسامين والمصورين، إلى جانب مائة وخمسين من العمال المصريين، أن يخترق قشرة الأرض لعمق يزيد عن 20 متراً، لينتشل جثة تعود إلى 4500 (أربعة آلاف وخمسمائة) سنة إلى الوراء؛ للمرة الأولى في تاريخ التقاط مومياء من زمن سحيق كهذا، من عهد الأسرة الرابعة، وكانت جثةَ فرعونٍ من الفراعنةِ([245]) تهتز الأرض تحت أقدامه في حياته، وتحتار الحاشية في إدخال السرور إلى قلبه، والمحافظة على مزاجه من التعكير والتشويش، ويتمنى كثيرٌ من أفراد شعبه أن يحظى برؤيته أو ملامسة جسده المقدس المنتسب للإله «رع»، فتحول إلى مومياء تحت أطنان الصخور والرمال، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأصبح شاهداً للتاريخ، مثيراً للعظة، محرضاً على التأمل والتدبر وكيفية عمل الأيام!!

كانت مومياء كاملة قد لُفت بكل عناية بقماش الكتان القديم الذي كان يستخدم في مراسم التحنيط، التي كانت تمتد إلى سبعين يوماً، تنقع الجثة خلالها في مادة النطرون (سيليكات الصوديوم والألمنيوم) بعد شفط الدماغ من فتحات الأنف، واستخراج الأحشاء بعد جراحة من نوع «الطب الشرعي» على الجثة، حيث يشق البطن (بحجر حادّ، حيث لم يكن علم المعادن واكتشاف البرونز والحديد قد تطور) وتفرغ الأمعاء، ثم يعاد ضخ المعقمات والعطورات إلى داخل البطن، وتعاد خياطته من جديد. الوحيد الذي يحافَظ عليه داخل الجثة كان القلب، حتى يكون جاهزاً للخفقان عندما يعود فرعون إلى الحياة مرة أخرى!! تعتبر البعثة الأركيولوجية الجديدة للعالم السويسري «فالوجيا» من أكثر البعثات مدعاةً للتشويق، وإمعاناً في الإثارة، كون الفراعنة الذين كشف علماء الآثار عن قبورهم، خاصة الذين ينتمون للأسرة الرابعة التي حكمت بين عامي 2630 و2490 قبل الميلاد من الذين أشادوا الأهرامات العملاقة، التي تحدّت الزمن حتى الآن، والمتوقع لها أن تدوم حسب العوامل الجوية التقليدية مليوني سنة أخرى. هؤلاء الفراعنة تم الدخول إلى غرف موتهم الأخيرة، على يد علماء الآثار الذين جاء عملهم متأخراً للغاية، فالكنوز نُهبت، والقبور بُعثرت وعاثوا فيها فساداً، وبقية الآثار النفيسة قد سُرقت وضاع أثرها، حتى الجثث المحنطة (المومياء) لم يبق منها سوى نتف وقطع متناثرة من بقايا الأقمشة التي غلفتها، وضاع كل أثر لأي مومياء من

كل الأسرة الرابعة، فلم يبقَ من أثرِ عبثِ لصوصِ المقابر إلا الغرف الغرانيتية الصلدة يصفر فيها الهواء، ويرج فيها صدى الصوت الحزين، وتنبعث منها رائحة الموت الأصفر.

ومع كشف «فالوجيا» عن المومياء الثمينة للفرعون «جيدفري» تكون أول مومياء قد برزت للعيان بشكل كامل من عصر الأسرة الرابعة، مقارنة بضياع كل أثر ل «خوفو» و «خفرع» و «منقرع». كل الذي عُثر عليه من بقايا خوفو، ليست مومياءه الثمينة التي سخَّر لها مئات الآلاف من العمال عقدين من السنوات، من أجل وضعها في الهرم العظيم لنقله إلى العالم الآخر، بل تمثال صغير بسنتمترات قليلة!!

كان الوصول إلى مومياء الفرعون «جيدفري» من خلال رحلة محفوفة بالمخاطر، لانتشال جثة قد غيّبها التاريخ لمدة خمسة وأربعين قرناً، وتحت مئات الأطنان من الصخور والرمال، ولكن التقنية الحديثة للكشف لم تعد كما كان يفعل الأركيولوجيون فيما سبق، بل تم إدخال العديد من التقنيات الحديثة، ومنها الرافعة التي أشرنا إليها، حيث يزمع «فالوجيا» على متابعة عمله في مناخ مصر المعتدل في فصل الشتاء من هذا العام 1996، وهو مزود برافعة تلسكوبية أفضل، فكل حجر من الأحجار الذي يسدّ غرفة الدفن والتابوت يزن ما لا يقل عن 4.5 أطنان ثقلاً. وما يزيد التشويق أكثر في البعثة الجديدة، هي إماطة اللثام عن سيرة فرعون يعد من أكثر فراعنة الأسرة الرابعة غموضاً وإبهاماً، أظهره تمثال من الكوارتز عثر عليه، في صورة شاب ذي نظرات متجهمة ووجه عابس، لم تمتد فترة حكمه أكثر من ثماني سنوات، وترك خلفه أثراً هزيلاً من بقايا هرم لا يعتد به، في مكان غير عملي بجانب النيل، فهل هذه هي الحقيقة الكاملة لهذا الفرعون الشاب الذي يحمل اسمه معنى «الإله رع يعيش إلى أبد الآبدين!!» أم يقبع خلفه سرٌّ أكبر؟!

هرم «جيدفري» قطعة من حجر الغرانيت الأحمر الخلاَّب بارتفاع 67 متراً!!

على مرتفعٍ من الصخر ناتئ، وإلى الشمال من أهرامات الجيزة بثمانية كيلومترات، أراد الفرعون «جيدفري» أن يبني هرماً لا يماثله هرم، يمتد أمامه طريق من الصخر بطول 1700 متر من المعبد إلى حافة الهرم، حيث مكان النذور والقرابين، وأما بناء الهرم بالذات فأراد أن يجعله قطعة جمالية، وتحفة تاريخية لا يضاهيها شيء، وتترك أثراً خلاباً لكل من وقف يتأمل هذا الصرح، فأما الحجر فيجب أن يكون من نوع الجرانيت الأحمر القاسي أشد قساوةً من الصخور العادية بعشر مرات، والمحمول من الجنوب، من بعد ألف كيلومتر (من منطقة أسوان الحالية) وليس من نوع حجارة «خوفو» الكلسية الضعيفة، تلك التي بناها والده!! وعلى الهرم أن يرتفع قليلاً عن النيل كقطعة من الكريستال المتألق بين السماء والأرض عند ساعة الغروب الجميلة. هكذا كان المشروع

مخططاً له، وأراد أن يعطيه اسماً رومانسياً، فهو لن يكون هرماً مغلقاً، بل خيمةً يخفق فيها الهواء، ويداعبها نسيم النيل بين سطوع المجرة ولألأة النجوم!!

هرم «خيمة النجوم» (Tent Stars) لجيدفري!!

حسب كل المعلومات التي يعرفها من درس في الآثار المصرية أن هذا المشروع لم يكلل بالنجاح، وأخفق إخفاقاً ذريعاً، في فترة حكمٍ لم تطل كثيراً، في أقصرِ فترة حكمٍ في الأسرة الرابعة، فجدّه سنوفرو حكم 44 سنة، وأبوه خوفو وأخوه خفرع كل منها 35 سنة، كما حكم منقرع 18 سنة (ابن خفرع)، ولذا فالمعروف من بقايا هرمه كتلة هزيلة من بقايا قاعدة هرم، لا تثير النظر ولا تملأ العين!! بارتفاع لا يتجاوز العشرة أمتار، مقارنةً بهرم أبيه خوفو الذي يشمخ إلى ارتفاع 146 متراً، وأخيه خفرع بعلو 143 متراً!!

كانت المعلومات الأثرية حتى الآن أن «جيدفري» (Djedefre) لم يستطع أن ينهي في حياته في فترة حكمه سوى القسم السفلي تحت الهرم (المكان الذي يمتد من فتحة الهرم إلى الأسفل) حيث تخصص غرفة فاخرة للروح المرافقة لرحلة فرعون في الأبدية (وكان يرمز لها بحرفين «كا») وبالمناسبة فقد كانت هذه الحفرة من العمق في هرم خوفو أن اختنق العمال الذين تابعوا الحفر لعدم تسرب الهواء إليهم، وفشلت كل محاولات السخرة لمتابعة العمل في هذا الاتجاه مع تراكم جثث المختنقين تحت وقع سياط الجنود([246])، مما اضطر إلى إيقاف الحفر بهذا الاتجاه بعد عشر سنوات من العمل!!([247]).

وعندما ووري الفرعون مثواه الأخير، كانت الحفرة السفلية التي تركها «جيدفري» والتي حوت جدثه كبيرة للغاية بمساحة 21 طولاً بتسعة أمتار عرضاً. هذه المعلومات التي سيطرت في أوساط البحاَّثة في فترة عشرات السنوات الفائتة تتعرض اليوم للاهتزاز، فبعد التحليل الاستراتيجي التصويري الذي قام به «فالوجيا» لأطنان الحصى والصخور والرمل في منطقة أبو رواش، تقدم بنتيجة جديدة هزت الأوساط العلمية عن حقيقة مصير هرم «جيدفري» وأثارت المناقشات في نقابة علماء الآثار السويسرية.

يقول التقرير بكل بساطة إن هذا الهرم قد تم بناؤه واكتمل، وفي فترة أقل من عقدٍ من السنوات، وبأقسى أنواع حجارة الغرانيت المحمولة من الجنوب من مسافةٍ تزيد على ألف كيلومتر كما أسلفنا. كان «جيدفري» يفكر على نحو مختلفٍ تماماً: يجب أن يكون الهرم أقل حجماً وأشد متانة ومناعة ضد الزمن. فتحت هذا الشعار أراد أن يبز والده في البناء ويخلد نفسه أكثر فأكثر!! ولكن كما يقول المثل «المال السايب يعلم الناس السرقة» فهذا الحجر الأنيق المتألق، والذي لا

يحرسه أحد، بعد أن ماتت الأمة التي أشادته في سالف الزمان، فتح شهية المترفين الرومان، الذين وضعوا أيديهم على هذه المستعمرة المباحة، فراحوا يحلبون هذه البقرة التي لا صاحب لها!! وهكذا تم نهب أحجار الهرم النفيسة، واستولى عليه اللصوص من كل جانب، وتداعت إليه يد الفناء بسرعة، فأين عيناك يا «جيدفري» لترى فعل الزمن بهرمك الجميل وخيمتك الفاخرة؟!!

هذه هي الخلاصة الجديدة التي وصل إليها العالم الأثري السويسري «فالوجيا»، والتي تقدم بها بموجب تقرير تفصيلي قبل عدة أسابيع مع نهاية عام 1995. كان ارتفاع هرم «خيمة النجوم» 67 متراً، وطول ضلع القاعدة 106 أمتار، وكان الهرم «مُلَبَّساً مغطى» وبالكامل من حجر الغرانيت الصلد الفظيع.

كان الفرعون «جيدفرى» من جبابرة الأسرة الرابعة الذين شيدوا الأهرامات، ففي مدى قرن من الزمن تم رفع «خمسة وعشرين مليون طن» من الصخور الرهيبة، المصقولة بغاية الدقة، والمغروسة برشاقة هندسية فوق بعضها بعضاً، ونجاح خوفو في الواقع يجب أن يفهم في ضوء كوارث البناء التي حدثت مع محاولات والده «سنوفرو» في بناء ثلاثة أهرامات، كما يجب –لفهم بداية رحلة حملة بناء الأهرامات– أن نراها في جذورها الأولى، فالقصة تعود إلى عبقري متعدد المواهب هو «امحوتب». فهذا الرجل الحكيم والمهندس وذو الشخصية الساحرة والعقل المبدع كان خلف الفكرة وتنفيذ البناء بنفس الوقت، وهو الذي نفذ مشروع الهرم الأول للفرعون «زوسر» الذي بنى هرماً متواضعاً نسبياً بارتفاع ستين متراً ما زال يحمل ذكراه في «سقارة».

كوارث بناء الأهرام عند الجد «سنوفرو» (Snofru)

مع استتباب الأمن وتوحد الدولتين المصريتين في دولة واحدة، وبموقع مصر الجغرافي، وبعدم قدرة الناس إلا على الاجتماع حول مصدر الحياة المشترك، المتمثل في النيل كما رأى في ذلك المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت([248]). يعتبر «سنوفرو» مؤسس الأسرة الرابعة أعظم من قام بمشاريع البناء العملاقة في العهد القديم، الذي كوم قرابة الأربع مليون طن من الأمتار المكعبة من الحجارة في ثلاثة أهرامات انتهت بثلاث كوارث، ولكنه كان يواجه التحدي الأول لمشاريع من هذا النوع، في وقت لم يعرف فيه بعد نظام بكرات الرفع، ولم تتطور علوم المعادن، ولم يستخدم فيه الحديد والبرونز (خليط القصدير والنحاس) وليس هناك سوى الإرادة الصلبة، والتصميم الحاذق، والعضلات المتينة، ونظام العمل المحكم المشدود، والقيادة المركزية، والعقل الهندسي الرشيق الذي كان كليةً بيد كهنة معبد «هليوبوليس»، وأيدٍ عاملة تسخر في العمل بدوافع أيديولوجية وإلا... فبالكرباج! مع هذا فالتجربة كانت في بدايتها، فمع الهرم الأول الذي أشيد في «مايدوم» (Meidum)

تعرض لكارثة خطأ فني، فلم يحكم وضع الحجارة الخارجية المغطية للهرم، التي كانت تختار بعناية فائقة ومن النوع الأبيض الناصع، مما جعلها تنهار بضربة واحدة، فتكومت عشرات الآلاف من أطنان الحجر فوق بعضها على شكل تلة حجرية مشوهة([249])، ومعها ملايين ساعات العمل الدؤوبة الممزوجة بالعرق والدم والدموع وزفرات العذاب وحشرجة الموت!! أما الهرم الثاني فكان خطأه في التربة التي وضعت فوقها هذه الأطنان من الحجارة الثقيلة، فكانت رخوةً مما جعل الهرم في النهاية يُخسف به، وتظهر على سطحه العديد من التشققات، وكأنه أُصيب بزلزال مدمّر، مما جعل كهنة «هليوبوليس» يهرعون لتعديل زاوية الميل في الأقسام العلوية من بنائه، وكان مخططه أن يرتفع فوق الأرض مائة وثلاثين متراً، ولكن هذا الميل في القسم العلوي أذهب العنصر الجمالي من المشروع برمته، وكل هذه الفواجع في البناء استفاد منها «خوفو» لاحقاً لينجز قطعة فنية تعتبر من عجائب الدنيا السبع، ولكنه كان بناءً مكلفاً بحق، كلف حياة عشرات الآلاف من البشر المعذبين، الذين لم يعمر أكثرهم حظاً أكثر من خمس وثلاثين سنة، بين عظام مطحونة، وجثث مهروسة، وأذرع وأطراف مبتورة؛ من سقوط كتل الحجر فوقها، وظهور مقوسة دلفت الشيخوخة إليها قبل الميعاد من فرط شد أطنان الصخور، كما أظهر ذلك التنقيب الحديث في المناطق المحيطة ببناء الأهرامات، فمشاريع عملاقة من هذا النوع في وقت قريب العهد من العصر الحجري، لإنجاز ديناصورات صخرية صناعية تصارع الزمن، في مطمح القبض على اللانهاية، تتطلب الشباب ودماءهم الحارة، وعنادهم الحرون، وصبرهم بدون ملل، وكان حظ النساء في هذا جيداً لافتقادهن العضلات المفتولة، فنجين من بطش نظام فرعون وآلة التسخير الجهنمية التي سلّطها على الشعب المصري، فكان محظوظاً في تلك الأيام من ولد أنثى!! لأنه لم يبقَ أحد لم يدخل في عمل سخرة، ويرفع الأحجار الملعونة على ظهره المكدود، في فترة امتدت لعمر ثلاثة أجيال، من مناظر الرعب وليالي دراكولا.

ومع الحذر الشديد من هذه الكوارث أنهى الفرعون سنوفرو حياته بأمل تشييد هرم لا يعيد الأخطاء السابقة، فكان البناء منذ البداية خائفاً وجلاً، لا يرفع رأسه، منبطحاً إلى الأرض، ملتصقاً بالأفق، بفعل زاوية الميل 43 درجة، خلافاً لهرم خوفو الذي يشمخ إلى السماء بكل قوة، بزاوية ميل بلغت 52 درجة، يقف بجانبه أبو الهول حارساً يتفحص من حوله بومضات من بصر حديد.

الإخفاق في تقرير المصير وعلة الانهيار الداخلي للحضارات

عندما كان خوفو يشرف على بناء هرمه لم يكن يخطر في باله أن كل كنوزه ستصبح في قبضة اللصوص، وجثمانه، الذي لا يُلمس، بأيدي العابثين، ولن يتركوه مرتاحاً بحال من الأحوال في رقدته الأبدية، طالما ترافقت ذكراه بالكنوز النفيسة المدفونة معه، فاقتحموا خلوته الأبدية ونهبوا

كنزه وفتشوا مومياءه بدون أي ذرة احترام، ومتى كان اللص مؤدباً وخجولاً؟!! ولم يبقَ في غرفة الدفن سوى قطع خرق مهترئة أكلها العث والبلى، من بقايا تغليف المومياء، وضاعت مومياء خوفو ومعها كنوزه، وأما كيف وصل اللصوص وبشكل مبكر إلى غرفة الدفن، التي كانت مغلقة بحجارة بلغ وزن الواحد منها أربعين طناً (ثقل شاحنة كاملة مملوءة بالأغراض)، فهذا له قصة أخرى، فمدخل الهرم لم يُعرف إلا في عهد صلاح الدين الأيوبي، فتمويه المدخل قاوم 3700 سنة قبل أن يُعرف حقاً، وعندما تم الدخول إلى الهرم كان البريد المسجل قد ضاع وصندوق الرسائل التاريخي الذي يحمل الأخبار الهامة «والمسجلة» يصفر فيه الهواء، وأرض مصر على هذه الشاكلة أرض الكنوز، ليس آخرها كنوز قارون الذي عاصر الأسرة الثامنة عشرة وكانت مفاتيح خزائن كنوزه «تنوء بالعصبة أولي القوة» لأن عقلية الفراعنة والشعب المصري القديم أنه كان يعيش للآخرة أكثر من الدنيا، لحياة ما بعد الموت، فكانوا يبنون بيوتهم من الطين وقبورهم من حجر الجرانيت المتين.

وإذا كان مصير الحضارات وموتها يختلف من واحدة لأخرى، إلا أنها تشترك –في الغالب– في علة واحدة هي أنها انهارت بفعل تحدي داخلي أكثر منها من هجوم خارجي جارف، ولا يخرج مصير الحضارة الفرعونية عن هذا المسار والقانون التاريخي. وحتى حضارة المايا –حسب نظرية شبنجلر– التي اعتبرها أنها كانت قوية رائعة ولكنها سيئة التسليح، مما جعل عصابة من الإسبان مسلحة تسليحاً جيداً بالبنادق والمدافع، أن تجتاحها وتنهيها، وتقطعها لترمي بها إلى الأرض كأي فاكهة ناضجة([250])، فهي تدخل تحت هذا المساق تحت الاستعداد الداخلي للانهيار أمام هذه الضربة، وورق الشجر لا يسقط عادة إلا في فصل الخريف، والحضارات تنهار في خريف عمرها، ولكن قد يختلط هذا مع برودة الجو([251]) وهبوب الرياح، ولكن تحليل توينبي يمضي وفق دراسته المستفيضة إلى علة الانهيار الداخلي، فالحضارة الفرعونية قضت نحبها بالإخفاق الداخلي قبل كل شيء، وكانت حملة بناء الأهرامات على الصورة التي عرضناها في بناء هرم جيودفري المكلف وبسرعة رهيبة من الأسباب التي استنزفت الأمة المصرية حتى الموت، فقضت نحبها وغيبها التراب بعد ذلك، قبل أن يهاجمها عدو خارجي.

الأهرامات... ظاهرة موت الحضارة

{فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}([252])

لم يكن اللورد «كارنارفون» من علماء الآثار المصرية ولكن مناخ مصر لصحته العليلة وحب العثور على الذهب والكنوز، وما يحيط بالأساطير المصرية من القصص الخلابة والساحرة، جعلته يكلف شاباً نحيلاً في عام 1890 بالبحث في الآثار المصرية، هو السيد «هوارد كارتر» (Carter Howard) الذي استمر التعاون بينهما لفترة 32 عاماً([253])، ولكن معظم الحفريات التي قام بها كانت مخيبة للآمال، باستثناء بعض الكشوفات الجانبية غير ذات الأهمية، فضلاً عن تبخر حلم اللورد في التقاط كنز عظيم من الأصفر الرنان!! فهؤلاء المصريون القدماء كانوا يحملون معهم كنوزهم إلى مقابرهم المسلحة بالأحجار الثقيلة، فحفظوا للزمن ليس فقط جثثهم المحنطة على شكل المومياء، بل ثرواتهم النفيسة وبدائع صنع أيديهم، وبقايا طعامهم وملابسهم وأسلحتهم وعرباتهم!! فضلاً عن الجدران الملونة بالكتابات التي تشرح طبيعة الحياة بالتفصيل، من صناعة القماش وطريقة الحياة واللباس والزينة والحروب والموسيقى، في مناظر عجيبة وألوان حافظت على نفسها آلاف السنين، كانت آثار المصريين بحق متحفاً محفوظاً، ومتحف شمع تاريخياً.

كارتر واللورد «إيرل كارنارفون» (Carnarvon) يبحثان عن الكنوز

استمر كارتر كما يصف نفسه «الكلب الذي يشم رائحة الطريدة فينبش في الأرض» فترة طويلة وهو يمسح المناطق الأثرية المتوقع فيها العثور على بعض النفائس، واللورد كارنارفون يمده بالمساعدة المالية على مضض، ولا تخلو أحياناً من حفلات الإهانة والإنذارات، حتى قرر كارتر أن يقوم بالمسح في منطقة الشمال في دلتا النيل، ولكن مفاجأةً غير سارة كانت في انتظاره، هذه المرة من كائنات العالم السفلي... من ثعابين الكوبرا!!

كل الفضل يرجع لثعابين الكوبرا!

قرر كارتر أن يبدأ حفرياته في منطقة «سايس»، ولكن ارتفاع حرارة الجو، ونضح التربة بمياه الرشح النيلية؛ جعلت الحياة لا تطاق، وكان المرعب بحق في منطقة الحفريات هو ظهور حيّات الكوبرا الخبيثة، برأسها المسطح وعينيها المحدقتين وفحيحها المرعب التي إن بصقت بلعابها في عيني العامل أصابته بالعمى، وإن نهشت في لحمه أصابته بنوبة تحلل دم قاتلة، مما جعل

كارتر يوقف أبحاثه ليتحول إلى منطقة الجنوب، إلى منطقة «طيبة» (الأقصر الحالية) لمواصلة الحفر هناك، ولكن هذا التحول قاده إلى كشفٍ هزّ العالم برمته، فقد وقع على مقبرة ملكية كاملة لم تصل إليها أيدي اللصوص بعد([254]).

أعظم اكتشاف وأضخم كنز في تاريخ علم الآثار المصرية

في شتاء عام 1906 كان الأثري «تيودور ديفيز» يواصل أعماله في وادي الملوك في جنوب مصر؛ حينما اكتشف حفرةً واسعةً على عمق سبعة أمتار، مملوءة بالوحل الجاف حتى السقف، مما جلبته السيول، وعثر على بعض المخلفات الفرعونية غير ذات قيمة ولكنها تتحدث عن توت عنخ آمون، الملك الشاب الذي قضى نحبه شاباً في عمرٍ لا يزيد عن العشرين([255])، والخلاصة التي خرج بها «ديفيز» يومها أن بقايا توت عنخ آمون نُهبت، كما نُهب غيرها على يد لصوص المقابر. إلا أن هذه النتيجة لم تقنع صاحبنا كارتر فتابع حفره في المنطقة، ما بين بقايا قبر رمسيس التاسع والسادس حتى جاء ذلك النهار الرائع، عندما رأى شيئاً ملفتاً للنظر.

يوم الرابع من نوفمبر من عام 1922 على أبواب الكشف التاريخي

اكتشف كارتر درجة منحوتة في الصخر على امتداد الأرض، أسفل مقبرة رمسيس السادس، فلما أزال الأتربة والأنقاض عنها عثر على خمس عشرة درجة أخرى، تنحدر إلى الأسفل، وتشكل سلماً عرضه 6.1 أمتار تنتهي بباب مغلق، عليه أختام الجبانة الملكية الفرعونية، فرك عينيه ولم يصدق... لقد كانت تعلن عن قبر الفرعون «توت عنخ آمون» المعروف باسم «خبرو نب رع». عندها أدرك كارتر أنه أمام كشف مثير، ولكن... كل الخوف أن تكون يد اللصوص قد وصلت إليه كما وصلت لفراعنةٍ عظام آخرين، وعند فتح الباب كانت المفاجأة أعظم حيث تتابع المسلسل المثير أكثر فأكثر، فالباب قاد إلى ممرّ آخر بطول ثمانية أمتار يفضي مباشرة إلى مكان الدفن الرئيسي، يحرسه من جديد باب آخر، عندها أرسل في 6 نوفمبر برقية إلى اللورد «كارنارفون» الذي سارع بالحضور مع ابنته إيفلين. وفي 25 نوفمبر (تشرين الثاني) يصف كارتر المصاب بالإعياء بعد رحلته المكدودة للاكتشافات التي امتدت 32 عاماً، بأن ذلك اليوم كان «من أروع الأيام التي عشتها في حياتي كلها، يوم لا ريب أني آمل برؤية مثله مرة أخرى».

استطاع كارتر ومعه اللورد «كارنارفون» الذي كان يراقب المنظر وهو كاتمٌ أنفاسه، وكأن الطير على رأسه، ولعابه يسيل بانتظار الذهب الموعود الذي انتظره أكثر من ربع قرن!! وتحت نور الشمعة البسيط المترجرج، استطاعا أن يريا أشياء عجيبة في تلك اللحظة؛ من كراسٍ ومناضد

[256]

وحيوانات عجيبة وتماثيل من ذهب، تتبدى شيئاً فشيئاً وسط الدجنة([256])، وخرج التاريخ يروي قصته على لسان الفرعون الشاب، الذي لم يتمتع بالحياة أكثر من عقدين من السنوات، ولم يحكم أكثر من ثماني سنوات، ولكن جثمانه بقي يقاوم الزمن 3275 عاماً. كان المنظر رهيباً بحق؛ فالملك مغلف سبع مرات، منها أربعة هياكل جنائزية من خشب مذهّب، وفي داخلها ثلاثة توابيت متداخلة بإحكام، وترقد المومياء (الجثة) في الأخير بقالب يزن 1110 كغ من الذهب الخالص، والتوابيت الثلاثة تزن معاً أكثر من 1375 كغ([257]).

أسطورة لعنة الفراعنة وموت اللورد «كارنارفون»

كانت الجثة سليمة، والمقبرة محفوظة من أيدي اللصوص لأول مرة في تاريخ الاكتشافات، والتابوت صامت هادئ، يتعجب من الذين اقتحموا عليه سكونه، يعكرون الهدوء الأبدي الذي يطوقه بدون استئذان، وهو الذي كان يحكم أعظم حضارة مرت على وجه الأرض! كانت مومياء «توت عنخ آمون»، الفرعون الشاب الذي حكم بعد أمنحوتب الرابع المارق (أخناتون)([258])، كاملةً غير منقوصة، وقد غُطيت المومياء من الداخل بما لا يقل عن 143 قطعة من نفائس الذهب والياقوت واللازورد، بالإضافة إلى علب تحوي أغذية محفوظة من شرائح لحم البط والبقر، وباقاتِ زهور وأَسرَّة كبيرة «ما زالت رائعة للنوم عليها حتى هذه الساعة» ومركبات مفككة ومصفحة بالذهب، وأوانٍ من الالبستر الرخام الأبيض([259]) كلها من أجل خدمة الفرعون حينما يرجع إلى الحياة مرة أخرى. وكانت المفاجأة الأخيرة في مسلسل كشف مقبرة توت عنخ آمون موت اللورد كارنارفون ذاته بعد أشهر قليلة من الكشف وبحادثة تافهة، ثم تتالى موت آخرين من أعضاء البعثة، مما حرك في الجو إشاعات «الأساطير البريطانية المعروفة من سكنى الأرواح والأشباح للبيوت القديمة في أفلام دراكيولا وفان توماس!!» من لعنة الفراعنة، تحيق بالذي يزعجهم في رقدتهم الأبدية!! وبالطبع فإن الفراعنة وقد لفهم السكون الأبدي، ولم يعودوا أكثر من ذكرى، لم يعودوا يملكون لأنفسهم ولا لمن حولهم ضراً ولا نفعاً، فليس عندهم القدرة أن يسمعوا: {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}([260])، بعد أن دخلوا رحلة اللانهاية التي طالما استعدوا لها، فانقلبوا إلى أمواتٍ غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون. والذي تبين بعد ذلك أن هذه القبور التي أزكمت الأنوف من تراكم «العفن» فيها خلال آلاف السنوات، لم تكن كلها من نوع عفن «البنسلين»([261]) الذي يشفي القروح ويداوي الانتانات، بل إن منه القاتل والسام، والمهم فإن البحث عن الكنوز وعطش امتلاك العقارات والثروات واقتناء المال والذهب، تحمل مخاطر الموت فيها بصورة من الصور، إن لم يكن العضوي فبالتأكيد الروحي، كما جاء في القصة الشعبية عن مشتري الأراضي النهم([262])!

بانوراما تاريخية للامتداد الفرعوني (الإطار الشمولي)

المومياء التي انُتشلت، سواء التي وصل إليها «ميشيل فالوجيا» السويسري قبل عدة أشهر في العثور على جثة الفرعون «جيدفري» أخي خفرع والتي تعود إلى «4500» سنة، أو تلك التي انتشلها البريطاني «هوارد كارتر» التي ذكرناها في قصة مقبرة «توت عنخ آمون»، أو التمثال الرائع النصفي لامرأة في غاية الجمال (نفريتيتي) زوجة أخناتون ذات البنات السبع، التي أحبها زوجها إلى حد العشق والوله، والذي عثر عليه الألماني «بوركاردت» أو مدينة طروادة (Trojyas) الموجودة قرب مدينة إزمير التركية الحالية (منطقة حصارليك) التي أزاح الستار عنها الألماني «شليمان» (Schliemann) وظنها مدينة واحدة، فإذا بها سبع مدن فوق بعضها البعض، تركب كل مدينة عنق الأخرى، طبقاً عن طبق، والتي لها قصة من أكثر قصص الدراما في العهد القديم، وتحتاج إلى مقالة تفصيلية، لأنها خُلِّدت بأشعار هوميروس في الإلياذة والأوديسة. أقول لقد أضاع الحمقى والجشعون من الذين يبحثون عن الذهب آثاراً لا تقدر بثمن كما يروي لي زميلي الدكتور الصناديقي من مدينة «الملَّوي» المصرية القريبة من تل العمارنة الأثرية. ويصل الحزن بالإنسان مداه، عن أمة أنجزت وشمخت وارتفعت، ثم أصابها داء الأمم فهوت وانحطت وماتت، كيف أن الكثير من هذه التحف الأثرية تسرب إلى خارج البلاد مقابل دراهم معدودة للسياح، وكانوا فيها من الزاهدين.

الشموخ والانهيار في مسيرة الحضارة الفرعونية

عندما نسمع عن توت عنخ آمون أنه كان من الأسرة الثامنة عشرة فعلينا أن نحيط بالبانوراما الكونية التي نهضت من خلالها الحضارة الفرعونية، التي اعتلى عروشها 170 (مائة وسبعون فرعوناً)، ومشت في ثلاث مراحل، وعمرت ثلاثة آلاف سنة، من خلال حكم ثلاثين أسرة، مقسمةً إلى ثلاث فترات: القديمة: وهي أطولها، وامتدت حوالى ألف سنة، وفيها أُنجز بناء الأهرامات العملاقة، ناطحات سحاب العصر القديم، في عصر الأسرة الرابعة، والموجودة حالياً في الجيزة، وانتهت بالأسرة السادسة بحكم «بيبي الثاني» الذي حكم أطول فترة في تاريخ مصر كلها، حكم 94 (أربعة وتسعين) عاماً كاملة، ورأت عيناه أيضاً كارثة الانهيار الكاملة!! وتذكرنا الموعظة التي تقدم بها أحد الفلاسفة (إيبو – ور) منذ ذلك الوقت، عن أزمة المثقف والسياسي بتنبيهه على الطوفان القادم، قبل أن تغرق البلد في حرب أهلية طاحنة مروعة، وفوضى كاملة وفقر مطبق، وعجز فاضح مدمر، وتدخل في حالة انكماش وتقلص رهيبة بعد كل جبروت وشموخ بناء الأهرامات، قال الفيلسوف: «الفوضى ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها، لكنك تُغذى بالأكاذيب التي تتلى عليك ليل نهار، فالبلاد تحولت إلى قش ملتهب، والإنسانية غدت منحلة بئيسة، ليتك تذوق بنفسك بعض هذا البؤس!! لقد أصبحت الحياة مُرَّة حتى عافها الناس؛ رخيصةً

حتى هانت عليهم. يقول الكبير: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، ويقول الصغير: ليت أمي لم تلدني، فبطن الأرض خير من ظهرها».

من مظاهر العبقرية المصرية

مع هذا تبقى المرحلة الأولى من الحضارة المصرية هي تلك الفترة التي قفزت بشكل محير، لكل أولئك الذين درسوا التاريخ وبزوغ الحضارات، بل إن البعض يشبّه قفز الحضارة المصرية من العصر الحجري إلى عصر الحضارة، مثل قفزة الإنسان من اختراع النار إلى عصر الصواريخ والذرة، فالأهرامات حسب آخر المعلومات الأركيولوجية بنيت بدون وجود آلات متطورة، بل لم يكن الحصان قد دُجِّن، ولم يكن الحديد قد سُخِّر، ولم يكن البرونز قد صُنِّع، ولم يعرف بعد نظام البكرات الرافعة!! وأما رفع هذه الحجارة الرهيبة فقد حيَّر العلماء حتى هذه الساعة، في نوع التقنية المستخدمة لرفع بعض حجارة غرفة الدفن الداخلية التي يصل وزنها إلى أربعين طناً، حتى افترض البعض مؤخراً أنها كانت في خطة البناء ووضعت في الطابق الأولي، ثم رفعت بالتدريج حتى جاء دورها، ولكن مثل هذا الافتراض يتطلب دقة مريعة في الحسابات، وعلى هذه الحجارة حتى يأتي دورها لتأخذ مكانها، أن تنتظر خمسة عشر عاماً كاملة؛ باعتبار أن بناء هرم خوفو استغرق عشرين عاماً، وأما وضع قاعدة الهرم التي كشفت الأجهزة الإلكترونية أنها لا تنحرف عن خط السواء بأكثر من 16 مليمتراً (حوالى واحد ونصف سنتيمتر) فهي الطريقة العبقرية التي اهتدوا إليها من قانون «الأواني المستطرقة»، والذي لا يحتاج لأي جهاز متطور، والذي اكتشفه الفيلسوف والروحاني الفرنسي «ليزاك باسكال»([263]) الذي يقول: إن اتصال عدة أوعية مائية ببعضها يجعل الماء في سوية واحدة، فقاموا بحفر الأرض القاسية عند الجيزة،

بوضع جداول مائية متقاطعة متصلة ببعضها بعضاً، وعند «حيز» حافة الماء في الجدول تم «تعليمه» ووضع إشارة عند الحافة ببالغ الدقة، فحققوا ميزاناً مائياً عملاقاً بحافة ضلع مربع بطول 230 متراً، ثم مُلئ الجدول عند هذه الإشارة بالصخر القاسي، وهكذا تشكلت قاعدة للهرم بمحاذاة الأفق تماماً، وتم بناء هذه الشواهق الفظيعة بعمل اليدين ومزميل من نفس نوع الحجر الأقسى (حجر الديوريت)، فالنحاس كان المعدن الوحيد المعروف الذي أمكن السيطرة على تقنية تذويبه، وهو لا ينفع في قد وتهشيم الصخور الرهيبة، من نوع الصخور التي بنيت منها الأهرامات، حيث لم يكن البرونز القاسي (خليط القصدير والنحاس) أيضاً قد طُوِّر كما ذكرنا، وكانت الحجارة تشد على أعمدة خشبية مدورة بشكل دقيق، يرش عليها طين النيل اللزج، وتشدّها العضلات، فالحصان كان غائباً عن الساحة ورديفه «البغل».

الحصان دبابة العصر القديم

وعندما ظهر الحصان للميدان (دبابة العصر القديم) جاء كتقنية صدمة «باعتبار أن لب التكتيك الحربي يقوم على سلاحي الصدمة والحركة كما يعرف الاستراتيجيون العسكريون»، كما كانت مفاجأة نوعية كاملة في تطوير السلاح ونظام الحرب ضد الحضارة الفرعونية، حيث اجتاح به البرابرة وبالعربة المدرعة –التي طورها الآشوريون فيما بعد إلى ذروة التقنية الحربية– الحضارات القديمة، فاستطاع الهكسوس وبواسطة الحصان –كما سيفعل الإسبان لاحقاً مع حضارة الأزتيك وبواسطة الحصان العربي هذه المرة!– أن يجتاحوا ويسقطوا الحضارة الفرعونية، في دلتا النيل، وكذلك فعل الكاشيون فقوضوا الحضارة السومرية في دلتا دجلة والفرات، التي كانت تعاصر الحضارة المصرية بدون موعد لقاء.

تقييم المؤرخ «ديورانت» لإنجازات الحضارة المصرية

والخلاصة فإن الحضارة الحالية تدين بمعظم ما تستهلكه أو تستعمله إلى إنجازات الحضارة المصرية القديمة، من اللباس والزينة والطعام والشراب والنوم والثقافة. وأجمل المؤرخ الأمريكي ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» هذه الإنجازات على الشكل التالي: «وحسبنا أن نذكر من معالم حضارتها نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية، وأنها في أغلب الظن هي التي اخترعت الزجاج ونسيج الكتان، وأنها هي التي أحسنت صنع الملابس والحلي والأثاث والمساكن، وأصلحت أحوال المجتمع وشؤون الحياة، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن في البلاد، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائي والثانوي، بل إنهم هم أول من أوجد نظام التعليم الفني لإعداد الموظفين ورجال الإدارة، وهم الذين ارتقوا بالكتابة، ونهضوا بالآداب والعلوم والطب، والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردي والضمير العام، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية، وأول من كتب في الفلسفة، وأول من نهض بفن العمارة والنحت وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها فيما نعرف أحد من قبلهم»، ليصل في النهاية إلى نقل شهادةٍ عن «فور»: «لعل مصر بهذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا»([264]).

وأما المرحلة الوسطى من مسيرة الحضارة المصرية فلم تعمر كثيراً، وحكمت فيها الأسرة 11 و12، وسقطت بفعل الاجتياح الخارجي على يد الهكسوس، الذين جاؤوا من الشرق الأوسط من سوريا الحالية، وربما عاصر نبي الله يوسف عليه السلام هذه الفترة، والفترة الحديثة وامتدت حتى سقوط مصر بيد البطالمة، الذين أعقبوا مجيء الاسكندر الذي بنى مدينة الإسكندرية، وربما عاصر

نبي الله موسى عليه السلام هذه الحقبة من تاريخ رمسيس الثاني الذي حكم حوالى 66 سنة، وتم اجتياح مصر من أكثر من قوة خارجية (الآشوريون والفرس).

هذا اللغز الغامض في الانهيار الحضاري؟ ما وراءه؟

ليس هناك من مؤرخ أو دارس للحضارات إلا ويقف في بعض الأحيان مذهولاً عن هذا السر الخفي في انهيار الحضارات واضمحلالها ثم موتها واختفائها من صفحة التاريخ، على الشكل الذي وصفه المؤرخ والفيلسوف الألماني شبنجلر، الذي عاش في النصف الأول من هذا القرن، فكتب يقول في كتابه الموسوم «انهيار الحضارة الغربية» والذي لا يخلو من مسحة تشاؤمية: «إن حشداً لا حدّ له من الكائنات البشرية يجري في جدول فاقد الضفتين، ويطالعنا في مشرعة الجدول ماضٍ مظلم يفقد فيه إحساسنا بالزمان كل قوى التعريف فيه... وعلى امتداد الماء تمر بنا سلسلة أمواج من الأجيال غير المتناهية، وهي ما ندعوه بالأفخاذ والقبائل والشعوب والأجناس، التي توحد بين سلاسل من الأجيال، داخل هذه المنطقة المحدودة من مناطق السطح التاريخي... فالآريون والمغول والجرمان والكلتيون والبارثيون والفرنك والقرطاجيون والبربر والنبط هم كلهم أسماء نميز بواسطتها بعض الصور غير المتجانسة لهذا النظام. ولكن فوق هذا السطح تنجز الحضارات العظمى دورة أمواجها الفخمة الجليلة، وهذه الأمواج تظهر فجأة وتنتفخ متورمة في خطوط جميلة رائعة، ثم تهبط لتستوي تحت سطح الماء وتختفي، فيبدو أثر ذلك سطح الماء مرة ثانية قفراً يغط في سبات عميق. إن الحضارة تولد في اللحظة التي توقظ فيها نفس عظيمة الروحانية الأولية للإنسانية أبدية الطفولة، وتعزل نفسها لتصبح شكلاً مما لا شكل فيه، وشيئاً محدوداً فانياً مما هو خالد وغير محدود؛ فتزدهر في بقعة من الأرض محددة لها حيث تبقى ملتصقة برقعة الأرض، شأنها في ذلك شأن النبات، ثم تموت عندما تحقق هذه النفس كامل إمكاناتها في أشكال شعوب ولغات ومذاهب وفنون ودول وعلوم، وعندما تبلغ هذا الهدف تتصلب فجأة وتفسد وتتسمّم وتجمد دماؤها وتخور قواها... إن هذا الاكتمال الباطني والظاهري الخاتمة التي تنتظر كل حضارة حية وهو مغزى جميع الانحطاطات التاريخية»([265]).

لذا فإن المؤرخ الأمريكي والحجة في التاريخ وضع هذا السؤال المحرج والمصيري على الصيغة التالية: «لماذا يمتلئ التاريخ بركام أنقاض الحضارات ويبدو كأنه يقول لنا إن الموت مصير جميع الحضارات؟»([266]).

هذه الإشكالية التاريخية التفت إليها أيضاً وقديماً العلامة «ابن خلدون» مما سبق بها كعادته فلاسفة التاريخ المعاصرين، فكتب يقول هذه المرة عن أفول الحضارة الإسلامية، في كلام في غاية

الجمال والإشراق والقوة: «هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من المحاسن ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص ظلالها، وفل من حدها وأوهن سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودُرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاستجابة، والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملةً، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث»([267]).

ما هي الحضارة إذاً؟؟ ولماذا تهرم وتموت أو تدمر؟؟

يرى المؤرخ «ويل ديورانت» أن الحضارة مزيج معقد من «نظام اجتماعي يقوم بنشر الإبداع الثقافي، ونظام سياسي مصون من خلال العرف والأخلاق والقانون، ونظام اقتصادي محكم من خلال استمرار الإنتاج والتبادل، وهي إبداع ثقافي من خلال الحرية وتسهيلات إنشاء الأفكار والآداب والأساليب والعادات والفنون والتعبير عنها واختبارها وتثميرها، وهي نسيج متشابك ومعقد وغير ثابت من العلاقات الإنسانية، نسيج يتسم بالجهد في صنعه والسهولة في تدميره» ليصل في النهاية إلى تلخيص الحضارة بقوله: «هي نهر ذو ضفتين، يمتلئ أحياناً بدماء الناس الذين يقتلون ويسرقون ويصيحون ويفعلون أشياء يسجلها المؤرخون عادة. ولكننا نجد على الضفتين في الوقت ذاته أناساً لا يحس بهم أحد وهم يبنون البيوت، ويمارسون الحب والجنس، ويربون الأطفال، ويتغنون بالأغاني، وينظمون الشعر، بل ينحتون التماثيل. وقصة الحضارة هي قصة ما حدث على الضفتين. ولكن المؤرخين متشائمون، لأنهم يتجاهلون الضفاف ويتعلقون بالنهر»([268]).

في حين يرى شبنجلر أن الحضارات كائنات خاصة ذات دورة حياة خاصة بها مثل أي كائن عضوي، فيرى التاريخ أنه: «دراما تتألف من عدد من حضارات جبارة تنبجس، كل حضارة منها بقوة بدائية من تربة الإقليم الأم حيث تبقى مشدودة إليه برسوخ وثبات طيلة دورة حياتها، وتطبع كل واحدة منها مادتها وجنسها البشري وصورتها الخاصة بطابعها، ولكل واحدة من هذه الحضارات فكرتها وعواطفها وانفعالاتها الخاصة، وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بها، وهنا تزدهر الحضارات والشعوب واللغات والحقائق والأصقاع وتهرم وتشيخ، شأنها في ذلك شأن أشجار البلوط والصنوبر والعساليج والزهر والأوراق. لكن لا يوجد جنس بشري يهرم ويشيخ»([269]).

وهكذا فالكون يقوم على قاعدة التغير وعدم الدوام، فهذه هي الحقيقة الأولى، وكل شيء في هذا الوجود من حيوان الخلد إلى الجبل، ومن الفكرة إلى الإمبراطورية، ومن الإنسان إلى الحضارة، يمر من خلال دورة الوجود ذاتها؛ أعني النمو والانحلال ثم الموت، والحياة وحدها هي الشيء المستمر، وهي دائماً تسعى إلى الإفصاح عن نفسها في صور جديدة، والحياة جسر، والجسر هو للعبور وليس لبناء بيت فوقه، والحياة عملية من عمليات التدفق والجريان، فمن يتعلق بأية صورة من الصور الزائلة مهما يكن جمال هذه الصورة، فسوف يقاسي نتيجة مقاومة هذا التدفق والجريان([270]).

ومهما كان سبب انهيار الحضارة «والذي هو في غالبه تحدٍّ داخلي بالدرجة الأولى» فإن هناك حقيقتان تظللان الموضوع، الأولى: لا يعني الانهيار الموضعي انهياراً كاملاً لكل الجنس البشري، فبؤرة الحضارة ومراكز القوى تنتقل وتتحرك من نقطة لأخرى، والثانية: مع مزيد من فهم قوانين الحياة، وآليات قيام الدول وانهيار الحضارات يبقى الأمل في تدخل الوعي الإنساني في فرملة مخطط الهبوط على الأقل.

الطبيعة البشرية والطغيان

لا يوثق بالإنسان لأن في جبلته الاستعداد للطغيان مع كل امتلاك ما لم توجد ضوابط ومراقبة، ولا يعول عليه لأنه خُلق هلوعاً جزوعاً منوعاً. وبقدر التعطش للسلطة بقدر الفراغ والنقص الداخلي عنده، والسلطة بدون مراقبة ومحاسبة تفسد، وقليل من السلطة تعني قليلاً من الفساد، وسلطة مطلقة تعني فساداً مطلقاً وإن الإنسان لظلوم كفار. وهذه الحقيقة اهتدى لها «أتيين دي لابواسييه (1530 - 1562) قبل 440 سنة في علم الاجتماع والفلسفة السياسية. فاعتبر أنه «لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيد واحد يستحيل الوثوق بطيبته ما دام السوء في مقدوره متى أراد. فإن تعدد الأسياد تعدد البؤس بقدر ما نملك منهم». والقرآن يضرب المثل في هذا بين «رجلين أحدهما فيه شركاء متشاكسون، ورجل سلم لرجل هل يستويان مثلاً؟». وهذه الحقيقة موجودة في «الفيزياء» كما هي في علم «الاجتماع»، فإذا ضغط الغاز تحولت الكمية الهائلة منه إلى قطرات من سائل، وإذا سمح لجزيئات بسيطة من عطر أن تخرج من عنق زجاجة فعلت كما فعل جني المصباح، فانتشرت في جنبات الغرفة جميعاً مهما كانت الصالة رحبة. وكذلك في امتلاك مفاتيح القوة الاجتماعية، فأي شخص منا يجلس في داخله الفرعون «رمسيس الثاني» الذي حكم تسعين سنة وقتل من الناس ما لا يحصيه عدد، وتزوج عشرات النساء، وأنجب أكثر من مائة طفل، وزوّر أسماء الفراعنة الذين سبقوه، فمسح أسماءهم وكتب اسمه على النصب والتماثيل. وما يضبطنا هو نفس قانون انتشار الغازات، فكلما انفسح المجال أمامها انتشرت، وكذلك في وضع اليد على السلطان، ويمكن لأي فرّاش أو خادم في أي دائرة أن يتحول إلى فرعون بشرط واحد وهو امتلاكه مفاتيح القوة بدون كوابح، ويمكن لأي مدير في أي دائرة أن ينقلب إلى طاغية يذيق الموظفين أشد البلاء والعنت بشرط واحد هو امتلاكه مفاتيح القوة بدون مراقبة ومحاسبة. ويمكن لأي شرطي أن يصبح ديكتاتوراً، وكل ما يحتاجه هو وضع يده على السلاح والجيش. ولا يمنحُ الإنسان الاعتدال والمجتمع العدل إلا «المعارضة»، ولذا كانت المعارضة شرطاً للاتزان. وهذا المرض أي تحول البشر إلى صنفين: آلهة وعبيد، أو بتعبير القرآن مستكبرين ومستضعفين، هو اختلال في رافعة القوة في المجتمع، ويمكن أن يتسرب هذا المرض بجراثيمه الفكرية إلى كل طبقات المجتمع ومستوياته حتى في علاقة الرجل بعائلته، فيعامل امرأته كعبدة وأولاده كرقيق، ولا يمكن لأحد أن يعترض عليه، فكلماته لا معقب لها، وإذا أراد بهم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. من هنا كانت المعارضة أساسية لإرساء العدل الاجتماعي، وهي تهب الصحة النفسية لكل الأطراف، وهي ضرورية للأمة وتصب في مصلحة الحاكم وتحافظ على كل الأطراف، ولم يكن غريباً أن أفرد

القرآن سورة كاملة باسم «المؤمن». إنها رواية عن رجل رفض السكوت على الجريمة وكان في الظل يكتم إيمانه في أجواء مشبعة بالرعب ورجال الأمن والجواسيس، فشعر أن الأمان ليس في الصمت بل بالجهر والإعلان في اللحظة المناسبة، فقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟». في هذه الرواية يبرز معنى الحكمة، فليست أن يتسربل صاحبها بقميص «السرية» ليقوم بانقلاب ناجح يطيح بالحاكم في ساعة الصفر، بل النطق بالكلمة المسؤولة والصحيحة في الوقت المناسب ولو كانت مكلفة، وهي ستخرج في النهاية بضريبة أخف بكثير من الخرس الاجتماعي، والقرآن يسجل أن الله وقاه من سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب. وخُسف بالمجتمع الفرعوني في ظلمات التاريخ. إن العدل مفهوم وجودي لأنه التوازن بين أطراف القوة وهذا ينطبق على قوانين الميكانيك وتيارات النفس وحركة المجتمع. فالسيارة التي لا تملك فرامل تمشي باتجاه الحوادث، والنفس التي لا تنمي ملكة النقد الذاتي تصاب بالكبر، ولن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. والمجتمع الذي لا يوجد فيه معارضة ميت. وهو أقرب إلى عالم القبور حيث الأمن والسكون بدون أي حركة، وهل رأينا الأموات يقومون من قبورهم فيمارسون نشاطاً سياسياً؟ إنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون. تستقيم حركة السيارة بين «دعسة البنزين»

و «الفرامل»، وتعمل العضوية على ترشيد أي حركة من أي أصبع بتمرير أوامر الحركة بمنظمات خاصة في قاعدة الدماغ وتعطلها أو عجزها يقود إلى مرض باركنسون فيمشي الإنسان مكباً على وجهه مترنحاً مهتز الأوصال. وتعيش الروح بصحة نفسية مع ممارسة النقد الذاتي، وتنضج النفس بدخول مرحلة «النفس اللوّامة» بتشغيل آليات المراجعة بحيث تتحول إلى جهاز يعمل تلقائياً من عالم الوعي واللاوعي أكثر من صحوات غير منتظمة للضمير. وانتبه الغرب إلى مؤسسات المعارضة فاعتبرها قطعة أساسية من جهاز الحكم، بحيث إن الحزب الذي يصل إلى الحكم يفرمل بحزب المعارضة، فيراقبه ويعارضه إذا أخطأ، ويعصيه في المعصية ويطيعه في الطاعة، ويكشف أخطاءه فلا تأخذه في الله لومة لائم. أما عندنا في العالم العربي فقد انقلبت النسب وانعكست الصورة، كمن يبني طرقات سريعة باتجاه واحد، أو سيارات بدون فرامل، وعقلاً بدون نقد، ونقلاً بدون عقل. لا غرابة أن رسا مصيرنا في أسفل سافلين في استعصاء خبيث للثقافة، ومواصلة في خط الانحدار في رحلة موجعة نحو القاع. إن المفكر «أحمد أمين» انتبه مبكراً إلى هذه الظاهرة القاتلة في مسير الحضارة الإسلامية. عندما انفرد بالساحة الفكر الوثوقي الدغمائي النصوصي، مما يذكر بظاهرة الكتبة والفريسيين التي واجهت المسيح عليه السلام في المجتمع اليهودي، وتمنى بقاء الخطين معاً يعدل كل الآخر، وأن لا ينفرد بالساحة حزب المحافظين على الحزب التحرري العقلاني، والمسلمون يظنون أنهم استثناء للقانون، والله يقول فلم يعذبكم بذنوبكم؟ ولذا فإنهم لا يستفيدون من كنوز القرآن لأنهم يشعرون أن الحديث عن الآباء هو آباء قريش وليس آباءهم.

عندها استقر الأمر للعقل الكسيح وطحن التيار العقلاني من المعتزلة وسواهم بحيث أن التشكيك بعقيدة أي إنسان حتى اليوم يكفيها أن تنتسب لهذا الخط الفكري. وهكذا فالمعتزلة والاتجاه العقلاني في خانات التفكير تمت هرطقتهم وتحطيمهم وإفناء كل تراثهم العقلي من نوعية العقل الجبار (النظام)، وبقي في الساحة عقل بدون مراجعة، ونقل بدون عقل، وسيارات تمشي بدون فرامل، وهذا هو الأساس للاستبداد السياسي. لأنها نسخة من الاستبداد الفكري، ولأنها الوجه الثاني لعملة عدم التفكير، وتوقف المراجعة وممارسة النقد الذاتي وكسر قيود التقليد والانعتاق من أفكار الآباء، ومحاولة التحرر إلى فضاء التفكير الرحب والإبداع بدون خوف ومساءلة. إن الغرب بنى سيارات تمشي بتوازن بين طاقة البنزين وعزم الكوابح، وقبل ذلك أنتج عقلاً يطرح الأسئلة بدون خوف، مغرم بالمعرفة وارتياد المجهول وكسر المسلّمات، وأقام مؤسسات سياسية لا عوج فيها ولا أمتاً، في توازن بين محافظين وعمال، بعد أن حطم سلطان الجبت والطاغوت الممثلة في الكنيسة والإقطاع، وبذلك ولد مجتمع أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، محرر إلى حد كبير من علاقات الاستضعاف والاستكبار. أما نحن في العالم العربي فقد كتب علينا أن نعيش في قرية يلبس أهلها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. الإنسان العربي خائف من المستقبل. يرجف من المخابرات، لا يأمن السلطة. وإذا أوقفه الشرطي يسأله عن رخصة السير خفق قلبه وعلت وجهه صفرة. كل هذا بسبب خلل رافعة القوة في المجتمع، وتحوله إلى مستكبرين ومستضعفين. وكل هذا الاستبداد السياسي خلفه الاستبداد العقلي، ولا حرية سياسية بدون حرية عقلية وبدون حدود. أما نحن فنريد عقلاً محدداً بالمسطرة من عيار النانوغرام، يمشي بأجزاء من الملمتر في مقاسات مجهرية، محدد الأبعاد الفراغية، فهناك سقف للتفكير، وأمام القفز حواجز لا نهاية لها تمنع أي حصان رشيق. فهذه هي أم المصائب. ويبقى السؤال: هل إلى خروج من سبيل؟ كيف نكسر أغلال العقل ونحرره من أصفاد؟ تروي القصة أن رجلاً طلب من النجار أن يصنع له باباً، ثم جاءه في يوم فوجد النجار غائباً فحمل الباب وانطلق به. ولما عاد النجار فلم يجد الباب ركض خلف الرجل فوجده يمشي به خارج البلدة. فما كان منه إلا أن بدأ يقرع الباب قائلاً: افتح الباب، أقول لك افتح. والسارق يحكم إغلاق الباب وكل الفلاة مفتوحة بينهما.

نواة علمية لقصة الطوفان

(كشف آركيولوجي يشير إلى طوفان يفوق كل تصور حدث قبل 7500 سنة في منطقة البحر الأسود، باندفاع أقوى ب 200 مرة من شلالات نياغارا، وبتدفق 50 كيلومتراً مكعباً من الماء يومياً، استمر 300 يوم، وأغرق الشعوب الزراعية الأولى، وغطى مساحة 100 ألف كيلومتر مربع).

ليس هناك من أمة على وجه الأرض إلا وحملت أساطيرُها قصةَ طوفان مروّع. وهناك ما يزيد عن 250 أسطورة عالمية حول الطوفان في الكتب المقدسة أو ألواح سومر أو في تايوان في أسطورة «آمي»، وانتهاءً بالاسكيمو وحضارة المايا، فهل هذا صدفة؟ وكما يقول الإثنولوجي «يوهان ياكوب» (Jakob Johann): «إن الأساطير هي التعبير الرمزي لحقائق مؤكدة». وبتعبير علماء ما قبل التاريخ: إن الأسطورة تحمل في أحشائها جنيناً من الحقيقة محاطاً بكثير من الخيال (الفانتازيا)، وعندما نزيح هذه القشرة عنها تطالعنا الحقيقة متوهجة، يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار. والجديد اليوم في القصة أن بعثة علمية مزودة بأكثر الأدوات دقة وتقدماً على ظهر سفينة علمية للأبحاث هي «الأفق الشمالي» (Horizon Northern) وبتمويل مالي كبير تبحث قبالة مدينة «سينوب» (Sinop) التركية في الحافة السفلية من شاطئ البحر الأسود بطاقم علمي تحت إشراف رائد اكتشاف ألغاز المحيطات «روبرت بالارد» (Ballard Robert) الذي كشف عام 1985 عن سفينة التيتانيك الغارقة منذ عام 1912 في عمق المحيط الأطلسي على عمق 3740 متراً للتأكد، وعلى نحو علمي، من حقيقة الطوفان الذي استقر في المخيلة الجماعية للإنسانية، الذي كان من الحجم والترويع والأثر ما خلدته البشرية في ذاكرة لا تمحى. فمتى حصل؟ وكيف حصل؟ ولماذا حصل؟ وهل في الجعبة العلمية حلٌّ لهذا الخبر التاريخي المتواتر؟ هل يمكن لأبحاث العلم المتطورة أن تلقي الضوء على الحدث المفزع ليتعانق العلم والإيمان. {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}([271]). لعل أقدم كتابة جاءت عن الطوفان كانت في اللوح 11 من مكتبة «نبوخذ نصر» الحاكم البابلي في الألف الثالث قبل الميلاد، والتي كشفها البريطاني «أوستن هنري لايارد» (Layard Henry Austin) عندما كان في رحلة سياحية مع صديقه باتجاه سيلان عام 1839، وأثارت انتباهه بالصدفة حفائر نينوى (الموصل حالياً) فقادته إلى كشف تاريخي مذهل حينما عثر على مكتبة تضم 25 ألف لوح من الطين المجفف قد حُفرت عليها كلمات

ما يشبه عمل المسامير وسميت لاحقاً بالكتابة المسمارية. وتختلف الرواية الكلدانية عن رواية العهد القديم أنها لم تُكتب 400 سنة قبل الميلاد بل تعود إلى أربعة آلاف سنة، وهي تسبق الدولة البابلية التي حفظت الوثيقة وتعود إلى أيام «سومر» وتاريخ مدينتي «أور» (UR) و«أوروك» (Uruk) حيث تتوالى أحداثها أيام الملك جلجاميش من الأسرة الأولى الذي حكم عام 2650 قبل الميلاد. ويقود أحداثها بطل الطوفان «أوتنابشتيم» (Utnapshtim) الذي يظهر على مسرح التاريخ مشابهاً لدور النبي نوح عليه السلام من العهد القديم كيف أنه يوجه من الله وكيف كان بناء السفينة بموجب خطة كونية. وينقل لنا النص صدى حزيناً لما تم في تلك الأيام الستة حينما اندثرت البشرية في طوفان لم تعهده من قبل، وغرق في لجته كل حي إلا من كتبت له النجاة على ظهر الفُلك المشحون. جاء وصف الطوفان في ملحمة جلجاميش على الشكل التالي: «هبّت الرياح ستة أيام وست ليال. طغى السيل والعاصفة والطوفان على العالم. ثار السيل والطوفان معاً كالحشود المتحاربة. وعندما أشرق اليوم السابع انحسرت عاصفة الجنوب. هدأ البحر وسكن الطوفان. نظرت إلى سطح العالم وقد ران عليه الصمت. أصبح البشر كلهم طيناً. كان سطح البحر يمتدّ مسطحاً كسقف البيت. فتحت كوة فسقط النور على وجهي. عندئذ انحنيت طويلاً. جلست وبكيت. جرت الدموع على وجهي إذ كان الماء طاغياً في جميع الأنحاء. عبثاً تطلعت بحثاً عن الأرض. ولكن على مبعدة أربعة عشر فرسخاً ظهر جبل. وهناك رست السفينة. ثبتت السفينة على جبل نيصير. ثبتت ولم تتزحزح». أما رواية العهد القديم فتذهب إلى أن الطوفان استمر أربعين يوماً، وأن نوح بنى سفينة بطول 300 ذراع وعرض خمسين، بثلاثة طوابق، وأن الطوفان تابع مداه لفترة 150 يوماً، وكان ارتفاع المد 15 ذراعاً. جاء في سفر التكوين الخامس والسادس عرض تفصيلي عما حدث: «فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض، الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء، فانمحت من الأرض، وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط، وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً». أظهر العهد القديم قصة نوح في أبعاد ثلاثة طغت على المخيلة البشرية حتى اليوم: «يهوه» الإله غضب على العباد فأغرق الكائنات كلها. شمل الطوفان كل المعمورة وكل نسمة حية. حمل نوح معه في الفلك أزواجاً كاملة من كل موجودات البسيطة لاستئناف حياة بشرية جديدة. وهذا الطرح لم يخلُ من انتقاد واعتراض خلال التاريخ مع وضدّ، أو محاولة فهم جديد لإضاءة الحدث التاريخي في ضوء العلوم المساعدة والتي توفرت مع الثورة العلمية الحديثة في حزمة من الأدوات المعرفية مثل علوم الجغرافيا والأنثروبولوجيا والأركيولوجيا وعلم المحيطات والبيئة والتكنولوجيا الحديثة والتاريخ والدراسة المقارنة للكتب المقدسة ونصوص اللغات القديمة. وتهدف العلوم الحديثة إلى الدخول إلى الحقل المعرفي على نحو مختلف، فهي لا تريد «استنطاق النصوص»، بل تريد «حديث الطبيعة»، أي النزول إلى الواقع واستنطاق الأرض لعلها «تحدّث أخبارها» عما جرى لها في فترة الأحقاب

السابقة. وهذا الذي حصل، فاليوم تعمد التكنولوجيا الحديثة مع بقية العلوم على قراءة طبقات الأرض، فهي تشكل نصوصاً غير قابلة للتزوير أو التبديل، كما أن تفسيرها لن يذهب في محاولات لغوية عقيمة، بل سيتدخل علم دراسة الزمن من خلال تقنية الكربون 14 لمعرفة عمر أي شيء يتم العثور عليه. كما أن علم الرسوبيات سيعرفنا بطبيعة التقلبات التي حدثت في المنطقة. إن قصة الطوفان بين أخذ وردّ لم تهدأ معركتها حتى اليوم، فمنذ القرن الثاني للميلاد ذهب الفيلسوف «آبيليس» (Apelles) الروماني إلى أنه لا يمكن حمل كل الكائنات على ظهر سفينة، وحمولة أربعة فيلة كافية لقلب توازنها، فكيف بكل المخلوقات التي تضمّها الطبيعة. أما أسقف كريت من القرن الخامس للميلاد «ثيودوريت» (Theodoret) فقد سمح لعقله بالحركة في اتجاه مختلف، فقال: أمام هذا الماء الذي غطى الأرض كلها كيف تسنّى للتربة بعد ذلك أن تصرّف هذه الكمية الخرافية من المياه؟ كان كلاهما يذهب إلى محاولة فهم أن الطوفان لا بد أنه كان محدود التأثير جرى في منطقة محددة من الأرض، فلم يعم الأمريكيتين وأستراليا وجزر العالم أجمعين. كما لم تتحدث الحضارة الفرعونية عن شيء من هذا القبيل مع أنها كانت تستقبل فيضان كل عام بالفرح والتضحية بفتاة حسناء. أما «جيوردانو برونو» فقد عمدت الكنيسة إلى حرقه في ساحة عامة بسبب آرائه، وكان منها أن عقله لم يستوعب غضب «يهوه» عندما أغرق كل البشر مع أن هناك مجموعات لا علاقة لها بالصراع الذي نشب بين نوح وقومه. وبالمقابل فقد اعتقد الجيولوجي «إرنست تولمان» (Tollman Ernest) من فيينا جازماً أن نيزكاً ضرب الأرض في عام 9545 قبل الميلاد هو الذي قاد إلى الطوفان. وذهب إلى أبعد من هذا الجيولوجي الهاوي «رون يات» (Wyatt Ron) فزعم أنه اكتشف سفينة نوح في جبل «أرارات»، وعندما ذهبت البعثات العلمية للتأكد من الكشف لم يكن في الواقع إلا تشكلاً في الصخر أخذ شكل بقايا سفينة لا تؤكد زعمه. أما المحرك الفعلي للدراسة العلمية الحديثة فكان سببها ما اكتشفته سفينة الأبحاث الروسية (أكواناوت» (Aquanaut) في الثمانينات عندما خرجت على العالم بتقرير مثير للجيولوجيين مفاده أنها عثرت على عمق 95 متراً قبالة القرم في عمق شاطئ البحر الأسود الشمالي على بقايا من حلزونات وقواقع وأصداف ورخويات لا تعيش في المياه المالحة في العادة، كما أن طبيعة الأرض التي يعلوها البحر المالح هي أرض تعود لطبيعة زراعية كانت تتدفق فيها مياه حلوة. وفي عام 1997 خرج كل من الجيولوجيين الأمريكيين «والتر بيتمان» (Pitman Walter) و«ويليام ريان» (Ryan William) على العالم بنظرية جديدة تشرح سيناريو الطوفان من منظور جيولوجي مختلف عن قصة البحر الأسود الحالي وكيفية تشكله. فهو قبل 7500 سنة كان بحيرة حلوة غنَّاء أصغر حجماً من البحر الأسود الحالي، تحيط به شعوب عديدة بكثافة سكانية أتقنت فن الزراعة وبنت صوامع الحبوب الأولى، أو من يسمّيهم علماء ما قبل التاريخ «صناع السراميك»، ثم حدث انقلاب جيولوجي مرعب غيَّر

طبيعة البحيرة السوداء إلى بحر أسود مالح من خلال طوفان مهول فاق كل تصوّر وختم على مصير الشعوب الزراعية الأولى التي أحاطت البحيرة على طول شواطئها، عندما تفجرت عتبة البوسفور الصخرية التي تشكل السد أمام المياه القادمة من المحيطات لينطلق السيل العرم بعنف لا يمكن تصوّره إلا إذا مضى بنا الخيال لتدفق بحيرة كاملة تصب يومياً فوق البحيرة السوداء أسفلها بضغط يفوق 200 مرة عنف شلالات نياغارا ولتنشأ ظاهرة «طفطفة» البانيو عندما يفيض بالماء وليطوي الفيضان في لجته شعوباً شتى. وللحديث تتمة.

ماذا جرى عند عتبة البوسفور قبل 7500 سنة؟

(سيناريو الطوفان يعاد رسمه على ضوء حزمة من العلوم الإنسانية الجديدة)

في المقابلة التي أجرتها مجلة «در شبيغل» (Speigel Der) الألمانية في عددها 50 من عام 2000 مع البروفسور «بوركهارد فلمنغ» (Flemming Burkhard) رئيس قسم «أبحاث المحيطات» في معهد «سنكينبيرج» (Sneckenberg) في المدينة الساحلية الشمالية من ألمانيا «فيلهلمسهافن» (Wilhelmshaven) حاول أن يرسم سيناريو دقيقاً لطوفان فاق كل تصور حدث في منتصف الألف السادسة قبل الميلاد، حسب ما كشفت عنه آخر أبحاث الأركيولوجيا حول ولادة البحر الأسود بمخاض كوني مدمّر على النحو التالي: قبل 18 ألف سنة كان العصر الجليدي في ذروته، وكان منسوب المياه مختلفاً بين بحيرة كانت في منطقة البحر الأسود الحالي وبحر مرمرة والبحر المتوسط. وإذا تأملنا الوضع جغرافياً الآن فإننا نرى أن البحر الأسود متصل بالبحر المتوسط من خلال فوهتين، الأول مضيق «البوسفور»، والثاني، وهو أطول، ممر «الدردنيل»، المعروف تاريخياً

ب «الهلسبونت»، وهو الذي عبره الملك الفارسي «كزركسيس» في القرن الخامس قبل الميلاد في محاولة اجتياح بلاد اليونان. وبين الفوهتين بحر مرمرة الصغير. ولكن الوضع قبل 18 ألف سنة لم يكن كما هو الآن، فمكان البحر الأسود كان بحيرة أصغر حجماً منه ومنفصلة عن بحر مرمرة المنفصل أيضاً بدوره عن البحر المتوسط في مناطق معزولة عن بعضها البعض. ليس هذا فقط، بل كذلك التفاوت في مستويات المياه. فقد كان منسوب المياه قبل 18 ألف سنة في البحر المتوسط أقل مما هو عليه الآن ب 130 متراً. أما في بحر مرمرة فكان أعلى من ذلك وبمستوى «–65» (ناقص خمسة وستين) متراً عما هو عليه الآن. أما البحيرة السوداء فكانت في الأسفل تماماً، وتنخفض عن منسوب المياه الحالي 120 متراً (–120). ثم بدأت المرحلة الأولى من التحول البيئي والجيولوجي في التاريخ المذكور، فقد ارتفعت حرارة الأرض تباعاً بما التهمت به حتى اليوم 8% من اليابسة. وفي المرحلة الأولى قفز منسوب المياه في البحر المتوسط إلى ناقص ستين متراً (–60) عن منسوب المياه الحالي، أي بارتفاع سبعين متراً، بما فاض إليه من مياه المحيطات من ذوبان مدرعة الجليد في الشمال التي بلغ سمكها في أوروبا لوحدها 2 كيلومتر، وكانت ممتدة حتى براندنبرغ في بولندا الحالية. إن هذا الانكسار في المناخ رفع مستوى المياه في

المحيطات، ودفعها عبر مضيق جبل طارق إلى المتوسط إلى بحر مرمرة بحيث كان دفع المياه من القوة والعنف ما حول الحجارة والحصي أمامه إلى ما يشبه «المدحم» لتحطيم الحاجز بين بحر مرمرة والمتوسط، وليتحقق مستوى التعادل بين البحرين إلى مستوى ناقص ستين متراً (−60) عما هو عليه الآن. وقبل 12 ألف سنة وتدريجياً ارتفع مستوى المياه من جديد في بحر مرمرة إلى ناقص خمسين متراً (−50) عما هو عليه الآن، وبزيادة عشرة أمتار عما كان عليه، مما جعله يقفز فوق حافة السد الواقف أمام البحيرة، وكان هذا معناه تفجير عتبة البوسفور بالكامل وتحطيم هذا الممر البري الذي كان يصل بين أوروبا وآسيا. وإذا عرفنا أن منسوب المياه في البحيرة السوداء كان ناقص 120 متراً عما هو عليه الآن، ومستوى المياه في بحر مرمرة ناقص خمسين متراً، فمعنى هذا أن المياه كانت تهوي من ارتفاع سبعين متراً بما هو أقوى من شلالات نياغاراً ب 200 مرة حسب الدراسة التي قام بها الجيولوجيان الأمريكيان «والتر بيتمان» (Pitman Walter) و«ويليام راين» (Ryan William). وكانت كمية المياه المتدفقة اليومية بحجم بحيرة تبلغ خمسين كيلومتراً مكعباً بحيث رفعت مستوى المياه في حواف البحيرة بمعدل 15 سنتمتراً يومياً كما يحدث للبانيو عندما يفيض بالماء و «تطفطف» حوافه مندلقة بالماء الزائد، وهي هنا بابتلاع اليابسة وما حوت من بشر. وكان زحف المياه 400 متراً في اليوم لتدوم هذه الحالة مدة 300 يوماً ولتُنهض مستوى المياه في البحيرة في النهاية إلى مستوى الماء في المحيطات حسب قانون «الأواني المستطرقة» الذي اكتشفه الفيلسوف «باسكال» وينص على تعادل مستوى المياه عند اتصال أحواضها معاً مهما كانت الأحجام. بحيث ارتفع مستوى المياه في البحيرة أخيراً إلى ارتفاع زاد 120 متراً عما كان عليه، وتساوت مستويات المياه بين البحر الأسود المتشكل وبحر مرمرة والبحر المتوسط والمحيط الأطلنطي المتصل به. وهو أكثر مما جاء في العهد القديم عن ارتفاع بلغ 15 ذراعاً، أي أن الطوفان كان يشبه ما جاء في ألواح سومر والعهد القديم مما رسخ في الذاكرة الجماعية الإنسانية ولكن على نحو أشد هولاً. وفي النهاية غمرت المياه المتدفقة مساحة مائة ألف كيلومتر مربع بما فيها القرم وأوكرانيا الحالية وبلغاريا، وضربت بعنف مرتفعات القوقاز، فضلاً عن كل الشواطئ التركية، وأخذت معها شعوباً بأكملها إلى لجة المياه. يقول «فلمنغ» إن الشعوب التي كانت في الأماكن الواطئة وفوجئت بالطوفان لم يكن لها حظ في النجاة. أما البقية فكان عليهم أن يتركوا خلفهم كل شيء وينطلقوا هائمين على وجوههم وهم ألوف حذر الموت. ويقدر علماء الأنثروبولوجيا أن أعداد المشردين تجاوز المائتي ألف نسمة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أعداد البشر القليلة على ظهر الأرض في الألف الثامنة قبل الميلاد فلربما قارنا هذه الكارثة اليوم مع طوفان دفع ب 200 مليون من البشر إلى ترك بلادهم، وهذا يقرب إلينا فكرة رسوخ هذه الواقعة في الذاكرة الجماعية حتى اليوم. وإذا أضفنا عنصر بدايات الحضارة والتمكن من الزراعة وتحقيق فائض الغذاء كان معناه أن

من تشرد كانوا زبدة وأفضل أنواع الجنس البشري من الناحية التقنية، كما لو تشرد أهل الولايات المتحدة الأمريكية اليوم في كارثة عارمة، أو اجتاح إعصار التيفون الجزر اليابانية الثلاث الرئيسة، فأخذها بما حوت من البشر. وعندما سئل البرفسور «فلمنغ» عن مدى تطابق هذا الهول مع طوفان نوح الوارد في الكتب المقدسة أجاب بحذر أنه لا يمكن المراهنة على ذلك ولكنه قابل للتطبيق وممكن. ويبقى السؤال: هل ما حدث عند عتبة البوسفور قبل 7500 سنة في دراما كونية هو الذي تحدثت عنه الكتب المقدسة وذكره القرآن بتوصيف مرعب: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ}([272])؟ يبدو أن الطوفان فاجأ الزراعين الأوائل في وقت صعب في شتاء اشتد مطره، فاجتمع عليهم البرد والمطر الغزير المنهمر مع الطوفان الزاحف، فتشبعت الأرض بالماء وانبجس الماء من تنور كان بالأصل للخبز «وفار التنور». ليس هذا فقط، بل إن بقية القصة الواردة في الآيات من سورة «القمر» تفتح لنا البوابة التاريخية لدراسة الحدث حينما وصفت الآية: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}([273]). وكلمة «دسر» أوحت لي كما قرأت في بعض كتب التفسير أنها «المسامير»، فنوح بنى سفينة من ألواح خشبية مثبتة بمسامير ومطلية بالقار. ولكن هذا يعني، وكما تقول بعض الروايات عن نوح، إنه كان نجاراً، ووصول الجنس البشري إلى تقنية تعدين الحديد. ونحن نعلم أن اكتشاف الحديد وتعدينه تم في القرن الثامن قبل الميلاد، وهذا يعني بكلمة ثانية حدوث الطوفان بعد هذا الفترة حتى يتم الربط بين زمن تقنية الحديد والحدث. إلا أن كلمة «دسر» كما جاءت في كتاب «صحاح اللغة» ل «ابن منظور الأفريقي» لا تزيد عن الشيء الذي يربط الأشياء ببعض من ليف أو سواه، ولا يشترط المسمار، وإن كان يتضمنه. إن حادثة نوح على ما يبدو أكثر إيغالاً في التاريخ من القرن الثامن قبل الميلاد، وإن الحدث لم يتم في هذا الوقت، بل في الألف الثامن قبل الميلاد. إن القرآن لا يعني بذكر الزمن أو المكان أكثر من عنايته بالمعنى الإنساني خلف القصة. فهذا أسلوبه في نزع هذه الإحداثيات عنه لإدخاله معمل المطلق. وهو يروي

هنا نهاية قوم أوجدوا نظاماً اجتماعياً في غاية السوء. فكما ذكر القرآن حجم الكارثة فقد عمد إلى شرح الظروف البئيسة التي رافقت الحدث من وجود الظلم الاجتماعي المهين. إن من يسمع لنوح ويتبعه هم من طبقة السوقة السفلة المغفلين «الأراذل»: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ}([274]). وتفكيك هذه الآية يظهر أفضل باستعراض الوضع الإنساني «أنثروبولوجياً» عن طبيعة الشعوب التي فاجأها الطوفان في ذلك الوقت (ما قبل التاريخي). إن القرآن يذكر ثلاثة أنواع من الأنبياء: آدم الغارق في الزمن والمرتبط بدخول عصر الزراعة من خلال قصة الشجرة المحرمة. لأن الحرام والحلال هو ترميز لولادة القانون، أن هذا يجوز والآخر محرم.

والصنف الثاني هو نوح الذي عاش قبل ولادة الحضارة معاصراً لبدايات الثورة الزراعية، أي في العصر ما قبل التاريخي إذا عرفنا أن الكتابة لم تُخترع إلا قبل خمسة آلاف سنة مع ألواح سومر الذين وصلوا إلى الحساب وتنظيم الري والكتابة المسمارية. أما النوع الثالث مثل نموذج إبراهيم وموسى فقد كانوا رسلاً عاصروا الحضارات ومزودين بشيء مكتوب: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}([275]). إن هذه القصة تبرز لنا ضرورة تطوير علوم قرآنية جديدة، فكما أنشأ علماؤنا سابقاً علم القراءات والتجويد وأسباب التنزيل والتفسير فيجب تطوير علوم تعتمد الاختراقات المعرفية الجديدة من نموذج الدراسات القرآنية التاريخية المقارنة، وكذلك الإسراع بوضع تفسير للقرآن بأدوات معرفية جديدة وتسخير العلوم المعاصرة على نحو جديد. كما هي في قصة الطوفان التي بين أيدينا. ولقد لفت نظري منذ فترة طويلة كيف قام العالم الهندي «أبو الكلام آزاد» في فهم قصة ذي القرنين الموجودة في سورة الكهف أنها قد تشير إلى الحاكم العادل والمتميز «قورش». وبهذه الأدوات ندخل المعاصرة، فلا يعقل فهم القرآن بتفسير من القرن الثالث الهجري، كما لا يمكن فتح جمجمة مريض بأدوات فرعونية. وهذا الكلام له حساسيته، ولكن لا بد من لمسه لضرورة تطوير أوضاع المسلمين الذين لم يدخلوا التاريخ والعاصرة بعد. ولو بعث «ابن كثير» بذاته لأعطى كتابه قيمة تاريخية لا أكثر، ولشرع من فوره بوضع تفسير يناسب روح العصر باعتماد العلوم الإنسانية المساعدة.

قصة الطوفان من زاوية أنثروبولوجية

(تكشف الأبحاث الاركيولوجية الحديثة عن طوفان مدمر كان سبباً في قدح شرارة التقدم الإنساني)

في التاسع من سبتمبر كان «روبرت بالارد» (Ballard Robert) من ولاية كونيكتيكات (Connecticut) يسير في الأرض ليقرأ قصة الطوفان كاملة من قاع البحر الأسود. فقد حضر على ظهر سفينة الأبحاث «الأفق الشمالي» (Horizon Northern) إلى الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود قبالة مدينة «سينوب» (Sinop) التركية للتأكد من علمية قصة الطوفان وعلى ظهر السفينة طاقم يضم خمسين شخصاً منهم عالم الأركيولوجيا «فردريك هيبرت» (Fredrik Hiebert). إن تاريخ هذا الرجل حافل ب 150 اكتشافاً مثيراً على الأقل في عالم البحار، سواء السفن التجارية الفينيقية، أو منارة الإسكندرية أيام كليوباترا، أو سفينة «المهدية» المحملة بالكنوز الأثينية المنهوبة على يد الرومان لتضربها العواصف فتغرق أمام سواحل تونس، أو المدمرة الألمانية «بيسمارك» من الحرب العالمية الثانية. وكان آخر كشوفه عن «التيتانيك» عام 1985 في الأطلسي على عمق 3740 متراً لمعرفة السبب الفعلي خلف غرق هذه السفينة التي أخذت اسم «الجبار» تيتانيك لتغرق في أول رحلة لها بين بريطانيا وأمريكا عام 1912، كما حصل مع «شالنجر» (المتحدي) الذي حمل القمرة الفضائية لينفجر ويتبخر ملياري دولار مع سبعة أرواح في الملكوت العلوي في لحظة واحدة ما لها من فواق أمام أعين الناس لعلهم يتقون. قام بالارد بإنزال الغواصة «هرقل الصغير» إلى عمق 100 متر مربوطة بحبل سري من كابل ينقل الصورة إلى شاشة ملونة ليفاجأ الفريق العلمي منذ اللحظات الأولى انهم أمام بقايا طبيعة أرض زراعية اعتدى عليها البحر فقتلها وأبقى منها ذكريات من أشجار تمد أيديها هياكل ميتة وشيء قليل من أصداف وبقايا رخويات وقواقع كانت تعس في مياه حلوة فيما سبق. فأما السيد «تيري غارسيا» (Garcia Terry) رئيس نقابة الجيولوجيين الوطنية فأسرع إلى ميناء سينوب ليصرح للصحافة أنهم أمام كشف تاريخي للطوفان القديم والأرض التي عاش عليها الناس. أما الصحافة التركية فخرجت في اليوم التالي في صحيفة «الحرية» تقول إن نوح كان تركيا. كما أدعت اليهود أن ابراهيم كان يهودياً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً. ونوح وجد في الوقت الذي كان أجداد أجداد الأتراك لم ينزحوا بعد من وسط آسيا ولم يطأوا بعد أرض الأناضول. من الضروري ربط الوقائع بين حدوث الطوفان والتاريخ الإنساني من زاوية أنثروبولوجية لمعرفة «تمفصل» الحدث مع حركة التاريخ، ومعنى وقوع الطوفان في فترة بعينها، وأثرها على التطور الإنساني. أولاً يجب تحرير نقطة كشف عنها علم الأنثروبولوجيا، وهي علاقة الثورة الزراعية بالاستقرار في الأرض، فالأبحاث السابقة كانت ترى مرور الإنسان أولاً بمرحلة «الصيد وجمع الثمار» قبل الانتقال إلى الثورة الزراعية. أي أن الاستقرار في مساكن محددة شكل ضربةَ لازبٍ مع الثورة الزراعية. ولكن الأبحاث الأنثروبولوجية الجديدة كشفت في منطقة الشرق الأوسط ما يفك هذه الارتباط بين الأمرين. فلقد استقر الإنسان في جماعات، وبنى بيوتاً قبل مرحلة الثورة الزراعية، وبقي لفترة يعتمد الصيد الجماعي مع الاستقرار، وكان هذا قبل 11 ألف سنة. وتم كشف منطقتين تشير إلى هذا الانتقال المتدرج في كل من «أبي هريرة» في شمال سوريا و «كوبكللي تبه» (Teppe Goebekli) في جنوب تركيا. كانت مجموعات إنسانية تعتمد دفع قطعان الغزلان إلى مكامن خاصة تشكل سورين على شكل حرف 7 أمامها خنادق تسقط فيها الحيوانات المذعورة، وكانت الحصيلة أطناناً من لحوم الفرائس. وحتى لا تقع ضحية عدوان الوحوش أو هجوم الجيران من المجموعات الإنسانية المجاورة فقد تم

الاحتفاظ بها في صوامع خاصة هي أماكن العبادة، وبذلك فإن مراكز التقديس اختلطت بالرزق الوفير. وكان الحدث الثاني الأشد أثارة هو ما كشف عنه الأنثروبولوجيون في منطقة «جطل هاياك» (Huyuk Catal) في وسط تركيا، حيث عثر على بقايا بيوت عجيبة لهذه الجماعات الإنسانية البدائية، فقد سكنوا في بيوت متجاورة متلاصقة بدون شوارع جانبية أو أزقة تفصلها أو أفنية للتهوية. كان البشر يصعدون على سلالم إلى كوات تنفذ إلى غرف ضيقة معتمة قليلة التهوية أشبه بزرائب أو مدافن. كانت حوالى 2000 عائلة تضم آلاف الناس يعيشون في حياة جماعية بئيسة تفتقد أدنى الشروط الصحية للحياة الإنسانية، وبين أقدامهم اختلطت بقايا الطعام مع مخلفاتهم الإنسانية. لم يكن هناك آبار أو مدافن. لم يستخدموا الأواني كما لم يعرفوا أكل الخبز، ولم يزرعوا مع أنه كان ينمو قريباً منهم في الحقول. أما الميت فكان يُلقى في العراء تفترسه طيور السماء، والهياكل تدفن تحت الأقدام. ثم مشى التطور الأنثروبولوجي مرحلة مرحلة، وعند زمن 8000 قبل الميلاد شوى الإنسان الفخار، وفي 7600 ق.م بدأت الزراعة، وفي 7000 ق. م تم استئناس الحيوان. أما الهندسة فكانت قبل ذلك خيوطاً عوجاء أو مدورة. وقبل 9000 سنة من الآن ظهرت الخطوط المستقيمة في قفزة عند الإنسان العاقل «الهومو سابينيس» (Sapines Homo). وكما يقول الحجة الأنثروبولوجي «غولدن شايلد» (Child Golden) من أستراليا و«كلاوس شميدت» (Schmidt Klaus) من جامعة «هايدلبرغ» (Heidelberg) من ألمانيا، فإن بدايات انتقال الإنسان إلى التحضر لم تكن في جنوب العراق كما ذكر ذلك المؤرخ البريطاني «توينبي» في كتابه «الإنسانية من أين والى أين؟»، بل بدأت في منطقة الأناضول من تركيا. وكما يبدو على كافة الأقوال، فإن مهد الحضارة كان في الشرق الأوسط قبل أن يعم العالم جميعاً. أما موجات الهجرة الإنسانية إلى أوروبا فقد مشت في موجتين: قديمة قبل الطوفان وصلت منطقة البلقان بدون تقنية الزراعة، ثم حدث تحول خطير العام 5300 قبل الميلاد حينما ظهرت مجموعات بشرية على نحو مفاجئ في حوض «الكرابات» ومعها تقنيات جديدة اجتاحت بها مجموعات أوروبا ونشرت فن الزراعة في كل القارة الأوروبية. إن تحول المناخ وآثاره كان له الدور الحاسم في حركة الإنسان، فلقد مرت على الأرض فترات من الجفاف الموجع كانت تقضي على البشر دوماً وتحدد أعدادهم. فقبل 18 ألف سنة بلغ العصر الجليدي ذروته، وكانت نصف مساحة أوروبا في حكم الميتة، ووصلت كثافة المدرعة الجليدية فيها إلى ألفي متر. وعاش الإنسان لفترة مائة ألف سنة «عصر البلايستوسين» في حالة يائسة، وهرب من كل منطقة التجمد الشمالية. ثم ذاب الجليد وارتفع منسوب المياه وتضاعف بحر قزوين أربعة أضعاف. وقد يتعجب المرء من دقة هذه المعلومات، ولكن التقدم العلمي يقرأ الأرض في ورق منشور غير قابل للتزوير، وبأدوات مسح مذهلة. ومع فترة ذوبان الجليد الأولى التي تمت قبل 18 ألف سنة حصل تحول في مناخ أوروبا والمتوسط، وظهرت واحات خضراء في الشمال الأفريقي، وتناثرت البحيرات في أوروبا. وقبل 10500 سنة بدأت فترة الجفاف الأولى، وبقي الجو لفترة ألف سنة بارداً بدون أمطار، وانكمشت بحيرة كانت في منطقة البحر الأسود الحالي يفصلها عن بحر مرمرة والمتوسط ممر صخري يشكل سداً للحماية ومعبراً بين أوروبا وآسيا. وبين عامي 6200 و5800 ق. م عادت فترة جفاف جديدة، وتناقص عدد البشر بسرعة. وعند عام 5500 قبل الميلاد كان العالم على مشارف انقلاب جيولوجي وأنثروبولوجي، وعلى عتبة تاريخية من انقلاب المناخ. وعاصر هذا وصول الإنسان إلى الوضع الثقافي، فأصبح حضرياً يمارس الزراعة. ولم تكن الأهرامات قد بنيت في مصر بعد. وهذه الفترة هي التي يسمّيها علماء الأنثروبولوجيا «ثورة العصر الحجري»، ولم يعرف حتى الآن السبب الذي أدخل الإنسان مرحلة الثورة الزراعية، وإن كانت الأبحاث تشير أن المرأة هي التي وضعت يدها على سر «الزراعة». وأهم ما في هذا الانقلاب أنه مكَّن الإنسان لأول مرة في تاريخه من التخلص من ضغط الجوع، وأن لا يقضي نحبه في المسغبة. ومع توافر غلال القمح التي توفر الكفاية من السعرات الحرارية بدأت أعداد البشر في التزايد، وحصل –كما تصفه الأنثروبولوجيا– «الانفجار السكاني» حيث تكاثرت أعداد الناس حول «البحيرة السوداء» التي كانت في موضع البحر الأسود الحالي إلى عشرين ضعفاً في فترة قصيرة، ونمت القرى على نحو كثيف

بحيث كانت لا تغيب الواحدة عن الأخرى سوى أربع كيلومترات في قرى ظاهرة كما وصف القرآن أهل سبأ: {وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ}([276]). حتى جاءهم السيل العرم فمزقهم كل ممزق. إن هجرة البشر كان خلفها دافعان أساسيان: الجوع، والمغامرة لاكتشاف أرض جديدة تنعم برزق وفير. ولكن قصة الطوفان تضيف عنصراً ثالثاً لا يستهان به في ذلك الوقت الغارق في الزمن. ويعرف الجيولوجيون أن الكوارث كثيرة الحدوث في تاريخ الأرض. فقبل ستة ملايين من السنين، ولم يكن الإنسان قد ظهر بعد، جف البحر المتوسط وتحول إلى مسافات لا نهاية لها من الصحاري، تنبت في واحات فقيرة فيها بقايا من أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. كما أن التاريخ الإنساني حافل بكوارث كونية مخيفة، وقصة الطوفان كانت من حجم كوني. حينما اندلقت مياه المحيط إلى البحيرة السوداء التي كان مستوى المياه فيها أقل ب 120 متراً عما هو عليه البحر الأسود حالياً، بعد أن حطمت عتبة البوسفور، فوصلت البحر الأسود بالمتوسط بعد أن ارتفع مستوى المياه في البحيرة ليتشكل البحر الأسود، ولكن مع غرق شعوب كاملة تعيش على ضفاف البحيرة في المنطقة فاجأتها أمواج كالجبال. وسكان حضارة سومر في «أور» و «أوروك» قاسوا الكثير من الفيضانات، ومن أشهرها ما حدث عام 3200 ق. م حينما غرقت مدينة «أور» في وحل دجلة بارتفاع مترين ونصف، ولذا كانوا أسرع الناس في تخليد قصة الطوفان كتابةً. إن تقديرات الأنثروبولوجيين أنه لا يقل عن 200 ألف من السكان على حواف البحيرة، والذين كانوا يمتلكون تقنية الزراعة وصوامع حبوب العصر القديم، أصبحوا بغير مأوى وتفرقوا أيادي سبأ. وأما الذين فاجأهم الطوفان في السهول فلم تُكتب لهم النجاة. وتظهر قصة نوح من كل هذا الضباب التاريخي لولادة عصر جديد أفضل وبعلاقات إنسانية أكثر تقدمية وأرحم في تحرير الإنسان من الاستغلال، فكل مشاكل الظلم الاجتماعي جاءت من الملكية والثورة الزراعية. ثم إنه ليس مثل المحن والتشرد ما يجمع قلوب الناس. ويرى «دوغلاس بايلي» (Baily Douglas) من جامعة «كارديف» في بريطانيا أن هذا النزوح الجماعي حمل في تضاعيفه نشر تقنية الثورة الزراعية في الأرض، أي إن هذه المحنة الكونية كانت خيراً من وجه آخر. وبهذا يكون طوفان نوح ليس دماراً للبشرية، بل إيقاد لزناد التقدم الإنساني. رحلة البحث لم تنتهِ بعد، وما جاء في الكتب المقدسة لم يتطابق تماماً مع الكشف الجديد. ولا يشترط أن يكون هذا الطوفان هو طوفان نوح تحديداً، ولن يغير قناعتنا حوله، ولكنه إن وصل إلى نتائج قطعية فسوف يكون حدثاً مثيراً. وقد اتفق «بالارد» الآن مع «معهد التكنولوجيا في ماساشوستس» (Technology Of Institute Massachusetts) لتطوير الغواصة «ROV»، وهي تعمل بالريموت كونترول (Vehicles Operated Remotely) وفيها قدرة النبش والحفر والتنقيب والتحرك إلى قدر أنملة، والتقاط الأشياء المشبوهة، والتصوير الملون بقدرة فائقة، كما فعلت عربة «السوجرنير» على ظهر المريخ. و «بالارد» متفائل أنه سيضرب ضربته في كشف النقاب عن أكثر فصول التاريخ القديم إثارة بالكشف عن سفينة نوح: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}([277]).

---

[1] يتم الوصول إلى تحديد مثل هذا العمر بشكل غير مباشر وبواسطة دراسة المواد المشعة مثل «البوتاسيوم 40» الذي يتحول إلى مادة «الآرغون» أو تحلل مادة اليورانيوم. تراجع القصة الشيقة بكاملها في عدد «المختار» (ريدرز دايجست) ديسمبر كانون الأول 1981 (صفر 1402هـ) ص 114 – 144 بقلم دونالد جوهانسون وميتلاند إيدي.

[2] حضارات مفقودة، محمد العزب موسى، الدار المصرية اللبنانية، ص 66.

[3] الأنثروبولوجيا هو علم دراسة الإنسان وبيئته ومصيره.

[4] سورة النور، الآية 45.

[5] المقدمة، ص 42.

[6] الكوسمولوجيا علم بنية الكون وتطوره والقوانين التي تحكمه. والبيولوجيا علم الأحياء، والانثروبولوجيا علم الإنسان.

[7] سورة الإنسان، الآية رقم 1.

[8] سورة البقرة، الآية 20.

[9] بيتر فارب، زهير الكرمي، عالم المعرفة 67، ص 220.

[10] المصدر السابق، ص 224.

[11] المصدر السابق، ص 198.

[12] روجيه غارودي، في سبيل ارتقاء المرأة، ترجمة جلال المطرجي، دار الآداب، ص 31.

[13] سورة فاطر، الآية 1.

[14] سورة النحل، الآية 8.

[15] علم «الباليونتولوجيا» (Paleontology) هو علم تاريخ الأرض، فيختلف بذلك عن الجيولوجيا علم طبقات الأرض، والأركيولوجيا هو علم كشف آثار الحضارات، وأما الأنثروبولوجيا فهي علم الإنسان عامة، وهناك الجديد من العلوم في مزج أكثر من علمين في بعض كما في مزج علم الجينات مع الحفريات (باليوجينيتيك – Paleogenetics) أو مزج الجيولوجيا مع الكيمياء، وكلها تسعى للكشف أو شق الطريق لفضاء معرفي جديد.

[16] يراجع في هذا البحث الكامل عن أهم كشف أنثروبولوجي حتى الآن، الذي نشر في في المجلة الألمانية EVULOTION M.P.

[17] نشر هذا الكشف من الأحافير في مجلة «الطبيعة» (Nature) البريطانية وأشارت إلى قصة الكشف مجلة «در شبيغل» الألمانية (SPIEGEL DER) بالتفصيل في عددها الرابع من عام 1996، صفحة 136.

[18] مجلة «P.M. Perspective» العدد الخاص عن التطور بعنوان «Das Wunder Der Evolution»، المقالة بيد السيدة باربارا جيرنج (Barbara Gehring) في 15 صفحة العدد رقم 44، من ص 4 حتى 19.

[19] يراجع في هذا كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» الذي أحدث ضجة واسعة أثناء صدوره. تأليف الكاتب الأمريكي ذي الأصل الياباني فرانسيس فوكوياما، نشر مركز الإنماء القومي.

[20] فرقة مسيحية جديدة ظهرت في أمريكا وامتدت إلى أوروبا وبقية العالم، وتعتمد العهد القديم جداً في شروحاتها، وهي ناشطة جداً في أوروبا، وكانت لي معهم مناقشات مطولة، وهم يتوقعون نهاية العالم قريباً جداً.

[21] يراجع في هذا كتاب العلم في منظوره الجديد، سلسلة عالم المعرفة، رقم 134، تأليف روبرت آوغروس وجورج ستانسيو، ص 64.

[22] معالم تاريخ الإنسانية، تأليف هـ. ج. ويلز، المجلد الأول، ص 28.

[23] يراجع في هذا «المقدمة»، فصل الاجتماع الإنساني ضرورة.

[24] سورة العنكبوت، الآية 20.

[25] المقدمة لابن خلدون، بحث تفسير حقيقة النبوة والكهانة والعرافين ومدارك الغيب، ص 95.

[26] سورة البقرة، الآية 61.

[27] سورة الزمر، الآية 6.

[28] سورة نوح، الآية 17.

[29] سورة الإنسان، الآية 1.

[30] صدر تحقيق كامل عن الكشف عن هذا الهيكل في مجلة در شبيغل الألمانية في عدد 42 من عام 1995، بعنوان: «البحث عن أثر الإنسان الأول»، والمقالة الأولى كانت بعنوان: «مسيرة النصر والخلاص من الطريق المسدود»، ص 218، تاريخ 16/10/1995.

[31] سورة الإنسان، الآية 1.

[32] تراجع القصة الشيقة بكاملها في عدد «المختار» (ريدرز دايجست) ديسمبر (كانون الأول) 1981 - صفر 1402 هـ، ص 114 - 144، بقلم دونالد جوهانسون وميتلاند إيدي.

[33] مجلة (P. M. Perspective) عدد 44 المتخصص في بحث التطور بعنوان «معجزة التطور» (Das Wunder Der Evolution)، ص 68.

[34] قوى الكون الأساسية هي خمسة: الكهربية، والمغناطيسية، والجاذبية، وقوى النواة القوية، والضعيفة. واستطاع ماكسويل العالم البريطاني ضغط الكهربية والمغناطيسية في قوة واحدة، فتحوّلت القوى بذلك إلى أربعة.

[35] سورة النحل، الآية 78.

[36] سورة آل عمران، الآية 64.

[37] فرانك كلوز، نهاية الكون، سلسلة عالم المعرفة رقم 191، ص 12.

[38] سورة نوح، الآيتان 13 و 14.

[39] سورة العنكبوت، الآية 20.

[40] سورة الشورى، الآية 29.

[41] سورة فصلت، الآية 21.

[42] سورة الزلزلة، الآيتان 4 و5.

[43] سورة الشورى، الآية 51.

[44] سورة الإسراء، الآية 51.

[45] تراجع القصة بالتفصيل في كتاب «بنو الإنسان»، بيتر فارب، ترجمة زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة، ص10.

[46] المصدر السابق، ص 11.

[47] جاء في نفس المصدر السابق ص 37 ما يلي: «ولا أحد يعرف بالتأكيد متى وكيف حدثت إعادة تنظيم الدماغ التي جعلت اللغة ممكنة، فقد كان الخلاف في الرأي حول أصول الكلام محتدماً لدرجة أنه منذ عام 1866 أقرت الجمعية اللغوية في باريس قاعدة تمنع أي بحث في أصل اللغة في اجتماعاتها، ولعل جزءاً من المشكلة بالطبع يرجع إلى أنه بسبب عدم وجود «أحافير متحجرة» للكلمات».

[48] سورة النحل، الآية 78.

[49] نفس الآية السابقة.

[50] سورة الشمس، الآية 7.

[51] الحديث في صحيح البخاري.

[52] «المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال»، حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، دار الأندلس، جميل صليبا وكامل عياد، ص 81.

[53] المقدمة، ص 41.

[54] المصدر السابق، ص 42.

[55] المنقذ من الضلال، ص 136.

[56] النظرية الاجتماعية الحديثة، بيرسي كوهين، عادل مختار الهزاري، مكتبة نهضة الشرق، ص 48.

[57] سورة القلم، الآية 2.

[58]

[58] سورة القلم، الآية 51.

[59] سورة الأحزاب، الآية 72.

[60] سورة النحل، الآية 78.

[61] سورة النحل، الآية 78.

[62] سورة الشمس، الآيات من 7 ألى 10.

[63] سورة الرعد، الآية 11.

[64] سورة فصلت، الآية 53.

[65] سورة البقرة، الآية 143.

[66] سورة البقرة، الآية 159.

[67] سورة الأنفال، الآية 59.

[68] سورة الأحقاف، الآية 16.

[69] سورة فصلت، الآية 35.

[70] سورة الحجرات، الآية 12.

[71] سورة إبراهيم، الآيات 23 حتى 26.

[72] سورة الفرقان، الآية 63.

[73] سورة الفتح، الآية 26.

[74] سورة النساء، الآية 123.

[75] سورة الأنعام، الآية 122.

[76] الشيفرة الكونية، هاينتس باجلز، الدار الدولية للنشر والتوزيع، ص 250: «بموجب النظرية النسبية وبتسريع أي جزيء دون ذري أمكن تقصير موجته، وهكذا يمكن الوصول إلى موجات في غاية القصر وبالتالي إنارة البناء الذري الداخلي ورؤية التركيب الجواني للذرة».

[77]

[77] روى لي زميلي من الذين يعملون في العلاج النفسي أن أحد المصابين بالزوّر وصل به الحال إلى الشك في السيارات التي تنقل الماء إلى بيته أنها تقوم بتسميمه؟ فأعدّ الأسلحة وبدأ في إطلاق النار عليها لما وصلت.

[78] سورة الرعد، الآية 17.

[79] تتحرك النفس بين خمس حلقات وفي الاتجاهين: بين الوضع الطبيعي وهي غير مسيطر عليها إلا قليلاً، والانحدار باتجاه العصاب أو النفاس، أو الصعود باتجاه النفس اللوامة، وانتهاء بالنفس المطمئنة، فهي كما نرى خمس درجات أو عتبات تنتقل النفس الإنسانية عبر طيفها

[80] سورة آل عمران، الآية 134.

[81] كتاب الفتاوى.

[82] الكرونولوجي هو سرد الأحداث وفق تعاقبها الزمني.

[83] علم الأنثروبولوجيا من اليونانية، ومكونة من كلمتي «Anthropo» وتعني الإنسان، و «Logia» وتعني علم، فيكون معنى كلمة الأنثروبولوجيا علم الإنسان. يراجع كتاب الأنثروبولوجيا الاجتماعية، بقلم الدكتور عبدالحميد لطفي، دار المعارف بمصر، ص 23.

[84] يجب أن نستثني من هذا الوضع اكتشاف السرطان المبكر قبل انتشاره مما يحسن إنذار المرض عموماً حسب المرحلة التي يضبط فيها، والجراحة الحديثة تحاول فك هذا اللغز، بحيث تكتشف بشكل مبكر الخلايا المتسرطنة المتحولة الأولى فتقضي عليها.

[85] سورة القلم، الآية 20.

[86] دُمر أقرب الناس إليّ اقتصادياً تحت أسنان سمك القرش الاقتصادي الجدد. وبالطبع كنت من المدعوين لهذه الوليمة إلى فم الحوت، كيف لا والأرباح الفلكية تلمع «للمغفلين»، ومن الغريب أنهم بعد كل الكارثة لا يصدقون أن ما حدث هو اقتصاد «سيقان الخشب»، بل ما زالوا يعيشون أحلام «النظرية التآمرية»!!

[87] هذا المصطلح هو للمفكر الجزائري مالك بن نبي. تأمل مثلاً الذي لا يحترم شارات المرور، إنه يشعر أنها لم توضع له، فهو فوق القانون ولكنه يدمر النسيج الاجتماعي الذي يحافظ عليه بالذات، ويذكر الفيلسوف البريطاني برتراند راسل في كتابه: هل للإنسان مستقبل عن حماقة الحمار أنه يأبى أن يخرج من الزريبة أثناء الحريق مع كل حرص الآخرين على إنقاذه؟

[88] مما كان يلفت نظري في ألمانيا أثناء وجودي الطويل فيها أن الموظف يعامل المراجع على ثلاث قواعد، الأولى: إنجاز مسألة واحدة في وقت واحد (وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه!!) فهو يهتم كل الاهتمام بمن هو أمامه وينسى كل النسيان من هو خلفه، بل إذا أراد التكلم معه لم يرد عليه. الثانية: الإنجاز الكامل والدقيق لوحدة العمل التي يتعامل معها، وهكذا فمحاسب الصندوق لا يبدأ مع الشاري الثاني ما لم ينتهِ من الأول قبضاً وتسديداً. الثالثة: الاهتمام بالإنسان الواقف أمامه، فيعطيه كل وجهه مع الكلمة الطيبة والابتسامة العذبة ليسأله في النهاية إن كان هذا كل شيء أو هناك ما تبقى لقضائه. وأريد أن أسجل لموظفي الخطوط السعودية سبقهم في هذه الأخلاقيات.

[89] سورة البقرة، الآية 48.

[90]

[90] نفس الآية السابقة.

[91] سورة البقرة، الآية 123.

[92] أول من التفت إلى فكرة القانون الاجتماعي هو العلامة ابن خلدون، لتتوقف من بعده، ثم ليعاد بعثها من جديد على يد عالم فرنسي هو «أوجست كومت» (1797 – 1857) صاحب مدرسة «الفلسفة الوضعية». يراجع في هذا كتاب دراسة المجتمع، مصطفى الخشاب، مكتبة الإنجلو مصرية، ص 35.

[93] ثغرة في الطريق المسدود، دراسة في البعث الحضاري، د. محمود محمد سفر / د. سيد دسوقي حسن، سلسلة آفاق الغد، ص 78– 82.

[94] يراجع كتاب «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي – بحث الأفكار القاتلة والأفكار الميتة».

[95] يراجع في هذا كتاب «مختصر دراسة التاريخ» للمؤرخ البريطاني «توينبي» عن حقل الدراسة التاريخية، ترجمة فؤاد محمد شبل، جزء 1، ص 3، حيث يعجز عن شرح التاريخ البريطاني منفرداً وإنما يمكن فهمه من خلال وحدة الحضارة الغربية.

[96] من الأرض الألمانية انطلقت الحروب العالمية، التي أزهقت أرواح ما لا يقل عن سبعين مليون من البشر، ونزاعاتهم مع جيرانهم لا تنتهي، خاصة الفرنسيين، وأما محرقة اليهود على أيديهم فتعجز عنها حتى أبالسة الجحيم، فمصطلح «هولوكوست» (Holocaust) أي المحرقة هي تلك العملية المنظمة التي شحنت اليهود من كل أوروبا إلى معسكرات الاعتقال الجماعية، والموت في غرف الإعدام بالغازات السامة ثم المحارق المخصصة، واشتهر معسكر «آوشيفيتز» في بولونيا بشكل خاص، حيث التهمت نيرانه اليهود وغيرهم بالملايين.

[97] من الغريب أن الألمان يشعرون بالكآبة يوم الأحد بعد الظهر، لأنهم سوف يستقبلون يوم العمل والواجب في اليوم التالي، وهو أمر متناقض مع شعب العمل والشغف به، أعني الشعب الألماني، وهذا يوحي بالمرض الداخلي العميق للإنسان والمجتمع الألماني، بل والمجتمع الغربي للمستقبل البعيد، وهذه أمراضهم ولكنها أدويتنا، فما ينقصنا نحن ليس التنافس في الكسل بل العمل.

[98] غدة الكظر تجلس فوق الكلية في كل جانب بوزن حوالى ثلاثين غراماً، مكونة من لب مسؤول عن تنظيم الضغط الشرياني من خلال إفراز هورمون خاص هو الأدرينالين، وقشر يفرز ثلاثة أنواع من الهورمونات لتنظيم الاستقلاب السكري والملحي والهورموني، بالاشتراك مع البانكرياس والغدة النخامية في الدماغ والخصيتين أو المبيضين.

[99] من أفلام التراجيديا الفرنسية، فالفارس «سيرانو دي بيرجاك» الذي يستطيع هزيمة مائة ويحب ابنة عمه، يحمل أنفاً كبيراً أعطاه دمامة فحجبه عن طلب يدها، وتمضي القصة في اعتصار قلب البطل حتى لحظة الموت التي يبوح فيها بالحب لابنة عمه.

[100] من العجيب في هذا الحديث، الذي هو من ثقافتنا، أنه ينص على أن الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها شهادة أن لاإله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان، فنحن ليس فقط أننا لا نرفع الأذى من الطريق، بل نلقي زجاجات الببيسي كولا، وهذا يعطي فكرة أن التعطل العقلي يحرم من الاستفادة من كل الكنوز حتى لو وجدت في الثقافة، ويجب أن نسجل لبلديات المملكة إنعاشنا بالنظافة والمنظر الجمالي الذي عهدناه في أوروبا.

[101] يراجع في هذا كتاب الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية لفيلسوف عالم الاجتماع الألماني «ماكس فيبر»، عن أثر الأخلاقيات البروتستانتية في انتشار الرأسمالية «روح الادخار + روح المبادرة + قيمة الشغل».

[102]

[102] في العقد الاجتماعي، جان جاك روسو، ترجمة ذوقان قرقوط، دار القلم، ص 101.

[103] يراجع بالتفصيل كتاب «الطب محراب الإيمان» – جزء 2، للمؤلف عن السرطان والتمرد في الجسم، دار الكتب العربية ص 103.

[104] الإنذار مصطلح طبي عن توقع حالة المرض للمستقبل.

[105] جاء في كتاب «ميلاد مجتمع» لمالك بن نبي، ترجمة عبدالصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، ص 15: «المجتمع ليس مجرد مجموعة من الأفراد، بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني، يتم طبقاً لنظام معين، وهذا النظام في خطوطه العريضة يقوم بناءً على ما تقدم على عناصر ثلاثة: 1– حركة يتسم بها المجموع الإنساني؛ 2 – إنتاج لأسباب هذه الحركة؛ 3 – تحديد لاتجاهها».

[106] كتاب ميلاد مجتمع، المصدر السابق، ص 40: «فقبل أن يتحل المجتمع تحللاً كلياً يحتل المرض جسده الاجتماعي في هيئة انفصالات في شبكته الاجتماعية، وهذه الحالة المريضة قد تستمر قليلاً أو كثيراً قبل أن تبلغ نهايتها في صورة انحلال تام، وتلك هي مرحلة التحلل البطيء الذي يسري في الجسد الاجتماعي».

[107] يراجع كتاب «التحضير للقرن الواحد والعشرين»، تأليف باول كندي، النسخة الإنكليزية، ص 193. ويذكر المؤرخ أن دخل الفرد كان في البلدين عام 1960، 230 دولاراً في السنة، ليصبح اثني عشر ضعفاً للكوري ويبقى الغاني راوح مكانك.

[108] يراجع «قصة الميكروب»، تأليف «بول دي كرويف»، ترجمة أحمد زكي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بحث الرصاصة المسحورة، ص 339.

[109] سورة ق، الآية 4.

[110] سورة طه، الآية رقم 55.

[111] يراجَع في هذا التحليلُ القيم ل «أوسفالد شبنجلر» في «أفول الغرب» عن مفهوم كم البشر الذي تضم خليطه المدن العالمية الكبرى بدون أي رباط قيم.

[112] سورة ق، الآية 19.

[113] راجع الآية رقم 49 من سورة يونس {لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}، وراجع الآية رقم 19 من سورة ق: {وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد}.

[114] أشار ابن خلدون في مقدمته أن الهرمَ إذا نزل بدولة فلا يرتفع لأن لها أجل طبيعي. راجع المقدمة، ص 293 – 294.

[115] راجع القصة المروعة لفناء شعب الوبيخ في شمال قفقاسيا من خلال القصة الدرامية «آخر الراحلين».

[116] راجع «مختصر دراسة التاريخ» للمؤرخ البريطاني توينبي عن انقراض 23 حضارة من أصل 28 حضارة مرت على ظهر البسيطة.

[117] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 100.

[118] سورة الأعراف، الآية 166.

[119] سورة المؤمنون، الآية 42.

[120] سورة مريم، الآية 98. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 8: «وقد تكون الاستعارة في صورة أخرى عندما تكون الحالة إعادة تركيب أنقاض مجتمع أو مجتمعات اختفت، ومن أمثلة ذلك أن المجتمع الروماني امتص في سبيل بنائه كثيراً من المجتمعات التي اختفت مثل المجتمع الغالي بعد معركة اليزيا والمجتمع القرطاجني بعد معركة زاما والمجتمع المصري بعد انتصار القيصر على بومبي، وحضارة الأزتيك عاشت في أمريكا الوسطى والانكا في أمريكا الجنوبية وكلاهما دمرهما الإسبان، أما شعب الوبيخ فقد دُمر بيد روسية عثمانية مشتركة!!». راجع قصة آخر الراحلين.

[121] تأمل الآية من سورة النور رقم 62 – 63 {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ... قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً}.

[122] يراجع في هذا معلقة طرفة بن العبد: «ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى... وجدك لم أحفل متى قام عودي...» شربة الخمر التي يعلوها الزبد+ الكر في الحروب الفارغة + والبهكنة (الفتاة الناعمة) للمتعة الرخيصة.

[123] سورة محمد، الآية 38.

[124] يراجع في هذا كتاب آفاق المستقبل، جاك أتالي، عن تحول القلب الصناعي في المحيط الهادي باتجاه طوكيو؛ وكذلك كتاب «اليابان الذي يستطيع أن يقول لأمريكا لا»، تأليف عضو الدايت الياباني «شينتارو إيشيهارا».

[125] سورة الجن، الآية 16.

[126] مادة الديس أو التوله هي عشب أمريكي نباتي مثل الخواص أو الحلفا ينبت في حواف النهر فيستخرج ويصنع منه الحصير، وهذا يوحي بتقدم فني في ذلك الوقت السحيق الذي يوحي بوجود مناول كانت تنسج مثل هذا الحصير.

[127] طريقة تعيين العمر عن نظير الكربون 14 تعتمد تحوله إلى مادة النتروجين، ونصف عمر هذا التحول يأخذ 5730 سنة. ويعني هذا بلغة العلم أنه لو كان عندنا ألف ذرة من مادة نظير الكربون فإننا سنجد أن 500 منها تحولت إلى مادة النشادر بعد مرور 5730 سنة، وهكذا بعد مرور 5730 سنة أخرى، أي بعد مرور 11460 سنة قد بقي منها 250 ذرة، وبعد مرور 17190 سنة يبقى منها 125 ذرة، وبعد مرور 22920 سنة 62 ذرة ونصف، وبعد مرور 28650 سنة 31 ذرة من نظير الكربون، وبعد مرور 34380 سنة 15 ذرة، وهكذا فهي تنفع كما نرى في تحديد عمر الأشياء التي تصل حتى حدود خمسين ألف سنة، لأنه بعد مرور 57300 سنة لن يتبقى من مادة نظير الكربون شيئاً، فهي ساعة بيولوجية رائعة لمعرفة عمر الأهرامات أو زمن إنجاز رسومات الكهوف، أو عمر الجثث المحفوظة، أو بقايا ومخلفات الحضارات، ولكنها بالمقارنة مع الساعة الكونية (البوتاسيوم–الآرغون) ليست بشيء، فالأخيرة تعتمد تحول مادة نظير البوتاسيوم إلى مادة الآرغون، ونصف الحياة فيها مليار وربع من السنوات، وهذا يعني بكلمة أخرى –بنفس طريقة الكربون– أنه يمكننا العودة بالزمن رجعياً حتى ساعة ولادة الكرة الأرضية 4.6 مليارات سنة. (مجلة P.P.M الألمانية العلمية، عدد 44، تاريخ 19 أبريل (نيسان) 1996، بحث تحديد عمر الأحافير، ص68، بقلم أندرياس سينتكر).

[128]

[128] راجع في هذا مقالتي في جريدة «الرياض» رقم 86 بعنوان «قصة الإنسان... أهم كشف أنثروبولوجي» عدد 10181، تاريخ 22 ذي الحجة 1416هـ – الموافق 9 مايو (أيار) 1996. وفيها ذكرنا القصة الكاملة عن كشف الأنثروبولوجي الأمريكي تيم وايت الأخير، وهو أعظم كشف دشن في مدى العشرين عاماً الفائتة وعثر على هيكل إنساني يعود إلى 4.4 ملايين سنة في الحبشة التي تمثل مهد ظهور الإنسان.

[129] يراجع في هذا كتاب «أفول الغرب» للفيلسوف الألماني أوسفالد شبنجلر»، الجزء الأول، حيث كتب فصلاً حزيناً للغاية عن مصير حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية على يد عصابات الإسبان يومها. كذلك يراجع كتاب «اكتشاف أمريكا – مسألة الآخر» لأستاذ السوربون «تزفيتان تودوروف»، فلا يمكن لإنسان أن يقرأ هذا الكتاب بدون أن يصاب بصدمة في حملة إبادة وتفريغ ثمانين مليون من سكان الأمريكتين.

[130] سورة إبراهيم، الآية 26. جاءت المقارنة في سورة إبراهيم، فالكلمة الطيبة «كشجرة طيبة» والكلمة الخبيثة «كشجرة خبيثة»، ولكن مصير كلا الشجرتين متباين تماماً، فأما الشجرة الطيبة فتنمو بدون توقف «تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»، وأما مصير الشجرة الخبيثة على الرغم من نموها ووصولها لمستوى الشجرة، فهي مثل النمو السرطاني الذي يحمل في طياته بذور فنائه، فبدلاً من منح الثمار تسقط دفعة واحدة في موعد مؤجل، فهذه قوانين وحقائق في الوجود.

[131] كتاب «التنبؤ العلمي ومصير الإنسان»، د. عبد المحسن صالح، عالم المعرفة، عدد 48، ص23. يقصر كل يوم بمقدار 25 جزءاً من مليار جزء من الثانية بسبب بطء سرعة دوران الأرض بفعل الاحتكاك بمجموعة من العوامل ليس آخرها احتكاك الأرض مع الغلاف الجوي، وهذا يعني أن اليوم بعد ألف سنة سيكون أقصر من يومنا بجزءين اثنين من مائة جزء من الثانية، وليطمئن القارئ على عمره من هذا النقص الطفيف.

[132] سورة الرحمن، الآية 29.

[133] سورة فاطر، الآية 1.

[134] سورة الانشقاق، الآية 19.

[135] يراجع في هذا كتاب «العلم في منظوره الجديد»، تأليف روبرت أوغروس وجورج ستانسيو، ص 100.

[136] قام المفكر والفيلسوف السوري «محمد عنبر» بدراستين شاقتين لمعرفة الجدلية الداخلية لنظم اللغة في كتابيه: الأول «جدلية الحرف العربي» والثاني «الشيء في ذاته» في محاولة لفهم نظم الوجود وقوانينه من خلال اللغة باعتبار أن الإنسان «الصائت» ارتكس للوجود الموضوعي خارجه فصات، مثل خبط الكرة إلى الأرض ورد الأرض على ذلك بإرجاع الكرة. يراجع كتاب «الشيء في ذاته –معلم لبناء الوجود كما هو معلم للعلم والفلسفة»، دار القلم بدمشق. وهي دراسة ملفتة للنظر بدمجها الدراسة اللغوية بميكانيكا الكم الحديثة وذيولها الفلسفية، التي كتبتُ عنها مقالتين في جريدة «الرياض». راجع مقالة رقم 9999 و9992 من جريدة «الرياض».

[137] مجلة «در شبيغل» الألمانية، العدد 44، عام 1995.

[138] تراجع مقالتي عن حفريات الجينات، جريدة «الرياض»، العدد 10027.

[139] يراجع في هذا «تاريخ الأمم والملوك» للطبري، المجلد الأول، ص 9 – 10، عندما يصل لهذا التقرير: «إن أولى القولين اللذين ذكرت في مبلغ قدر مدة جميع الزمان... أنه جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة، وإذا كان كذلك... كان معلوماً أن الماضي من الدنيا قدر ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة... فهذا الذي قلنا في قدر مدة أزمان الدنيا من مبدأ أولها إلى منتهى آخرها من أثبت ما قيل في ذلك عندنا من القول للشواهد الدالة التي بيناها على صحة ذلك».

[140] في ولاية كولورادو الأمريكية يصرف المتخصص «جون جورشي» (Gurche John) في متحف التاريخ الطبيعي في دنفر (Denver) قرابة 750 ساعة في إعادة تصنيع جمجمة إنسان تعود لفترة ما قبل التاريخ منها 700 ساعة فقط في الكمبيوتر، قبل وضع اللمسات الأخيرة على تركيب العظام ومط العضلات ومواضع الشحم تحت الجلد، ووضعية الأذنين وعلو الأنف. يراجع في هذا مجلة «در شبيغل»، عدد 42، عام 1995، ص 230.

[141] متحف الشمع لمدام توسو في لندن، حيث أنشأت هذه السيدة منذ نهاية القرن الماضي تقنيات تشكيل هياكل من الشمع تشبه أصحابها إلى حدّ شعور الإنسان أنه أمام بشر على قيد الحياة، ويكفي أن يتسمّر أحد الزوار في مكانه بدون حركة كي يتحول إلى موكب هذه الأشباح ويظن أنه واحد منهم.

[142] صدر كتاب كامل بالتفصيل عن قصة هذا الكشف المثير في كتاب بعنوان «مغارة شوفي» (Grotte Chauvet) بقلم الاختصاصي في تحديد عمر الحفريات «جان كلوت» (Jean Clottes) وأشارت إليه مجلة «صورة العلم» الألمانية (Bild Der Wissenschaft) في عددها الثامن، عام 1995، ص 95.

[143] ماعدا كهف «ألتاميرا» الإسباني عُثر على بقية الكهوف في جنوب فرنسا، وقدر عمر كهف «لاسكو» مثلاً ب 17 ألف سنة، وكهف «كوسكير» بعمر يتراوح بين 18 و27 ألف سنة» وضَرَب الرقم القياسي كهف «شوفي» الجديد المكتشف حيث وصلت بعض رسوماته إلى عمر تجاوز ثلاثين ألف سنة (32410 سنة)، مجلة «صورة العلم» الألمانية، العدد 8، عام 95.

[144] تراجع القصة بالكامل في كتاب «كرونولوجيا وأحداث القرن التاسع عشر» باللغة الألمانية (Chronic Des 19 Jahrhuderts Harenberg Verlag) ص 556.

[145] يعتبر الدكتور فيرشوف أن الدم يتأثر إما من الجدار أو من نفس سيولته أو حركته، وأي اضطراب في أحد هذه العناصر يقود إلى جلطة.

[146] يراجع في هذا كتاب «ما هي ميكانيكا الكم؟» تأليف ف. ريدنيك، سلسلة العلم للجميع، دار مير للطباعة والنشر، حيث نرى نوعين من التحلل للنترون الحر وداخل النواة حيث ينتهي إلى تشكيل بروتون وإلكترون ونيوترينو.

[147] جاء في كتاب «معالم تاريخ الإنسانية» لمؤلفه البريطاني «هـ. ج. ويلز»، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، المجلد الأول، ص 85، ما يلي: «إن الذكريات العنصرية الغامضة الباقية من هذا الوحش الشبيه بالغوريلا ذي العقل الماكر والمشية الحاجلة والأجسام المكسوة شعراً والأسنان القوية والميل إلى أكل البشر فيما يحتمل ربما كان الأصل في فكرة الغول في القصص الشعبية».

[148] تراجع القصة وتوثيقها العلمي في «كرونولوجيا القرن التاسع عشر» (Chronic Des 19 Jahrhuderts)، ص 440 و556، الناشر بودو هارينبيرج (Verleger Bodo Harenberg).

[149]

[149] المجلة العلمية الألمانية «P. M. Perspektive»، العدد 44، عام 96، عدد معجزة التطور (Evolution Der Wunder Das) ص 80.

[150] كتاب «آدم وحواء» باللغة الألمانية (Eva und Adam – des Entwicklung und Ursprung) تأليف جونتر هاف (Guenter Haff) نشر عام 1982، دار (Guetersloh Peter Heinz Praesentverlag)

ص 156، فصل «بقايا الإنسان الأول»: النزاع العلمي والكذب العلمي!!.

[151] يراجع في هذا كتاب «العبقرية والإبداع والقيادة»، تأليف دين كيث سايمنتن، ترجمة د. شاكر عبدالحميد، سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم 176.

[152] سورة يوسف، الآية 105.

[153] يراجع في هذا كتاب «الأنثروبولوجيا – علم الإنسان» تأليف عبدالمجيد عبدالرحيم، مكتبة غريب، ص 9، حيث عرض تحت الأنثروبولوجيا الفيزيقية العديد من نوع الإنسان التي ظهرت على وجه الأرض وانقرضت ولم يبقَ منها إلا عظامها التي تشهد على رحلتها فوق كوكبنا، في ما لا يقل عن سبعة أنواع (إنسان جاوة – إنسان بكين – هايدلبرغ – إنسان نياندرتال – جريمالدي – كرومانيون – روديسيا).

[154] يراجع في هذا كتاب كرونولوجيا الأرض (التتابع الزمني) باللغة الألمانية، ص 460 عن قصة الكشف وتفاصيلها (Die Verlag Chronic – Herholz Michael Und Strauch Friedrich Von Mitarbeit Unter Paturi .R Felix – Erde Der Chronic) ومادة «الديندريت» هي بقايا معدنية مؤكسدة تظهر للجاهل وكأنها بقايا نباتات وهي ليست كذلك. راجع نفس المصدر، ص 238. وتعود لعصر اليورا القديم. وأي بقايا عظمية تشير إلى عهد سحيق يرجع إلى عشرات الآلاف من السنوات، وهي طريقة غير مباشرة لتحديد زمن الحفريات المنبوشة من بطن الأرض قبل تطوير التقنيات الجديدة من الكربون 14 وساعة البوتاسيوم – الآرغون، وتحول اليورانيوم إلى رصاص.

[155] تراجع نظرية الانفجار الكوسمولوجي العظيم في كتاب «العلم في منظوره الجديد»، تأليف اثنين من فلاسفة العلم (سلسلة عالم المعرفة). حيث عرضت في غاية الجمال، ويعتبرها العلماء اليوم أنها نقطة متفردة رياضية كما أشار إلى ذلك الفيزيائي البريطاني «ستيفن هوكينج» في كتابه قصة قصيرة للزمن (Time The Of History Brief) أي يتوقف عندها التصور الإنساني تماماً، وتتهاوى كل منظومة المعرفة الفيزيائية فلا يبقى زمان أو مكان، طاقة أو مادة، كما تتعطل كل قوانين الفيزياء المعروفة.

[156] كتاب آدم وحواء، تأليف جونتر هاف، مصدر سابق، ص 150.

[157] يراجع في هذا «تاريخ الأمم والملوك» للطبري، المجلد الأول، ص 9 – 10، عندما يصل لهذا التقرير: «فهذا الذي قلنا في قدر مدة أزمان الدنيا من مبدأ أولها إلى منتهى آخرها من أثبت ما قيل في ذلك عندنا من القول للشواهد الدالة التي بيناها على صحة ذلك.

[158] سورة الرعد، الآية 17.

[159] كتاب الأيديولوجية الانقلابية، تأليف نديم البيطار.

[160] سورة العنكبوت، الآية 20.

[161] داء الخرع يصيب الأطفال الذين لا يتعرضون لأشعة الشمس، فتنقص كمية الفيتامين د والكلس في العظام فتلين وتتقوس. وإنسان نياندرتال الذي كان بطول 150 سنتمتر وبهيكل مبني في غاية القساوة إلى درجة تقوس عظام الفخذ.

[162] الآية القرآنية قد تخلع ظلاً على وجود بشر سبقونا في الوجود عندما تساءلت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها؟ ربما عرفت بمرارة تجارب سابقة.

[163] المجلة العلمية الألمانية «P. M. Perspektive»، العدد 44، عام 96، عدد معجزة التطور (Das Wunder Der Evolution) ص 78.

[164] سورة ق، الآية 38.

[165] سورة نوح، الآيتان 13 و14.

[166] سورة فاطر، الآية 1.

[167] سورة النحل، الآية 8.

[168] سورة العنكبوت، الآية 20.

[169] سورة محمد، الآية 38.

[170] سورة النجم، الآية 23.

[171] سورة آل عمران، الآية 64.

[172] سورة العلق، الآية 6 و7.

[173] سورة البقرة، الآية 44.

[174] سورة النجم، الآية 43.

[175] سورة الحجرات، الآية 6.

[176] سورة محمد، الآية 30.

[177] سورة يوسف، الآية 105.

[178] سورة إبراهيم، الآية 4.

[179] نفس الآية السابقة.

[180] سورة الأنعام، الآية 9.

[181] سورة المؤمنون، الآية 71.

[182] سورة العنكبوت، الآية 20

[183] سورة الرعد، الآية 15.

[184] سورة الأعراف، 179.

[185] سورة الرعد، الآية 28.

[186] سورة الأنعام، الآية 65.

[187] سورة البقرة، الآية 30.

[188] سورة البقرة، الآية 30.

[189] سورة هود، الآيتان 118 و119.

[190] مات باسكال (1623 – 1662) دون الأربعين (39 سنة) ويقول سانت بيف عن هذه الفقرة: «ليس في اللغة الفرنسية صفحات أروع من الخطوط البسيطة الصارمة التي تحتويها هذه الصورة التي لا نظير لها». راجع «قصة الحضارة»، تأليف ويل واريل ديورانت، طباعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام 1979، ترجمة فؤاد أندراوس، الجزء 31، ص 100.

[191] سورة البقرة، الآية 30.

[192] نفس الآية السابقة.

[193] يراجع كتاب «Evolution»، كتاب طيف العلم الأمريكية، الطبعة الألمانية، ص 17، (American Scientific Spectrum).

[194] سورة يس، الآية 65.

[195] سورة الزلزلة، الآية 4.

[196] سورة العنكبوت، الآية 20.

[197] تم كشف هذه الظاهرة على يد العالم النمساوي كريستيان دوبلر وسميت باسمه. ومفادها معرفة موجة الصوت أو الضوء القادم من الهارب، حيث تكبّر الموجة وتنضغط في حال هجومها علينا والعكس بالعكس. وفي الضوء باعتباره مكوّناً من حزمة من الألوان فإن رأسه القادم باتجاهنا هو أزرق، في حين أن ذنبه الهارب عنا ذو لون أحمر، وهو ما ترسله كل المجرات لأن الكون يتوسع مثل البالونة.

[198]

[198]
سورة القيامة، الآية 4.

[199]
طالما انفجر الكون في كل اتجاه فلا بد أنه ترك أثراً من إشعاع في كل الكون، هذا ما كشف عنه العالمان المذكوران بدقة وتبلغ 3,5 فوق الصفر المطلق (والصفر المطلق يبلغ ناقص 273). راجع كتاب «العلم في منظوره الجديد» تأليف روبرت آغروس وجورج ستانسيو، ترجمة كمال الخلايلي، عالم المعرفة 134، ص 61.

[200]
تراجع القصة بالكامل في مجلة «المختار» عدد ديسمبر (كانون الأول) من عام 1981 – صفر عام 1402 هـ، ص 114، عن اكتشاف هيكل «لوسي».

[201]
سورة قريش، الآية 4.

[202]
سورة البقرة: الآية 30.

[203]
سورة العنكبوت، الآية 20.

[204]
سورة المائدة، الآية 30.

[205]
سورة آل عمران، الآية 169.

[206]
سورة يوسف، الآية 43.

[207]
تنسب هذه الأبيات في قصيدة طويلة لأبي البقاء الرندي في مرثيته الشهيرة في سقوط الأندلس.

[208]
يعتبر الكهنة المصريون في مدينة هليوبوليس القديمة هم الرأس المدبر والعقل المبدع، خلف هذا الإنجاز الهندسي، فهذه الحسابات الدقيقة والحادة ترفع هرم خوفو إلى دقة مذهلة عندما جلست أضلاعه الأربعة ذات الطول 230 متراً بشكل مثالي على خط الأفق، بحيث إن القياسات الحالية الزئبقية والإلكترونية المتقدمة لم تستطع أن تظهر خطأ أكثر من 16 ملمتراً، كما أن الزاوية القائمة في التقاء الأضلاع أظهرت انحرافاً زهيداً بمقدار ثانيتين من الدرجة، بحيث أن الأجهزة الحديثة المتقدمة المدعومة بتقنيات الليزر لا تعمل بشكل أدق. من هذا الذي أنجزته العقول المصرية القديمة، التي اعتبرها المؤرخ الأمريكي «ويل ديورانت» أنها أمريكا العهد القديم!! راجع «قصة الحضارة»، الجزء الأول من المجلد الأول، بحث حضارات العالم القديم، ومجلة «در شبيغل» العدد الأول من عام 1995، ص 160.

[209]
سر التحنيط: نقل المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت في سفره التاريخي الكبير «قصة الحضارة» عن المؤرخ اليوناني القديم «هيرودوت» كيف كان يجرى التحنيط: «أول ما يفعله المحنطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد، فاذا انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقي منه بإدخال بعض العقاقير فيه، ثم فتحوا فتحة في جنب الميت بحجر حاد، وأخرجوا منها جميع أحشائه، فاذا ماغسلوا البطن ونظّفوه بنبيذ الخل رشوا عليه العطور المسحوقة، ثم ملأوا البطن بالمر النقي وبعطر العشبة وغيره من العطور، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل، فاذا ما فعلوا هذا كله عمروه في منقوع النطرون (سلكات الصوديوم والألومنيوم) وتركوه فيه سبعين يوماً، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون، فاذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها في أحزمة من القماش المشمع، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذي يستعمله المصريون عادة بدل الغراء. وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان، فاذا ما أتموا صنعه وضعوا الجثة فيه،

وأحكموا إغلاقه، وأودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى جداره، وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التي يريدون الاحتفاظ بها علاجاً يكلفهم أبهظ النفقات. قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الأول، ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، ص 72.

[210] سورة الدخان، الآية 29.

[211] في المناقشة التي تمت مع صديقي «ظافر» عن عمر الحضارات لفتُّ نظَره إلى أن أطول الحضارات عمراً هي الحضارة الفرعونية، التي امتدت ثلاثة آلاف سنة، وهي ليست الحضارة الوحيدة التي مرّت على ظهر البسيطة، فحسب إحصائيات المؤرخ البريطاني «جون أرنولد توينبي» انبثقت ثمانٍ وعشرون حضارة من أصل ستمائة مجتمع بدائي. والحضارة كما يراها الكاتب والمفكر الجزائري مالك بن نبي؛ والذي عَنْوَن سلسلة كتبه التي وصلت قرابة عشرين كتاباً «سلسلة مشكلات الحضارة» بأنها ذلك التفاعل الرائع بين الإنسان والتراب والوقت كعناصر «كمية»، وتلعب الفكرة دور العامل «الكيفي»، كما في الماء الذي لا يتشكل بمجرد اجتماع ذرات الهيدرجين والأوكسجين، بل لا بد من الشرارة الكهربائية التي تمثل العنصر «الكيفي»، هذا إذا نظرنا إلى للحضارة ك «مركب»، أما الحضارة ك «وظيفة» (Function) فإنها المجتمع الذي تُؤَمَّنُ فيه الضمانات للأفراد الذين يعيشون فيه، فالمجتمع الذي يَضْمُر عنده حس الوقت؛ يعتبر خارج الحضارة بقدر غياب هذا الحس عنده، والمجتمع الذي يفقد فيه الفرد الضمانات المادية والمعنوية؛ يعتبر أنه لم يطأ بقدمه بعد طريق مسيرته الحضارية.

[212] سورة هود، الآية 99.

[213] موسوعة مجلة المعرفة، الجزء الثالث، ص 378.

[214] مجلة «P. M. P. Altertumsforschung» الألمانية، ص 12.

[215] في مدينة القامشلي التي نشأتُ فيها في الزاوية الشمالية الشرقية من سوريا، فتحتُ عيني على خليط عجيب من الثقافات واللغات والديانات، بين اللغة العربية والكردية والتركية والتركمانية والسريانية والأرمنية والآشورية والكلدانية، مع كل اللهجات المحلية التي لا تخطر على بال، والأديان الثلاثة بما فيها حي خاص لليهود، وفي هذه المدينة الصغيرة كل الفرق المسيحية، الحديثة منها والقديمة، بما فيها الفرق المنقرضة منهم، ويعود الفضل إلى المؤرخ البريطاني «توينبي» الذي عرفت من خلال كتابه «مختصر دراسة التاريخ» وجود الفرقة النسطورية المنقرضة، وهي موجودة في مدينة القامشلي ومعروفة بالكلدانيين وما كنت أعلم بذلك قبل قراءتي توينبي!!

[216] كلمة هيروغليفية تتكون في اللغة الإغريقية من كلمتين: هيروس (Hieros) وتعني مقدس، وجلوفي (Gluphe) وتعني نقش أو كتابة، فتكون كلمة هيروغليفية بهذا الشكل تعني الكتابة أو النقش المقدس، وهي اللغة التي بدأ المصريون القدماء في استخدامها قبل حوالى خمسة آلاف سنة (3000 سنة قبل الميلاد).

[217] سورة النجم، الآيتان 43 و44.

[218] مجلة در شبيغل، عدد 1 / 1995، مقالة التمرد ضد الموت، حسب التقرير الذي قدمه الأمريكي لينر والمصري حوَّاس (Hawas Und Lehner) ص 157.

[219] سورة النازعات، الآيتان 23 و24.

[220] سورة القصص، الآية 38.

[221] اشتدت حملة بناء الأهرامات في عهد الأسرة الرابعة التي حكمت مصر من أصل ثلاثين أسرة بمدة ثلاثين قرناً، وبناة الأهرامات العظام هم على التوالي «زوسر» وكان أولهم، ثم قام «سنوفرو» الذي حكم لمدة 44 سنة ببناء ثلاثة أهرامات انتهت معظمها بكوارث، بعده خوفو الذي بقي في سدة الحكم 35 سنة وبنى أفظع الأهرامات وأعلاها وأشدّها مقاومة للزمن في الجيزة بارتفاع 146 متراً، وجاء بعده ابنه جيدفري الذي لم تطل فترة ولايته لأكثر من ثماني سنوات، ولكنه بنى تحت شعار «أصغر حجماً وأكثر متانة وديمومة» فبنى أجمل الأهرامات من حجر الغرانيت الأحمر، الذي نقل من بعد ألف كيلومتر من جنوب مصر، والذي هو أقسى من الحجر الكلسي بأكثر من عشر مرات، وعلينا أن نتذكر طريقة اقتلاعه البدائية، فكان مشروعاً مرعباً في تكاليف الدولة، ولم يصدق الأركيولوجيون هذا العمل بسبب تفاهة الأثر المتبقي من جذع هرم باهت، حتى أثبته العالم السويسري «ميشيل فالوجيا» (Valloggia Michel) قبل عدة أسابيع في ديسمبر (كانون الأول) من العام 1995 الفائت. وسبب اختفائه هو نفسته التي أغرت اللصوص لاقتلاع أحجاره الثمينة في العصر الروماني، حيث لا أحد يدافع عن ثروة البلد وآثارها بعد تحولها إلى مستعمرة رومانية. ثم حكم «خفرع» أخو جيدفري فبنى بارتفاع 143 متراً، وختم الحفلة حفيد خوفو «منقرع» فبنى بارتفاع 66 متراً، فكانت حفلة بناء الأهرامات الجبارة حصيلة الأسرة الرابعة لخمسة فراعنة.

[222] ولد ابن خلدون في ما يسمى اليوم «تونس»، وعاش في ثلاث مراحل من عمره، الذي امتد ثلاثة أرباع القرن في حياة سياسية عنيفة صاخبة من الدسائس والمؤآمرات والانقلابات، على الأقل في مرحلة ما قبل الخمسين من العمر، أمضى ثلثها الأول لمدة ربع القرن في تونس، والثاني في الأندلس والمغرب، وثلثها الأخير في حياة هي أقرب إلى العلم والتدريس في مصر، ولم ينجُ فيها من الكيد والحسد و «الحفر» له من زملائه القضاة، كما يذكر في كتابه عن تاريخه الشخصي. وكنا محظوظين أن هذا الرجل المدهش هدأ لمدة خمسة أشهر ليكتب لنا مقدمته الشهيرة في لحظة تجلٍّ وعبقرية متألقة، بعيداً عن سموم السياسة ومكائدها. وكان العام 779 هـ نقطة التحول في تاريخه، ليسطر لنا الكتاب الذي خلَّده في التاريخ، بعنوان غريب وطويل «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» والذي أعطى هذا الالتماع للرجل ليس المجلدات الضخمة الأربعة عشر في فن التاريخ، بل المقدمة البسيطة ذات الخمسمائة صفحة في مدخل علم التاريخ، حيث فتح الله على بصيرته –كما يعترف هو– في إدراك الكثير من قوانين الوجود وقيام الدول وحركة المجتمع واندثار الحضارات.

[223] العلوم الثلاثة «الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا والبيولوجيا» هي على التوالي علم الحفريات، وعلم الإنسان، وعلم الأحياء العضوية، وهي علوم حديثة التطور خاصة في ما يتعلق بالأنثروبولوجيا، وقد يُشكل على القارئ كثرة هذه المصطلحات، ولكن لا يمكن دخول المعاصرة بدون معرفة إضافات المعرفة الإنسانية في فترة القرون الثلاثة التي نام فيها العالم الإسلامي حتى الشخير، فلا يمكن دخول المعاصرة بدون الإحاطة بآخر التطورات العلمية، كما شرحتُ ذلك في ما سبق في مقالتي رقم 45 عن الحرية الفكرية والإيمان، عن مناقشتي مع العائلة الألمانية، التي أرادت دخول النقاش في بحث التطور (Evolution) وهي تجهل قصة «لوسي» التي تُعتبر حدثاً مفصلياً تاريخياً في علم الأنثروبولوجيا الحديث.

[224] تجديد التفكير الديني، ص 162.

[225] المقدمة، ص 35.

[226] تعلمنا من الألمان قاعدة عملية جميلة في التعامل المالي تقول: الثقة جيدة وأجود منها التأكد بالمراقبة (Vertraun ist gut, Kontrolle ist besser) في حين أننا نرى أن هذا فيه شيء من العيب في أوساطنا، عند عد النقود في حضور من يدفع، وكأنها اتهام في نزاهته، والموضوع فيه شقان، فقد يكون الإنسان نزيهاً تماماً ولكنه معرض للخطأ، ولذا فإن المراقبة أساسية لبناء وسط الثقة المتبادل.

[227] المقدمة ص 36.

[228]

[228] يرى إقبال أن القرآن يصرح بوجود مصدرين آخرين للعلم غير رياضة الباطن، هما الطبيعة والتاريخ. راجع كتاب تجديد التفكير الديني، محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص 146.

[229] المقدمة، ص 9.

[230] المقدمة، ص 346.

[231] جاء عن عملية حفر الهرم في المقدمة: «وشرعوا في نقبه، فانتهوا إلى جو بين الحائط والظاهر وما بعده من الحيطان، وهنالك كان منتهى هدمهم، وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر، ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازاً بين تلك الحيطان، والله أعلم»، ص 347. ولعل البحث عن الكنوز كان دافعاً لم تفصح عنه النقاب كتبُ التاريخ، حيث تبين أن أعداداً لا نهاية لها من الأجيال الفرعونية تحت فكرة عقيدة اليوم الآخر والانتفاع بالكنوز في تلك الحياة جعلتهم يدفنون الكثير من كنوزهم معهم، وبذا كانت القبور الفرعونية دوماً عند إغراء لصوص المقابر، فهم يبحثون ليس عن المومياء بل الذهب.

[232] المقدمة، ص 177.

[233] المقدمة، ص 177.

[234] سورة الروم، الآية 54.

[235] تأمل الآية من سورة القصص رقم 38: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}.

[236] مختصر دراسة التاريخ، تأليف أرنولد توينبي، ترجمة فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، ص 81.

[237] مقالتي حول «التاريخ كمفتاح لفهم الطبيعة البشرية»، جريدة الرياض، عدد 9929.

[238] يراجع كتاب «شروط النهضة» له.

[239] دراسة التاريخ (Study Of History)، ظهر في الأول بحوالى 12 مجلداً، ثم اختصره «سومرفيلد» إلى أربعة مجلدات، وترجم الأخير إلى العربية، وهي خلاصة دراسة تحليلة رائعة لفلسفة التاريخ وآليات نظمه. وفي عام 1975 أوصل عدد الحضارات إلى 38 حضارة، منها 32 كاملة النمو، بالإضافة إلى ثلاث حضارات مجهضة، وخمسة محنطة متجمدة، والمجتمع اليهودي يعود إلى الأخير حسب تصنيفه، كونه توقف عن الانتشار وانكفأ على الذات. راجع كتاب «جغرافيا الحضارات»، رولان بريتون، منشورات عويدات، باريس.

[240] ترجمه إلى العربية أحمد الشيباني في ثلاثة مجلدات، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

[241] الشبيجل، عدد 1، 1995.

[242] سورة الأعراف، الآية 105.

[243] مدام توسو (1761 – 1850)، توزيع نفس المتحف في لندن لعام 1979، باللغتين الألمانية والفرنسية.

[244] يصف المؤرخ الألماني والفيلسوف «أوسفالد شبنجلر» التنازل عن تقرير المصير عندما تقع الأمم في مطبه، وذلك بشكل خلاَّب، في تحليله لكيفية استيلاء روما على مصائر العالم القديم، بما فيها بقايا المجتمع الفرعوني، على الرغم من خروج روما من معارك الحرب العالمية القديمة مع قرطاجنة، وقد استهلكت آخر قطرة من الحيوية وبقايا أخلاق روما، على اعتبار أنه هذه الشعوب ماتت (كأمة) وفقدت بالتالي القدرة على تقرير المصير، فكتب يقول في مؤلفه الشهير «أفول الغرب»: «كانت السيطرة الرومانية على العالم تشكل في حد ذاتها ظاهرة سلبية، فلم تكن هذه السيطرة وليدة فضلة من حيوية لم تخب في الرومان، فالرومان قد استنتزفوا آخر طاقات حيويتهم منذ عهد زاما (معركة هزيمة هانيبال أمام الرومان قرب قرطاجنة عام 164 قبل الميلاد)، بل إنما جاءت نتيجةً لعجز الشعوب الأخرى عن المقاومة والدفاع، فالشيء المؤكد أن الرومان لم يفتتحوا العالم، بل وضعوا أيديهم على غنائمَ وأسلابٍ كانت في متناول يد كل راغبٍ (قارن هذا الكلام مع ما يقوله ابن خلدون عندما تموت الدول ومع ذلك تستمر في الحياة؛ بسبب «عدم وجود الطالب» كون وجودها وهمي ظاهري لا أكثر، وكذلك كانت الحضارة الفرعونية في فترتها الأخيرة) فلم تسلك الإمبراطورية الرومانية طريقها إلى التجسد والوجود نتيجة لضرورات عسكرية أو جهود مالية كتلك التي طبعت الحروب البونية بطابعها، بل مارست وجودها لأن الشرق القديم كان قد تنازل عن جميع حقوقه في تقرير مصيره. ويجب ألا تخدعنا مظاهر بعض انتصارات عسكرية رائعة قليلة، فلوكولوس وبومباي استطاعا بحفنةٍ من الألوية الرومانية الرديئة القيادة والتدريب، أن يفتتحا ممالك واسعة ويُخضعا أقاليم شاسعة، ووقوع مثل هذه الظاهرة أمر غير معقول في فترة كالفترة التي نشبت خلالها معركة ابسوس». تدهور الغرب، ترجمة أحمد الشيباني، الجزء الأول، ص 96.

[245] يراجع البحث الكامل الذي نُشر في مجلة «در شبيغل» الألمانية بعنوان «التمرد على الموت» (Aufstand Gegen den Tod) العدد الأول لعام 1995، ص 154، الجزء الثاني من الكشف الأركيولوجي الحديث، المنقبون (الحفَّارون) في الأرض يكشفون سر الأهرامات.

[246] تأمل الآيتين 17 و18 من سورة البروج: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ}.

[247] در شبيغل، العدد الأول، عام 1995، ص 158.

[248] يعتبر الشعب المصري من أكثر شعوب منطقة الشرق الأدنى تجانساً، وبسبب جغرافي بسيط وهو وجود النيل، فهيرودوت المؤرخ الأغريقي القديم اعتبر أن مصر هي هبة النيل، وهو محق في هذا إلى حد كبير، فالناس في مصر لا تستطيع أن تعيش خارج الشريط الأخضر الموازي للنيل، فالعيش المشترك مفروض عليها بضرورة حياتية يومية، في حين لو أن الطبيعة في مصر جعلت من الممكن للناس أن تعيش بشكل معتزل بوجود غابات مستقلة أو جبال يسهل العيش فيها، لهيأت الجو لظهور إثنيات مختلفة.

[249] بعد وضع الأحجار الأولى التي يزن الواحد منها اثنين ونصف طن يبقى في الأخير إكساء الهرم من الخارج، كما هو الآن من وجود بقية إكساء حذاء رأس هرم خفرع، فهرم خوفو الحالي قد جُرد من طبقة الإكساء الخارجي الجميل والذي تكلل في النهاية بوضع طبقة من الإلكتروم (عجينة من الذهب والفضة) على الحجر الأخير في رأس الهرم، فيلمع مثل ضوء الشمس في الأفق البعيد!!

[250] حسب نظرية شبنجلر في نهاية حضارة الأزتيك أنها تعرضت لعدوان خارجي مهلك، لا طاقة لها به، كما في الجسم اذا أخذ جرعة من مادة السيانيد، أو ذيفان جرثومي لا يملك أي مقاومة تجاهه: «فحضارة المايا لم تمت جوعاً ولم تكبح أو يعترض سبيلها معترض، بل إنما قُتلت قتلاً، وقُتلت وهي في أوج ازدهارها، ودُمّرت كما تدمر زهرة عباد الشمس إذا ما قطع أحد المارة تاجها. فكل هذه الدول (دول الأزتيك) بما فيها من قوة عالمية وأكثر من اتحاد، وبما لها من حجم وموارد أضخم بكثير من الدول الإغريقية والرومانية في زمن هانيبال، وأوسع من أحجامها، وبما لها من سياسة واعية مدركة ونظام مالي أعد بعناية وفهم، وتشريع بلغ درجة

رفيعة من التطور، وأنظمة إدارية وتقاليد اقتصادية لم يحلم بمثلها حتى وزراء شارل الخامس، وثراء عريض في الآداب واللغات، ومدن عظمى ذات مجتمعات متأدبة ولامعة ذهنياً، مجتمعات لا يستطيع الغرب أن يقدم مجتمعاً واحداً يضارع هاتيك، أقول كل هذه الدول وبكل ما لها من أرصدة حضارية لم تندثر نتيجة لحرب يائسة، بل إنما جرفتها خلال سنوات قليلة عصابة ضئيلة العدد من اللصوص ودمرتها تدميراً جعل الآثار التي خلفها السكان بلهاء لا تحتفظ حتى بأية ذكرى عن تلك الحضارة، فعدد قليل من المدافع والبنادق بدأ هذه المأساة وأنهاها». تدهور الحضارة الغربية، أوسفالد شبنجلر، ترجمة أحمد الشيباني، الجزء الثاني، ص 285 – 286.

[251] عندما حلل المؤرخ البريطاني «جون أرنولد توينبي» ميكانزم (آلية) سقوط الحضارة، ربطها أيضاً بالإخفاق في تقرير المصير، فكتب يقول في كتابه «مختصر دراسة التاريخ» ما يلي: «قادنا بحثنا عن علة انهيار الحضارات إلى رتل من الاستنتاجات السلبية: الأول: ليس الانهيار الحضاري من فعل القضاء والقدر بالمعنى الذي يعنيه رجال القانون. الثاني: لا يعتبر الانهيار إعادات عابثة لقوانين الطبيعة لجامدة. الثالث: لن يتيسر ردّ انهيار الحضارات إلى فقدان السيطرة على البيئة طبيعية كانت أم بشرية. الرابع: لا يرجع الانهيار إلى انحطاط في الأساليب الصناعية أو التكنولوجية. الخامس: لا يرد الانهيار إلى عدوان مهلك يشنّه خصوم دخلاء» ليصل في النهاية إلى أن الحضارات في عمومها لم تواجه الموت على يد قاتل أكثر من كونها فشلاً داخلياً «وقادتنا عملية الاستنفاد المنطقي في كل حالة تقريباً إلى العودة إلى الفكرة= =القائلة بأن «الانتحار علة الانهيار». مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الثاني، ص 1.

[252] سورة القصص، الآية 58.

[253] مجلة «P. M. Perspektive Altertums Forschung» فصل قصة المغامرات لأعظم الحفريات، ص 11.

[254] كتاب توت عنخ آمون، تأليف كريستيان ديروش نوبلكور، ترجمة أحمد رضا ومحمود خليل النحاس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فصل المقبرة ومقدمة الاكتشاف، ص 57.

[255] جاء في المصدر السابق، ص 234 «في آخر فحصٍ للمومياء سنة 1971 ثبتت وفاته من حادثٍ أو اغتيال وذلك من أثر صدمة عنيفة بقذاله (مؤخر رأسه) قد تكون ضربة من هراوة أو سقوطاً من مرتفع. المراجع.

[256] المصدر السابق، ص 69.

[257] المصدر السابق.

[258] قام الفرعون امنتحوتب الرابع الذي أخذ لقب أخناتون فيما بعد بثورة إصلاحية دينية لتوحيد الآلهة إلى إله واحد اعتبره إله الشمس آتون، وسجلت التواريخ المصرية له أعذب الترانيم والقصائد، وكان ذلك في فترة الأسرة الثامنة عشرة.

[259] اقتحم اللصوص على ما يبدو بوقت مبكر مقبرة توت عنخ آمون، ولكن يبدو أنهم ضُبطوا وتم إرجاع معظم المسروقات حيث وضعت بغير نظام بسرعة بسبب سوء نظام التهوية وعدم تعكير الميت أيضاً!!

[260] سورة فاطر، الآية 22.

[261] استُخرج عقار البنسلين وغيره من الصادات الحيوية الممتازة في فترة الجيل الأول منها (قبل تصنيعها) من العفن، وبعضه من عفن المقابر، ولكن كما نرى في قصة الفراعنة ليست كل العفونات عطورات رائعة.

[262] تروي القصة الشعبية أن رجلاً جاء إلى قرية يريد شراء أراض منها أعجبته، فذكر له أهل القرية شروط تملك العقارات عندهم أن البيع لا يتم بالمال، بل بتطويق الأرض بالركض المتواصل حولها وبدون توقف، وللرجل أن يتملك ما يشاء بشرطي الركض والتطويق، فانطلق في الصباح تحت عين لجنة المراقبة والكشف عن الركض وامتلاك الأراضي، والنتيجة معروفة، ففي المساء كان يصلّى على جثته في المسجد!! والناس كلهم في الامتلاك في الحياة لا يخرجون عن هذه القاعدة إلا أندر نادر النادر.

[263] عدم فهم قانون الأواني المستطرقة الذي أدركته العبقرية المصرية قديماً كان العائق أمام وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط، حيث كان يُظن أن مستوى الأبيض أعلى من الأحمر، فإذا انفتح الاثنان على بعض غرقت مصر! واستطاعت عبقرية المهندس الفرنسي «فرديناند دو ليسبس» أن تزيل هذا الوهم وتقوم بالمشروع المصري التاريخي. ومن الغريب أن قناة بناما التي تربط هذه المرة بين أعظم محيطين في العالم (الهادي والأطلنطي) لم تكن بهذه السهولة بسببين: الأول البعوض المرعب، حشرة الليل التي لا تنام مثل دراكيولا مصاص الدماء، والتي خلقت مشكلة بحق في مرض الحمى الصفراء وموت العاملين، والثاني ارتفاع أحد المحيطين عن الآخر، ليس لأن قانون الأواني المستطرقة خطأ، بل بفعل التيارات المائية هناك والتي تخلو منها قناة السويس.

[264] قصة الحضارة، ص 185 – 186، الجزء الثاني من المجلد الأول.

[265] تدهور الغرب (Der Untergang des Abendlandes)، أوسفالد شبنجلر (Oswald Spengler)، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، الجزء الأول، ص 217 – 218.

[266] دروس التاريخ، ويل ديورانت، ترجمة وتقديم علي شلش، دار سعاد الصباح، ص 167. ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب غير مشهور كثيراً، مثل شهرة الكتاب الآخر (قصة الحضارة). ولعل كتابه «قصة الفلسفة» الذي بدأ فيه عمله الأدبي هو الذي وُفق فيه إلى أبعد الحدود، وطبعت منه ملايين النسخ وبعدة لغات، وتُرجم بأكثر من ترجمة إلى اللغة العربية، ولعل أنجحها هي التي ترجمها فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف بيروت. ودر عليه هذا الكتاب من الدخل ما جعله يتفرغ لعمله الموسوعي «قصة الحضارة»، فيكتبه في اثنين وأربعين مجلداً، أخذ منه من النحت والقراءة خمسين عاماً، فكان يقرأ حوالى خمسة آلاف كتاب وبحث عن المجلد الواحد حتى ينجزه!!

[267] مقدمة ابن خلدون، مكتبة المثنى، فصل «فضل علم التاريخ»، ص 33.

[268] ديورانت، دروس التاريخ، ص 17.

[269] تدهور الغرب، ترجمة أحمد شيباني، الجزء الأول، ص 68 – 69.

[270] عن كتاب الحكماء الثلاثة (بتصرف)، أحمد الشنتناوي، اقرأ دار المعارف بمصر، ص 104 – 205.

[271] سورة سبأ، الآية 6.

[272] سورة القمر، الآيتان 11 و12.

[273] سورة القمر، الآية 13.

[274] سورة هود، الآية 27.

[275] سورة الأعلى، الآيتان 18 و19.

[276] سورة سبأ، الآية 18.

[277] سورة ص، الآية 88.